علم اللغة

بين القديم والحديث

دكتور

عبد الغفار حامد هلال

الطبعة الرابعة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

حمدا لك اللهم على ما أوليت من فضل ونعمة ، وأعطيت من توفيق للعمل ، وبذل الجهد ، في سبيل خدمة لغة القرآن الكريم ، كتابك الخالد ، وصلاة وسلاما على مصطفاك نبينا محمد صاحب الفصاحة والبلاغة ، وسراج هذه الأمة التي جعلتها خير أمة أخرجت للناس .

وبعد ..

فقد عنيت الأمم - منذ أمد طويل - بدراسة لغاتها ، ويعد العرب من أسبقهم في هذا المضمار ، وكانت بحوثهم منارة استرشد بها الباحثون في اللغات المختلفة .

فعلى أيدى العرب تفتحت البحوث اللغوية ، ونضجت ، وهم يرسون قواعد لغتهم ، ويضعون قوانينها ، من خلال العمل اللغوى الجاد الذى قام به فحول علمائهم لخدمة كتاب الله العزيز .

وقد استطاعوا - بدأبهم على البحث والدرس - أن يقيموا الدعائم الوطيدة لـ (علم اللغة) .

وكان الأوربيون - آنذاك - لا يزالون في سبات عميق ، ثم استيقظوا وقد ازدهر هذا العلم في الشرق ، وتقدمت بحوثه ، فهبوا - متأثرين بما دعاهم من ظروف - لبحث اللغات - بعامة - ولغاتهم - بخاصة - فدرسوا ظواهرها ووضعوا القوانين التي تحكمها .

ثم تطور هذا العلم في العصر الحديث ، باعتماده على الآلات ، والأجهزة المعملية حتى استقل في منهجه وتخصص في وسائله .

وفى هذا الكتاب بينت - بالبحث العلمى التاريخى - خطى هذا العلم ، ومناهجه وخلاصة التجارب والقوانين اللغوية التى وصل إليها على يد هؤلاء وأولئك ، وأوضحت الوشائج التى تربط بينها .

ثم عرضت - على بساط البحث - قضايا أساسية وحللتها فى إطار التطبيق لمبادئ هذا العلم ، وقوانينه ، وبينت طرق الإفادة منها لتكون نبراسا للباحث .

وقد حاولت جهدى أن أناقش الآراء لأصل - قدر علمى وبتوفيق الله - إلى الحقيقة العلمية التى ينشدها المنصفون فى دراساتهم لهذا الفن .

وأخيرا فإن هذا الكتاب - بنظراته الواعية - يضع أسسا جديدة للدراسة العربية ، والنهوض بها .

ومن خلال ما يثيره من مبادئ (علم اللغة ومناهجه) يجد اللغوى ضالته بين يديه .

هذا . وإننى أقدم للقارئ العربى هذه الطبعة الرابعة مشمولة بمراجعة ما ند فى الطبعات السابقة .

والله أسأل أن يجعل عملى خالصا لوجهه ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

مدينة نصر فى :

١٢ من شعبان سنة ١٤٢٣ هـ

١٨ من أكتوبر سنة ٢٠٠٢م

د / عبد الغفار حامد هلال

حاجة الإنسان إلى اللغة ومبلغ اهتمامه بها :

اللغة - كما قال علماؤنا القدامى - أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وكما قال علماء الاجتماع : نظام من رموز ملفوظة عرفية يتعامل ويتعاون بواسطتها أعضاء المجموعة الاجتماعية المعينة .

فهى - إذن - الأداة الفعالة التى تربط بين أفراد المجتمع وتجعل منه وحدة متماسكة ، فهى المعبرة عن أفكاره ، وعن احتياجاته ، وعن كل ما يهمه فى هذه الحياة ، بل هى الأداة المستعملة فى كل ما يريده للقصص ، للدعاية ، للترفيه ، للتسلية ، للحب ، لكل ما يسوءه ويسره جدا أو هزلا .

ولم نجد مجتمعا لا تربطه وسيلة للتفاهم بين أفراده ، وأسره ، وإننا لنشاهد الكائنات الحية ، وقد استخدمت وسائل للتفاهم بين جماعاتها ، فالحيوان الأعجم يستطيع أن يفهم ذويه ما يهمه ، وما يريده ، فالأم تعطف على ابنها ، وتعرف جيرانها ، وتصدر من الأصوات والإشارات ما يساعدها على فهم مرادها ، وعالم الطيور - كذلك - له لغته التى يتعامل بها ، وتجعل منه دولة لها كيانها ورئاستها ، وشئونها التى تهمها ، وهكذا غير هذين من كائنات حية مدركة .

فلا غرو أن تكون للإنسان - الذى هو أرقى الكائنات الحية ، والذى ميزه الله بالعقل - لا غرو أن يتخذ وسيلة للتفاهم مع بنى جنسه .

وقد لعبت الإشارة دورا مهما فى نشأة اللغة الإنسانية الأولى والتى لا نزال نستخدمها حتى الآن فى تعاملنا بعضنا مع بعض .
لعب غيرها كذلك من وسائل التفاهم الأخرى أدواره ، إلا أن أرقى تلك الوسائل فى الفهم ، والإفادة هى الأصوات التى أصدرها الإنسان ، معبرة

عن أغراضه وأشيائه ، وكانت ساذجة - فى أول الأمر - ثم ارتقت هى الأخرى حتى وصلت إلى الحد المنظم المعقد الذى خضع فى صوره وأشكاله للظروف التى عاشها الإنسان ، ولتفكيره الذى أثر فى نظامها الذى سارت عليه وقطعت - على طريقه - أشواطا بعيدة حتى استقرت ووصلت إلى ما رأينا .

وسواء كانت تلك الأصوات ناشئة عن طبيعة الإنسان - الذى بدأ يتكلم من تلقاء نفسه ، أو أنه أجمع بالاصطلاح على وجودها ، أو كانت بوحى إلهى وتوقيف أو نشأت محاكاة لأصوات الحيوانات والأشياء الطبيعية من حوله أو غير ذلك من آراء قيلت فى نشأتها ، سواء كان أى هذه الآراء هو الأصل فى وجود لغة الإنسان فإن الذى نريد أن نقرره هو أنه احتاج إلى أداة يتعامل بها ، فكانت اللغة ، التى استقرت فى تلك الأصوات المألوفة لكل مجتمع بشرى .

والإنسان - مدفوعا بغريزة حب الاستطلاع - بحث فيما حوله من كائنات عله يجد ما يفيده وينتفع به ونقب فى الأرض التى يعيش على ظهرها ، واستطاع - بعد تقدم فكرى وعلمى - أن يصف حقائق الموجودات ، ويضع قوانين لما قام به من دراسات ، فوجدت قوانين للطبيعيات ، وقوانين للرياضيات ، وقوانين للفلك ، واستقرت بذلك علوم الطبيعة ، والرياضيات ، والفلك ، والجيولوجيا والجغرافيا ، والتاريخ ، والعمران البشرى ، وغير ذلك .

ولم يكتف الإنسان بذلك ، بل نظر فى نفسه وجسمه ، فحلل أعضاءه ومكوناته الجسمية ، وبين أسس تكوينها ، ووظائفها ، ومبلغ قدرتها ، وأسباب قيامها بعملها ، واستمرار نشاطها ، وأسباب توقفها عن العمل ، أو ضعف قوتها ، وعجزها عن أداة مهمتها ، وبعد أن « شخص » الظواهر الفسيولوجية ، والبيولوجية ، استطاع أن يصف

العلاج الملائم - حين تحتاج إليه - كما هيأ السبل التي يمكن بها حفظ الحياة الصحيحة ، للبشر في صورة قواعد عرفت بفن الطب الذي ارتقى في عصرنا إلى درجات بعيدة .

وكما بحث نفسه بحث لغته التي عرف أهميتها في وجوده ، والحفاظ على مجتمعه فقد عرف أنه لا يمكن أن يستغني عن الجماعة التي ينتسب إليها ، وقد صدقت نظرية ابن خلدون وغيره من علماء الاجتماع حين قالوا (الإنسان مدني بطبعه) ، بمعنى أنه لا يستغني عن أهله ، ويميل إلى الألفة والاجتماع مع بني جنسه .

وقد أدرك أن لغته هي الوسيلة لتحقيق هذه الغاية ، فنظر إليها بعين الاهتمام ، وحاول أن يعرف حقيقتها . وأسباب بقائها سليمة لا يعتورها الضعف مستمرة في أداء مهمتها في المجتمع الذي يعيش فيه ، وقد دعاه ذلك إلى درس ظواهرها ، ليعرف منشأها ، وعوامل حياتها ، وأسباب بقائها متوحدة ، وأسباب انقسامها ، وانتشارها في ربوع الأرض ، وانتقالها إلى مجتمعات أخرى ، وصراعها مع اللغات المجاورة ، والنتائج المترتبة على ذلك ، واختلافها في مراحلها التاريخية .

أراد بذلك أن يحدد علاقته باللغة ، والحفاظ عليها ، ومن هنا ، وبعد أن ارتقى الإنسان ، وانقسمت طوائفه في شتى أرجاء المعمورة ، وجدنا القوميات المختلفة ، التي تعتز كل منها بلغتها ، وتنهض لدراستها ، بل تؤكد - بالبحث وبغيره - أنها أرقى اللغات الإنسانية ، وربما زعمت أنها أولى اللغات في العالم .

فقد ادعى العبريون أن لغتهم العبرية ، تمثل اللغة الأولى التي تكلم بها الإنسان في بدء وجوده التاريخي وذهب العرب إلى أن لغتهم

العربية هي أولى اللغات ، ووقف عالم تركي في العصر الحديث [1] ليعلن أن التركية هي صاحبة السبق على جميع اللغات .

وهذا تعصب قومي نابع من اهتمام تلك الأمم بلغاتها ، وقد هبت لدراستها ، لتكشف عن سر بقائها واستمرارها .

واللغة العربية - بحق - تعد من أرقى اللغات المتصرفة بيانا إن لم تكن أرقاها على الإطلاق ، ولا نقول إن الإنجليزية أو الفرنسية أرقى لأنهما انتشرتا في أماكن كثيرة من العالم ، وتستعملان كثيرا في المحافل الدولية ، لأن انتشار اللغة ليس دليلا على رقيها ، بل إنه ينشأ تبعا لأسباب كما تنطبق على لغة تنطبق على أخرى .

فقد هيأ الزمن للغزو الإنجليزي والفرنسي أن ينشر هاتين اللغتين في المجتمعات التي تقع تحت وطأته ، وأن تتأثر بهما لغات الشعوب المغلوبة ، ولأن الضعيف يحب تقليد القوى اتخذت الشعوب المغلوبة هاتين اللغتين وسيلة للتفاهم تاركة لغاتها الأصلية تمرض وتموت ، ونحن نعرف أن انجلترا يوما ما كانت تسمى الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ، لاتساع رقعة البلاد التي غزتها واستعمرتها ، فلا عجب أن يكون لهاتين اللغتين وجود على المسرح العالمي ، فمعظم الدول التي وقعت تحت نير الاستعمار تتحدث -حتى الآن- الإنجليزية أو الفرنسية .

وسنتكلم - في علم اللغة - عن أسباب انتشار اللغات أو انكماشها وصراع اللغات بعضها مع بعض ، ومن بين تلك الأسباب الغزو ، وما ينجم عنه ، من سيطرة بعض الشعوب ، بقوتها ، وثقافاتها على شعوب أخرى ، وآثار ذلك على لغاتها .

ويوم أن خرجت العربية من جزيرتها مع العرب الفاتحين للأقطار

---

(١) كان ذلك في مؤتمر لغوي عقد سنة ١٩٣٤م ، انظر د. إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ص١٠ .

المحيطة بها تغلبت العربية على لغات البلاد المفتوحة ، في بلاد فارس والشام ومصر ، وصرعت الفارسية في الأولى ، والرومية في الثانية ، والقبطية في الثالثة ، حتى اقتصرت على أداء المراسم ، والعبادات في الكنائس والأديرة .

وبذلك نعرف أن الانتشار ليس دليلا على رقى لغة ، وتفوقها على غيرها ، بل لذلك أسباب أخرى ، تنبع من نظام اللغة ، وجوهرها ، وقواعدها المعجمية ، والنحوية ، والصرفية ، والدلالية ، وغيرها .

والعرب أرباب البيان يفخرون به على غيرهم ، ولذلك حظيت لغتهم بدراسة لها طابع الجودة ، والقوة إلى الحد الذى أثار إعجاب المستشرقين والمشتغلين بدراسة اللغات في العالم .

فقد اهتموا بها من الناحية المعجمية ، ووضعوا لها القواعد التى تحفظ كيانها ، نحوا وصرفا ، واشتقاقا ، وكانت دراساتهم على جانب كبير من الدقة ، في وقت كان العالم الخارجى يغط في سبات الجهالة العميق ، فدراستهم من أسبق الدراسات اللغوية ، إذا نظرنا إلى بعض الدراسات الهندية ، واليونانية ، بيد أن الدراسة العربية كانت أسد وأقوى .

والذى ساعد على ذلك هو أنها نشأت لخدمة كتاب الله العزيز ، (القرآن الكريم) وحوله قامت كل الدراسات الإسلامية تقريبا . فقد جمع الحديث وشرح ، لخدمة القرآن ، وكانت التفاسير المتعددة للقرآن والتى وصلت حدا من الكثرة والإبداع يدعو إلى الإعجاب ، ولا يطلب مزيدا ، وكانت - كذلك - الدراسات اللغوية حفاظا على لغة القرآن حتى يبقى بين أصحابه يتلى ويعمل بمقتضاه .

ففى علم التجويد وضعت الأسس الصوتية للغة العربية ، فحددت الأصوات العربية ، ووصفت مخارجها وصفاتها ، وتفاعلها مع غيرها وما يبقى وما يغير ، وما يجب اتباعه عند النطق وصحة الأداء .

ومن هنا بقى لأصوات العربية عمر طويل استمر حتى عصرنا الحاضر شابا فتيا .

وفى المجال المعيارى وضعت قواعد النحو والصرف والعروض وغيرها من العلوم اللسانية واتبع فى هذا الوضع أحد طرق البحث اللغوى المنهجى ، وهو الطريق الوصفى ، فقد جمع العلماء العرب الشواهد (عينات لغوية بتعبير المحدثين) ووضعوا القواعد والقوانين حسب ما يظهر من أكثر الشواهد التى تمثل ظاهرة لغوية معينة ، وما يخالف الأكثرية لا يعول عليه ويعد شاذا كما ثبت ذلك فى دراسة البصريّين التى تعد لونا من الدراسة النحوية المنهجية الصحيحة .

ولا معول على بعض الدراسة عند الكوفيين الذين يضعون قانونا لغويا لكل شاهد ، (عينة من نموذج واحد) ولو كان مصنوعا أو غير موثوق بصحته ، فقد أجازوا - مثلا - دخول اللام فى خبر لكن استنادا إلى قول الشاعر ، فى شطر لا تعرف تتمته ولا قائله وهو :

. . . . ولكننى من حبها لعميد [٢]

على كل حال ، فإن الدراسة العربية - متمثلة فيما قام به البصريون - دراسة منهجية سليمة ، وقد قامت على أساس وصفى .

وبحق ، فإن الدراسة العربية ، كانت تحتاج إلى لون من الاتجاه التاريخى ، فتدرس الظواهر اللغوية فى عصور التاريخ العربى ، الجاهلى والإسلامى والأموى والعباسى ، والتركى والحديث ، حتى نعرف مدى التخالف والتوافق ، وخط سير الظاهرة الواحدة فى هذه العصور المختلفة ، وذلك كان يتأتى بالمقارنة بين النتائج التى تصل إليها الدراسة فى كل عصر منها .

---

(٢) تردد فى معظم كتب النحو ولم يثبت له صدرا إلا ابن عقيل فى شرحه على الألفية وهو :
يلوموننى فى حب ليلى عواذلى (فى باب « إن » وأخواتها) ج ١ ص ٣١٠ .

وأســاس هذا اللون الدراسي هو اللون الأول (الوصــفي) الذي نفذه علماؤنا في دراسة فصحانا العربية .

ولعل اكتفاءهم بالجانب الوصفي راجع إلى اهتمامهم بالفصحي ، ولم يكن لهم اتجاه إلى اللهجات الشعبية . بغرض استمرار الفصحي في الانتشار والانتقال من عصر إلى آخر ، وقد كان لاهتمامهم بها . الأثر الأكبر في بقائها بيننا حتى الآن ، ففي مجتمعاتنا - على الرغم من تعدد العاميات - من يتحدث العربية الفصحي على وجه يقترب - إن لم يماثل تماما - الوجه العربي الأصيل الذي كان ينطق في عصور العربية الأولى ، ويمكن للرجل الشعبي أن يفهم الفصحي لأنها ليست بغريبة عليه .

نعم نحن نعرف أنه قد ماتت ألفاظ ، ونشأت أخرى ، وتطورت أصوات ، وبقيت أخرى ، ونشأت ثالثة ، وتغيرت الدلالة لبعض الألفاظ والتراكيب ، وغير ذلك من وجوه التطور ولكن - بوجه عام - لا يزال للعربية وجود لغوي واقعي .

كما كانت لهم دراسات لغوية تكشف عن أسرار العربية ، وسبب قوتها وفصاحتها ، وعوامل نموها ، وصلاحيتها للحياة والحضارة في تلك البحوث القيمة التي قام بها الخليل ، وسيبويه ، وعبقري الأبحاث اللغوية الفذ ابن جني ، ومعاصره أحمد بن فارس ، وغيرهم من أقطاب الدارسين الذين كشفوا عن خصائص العربية ، وسماتها الأصيلة ، وتعد أبحاثهم من صميم علم اللغة بجانب ما أثاروا من قضايا لهجية ، وصوتية وتطورية تعد جارية على المنهج العلمي الذي اعتمده المحدثون من علماء اللغة ، وسنأتي إلى تفصيل ذلك بعد .

وقد نشأت دراسات لغوية متعددة ، في أرجاء كثيرة من أقطار العالم ، وبخاصة في أوربا بعد أن نهضت وأخذت طريقها في الحضارة

التى تأثرت بالحضارة العربية السابقة ، فوجدت طرائق ومناهج للبحث اللغوى فى الجهات المختلفة بلغت فى عصرنا الحديث درجة كبيرة من الدقة والعمق ، ووجدت الآلات والأجهزة العلمية التى تساعد الدارس ، والباحث على الوصول إلى مراده من أيسر طريق ، ثم إنها تعطى له فرصة الدرس العملى التحليلى ، المعتمد على الحقائق ، فيمكن درس ظاهرة لغوية فى لغة ما باستحضار العينات اللغوية وتحليلها والوقوف على القوانين التى تحكمها .

الباب الأول

علم اللغة عند علماء العرب

علم اللغة عند علماء العرب

مدلوله والموازنة بينه وبين (فقه اللغة) :

يختلف مدلول « علم اللغة » عند علماء العرب عنه عند علماء الغرب لاختلاف الداعى إليه ، وأسباب نشأته ، وما وصل إليه من شأو فى الشرق والغرب ، وسنبين ذلك تفصيلا .

ولما كانت الدراسات العربية فى درجة من الأهمية للباحث اللغوى - بصفة عامة - لأنها من الأسس التى بنيت عليها الدراسات اللغوية فى العالم - قديما وحديثا - وللباحث العربى - بصفة خاصة - لصلاتها الوثيقة بلغته وتراثه العربى والإسلامى ، ولتكون الإفادة من دراسة علم اللغة - فى نشأته وتطوره - محققة غايتها كان لزاما علينا أن نبدأ بدراساتنا ذات القيمة العلمية واللغوية ، ثم نثنى بالدراسات الأوربية - وغيرها من الدراسات الأجنبية - حيث شب علم اللغة عن الطوق ، ونهض نهضة كبرى بفضل التقدم العلمى ، والبحث التجريبى الذى كشف الكثير مما كان مجهولا من قبل .

ويجدر بالباحث فى هذا العلم عند العرب ، أن يوازن - على النحو المعجمى - بين اصطلاحات ثلاثة - (علم - فقه - لغة) حتى يصل إلى المراد من الدراسة التى أنشأها علماء العربية ويتضح له مفهومها .

مادة (علم) :

تفيد الفهم الدقيق ، والمعرفة ، والخبرة بالشئ ، ويتضح ذلك بآثاره الحسية .

ولعل المادة - أساسا - كانت تدل على الأثر يستدل به على الشئ ماديا أو معنويا .

جاء في اللغة : المعلم الأثر يستدل به على الطريق ، والعلْم : الشق في الشفة العليا ، ومعلم كل شئ مظنته ، وفلان معلم للخير .

فكأن الأشياء التي يطلب الإنسان معرفتها تحتاج إلى آثار توضحها ، وتبينها لطالبيها ، وفي أماكنها التي تكون فيها .

وعلى هذا جاء ، علمت الشئ : عرفته وخبرته ، وعلم بالشئ : شعر به ، وعلم الأمر وتعلمه : أتقنه ، ومنه عالم ومتعلم ، فالإنسان - أول دخوله في العلم - يعد متعلما ، فإذا طالت مزاولته له وملابسته صار كأنه غريزة ، فيقال عالم لا متعلم ، ويخرج به الفعل إلى باب (فعل) - بضم العين - : (علُم) ولذا يكسر على فعلاء ولا يقال لأحد إنه عالم بكذا إلا إذا اتضحت عنده أمارات ، وآثار ، تثبت المعرفة لديه ، فالعلم يحتاج إلى برهان ومن هنا أصبحت الآثار التي تدل على شئ ما معنويا أو ماديا (معالم) [1] .

مادة (فقه) :

تدل هذه المادة على (الفهم والعلم) ويتبين ذلك من تصرفاتها فـ (الفقه) : العلم بالشئ والفهم له ، و (فقِه) تأتي بالمعنيين معا ، فقه : علم ، وفقه : فهم ، وفقهت الحديث أفقهه : إذا فهمته . وفقيه العرب : عالمهم ، وكل عالم بالشئ فهو فقيه ، ويقال : فقُه - بضم القاف - : صار فقيها .

وماضي الثلاثي - كما نرى - مكسور العين ، ومضمومها ، ويستعمل الأول لازما ، ومتعديا أما الثاني فلازم ، والوصف منهما على (فعيل) : فقيه ، والأنثى فقيهة من نسوة فقائه : وحكى اللحياني ، نسوة فقهاء ، وهي نادرة ، وفي القرآن الكريم : ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ أي ليكونوا علماء به ، ويقال : فقهه - بالتضعيف - وأفقهه : علمه ، وفاقهته : باحثته في العلم .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ج ١٥ ص ٣١١ - ٣١٥

وفى الحديث : « لعن الله النائحة والمستفقهة ، وهى التى تجاوبها فى قولها ، لأنها تفهم ما تقول ، وتجيبها عنه [٢] .

مـادة (لغـة) :

اللغة من الأسماء الناقصة وأصلها (لغوة) على وزن (فُعْلة) - بضم الفاء وسكون العين - من (لغا يلغو لغوا) : تكلم ، أو من (لغِى يلغَى) - بكسر الغين فى الماضى وفتحها فى المضارع - : لهج .

قال ابن جنى : (أما تصريفها ومعرفة حروفها فإنها (فعلة) من (لغوت) أى تكلمت وأصلها (لغوة) ككرة وقلة وثبة كلها لاماتها واوات ، لقولهم : كروت بالكرة ، وقلوت بالقلة ، ولأن ثبة كأنها من مقلوب ثاب يثوب ، وقالوا فيها : لغات ولغون ، ككرات وكرون ، وقيل منها لغي يلغى : إذا هذى) [٣] .

والاشتقاقان اللذان قال بهما ابن جنى مذكوران فى المعاجم .

وقيل : إن فعله (لغِى) - بكسر الغين - إلا أنه فتح حرف الحلق فيكون ماضيه (لغا) ومضارعه (يلغو) و (يلغى) .

ومن معانى (اللغو) : النطق و (اللغا) : الصوت ، و (لغوى الطير) : أصواتها .

ويطلق كل من اللفظين (اللغو) و (اللغا) على معان أخرى لها صلة بالنطق ، والأصوات [٤] .

---

(٢) ابن منظور : لسان العرب ج ١٧ ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

(٣) ابن جنى : الخصائص ١ / ٣ واعتبار أصل لغة « لغوة » على « فعلة » فيه جمع بين العوض والمعوض ولا يجتمعان إلا نادرا ، انظر الأشمونى ٤ / ٣٤٠ - ٣٤٣ ، ومنار السالك ٢ / ٣٦٦ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، وسيبويه : الكتاب وتعليق الأعلم على قول الشاعر « هما نفثا فى فى من فمويهما » ٣ / ٨٣ ومحاضرات لأستاذنا الدكتور محمد قناوى .

(٤) ابن منظور : لسان العرب ٢٠ / ١١٦ - ١١٩ .

ومما ورد من نصوص خاصة بكلمة (اللغة) واشتقاقاتها نستنتج أنها تدور حول معنى (الأصوات) الإنسانية وغيرها ، وما يشبهها من معان مختلفة [٥] .

وعلى هذا فإن (علم اللغة) أو (فقه اللغة) يعنى فهم الأصوات مفردة ومركبة ، وإدراك خصائصها .

وباعتبار إطلاق كل من المصطلحين على علم خاص يصبح مفهومه العلم الذى يتناول مفردات اللغة وتراكيبها ومالها من خصائص .

وبهذا عرف ابن خلدون (علم اللغة) فقال : هو بيان الموضوعات اللغوية [٦] .

وعرفه الفارابى بقوله : علم الألفاظ الدالة عند كل أمة على قوانين تلك الألفاظ [٧] .

موقف علماء العربية من مصطلحى (علم اللغة) و (فقه اللغة) :

تبعا للمفاهيم المذكورة فى تحليل كلمات (علم - فقه - لغة) نجد تقاربا بين (علم اللغة) و (فقه اللغة) عند العرب ، فكل من الاصطلاحين يعنى : فهم اللغة ، ومعرفة خصائصها ، واكتناه أسرارها .

ويظهر أن علماءنا القدامى كانوا لا يفرقون بين المصطلحين (علم اللغة) و (فقه اللغة) فهما - عندهم - بمعنى واحد داخل أساسا فى (علوم اللغة العربية) - حسبما تبين من التفسير المعجمى السابق - لكنهما يختلفان عن مصطلحات العلوم العربية الأخرى من نحو وصرف وبلاغة ، وأدب بمعناها التعليمى .

---

(٥) كتابنا (اللغة العربية - خصائصها وسماتها) ص ٦ .

(٦) ابن خلدون : المقدمة ص ١٢٥٨ .

(٧) الفارابى : إحصاء العلوم لتحقيق الدكتور عثمان أمين ط ٢ القاهرة ١٩٤٩م ، ص ٤٥ ، ٦٢ ، ٦٣ .

وقد أطلقوا (علم اللغة وفقه اللغة) على (متن اللغة) أو (جمع ألفاظ اللغة وشرحها) . على نحو ما هو معروف في المعاجم اللغوية . كما أطلقوا كلا منهما على تناول بعض قضايا اللغة العربية كالتعريب ودلالة الألفاظ - كالمشترك والمتضاد والمترادف والفصيح وغيره . على غرار ما ورد في كتاب (فقه اللغة) للثعالبي ، والمزهر للسيوطي وهم - مع ذلك - كانوا يؤمنون بأن هذه الدراسة تختلف عما يسمى بـ (علم النحو) المتعارف عليه .

فحين اختلط العرب بالأعاجم ، وشاع الفساد على الألسنة ، وضعت القواعد والقوانين التي كان الهدف منها وقاية اللسان من العثار . والوقوع في الخطأ ، وليستطيع الأعاجم تعلم لغة الإسلام الذي دخلوا فيه . وهم في حاجة ملحة إلى معرفة مبادئه وتعاليمه ، لما استشرى الفساد بتحريف أصوات بعض الكلمات ، وتغيير معاني بعضها الآخر ، وإماتة كلمات وتراكيب عربية ، وحلول كلمات وطرائق أعجمية محلها ، لما حدث ذلك وأشباهه دخلت العربية مرحلة جديدة ، ودخلت دراستها مرحلة مناسبة لحفظها ، وصيانتها ، من تلك التيارات الأجنبية .

وقد بين ابن خلدون أن اللغة - في تلك الفترة - احتاجت إلى لون دراسي جديد يخالف النظام النحوي - المصطلح عليه - يقول : (لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة - عند أهل النحو - بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم ، حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ، ميلا مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية ، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين ، خشية الدروس ، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك ، وأملوا فيه الدواوين) [٨] .

---

(٨) ابن خلدون : المقدمة ص ١٢٥٨ .

وقد ضرب أمثلة لما ألف في ذلك ، وحصره في المعجمات وما اشتمل عليه (فقه اللغة العربية) من دراسات على غرار ما في كتاب (فقه اللغة) للثعالبي ونحوه .

ويظهر مما كتبه الشيخ حمزة فتح الله أن القدامى خصوا هذين المصطلحين بما ذكره ابن خلدون من (علم متن اللغة) وبعض القضايا اللغوية كارتباط الألفاظ بالمعاني وغيره من المباحث التي تتعلق بالعربية فيقول : (اعلم أن التأليف في علم اللغة مبني على أسلوبين : لأن من العلماء من يذهب من جانب اللفظ إلى المعنى بأن يسمع لفظا ويطلب معناه ، ومنهم من يذهب من جانب المعنى إلى اللفظ ، وقد وضعوا لكل من الطريقين كتبا ، فمن وضع بالاعتبار الأول فطريقه في حروف التهجي جعل أواخرها أبوابا ، وأوائلها فصولا كالجوهري في الصحاح ، ومجد الدين في القاموس ، وابن مكرم في اللسان أو بالعكس كابن فارس في المجمل والمطرزي في المغرب ، ومن وضع بالاعتبار الثاني جمع الأجناس بحسب المعاني وجعل لكل جنس بابا كالزمخشري في قسم الأسماء من مقدمة الأدب ، ومنهم من يعتبر الأول والثاني وما يثلثهما كالفيومي في المصباح) .

ويقول : اعلم أنه يقال لعلم اللغة (علم متن اللغة) (٩) .

وينقل عن العلامة : شمس الدين الأكفاني ما نصه (القول في علم اللغة) وهو علم ينقل الألفاظ الدالة على المعاني المفردة ، وضبطها وتمييز الخاص منها بذلك اللسان من الدخيل فيه ، وتفصيل ما يدل على الذوات مما يدل على الأحداث ، وما يدل على الأدوات ، وبيان ما يدل على أجناس الأشياء وأنواعها ، وأصنافها ، مما يدل على الأشخاص ، وبيان الألفاظ المتباينة والمترادفة والمشتركة ، والمتشابهة (١٠) .

---

(٩) الشيخ حمزة فتح الله : المواهب الفتحية ج ١ ص ٢٠ ، ٢١ ، ود. بشر : دراسات في علم اللغة - القسم الثاني ص ٤٠ ، ٤١ .

(١٠) الشيخ حمزة فتح الله : المواهب الفتحية ج ١ ص ٢١ ، ود. بشر : دراسات في علم اللغة - القسم الثاني ص ٤١ .

وفي كتاب (الصاحبي في فقه اللغة) لابن فارس و (الخصائص) لابن جني ألوان دراسية خاصة بالعربية ، تدخلَ في هذا النطاق ويجعلها كل منهما لب الدراسة اللغوية أو بتعبيرهما (أساس علم العرب وأصوله) .

يقول ابن فارس : (إن لعلم العرب أصلا وفرعا ، أما الفرع فمعرفة الأسماء والصفات كقولنا : رجل وفرس ، وطويل وقصير ، وهذا هو الذي يبدأ به عند التعلم ، وأما الأصل فالقولّ على موضوع اللغة وأوليتها ، ومنشئها ، ثم على رسوم العرب في مخاطباتها وما لها من الافتنان تحقيقا ومجازا) (١١) .

ويقول ابن جني (هذا الكتاب ليس مبنيا على حديث وجوه الإعراب وإنما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام ، وكيف بدئ، وإلام نحى .. يتساهم ذوو النظر من المتكلمين والفقهاء ، والمتفلسين ، والنحاة ، والكتاب ، والمتأدبين التأمل له والبحث عن مستودعه) (١٢) .

ويقول : إن هذا (من أشرف ما صنف في علم العرب ، وأذهبه في طريق القياس والنظر ، وأعوده عليه بالحيطة والصون ، وآخذه له من حصة التوقير والأون ، وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ، ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة) .

ويؤكد ابن جني أن تلك الدراسة مختلفة عما عرف بالنحو والصرف أو جمع اللغة إذ يذكر أن ما سلكه من طرق في الدراسة عجز عنه البصريون والكوفيون ، ولم يستطعه إلا هو (١٣) .

وقد أطلق ابن فارس على مؤلفه اسم (فقه اللغة) وسمى ابن جني

---

(١١) ابن فارس : الصاحبي ط بيروت ص ٢٩ .

(١٢) ابن جني : الخصائص ١ / ٦٧ وانظر أيضا ١ / ٣٣ .

(١٣) المصدر السابق : ج ١ ص ١ ، ٢ .

كتابه (خصائص العربية) وهو كتاب جدير بأن يطلق عليه اسم (فقه اللغة) .

ويشير بعض الباحثين المحدثين إلى ما يعنيه (المفكر اللغوى الإسلامي الكبير - ابن جنى - بذلك من الفرق بين علوم اللغة وعلم اللغة أو فقه اللغة فعلوم اللغة هي العلوم الموازين الحاوية للقواعد ، والقوانين التى تبين الخطأ من الصواب أما علم اللغة وفقه اللغة فهما من المباحث التفسيرية الفلسفية الوصفية ، التى تنبنى على درس العلاقة القائمة بين الفكر والتعبير ، ودرس التطور التاريخى للغة ، واستقراء الظاهرة اللغوية ، من خلال النصوص ومقارنة الظواهر بعضها ببعض) (١٤) .

ويقول الأستاذ زكى مبارك : إن عبارة (فقه اللغة) لم يكد يتفق القدماء على إفرادها بمدلول خاص ، وإنما وردت عندهم اختيارا لسبب معين ، ويمكن أن يكون لها فى نفوسهم مع ذلك مدلول خاص فقد ذكر الثعالبى سبب تسمية كتابه (فقه اللغة) بأن الأمير الذى رفع الكتاب إليه اختار هذا الاسم ، ولكن - مع ذلك - فإن الاسم يدل على تفكير علماء القرن الرابع والخامس فى فن جديد يختلف عن علوم البلاغة وما عرف اصطلاحا بمسائل النحو والصرف ، ولعل بعضهم غلبت عليه صفة الكتابة فمال إلى مادة الإنشاء ، فبحث عن الألفاظ وذكر ما تبدد منها وبعضهم غلب عليه النحو ، والتصريف ، فأراد أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الإعراب ، فجاءت دراستهم مزيجا من أسرار اللغة ، وأسرار الإعراب ، وقد غلب ذلك على دراسة المخصص لابن سيدة ، والصاحبى لابن فارس ، والخصائص لابن جنى (١٥) .

ولعل الفرق لم يظهر واضحا بين المصطلحين فى كتب القدماء - كما رأيت وكما يظهر فيما كتب السيوطى فى مزهره .

---

(١٤) د. حسن ظاظا : اللسان والإنسان ص ٤٣ بتصرف .

(١٥) زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع ص ٣٧ - ٤٠ .

وقد جرى على عدم التفريق بينهما كثير من المتخصصين في اللغة حديثا فهم قد يفهمون أن علم اللغة دراسة الصرف أو النحو أو الاشتقاق ومعرفة الشوارد النادرة وحواشي الكلام ، وتمييز الكلام الفصيح من غيز الفصيح على نحو ما جاء في المزهر للسيوطي أو فقه اللغة للثعالبي أو على أحسن تقدير على غرار ما عرض ابن جني في خصائصه أو على أنه علم المعجمات وهم يجعلون (علم اللغة) مرادفا للمصطلح القديم (متن اللغة) مخدوعين في ذلك الاستعمال التلقيدى بمصطلح (علم اللغة) الذى ورد بهذا المعنى كثيرا في كتب اللغة العربية القديمة كالصاحبي لابن فارس ، والمزهر للسيوطي وغيرهما ، وفي بعض المؤلفات الحديثة كذلك [١٦] .

وبعض المستشرقين الذين قاموا بالتدريس في كلية الآداب بجامعة القاهرة خلطوا بين (علم اللغة) وبين ما يسمونه (فقه اللغة) مريدين به في الأغلب دراسة العلاقات التاريخية بين العربية وبين سائر اللغات السامية أو دراسة المفردات على أساس تاريخي أو ما قارب ذلك ونمى هذا الاتجاه جيل من أساتذة معهد اللغات الشرقية بجامعة القاهرة [١٧] .

وهذا خلط بين « علم اللغة » والفيلولوجيا فالفيلولوجيا معرفتنا بها أسبق كثيرا من معرفتنا بعلم اللغة ، والمستشرقون الذين كانوا يأتون للتدريس في الجامعات المصرية سابقا كانوا كلهم أو معظمهم من العلماء المعنيين بالدراسات السامية المقارنة ، وهذه الدراسات - كما هو معروف - دراسات فيلولوجية بالدرجة الأولى [١٨] .

---

(١٦) د. بشر : دراسات في علم اللغة - القسم الأول من مقال عن كتاب علم اللغة للدكتور السعران ص ١٢ .

(١٧) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٢٢ .

(١٨) د. بشر : دراسات في علم اللغة ص ١٣ .

بل إن الأستاذ جويدى (الذى كان أستاذا لفقه اللغة العربية فى كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٦ يذكر أن كلمة Philology يصعب تفسيرها وترجمتها إلى العربية وأن بعضهم جعلها تشمل ذلك وتشمل معه الحياة العقلية بكل وجوهها ، فتشمل تاريخ اللغات والمقارنة بينها ، وعلم الأدب بمعناه الواسع ، فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم دينية أو فلسفية أو لغوية ، فهو علم واسع الدائرة وعلى (الفيلولوج) إذا حاول أن يدرس درجة التمدن عند شعب ما أن يدرس كل العلاقات والحوادث السياسية والتاريخية ، لغوية ودينية وأدبية وغيرها وذلك باب واسع عسير جعل الأستاذ جويدى نفسه يقول : إن معرفة كل ذلك صعب ولا يمكن لباحث أن يجيد كل أجزائه [١٩] .

ومن هنا عد الدكتور صبحى الصالح التفرقة بين التسميتين « علم اللغة وفقه اللغة » تافهة لا وزن لها ، فكلاهما علم الكلام بمعنى : معرفته وفهمه إلا أنه فى الثانى فهم عميق وبحث دقيق ، وهذا ما دفع علماء العربية قديما إلى تسمية كثير من البحوث المتعاقبة باللغة باسم (فقه اللغة) ولم يقف الأمر عند القدماء ، بل تابعهم على ذلك المحدثون فقالوا : « أما بحوث علم اللغة فقد درس المؤلفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة أشهرها اسم « فقه اللغة » هذه التسمية هى خير ما يوضع لهذه البحوث فإن فقه الشئ هو كل ما يتصل بفلسفته وفهمه ، والوقوف على ما يسير عليه من قوانين ، فقد قال صاحب المصباح : الفقه فهم الشئ ، وقال ابن فارس : كل علم لشئ فهو فقه » .

---

(١٩) زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع ص ٣٧ - ٤٠ بتصرف .

ومصطلح علم اللغة يقترب من مصطلح فقه اللغة عند الفرنجة (٢٠).

وإذا كان هذا هو شأن السابقين ومن جرى على منوالهم من المحدثين فإننا نلمح أن التسمية لغوية بحتة على أساس التفسير اللفظى لمصطلحات « علم وفقه ولغة » على النحو المعجمى السابق .

ويعد الدكتور كمال بشر « فقه اللغة » بمفهومه القديم والحديث - حلقة من حلقات الدروس فى « علم اللغة » وبهذا يمكن الاستغناء عنه والاكتفاء بهذا المصطلح العام « علم اللغة » .

ويرى - ونحن نتابعه فى هذا الرأى : أنه لا مانع من الاحتفاظ بالمصطلح « فقه اللغة » لارتباطه بتاريخ طويل ، وتقليد ممتد عبر القرون فى الدرس اللغوى العربى والسامى ، بوجه عام ، وهذا بشرط قصره على الدراسات السابق ذكرها . وعدم الخلط بينه ، وبين ذلك الإطار الأعم والأشمل « علم اللغة » فالعلاقة بينهما علاقة العموم ، والخصوص وليست علاقة الترادف (٢١) .

---

(٢٠) د. الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ٣ ، ٤ فالأول عندهم هو :
Linguistique ou Science du Langage بمعنى (العلم المختص بالكلام أو اللغة)
والثانى عندهم هو : Philologie والمركب من كلمتين إغريقيتين الأولى Philos ومعناها (صديق) والثانية Logos ومعناها (الكلام أو الخطبة) فالمعنى العام هو : حب الكلام للتعمق فى معرفة قواعده ، وأصوله ، وتاريخه .

(٢١) د. بشر : دراسات فى علم اللغة - القسم الثانى ص ٤٩ وهذا بناء على التأثر بالدراسات الغربية التى اعتمدت تقسيم الدراسات إلى نوعين :
(أ) نوع خاص بدراسة لغة معينة أو طائفة متشابهة من اللغات ، وقد أطلقوا عليه اسم (فقه اللغة) .
(ب) نوع عام يشمل دراسة ظواهر اللغات جميعها لاستخلاص مبادئ وأحكام عامة تنطبق عليها وقد أطلقوا عليه اسم (علم اللغة) .
ولا ريب أن الأول خاص والثانى عام ، أو بحوث الثانى مترتبة على بحوث الأول على الرغم من الفصل بينهما .

الداعي إليه :

لم يكن العربي الأول محتاجا إلى من يفسر له اللغة ، أو يعلمها له ، فقد كانت فطرته التي فطره الله عليها ، وكان - مع ذلك - أميا لا يقرأ ولا يكتب ، فلما جاء الإسلام ، وامتدت فتوحاته بدت الحاجة إلى جمع اللغة ، والحفاظ عليها ، لأن اللحن بدأ يتسرب إلى ألسنة المتكلمين بالعربية ، وقد ظهر في العصر الإسلامي كثير من الأخطاء وحدثت بوادر منها في عصر الرسول ﷺ فقد روى أنه ﷺ سمع رجلا يلحن في كلامه فقال : « أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل » وورد - أيضا - أن أحد ولاة عمر - رضي الله تعالى عنه - كتب إليه كتابا لحن فيه ، فكتب إليه عمر : أن قنع كاتبك سوطا ، ومما نقل - كذلك - أن أعرابيا أقرأه المقرئ « أن الله برئ من المشركين ورسوله » (بجر رسوله) ، فقال الأعرابي برئت من رسول الله وكان علي رضي الله عنه حاضرا فأنكر ذلك ، ورسم لأبي الأسود من عمل النحو ما رسمه [٢٢] .

فكان ذلك من الدواعي الملحة لوضع القواعد النحوية التي تقي اللسان من الخطأ .

وقد خفيت - في صدر الإسلام - بعض الألفاظ على بعض العرب - حتى الفحول منهم - فقد خفي على عمر معنى كلمة « الأب » في قوله تعالى : ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ فسأل عنها ، وخفي على ابن عباس معنى كلمة « فاطر » في قوله عز حكمه : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ فسأل عنها كذلك [٢٣] . فكان ذلك داعيا ، إلى جمع

---

(٢٢) ابن جني : الخصائص ج ٢ ص ٨ ، والسيوطي : المزهر ط الحلبي ج ٢ ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

(٢٣) الأب : جميع الكلأ الذي تعتلفه الماشية ، فالأب من المرعى للدواب كالفاكهة للإنسان - فطر الله الخلق بفطرهم : خلقهم ، وبدأهم ، والفطرة : الابتداء ، والاختراع ، انظر هذين المعنيين - وما ورد عن عمر ، وابن عباس رضي الله عنهم في اللسان ج ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ج ٦ ص ٣٦٢ .

الألفاظ ، مؤيدة بمأثور الكلام - وبخاصة الشعر - حتى تظل اللغة واضحة المعانى فيستعان بها على ما قد يخفى من ألفاظ القرآن الكريم ، ومن هنا قيل : إذا ألبس عليكم شئ من القرآن فالتمسوه فى الشعر فإنه عربى [٢٤] وفى المزهر [٢٥] « إذا سألتم عن شئ من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فإن الشعر ديوان العرب » .

يضاف إلى ذلك أن أهل البلاد المفتوحة الذين اعتنقوا الإسلام لابد لهم من تعلم العربية ، لفهم كتاب الله وسنة رسوله ، ليثبت فى نفوسهم ذلك الدين الحنيف ويعرفوا مبادئه وتعاليمه ، وفى المصدرين السالفين أساس وطيد لما يصبون إليه وما يحتاجون ، كما رغب هؤلاء الأجانب - مسلمين وغير مسلمين - فى نباهة الشأن والتربع على قمم المناصب العالية فى الدولة ، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بمعرفة تلك اللغة الجديدة ، فأدى شغفهم إلى تعلم العربية ، ومحاولتهم الدائبة لإجادتها ، وكما يقول علماء اللغة « إن المتعلم لأية لغة يخلع عليها عوائد النطق فى لغته الأصلية ، فالإنجليزى - مثلا - لا يمكنه نطق العين العربية فإذا نطق كلمة عربية مشتملة على هذا الصوت ، فإنه يبدل به صوت الهمزة فكلمة (على) العربية ينطقها (Aly) واليونانى ينطق - فى العربية - الحاء خاء فيقول (مخمد) فى محمد » [٢٦] .

وهكذا فالناطق بلغة غير لغته يطبق عليها قواعد النطق فى لغته الأولى ، ونحن نلاحظ أن الإنجليزى حين يتعلم العربية ينطقها بلهجة تشبه طريقته فى لغته الأولى فهى عربية الأصوات إنجليزية فى طريقتها النطقية ، وكذلك العربى حين يتعلم الإنجليزية فكثيرا ما نلاحظ نطقه للأصوات الإنجليزية بطريقة عربية .

---

(٢٤) ابن منظور : اللسان ج ٦ ص ٧٨ ، ونسب فيه إلى الرسول ﷺ .

(٢٥) ج ٢ ص ٣٠٢ ونسب فيه إلى ابن عباس .

(٢٦) انظر د. إبراهيم نجا : اللهجات العربية ص ٢١ .

ومن هنا ، فلقاء اللغة العربية بلغات البلاد التى فتحها المسلمون أوجد تشوها فى أصواتها ، وطريقة أدائها ، بل أدى إلى إهمال بعض الألفاظ العربية ، واستعمال كلمات أجنبية ، دخل كثير منها للحاجة إليه [٢٧] ، أو لشيوعه على ألسنة الناطقين به من أهل تلك البلاد ، ثم دورانه فى الاستعمال العام وإهمال نظائره العربية ، أو تقليدا من العرب لما استعذبوه من ألفاظ تلك اللغات الأخرى [٢٨] ، وبخاصة بعد أن اتسع نطاق الاختلاط بالأعاجم ، فى العصر العباسى ، الذى رفع من شأن الموالى وترك لهم مقاليد الحكم فى الدولة ، حتى علا شأنهم فى عهد الرشيد إلى الحد الذى طمعوا فيه فى الاستيلاء على السلطة مما أدى إلى نكبتهم على يد الرشيد فى حادثة البرامكة المشهورة فى التاريخ .

هذا - إلى جانب انفتاح العرب على ثقافات الأعاجم وعلمهم وحضاراتهم - أدى إلى استعمال لغاتهم وطرق مخاطباتهم ، فشاع الفساد واللحن فى اللغة العربية ، التى دخلت فى صراع مع لغات الأقاليم الجديدة ، وكل مصارع - مهما يخرج منتصرا - لابد أن يعتريه الوهن ، وتبدو عليه آثار المعارك التى احتدمت بينه وبين خصمه ، ولا شك أن العربية صرعت لغات البلاد المفتوحة - كالفارسية فى العراق والرومية فى الشام ، والقبطية فى مصر ، ولكن هذا الصراع بدت آثاره على العربية ، بذيوع اللحن والفساد وشمل ذلك - كما ذكرنا - الأصوات ومعانى الكلمات والأساليب ، والقواعد ، التى فسد منها ما فسد ، ودخل عليها ما دخل .

---

(٢٧) كالألفاظ المعربة فى الطب والعلوم مثل السقمونيا والمصطكى من اليونانية والبابونج والزرنيخ من الفارسية والأصطوانة والبركار من الفارسية .

(٢٨) من ذلك المسك الطيب المعروف وله نظير عربى أهمل وهو المشموم والتوت ويعرف عند العرب بالفرصاد فاستعمل المعرب (الفارسى) وأهمل النظير العربى .

وهذا ما دفع الحريصين على العربية للاهتمام بها ، وتدوين ألفاظها ، وطرائقها فى التعبير ، خوفا من طمس معالمها ، فهى اللغة التى نزل بها كتاب الله تعالى ، فإذا عزت على الأفهام ، بعد المسلمون عن إدراك معانى القرآن وضاعت مبادئه فيضيع الإسلام وينطوى ، وهو الأمل المنشود للإنسان بعد أن أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور.

وقد ذكرنا من قبل نصا لابن خلدون يتحدث فيه عن فساد ملكة اللسان العربى وما يترتب عليه من جمع اللغة وتدوينها وقيام الدراسات حولها [٢٩] .

ويتضح من هذا النص ، أن الدراسات اللغوية ، التى بدأت بجمع اللغة ، واستنباط القواعد العربية منها ، فى المفردات ، والتراكيب والأسلوب ، والدلالة وبيان الأصيل منها والدخيل ، وغير ذلك مما يتصل بهذه الدراسة ، والاهتمام بشرح القرآن - على أساس الإحاطة باللغة على الوجه السابق ، وجمع الحديث ، وكل ما يتعلق بعلوم الدين واللغة كل تلك الدراسات قامت من أجل الحفاظ على كتاب الله - بعد أن فسدت السلائق - حتى لا تنبهم معانيه على الأفهام فيضيع ، وتضيع مبادئ الإسلام معه .

ويمكن أن يضاف إلى ذلك الداعى المهم ، أن بعض العلماء أرادوا - فيما بعد مع الحفاظ على دين الإسلام وكتابه - أن يثبتوا براعة العربية ، ورقيها على غيرها من اللغات وصلاحيتها للحياة والحضارة ، وقد بدا ذلك واضحا فى مؤلفات عربية قامت لترغب فى العربية ، وتكشف عن أسرارها ، فى البنية ، والأسلوب ، والقواعد ، كخصائص العربية ، وسر صناعة الإعراب لعبقرى اللغويين أبى الفتح عثمان بن جنى ، - وهو الرومى الأصل - الذى بهرته العربية بسحرها ، وجمالها ، فقال : لو

---

(٢٩) انظر ص ١٩ من هذا الكتاب .

أحست العجم بلطف صناعة العرب في هذه اللغة ، وما فيها من الغموض والرقة ، والدقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها ، فضلا عن التقديم لها ، والتنويه منها [٣٠] ، ويقول أيضا : إنا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمي ، وقد تدرب بلغته قبل استعرابه عن حال اللغتين ، فلا يجمع بينهما بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك لبعده في نفسه ، وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه [٣١] .

ثم يشرح لنا منهجه في خصائصه فيقول : إنه « ليس مبنيا على حديث وجوه الإعراب وإنما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام ، وكيف بدئ ، وإلام نحى إلخ » [٣٢] .

وقد أشرنا من قبل إلى حديث أحمد بن فارس عن وجود فرع وأصل لعلم العرب ، فالفرع معرفة الأسماء والصفات والأصل الوقوف على موضوع اللغة وطرائق العرب في مخاطباتها وافتنانها [٣٣] .

وحقا ما قاله الأستاذ العقاد : إن « للأمم في تنافسها بالمناقب والمزايا ألوان من المفاخرة بلغاتها ، يضيق بها نطاق البحث ، ومعظم هذه المفاخر دعوى لا دليل عليها ... وحجتها الكبرى « أنانية » قومية تشبه « أنانية » الفرد في حبه لنفسه وإيثاره لصفاته ، بغير حاجة إلى دليل ، أو مع القناعة بأيسر دليل ، ولكن الفصاحة العربية في دعوى أهلها مفخرة لا تشبه هذه المفاخر في جملتها ، لأن دليلها العلمي حاضر لا يتعسر العلم به ، والتثبت منه على ناطق بلسان من الألسنة ، ولا حاجة له في هذا الدليل إلى غير النطق ، وحسن الاستماع [٣٤] .

---

(٣٠) ابن جني : الخصائص ج ١ ص ٢٤٢ .

(٣١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣٢) المصدر السابق : ج ١ ص ٦٧ ، وانظر ص ٢١ من هذا الكتاب .

(٣٣) انظر ص ٢١ من هذا الكتاب .

(٣٤) العقاد : اللغة الشاعرة ص ٥٤ ، ٥٥ .

فكانت تلك الدراسات - بألوانها المتعددة - محافظة على العربية ، فجمعت المفردات وحددت الأصوات وطرائق التعبير التركيبية والأسلوبية ، وكشفت عن أسرارها ، وبينت الدخيل من الأصيل ، حتى يكون الطريق واضحا جليا ، وقد استفادت من ذلك الدراسات القرآنية التى اتصلت بضبط القرآن ، وقراءاته وتفسيره ، وتحديد معانيه الدقيقة وسر إعجازه ، وفقا لما نقل عن العرب أرباب اللغة ، وجمع الحديث ، وشرحت معانيه ، واستخلصت الأحكام الدينية من الكتاب والسنة ، وبقى لنا هذان الأثران المهمان فى إقامة دعائم الإسلام .

وكانت تلك الدراسات اللغوية - أيضا - مفيدة فى نواحى الحياة وشتى الشئون التى احتاج إليها المجتمع الإسلامى ، فى سيره نحو التطور والحضارة ، وما يجد من مستحدثات فى العلوم والفنون المختلفة حتى اليوم .

وقد كانت للعلماء العرب طرائق خاصة فى البحث ، مستمدة من ثقافاتهم والباعث لهم على الدرس ، وتلك الطرائق واضحة ، فى ألوان البحث العلمى ، الذى وصلنا عنهم ، فى العربية ، ومبادئها ، وسلوكها التعبيرى ، وكانوا يعتمدون فى ذلك ، على الذوق والعقل ، ودقة الملاحظة ، ويرسمون حدودهم فى إطار الدراسة القرآنية ، فلا غرو أن تكون لهم شخصيتهم المستقلة ، وبحوثهم التى تتجه اتجاها لغويا يخدم الدين ، ولم يكن عندهم آلات ، أو معامل يجرون فيها تجاربهم اللغوية ، كما وجد - بعد ذلك - لدى الغربيين ، الذين اتسعت بحوثهم ، وارتقت ، نتيجة تقدم العلوم والفنون ، وفى ظل المستحدثات من الآلات والمعامل ، التى مكنتهم من إجراء البحوث التجريبية ، التى توصل إلى حقائق معينة ، ربما تكون قد خفيت فى ماضى العصور .

وأيا ما كان الأمر فإن بحوث العرب كانت - كما قلنا - الأساس الذى بنى عليه الغربيون مستحدثاتهم فى مختلف الدراسات اللغوية ،

وهى - وإن نسبت إلى علماء الغرب - فى مظهرها الحالى - فإن المناظر فى جوهرها ، يلمح فيها الأصل العربى ، الذى نمت وتفرعت من جذوره والفضل - كما يقولون - لمن بدأ الطريق الشاق وكما قيل :

. . . . والحمد فى صوب الحيا للرياح لا للغيوم [٣٥]

التاريخ المنهجى لعلم اللغة [٣٦] :

عرفنا أن الحفاظ على كتاب الله ودينه كان السبب القوى لنشأة الدراسات اللغوية عند العرب ، بعد أن نشأ الاختلاط بين العرب والعجم ، وخيف على الإسلام وكتابه ومبادئه من شره ، فأدى ذلك - أول الأمر - إلى ارتياد طائفة من الرواة وعلماء اللغة للبادية ، لجمع اللغة من العرب الخلص .

وكانت تلك المرحلة خاصة بالجمع فحسب ، دون أية دراسة لغوية فإن عزم العلماء - آنذاك - كان متجها إلى ضبط الألفاظ وتدوينها ، وكانت نتيجة هذا تدوين طوائف من الألفاظ فى موضوعات خاصة ، كالإبل والخيل والوحوش ، والنبات ، والشجر ، والأنواء ، وأشهر ما دون فى ذلك رسائل الأصمعى [٣٧] وأبى حنيفة الدينورى [٣٨] ، كما وجدت بعض الكتب التى تجمع ألفاظ اللغة الموضوعة للمعانى المختلفة ، كألفاظ ابن السكيت [٣٩] ، والألفاظ الكتابية للهمذانى [٤٠] .

---

(٣٥) من قصيدة أرسلها الشاعر ابن زيدون إلى الأمير ابن جهور بعد خمسمائة يوم فى السجن .

(٣٦) انظر إشارة إلى بعض ذلك فى كتابنا (العربية - خصائصها وسماتها) ص ٨-١٢ .

(٣٧) ت ٢١٦ هـ .

(٣٨) ت ٢٨٩ هـ .

(٣٩) ت ٢٤٤ هـ .

(٤٠) ت ٣٢٧ هـ .

ولما توافر هذا القدر من ألفاظ اللغة ، بدأت مدرسة اللغويين تتناوله بالبحث ، فكانت تدرس المفردات على نحو يجمع الجزئيات ، ويوضحها ، ويذكر ما يتصل بها من حوادث ، وقصص أدبية ، ولغوية ، وتاريخية ، ويبدو ذلك في كتب المبرد [٤١] والأصمعي ، وأبي علي القالي [٤٢] ففيها كثير من هذا الذي يشتمل على بيان للمفردات اللغوية وما يتبعها من قصص تاريخية ، وأخبار عربية ، ومباحث أدبية [٤٣] .

ويعد الخليل بن أحمد الفراهيدي [٤٤] أول من نظر إلى البحث اللغوي نظرة عميقة واتجه إليه اتجاها جديا ، فقد عرف قيمة الدراسات الصوتية ، وصلتها باللغة ، فرتب الحروف الهجائية على نحو صوتي ، من الحلق والفم إلى الشفتين ، وبين مواطن إخراج الحروف من حلقية ، وشجرية ، وأسلية ، ونطعية وذلقية ، وشفوية ، وقد حدد مخرج كل حرف ، على وجه دقيق ، ثم بين صفاتها ، وخصائصها [٤٥] . وهو عمل لا ينهض له إلا المتخصص ، والباحث الذي يرجو من وراء بحثه ثمرة في دراسة اللغة ، أما الترتيب الأبجدي العادي فهو من سمات المبتدئين .

وعلى أساس هذا الإدراك للأصوات ، وترتيب الحروف عليها ، أمكن للخليل أن يناقش قضايا لغوية ، وأن يفسرها تفسيرا صوتيا ،

---

(٤١) ت ٢٨٦ هـ .

(٤٢) ت ٣٥٦ هـ .

(٤٣) انظر - مثلا - الكامل للمبرد ج ٢ ص ٣ عندما بدأ يفسر كلمة (حسرتها) من قول عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك : « يا بني إن نفسي مطيتي ، فإن حملت عليها في التعب حسرتها » فقد أخذ يشرح الكلمة ، ويذكر ما يوضحها من شعر ، ثم يتطرق إلى شرح بعض مفردات هذا الشعر ، وينتقل إلى شعر آخر ، وهكذا وهو يذكر خلال ذلك بعض القصص التاريخية ، والأدبية ، واللغوية ، وهكذا في موضوعات الكتاب المتعددة نجد حديث المبرد عن الأدب ، والبلاغة ، والنحو ، وغيرها من علوم العربية ممزوجا بالقصص والروايات التي توضحه ، وتتعلق به .

(٤٤) ت ١٧٠ أو ١٧٥ هـ .

(٤٥) الخليل بن أحمد : العين ١ / ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٦٥ .

كالإبدال والإدغام ، والقلب ، في اللغة ، وهي ظواهر تقوم على امتزاج الأصوات ، وطرق ائتلافها ، نظرا لتقاربها أو تباعدها ،

وملاحظة الأصوات جانب خطير في دراسة اللغة ، يمكن أن تستفيد منه قضايا كثيرة .

وقد تابع الخليل على ذلك تلميذه سيبويه [٤٦] مع دقة في التحليل والتفصيل .

كما ألف الخليل - أيضا - معجمه (العين) مرتبا ترتيبا صوتيا متبعا طريقة التقليبات التي تلاحظ وضع الكلمة وتقلباتها في مكان واحد مهما يختلف ترتيبها ، وهذا المكان هو أبعد الأصوات مخرجا .

« ولقد ظلت أفكار الخليل وتعليلاته وابتكاراته نبراسا ، وهديا لعلماء اللغة ، والنحو ، والصرف ، والعروض ، والعلوم اللسانية ، بصفة عامة » [٤٧] .

وكانت الدراسة اللغوية في هذه الفترة ، وحتى نهاية القرن الثالث لا تتعدى - كما قال السيوطي - إحدى طرق أربع ، هي الإملاء ، والإفتاء ، والتعليم ، والرواية [٤٨] وكل هم الباحثين متجه - كما عرفنا - إلى المفردات ، وما يتصل بها من أخبار ، ولم يكن ينظر إلى الجمل أو التراكيب .

فلما جاء القرن الرابع الهجري ، اتسعت الثقافات وكثرت العلوم، نتيجة لامتزاج الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية ، فقد سهل على العرب الحصول على كتب الأجانب والاطلاع على ما فيها ، من فلسفة وطب ونجوم ، ورياضيات ، وغيرها مما يوسع دائرة الفكر ، ويزيد من توقد العقل ، إلى جانب ما برز من الاتجاهات الجديدة ،

---

(٤٦) ت ١٨٠ هـ .

(٤٧) من كلام محقق كتاب (العين) في المقدمة ص ٥ .

(٤٨) السيوطي : المزهر ص ١٢٨٢ هـ ، ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٩ .

والنزعات التحررية ، التي ظهرت مع مبدأ الاعتزال الذى اتبعه كثير من النحاة ، والباحثين ، في اللغة ، يضاف إلى ذلك تقريب العلماء - في هذا العصر - لدى الملوك والرؤساء ، فاتجهت دراسة اللغة إلى نحو جديد يخالف ما كانت عليه ، في سابق القرون ، لتناسب حاجيات ، ومناهج العصر وأخذت تستفيد من العلوم والمعارف « وتخلص علم اللغة كما تخلص علم الكلام من طريقة الفقهاء ، ومناهجهم ، حتى من الناحية الشكلية ، وأخذوا يسيرون على خطة الخليل بن أحمد »(٤٩) .

كما برز في هذا العصر لون من ألوان البحث اللغوى يختلف عن مسائل النحو والصرف ، والاشتقاق ، لبيان ألفاظ اللغة ، وتفسير ما يحدث فيها ، من القلب والإبدال والإعلال ، فتحددت أنواع المقلوب ، والمقلوب عنه وما يكون من ذلك معبرا عن اختلاف اللهجات ، وما هو صادر عن جماعة العرب ، وما هو قياسى ، وما هو سماعى ، بعد أن كان ذلك لا يرد في البحوث السابقة كما ذكر ابن سيدة (٥٠) فقد قال :

إن السابقين كانوا « لا يبينون ما انقلبت فيه الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء ولا يحددون الموضع الذى انقلاب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو ، مع عكس ذلك ، ولا يميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب ، وما هو من ذلك لغتان ، وذلك كجذب وجبذ ، ويئس وأيس ، ورأى ، وراء ، وكذلك لا ينبهون على ما يسمونه غير مهموز مما أصله الهمز ، على ما ينبغى أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا ، وما يعتقد منه بدلا سماعيا ، ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع »(٥١) .

---

(٤٩) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج ١ ص ٣٨٧ .

(٥٠) ت ٤٥٨ هـ .

(٥١) ابن سيدة : مقدمة المخصص ط بيروت ج ١ ص ٧ .

فرأينا بعض اللغويين يعود إلى طريقة الخليل فينظم اللغة ، وينظر إلى هذه الأمور بعين الاعتبار ، فيقوم الأزهرى [٥٢] بتأليف كتابه «تهذيب اللغة» متبعا طريقة الخليل في العين ، وهى التقليبات الصوتية ، ومثله أبو على القالى فى بارعه ، ويأخذ ابن دريد [٥٣] طريقة التقليبات إلا أنه يتبع نظام الترتيب الهجائى العادى فى تأليف معجمه (جمهرة اللغة) ، ويبتكر إسماعيل بن حماد الجوهرى [٥٤] ، طريقة جديدة فى جمع اللغة، هى الأبجدية العادية ملاحظا جعل آخر الكلمة باباً ، وأولها فصلا، وذلك فى معجمه (تاج اللغة وصحاح العربية) وبذلك قضى على سوء الترتيب الذى كان موجودا من قبل ، فى كتب الأصمعى . وابن الأعرابى [٥٥] وأبى زيد [٥٦] وغيرهم .

كما ناقش هؤلاء العلماء مادة اللغة ، ومشكلاتها النحوية ، والمعجمية .

وكانت طريقة التقليبات - وبخاصة عند ابن دريد - وكذلك طريقة الاشتقاق ، التى سار عليها فى كتبه ، لاكتناه أسرار العربية ، فاتحة عهد جديد فى إدراك خصائص العربية ، فى دوران المادة حول معنى واحد ، أو أكثر وقد مهد ذلك الطريق الوعر لمن يستطيع السير فيه ،

---

(٥٢) ت ٣٧٠ هـ .

(٥٣) ت ٣٢١ هـ .

(٥٤) ت ٣٩٣ أو ٣٩٨ هـ ويذكر بعض الباحثين أن رائد هذه الطريقة هو أبو بشر اليمان بن أبى اليمان (٢٠٠ - ٢٨٤ هـ) الذى اتبعها فى معجم سماه (التقفية) وتلاه الفارابى اللغوى (إسحاق بن إبراهيم خال الجوهرى) فى كتابه (ديوان الأدب) وعنه أخذها الجوهرى ، وقد اشتهر بين اللغويين ابتكار الجوهرى لهذه الطريقة لأن بناء الجوهرى الرائع فى كتابه الصحاح قيد الأنظار عن الالتفات إلى غيره ، انظر : د. أحمد مختار عمر : البحث اللغوى عند العرب ص ١٤٧ و د. حسين نصار : المعجم العربى - نشأته وتطوره ص ٤٨٧ .

(٥٥) ت ٢٣١ هـ .

(٥٦) ت ٢١٥ هـ .

وممن سار على دربه فى اجتياز هذا المسلك الشاق ، وركب هذا المركب الصعب ، وأكد سلامة السير فيه عبقرى اللغويين أبو الفتح عثمان بن جنى ، الذى استطاع أن يوسع دائرة الاشتقاق ، ويبتكر - على أساسه - الاشتقاقين الكبير والأكبر ، وكذلك معاصره أحمد بن فارس ، فقد ألف معجمه مقاييس اللغة ، منتهجا هذا المنهج ، وإن اتبع فى ترتيبه وترتيب كتابه الآخر المسمى بالمجمل طريقة الأبجدية العادية ، وكلا هذين العلمين فى اللغة قد اعترف بأنه اطلع على كتب التقليبات ، كالعين ، والجمهرة ، وإن لم يركن ابن جنى إليها ، لما وجد فيها من الخطل والاضطراب [٥٧] .

وقد ظهرت دراسات فى اللغة على نحو لم يسبق له مثيل من قبل ، فقد كان أبو الحسن الأخفش [٥٨] قد وضع كتيبا فى أصول النحو ، وجاء من بعده ابن السراج [٥٩] فألف كتابا فى ذلك ، إلا أنهما كانا ضيقين فى معناهما فجاء ابن جنى من علماء القرن الرابع فدرس ما عجز عنه الأوائل أو قصروا فيه ، وسد الفراغ فى هذا الجانب الدراسى ، وكشف عن أسرار اللغة فيه ، وسماه « علم أصول النحو » ، وقد نوه بابتكاره لهذا العلم فى مقدمة كتابه الجليل الخصائص ، وأشار إلى من سبقوه فى التأليف فيه ، وحوزه قصب السبق فى ميدانه فقال : « واعتقادى فيه أنه من أشرف ما صنف فى علم العرب ، وأذهبه فى طريق القياس والنظر ، وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة ... وذلك أنا لم نر أحدا من علماء البلدين [٦٠] تعرض لعمل أصول النحو ، على مذهب أصول

---

(٥٧) ابن جنى : الخصائص ج ٣ ص ٢٨٨ ، وسر الصناعة مخطوطة الأزهر الورقة ١٠٨ ودار الكتب ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، وابن فارس : مقاييس اللغة ج ١ ص ٣ ، ٤ .

(٥٨) هو سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط ت ٢١٠ أو ٢١٥ هـ .

(٥٩) ت ٣١٦ هـ .

(٦٠) البصرة والكوفة ويقصد بذلك البصريين والكوفيين .

الكلام والفقه ، فأما كتاب أصول أبى بكر [٦١] فلم يلمم فيه بما نحن عليه ، إلا حرفا أو حرفين ، فى أوله ، وقد تعلق عليه به ، وسنقول فى معناه ، على أن أبا الحسن قد كان صنف فى شيء من المقاييس كتيبا إذا أنت قرنته بكتابنا هذا علمت بذاك أننا نبنا عنه فيه وكفيناه كلفة التعب به » [٦٢] .

وبناء على ذلك ، وضع ابن جنى كثيرا من الأصول النحوية على نحو ما فعل علماء أصول الكلام والفقه ، ويعد منشئا لهذا العلم ، وعارضا لأكثر مسائله بطريقة علمية ، ولم يأت من بعده من يتمم عمله ، اللهم إلا السيوطى ، فقد أورد مسائل منه فى كتابه « الأشباه والنظائر » ولكنه شيء قليل بالنسبة لما عالج ابن جنى من مسائله ، ولو قرأت خصائصه أدركت هذا الفيض من بحوثه فى أصول النحو ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره فى باب ترافع الأحكام » و « باب علل العربية أكلامية هى أم فقهية ؟ » ففى هذين البابين – وغيرهما كثير – ما يوضح لنا سلوكه هذا الطريق فى عرضه لمسائل هذا العلم .

ومع ذلك فإن هذا العالم الفذ ابتكر كثيرا من مسائل «علم اللغة» فهو مؤسس الاشتقاق بنوعيه الكبير والأكبر [٦٣] ، الذى أرسى على أساسه العربية ، وبين أصولها ، وفروعها ، وأصليها وزائدها ، ودلالتها

---

(٦١) يقصد ابن السراج .

(٦٢) ابن جنى : الخصائص ج ١ ص ١ ، ٢ .

(٦٣) الاشتقاق الكبير هو : ما اتفق فيه المشتق والمشتق منه فى الحروف واختلفا فى ترتيبها مثل : قال وقل ولق إلخ ويسمى – فى علم الصرف – القلب المكانى ، والاشتقاق الأكبر هو : ما اتفق فيه المشتق والمشتق منه فى بعض الحروف واختلفا فى بعضها الآخر مع اتفاق الحروف المختلف فيها مخرجا وصفة كالنضح والنضخ وامتقع لونه وانتقع إلخ انظر : د. نجا : فقه اللغة ٣ / ٤٩ وكتابنا (العربية) ص ٩٨ وما بعدها ففيهما تفصيل كثير لذلك .

خاصة كانت أو عامة ، وأصواتها ، وما يحدث لها من إبدال ، وغير ذلك مما يدل على سمو العربية ، ويبين مبادئها اللغوية .

وفي الأصوات « نحس بمبلغ القوة العلمية ، والدقة الفائقة ، حتى ليثير إعجابنا وصفه للجهاز الصوتي ، وصف الفيلسوف الحكيم ، والعالم التجريبي الذى كشف عن الأسرار الصوتية وأنها تحتاج إلى دراسة آلية - كما يقول علماء اللغة المحدثون - فقد شبه الحلق ، بالناى (المزمار) وشبه مدراج الحروف ومخارجها بفتحاته التي توضع عليها الأصابع فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناى ، المنسوقة ، وراوح بين أنامله ، اختلفت الأصوات ، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه ، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم ، باعتماد على جهات مختلفة ، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة » .

ويربط ابن جنى بين علم الأصوات ، وعلم الموسيقى ، ويقول : «إن علم الأصوات والحروف له تعلق ، ومشاركة للموسيقى ، لما فيه من صنعة الأصوات والنغم » (٦٤) .

ونظرة ابن جنى هذه نظرة علمية صائبة ، تشير إلى حاجة الدراسة الصوتية ، إلى مجال العمل التطبيقي المعتمد على الآلات ، كما نرى ذلك متبعا في العصر الحديث ، الذى أجريت فيه التجارب الصوتية المعتمدة على الآلات والأجهزة العلمية الدقيقة وكتاب ابن جنى الذى حوى تلك المعلومات الصوتية ، والذى سماه سر صناعة الإعراب عنوان واضح على تفوقه في دراسة الأصوات ، فقد تكلم فيه عن الصوت - كمادة علمية ، لها مفهومها المحدد ، وتناول الأصوات العربية من معظم جهاتها ، وائتلاف الحروف بعضها مع بعض ، لتكون الكلمات والتعبيرات اللغوية (٦٥) .

---

(٦٤) ابن جنى : سر الصناعة ج ١ ص ١٠ .

(٦٥) انظر كتابنا (العربية - خصائصها وسماتها) ص ١٥١ وما بعدها .

وله - أيضا - دراسة فى اللهجات فهو لشغفه بالعرب ، والعربية ، يمدح هؤلاء القوم ، ولغتهم ، ويقف منها موقف المؤيد لها ، المدافع عنها ، المعلل لأسباب توحدها ، أو انقسامها وهو فى كل ذلك يقيم أدلة تتراءى له وهى تعد دقيقة كل الدقة فى نظر المنهج العلمى الحديث ويبدو ذلك واضحا فى كتابه الخصائص .

وطريقة ابن جنى فى البحث لا تقل شأنا وسلوكا عن طريقة المحدثين فى دراسة اللغة ، فهو يجمع المادة اللغوية ، ويبدأ فى مناقشتها ، ثم بعد استيفائه البحث فيها يستنتج منها القوانين التى تحكم الظاهرة اللغوية التى يتحدث عنها .

وهكذا فإن ابن جنى ، قد فتح آفاقا جديدة من بحوث اللغة ، فى القرن الرابع ، بز بها من قبله ، ومن بعده ، ويمكن أن يطلق على دراساته اسم « علم اللغة » أو الاصطلاح الذى عهد عند علماء العربية «فقه اللغة» ، ولعل هذا المصطلح الذى ظهر - كما قيل - فى القرن الرابع ، وأطلق على مؤلفات أخرى فى هذا العصر جدير بأن يطلق على مؤلفات ابن جنى ، وهو - دائما - يشير إلى تلك الأبحاث البكر التى لم يتناولها غيره بقوله « هذا شيء لم أره لأحد من أصحابنا » ... (٦٦) .

ولابن فارس معاصره بعض المؤلفات التى تكشف عن أصول لغة العرب ومنها كتابه المشهور باسم « الصاحبى فى فقه اللغة » وفيه يتناول بعض بحوث فقه اللغة فيجعل للغة العرب أصولا وفروعا ، ويجعل البحث فى نشأة اللغة ، وطريقة العرب فى مخاطباتها أولى بالبحث بل هى الدراسة اللغوية الجديرة بالنظر (٦٧) .

---

(٦٦) انظر : ابن جنى : الخصائص ج ١ ص ١٠٨ وسر الصناعة مخطوطة الأزهر الورقة ٦٣ ، ٦٩ ، ١٢٨ والمحتسب ج ١ ص ٢٥٥ وغيرها .

(٦٧) انظر نصه فى ذلك فقد أوردناه ص ٢١ .

ويقول فى تقرير مبدأ الاشتقاق « أجمع أهل اللغة إلا من شذ منهم أن للغة العرب قياسا ، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض ، وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان »[٦٨] .

كما تناول معجماه « المقاييس والمجمل » مادة اللغة ، وخصائصها ولاسيما الاشتقاق الذى أرسى له دعائم قوية فى بحثه .

فالحق أن الدراسات التى أتى بها ابن جنى فى الاشتقاق الأكبر والنواحى الصوتية ، التى رتبها عليه ، وصلتها بالمباحث الكلامية واللغوية ، التى وردت فى كتبه ، تعد عملا ذا قيمة فى تاريخ الدراسات اللغوية ، فإذا أضفنا إليها أعمال أحمد بن فارس كانت هذه وتلك مكونة لأساس قوى ، ومعبرة عن مبادئ أرساها علم اللغة الحديث ، الذى عبر عن قوانين اللغة العامة بما هو أشمل مما ورد فى كتب النحو .

ومنذ نهاية القرن الرابع توالى التأليف فى متن اللغة وفقهها ولكن دون مناهج مبتكرة أو مادة علمية حديدة - فى أغلب الأحيان - ونبين ذلك فيما تلاه من عصور .

ففى القرن الخامس ظهرت مؤلفات لغوية تحوى بحوثا متعلقة بفقه اللغة ومتنها ككتاب « فقه اللغة » للثعالبى[٦٩] فقد حوى كثيرا من معانى الألفاظ التى تهم المتحدث بالعربية والباحث فيها ، ومنها جزء خاص بكلمات معربة عن الفارسية أو مشتركة بينها وبين العربية ، وكذلك كلمات نسبها بعض الأئمة إلى اللغة الرومية ، وقد أجرى بعض المقارنات بين تلك الألفاظ فى اللغات المشار إليها فى درجات الاستعمال كثرة وقلة ، وهذه البحوث التى تتعلق بالتعريب قليلة ، وهى تعد من

---

(٦٨) ابن فارس : الصاحبى ص ٦٧ .

(٦٩) ت ٤٢٩ هـ .

مباحث فقه اللغة على وجه الحقيقة أما غيرها فهو من مباحث متن اللغة ، ومثله فيما يتعلق بمتن اللغة كتاب « مبادئ اللغة » للإسكافى [٧٠] .

وأغزر الكتب فى متن اللغة ، وبيان اشتقاقاتها ، ومجازاتها ، والمعرب منها « المخصص » لابن سيدة [٧١] - ويقع فى سبعة عشر مجلدا - وفيه بحوث تدخل فى نطاق فقه اللغة ، والمجاز والمعرب ، وقضية الإبدال التى ناقشها ، وأبدى رأيه فيها بجانب مسائل لغوية أخرى كالتذكير ، والتأنيث ، وغير ذلك مما يمكن لمراجع الكتاب أن يطلع عليه .

كذلك مؤلفه « المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة » وهو معجم مهم ، سلك فيه طريقة التقليبات الصوتية .

وفى القرن السادس ألف أبو منصور الجواليقى كتابه « المعرب من الكلام الأعجمى » وقد رتبه حسب الحروف الهجائية ، وذكر فى مقدمته بعض شروط التعريب وأماراته ونشأته .

وإلى جانب ذلك ظهر معجم « أساس البلاغة » الذى انتحى منحى لغويا جديدا سلكه مؤلفه الزمخشرى [٧٢] ، وهو الفصل بين المعانى الحقيقية ، والمجازية .

وفى القرن السابع ألف ابن منظور الإفريقى المصرى [٧٣] « لسان العرب » جامعا معظم مادة اللغة حتى قيل عنه إنه حوى مواد العربية التى تبلغ ثمانين ألف مادة وعد عمدة الباحثين فى متن اللغة .

وفى القرن العاشر ألف السيوطى « المزهر فى علوم اللغة » وهو مرجع مستفيض فى بحوث اللغة ، والتى يعد معظمها من صميم فقهها

---

(٧٠) ت ٤٢١ هـ .

(٧١) ت ٤٥٨ هـ .

(٧٢) ت ٥٣٨ هـ .

(٧٣) ت ٧١١ هـ .

كدلالة الألفاظ والأصيل والدخيل ، والصحيح والضعيف ، والمنكر من اللغات ، وتداخل اللغات وتوافقها ، والقلب ، والإبدال ، والنحت ، وغير ذلك من البحوث اللغوية .

وفي القرن الحادى عشر يؤلف شهاب الدين الخفاجي كتابه «شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل » وقد ذكر فى مقدمته شروط التعريب وأماراته ، وضمن كتابه كثيرا من الكلمات المعربة ، والدخيلة وبيان أصولها .

ومعظم تلك المؤلفات التى جدت بعد نهاية القرن الرابع ينقل مؤلفوها الكثير من علم السابقين ، وأشهر الأمثلة على ذلك ابن سيدة فى مخصصه ، والسيوطى فى مزهره ، وابن منظور فى لسانه ، فالمراجع لها يلمح صورة الجمع لآراء السابقين ، وقد بين ابن سيدة ذلك فى مقدمة كتابه ، وتضاعيفه .

ويمكن العثور على كثير منها غير ما نبه عليه .

كما جمع صاحب اللسان - باعترافه وبما يبدو من معجمه من المعاجم وكتب اللغة السابقة عليه مما جعل كتابه يصل إلى عشرين جزءا وناهيك بكتاب « المزهر » الذى يعد نقلا عن السابقين فى كل فصوله ، ولا يظهر رأى مؤلفه السيوطى إلا لماما .

وما عدا ذلك مما ذكرنا من مؤلفات دراسة للألفاظ والمعانى واستعمالاتها فى العربية ، وغيرها ، وهى - على كل حال - دراسة مفيدة [٧٤] إلى جانب ما يبدو لأصحابها - أحيانا - من آراء مدعمة بالكثير مما ورد فى كتب السابقين .

---

(٧٤) كانت تلك الدراسة تلبية لحاجة العصور المتتالية فقد قوض ملك العرب واستولى الأجانب على السلطة ، وبدأت اللغات الأخرى تنافس العربية وتحاربها فى الاستعمال وبخاصة أن الحاكمين الأجانب استخدموا لغاتهم فى الرسميات ، والأدب والشعر ، كالفارسية فى العهد السلجوقى ، والتركية فى عصر العثمانيين ، حتى وقع الحزام من المثقفين

وهذا لأن الحركة العلمية فى تلك القرون قد أخذت تخبو ، بعد أن قسمت الدولة العباسية إلى دويلات ، ثم انفرط عقدها بالسقوط ، واستيلاء أيد غير عربية على مقاليد الحكم .

وكانت الأندلس حافلة بالعلم والأدب ودراسة اللغة التى قامت على أساس العلم والأدب والدراسة اللغوية فى الشرق ، وكانت للأندلسيين نظرات ثاقبة مستقلة ، وجديدة ، فى تلك النواحى بلا ريب أو جدال ، وقد ظلت تنافس المشرق أمدا طويلا ، ثم دالت دولتها العربية والإسلامية ، على يد الفرنجة سنة ٨٩٧ هـ فقضى على تراثهم .

وقد فر من فر من علماء القطرين « المشرق والمغرب » إلى مصر والشام اللتين حاولتا الإبقاء على العلم بعد سقوط الخلافتين العباسية والأندلسية ، وضياع معظم المؤلفات فى الحوادث التى ألمت ببلاد الإسلام .

يقول السيوطى « وقد ذهب جل الكتب فى الفتن الكائنة من التتار وغيرهم حيث إن الكتب الموجودة الآن فى اللغة ، من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تجئ حمل جمل واحد » (٧٥) .

وقد ازدهرت الدراسة فى مصر والشام فترة من الزمن (٧٦) لم تلبث

= بالعربية فى أخطاء لغوية جعلت الحريرى يذكرها فى كتابه « درة الغواص فى أوهام الخواص » ومن أجل ذلك ألفت الكتب المعجمية ، للتمييز بين العربى ، والأجنبى من الألفاظ مثل كتاب (المعرب) للجواليقى و (شفاء الغليل) للشهاب الخفاجى ، كما كان الحفاظ على العربية ، واستجلاء روائعها دافعا لتأليف مثل أساس البلاغة ، ومخصص ابن سيدة حتى يتحبب إلى الناس الحديث بتلك اللغة الفائقة .

(٧٥) السيوطى : المزهر ط الحلبى ج ١ ص ٩٢ .

(٧٦) كعهد المماليك الذى عرف بالموسوعات العلمية واللغوية كلسان العرب ، وصبح الأعشى . والمزهر ، وتلك الموسوعات كانت دعائم الرقى العلمى فى ذلك الأوان ، وما تلاه ، ومع ذلك كان النشاط اللغوى مقصورا على الجانب العلمى المحدود ، لأن اللغة وصلت إلى هذا العهد بعد أن وهنت مع فساد السلائق فيما مضى من العصور (انظر د. نجا : فقه اللغة العربية ج ٤ ص ١٠٣ وما بعدها) .

أن خبت جذوتها بعد تلك الفترة ، في عهد بني عثمان ، الذى بدأ على يد السلطان سليم سنة ٩٢٣ هـ فضعفت تلك النهضة العلمية ، وركدت الحركة اللغوية ، لاهتمام الحكام بلغتهم التركية ، وإضعافهم شأن العربية ، وعلى الرغم من ذلك استمرت حركة التأليف ، إلا أن معظم المؤلفات اتسم بسمة معينة هى النقل عن السابقين ، أو تلخيص ما قالوه أو شرحه ، أو التعليق عليه ، ولولا ذلك لخبا العلم العربى وانطفأت شعلته ، منذ تفكك الخلافة الإسلامية ، والقضاء عليها ، لكنه بقى ... كما أراد الله له أن يبقى .

فلما جاءت العصور الحديثة ، وتفتحت مصر على الثقافات ، بعد مجئ الحملة الفرنسية ورحيلها عن مصر ، وانتشر التعليم ، وأوفدت البعوث العلمية إلى أوربا ، ونما الاتصال الفكرى بين العرب والغرب ، والاطلاع على المستحدث فى العلوم والفنون - ومنها علوم اللغة - ووجد فن الطباعة وآلاتها وبرزت الصحافة ، والمسارح ، ودور الخيالة ومن بعد ذلك الإذاعة ، وغيرها من الوسائل التى عملت على ذيوع اللغة العربية ، فارتقى الفكر ، وغزرت المعارف ، ونهضت اللغة العربية ولما تقدمت الصناعة وكثرت المخترعات محلية وأجنبية - ولاسيما بعد قيام الثورة المباركة - احتيج إلى مناقشة القضايا التى تهم اللغة لتفى بحاجة المجتمع الجديد ، فأنشئت المجامع اللغوية فى مصر والعراق وسوريا وكان لذلك فضل كبير فى نهوض الدراسة اللغوية فكان للمحدثين اتجاه تنم عنه ثقافاتهم ، واطلاعهم على ما استحدث فى علم اللغة ، والدراسات الأجنبية ، كأحمد فارس الشدياق [٧٧] فى كتابه « سر الليال فى القلب والإبدال » ونظريته الجديدة فى دوران المادة حول معنى واحد [٧٨] وحديثه عن العلاقة بين أصوات الكلمات ومعانيها ، ودلالة الصوت على

---

(٧٧) من علماء القرن الثالث عشر الهجرى .

(٧٨) اتبعه فى تلك الطريقة السيد حسين كرامت الهندى فى كتابه « فقه اللسان » .

معناه في كل تركيب ورد فيه ، مهما يكن موضعه من الكلمة ، ورد الكلمات إلى أصولها .

كذلك بحوث الأب أنستاس الكرملي - وبخاصة ما يتعلق منها بثنائية اللغة ، ودفاعه عن هذا الرأى ، كما يبدو من كتابه « نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها » الذى يقول فيه عن هذا الرأى إننا « اتبعناه منذ أولعنا بهذه اللغة المبينة ، الرائقة ، فأخذنا بنشره ، وتفصيل دقائقه منذ سنة ١٨٨١م » [٧٩] .

وبحوث الأب مرمرجي الدومنكي ، فقد دافع عن الرأى القائل بثنائية اللغة ، وكتب فيه أبحاثا نشر منها ثلاثة صغيرة ، بعنوان «أبحاث ثنائية ألسنية» [٨٠] وقد حاول في بحوثه أن يقارن بين العربية والألسنية السامية لتأييد ما يدعو إليه من رد الثلاثي إلى الثنائي [٨١] .

ومن ذلك بحوث علماء اللغة المحدثين ، ولاسيما المشتغلين بالدراسات اللغوية في الجامعات ، وبخاصة في حصن الأزهر المعمور الذى حافظ على العربية في عهود الظلام ولا يزال - حتى اليوم - يؤدى رسالته على خير وجه وأحسن أداء .

ومنها كذلك ما يخرجه المجمع اللغوى - والمجامع اللغوية العربية الأخرى - من بحوث في مجلاتها المشهورة .

ولا تزال البحوث تمد كل يوم ، حتى تنهض العربية ، ويستعمل لسانها في تلك الأمة التى كتب لها أن تكون واحدة ، في كل شئ ، عقيدتها ، وتقاليدها وشئونها العلمية والاجتماعية ، والسياسية ، وأساس ذلك كله لغتها القومية ، حتى يصدق فيها قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

---

(٧٩) الأب انستاس الكرملي : نشوء اللغة العربية ص ٢ .

(٨٠) طبع أولها سنة ١٩٣٧ والثانى سنة ١٩٤٧ والثالث سنة ١٩٥٠م .

(٨١) الرسالة الأولى ص ٦ .

البحوث اللغوية عند العرب

لما خيف من تفشي اللحن ، وفساد السلائق ، إلى الحد الذى يعسر معه فهم كتاب الله ، فتضيع مبادئه ، وتنسى أحكامه بدأ العلماء - بجد ونشاط - فى وضع حد للحفاظ على لغة القرآن ، وقد برزت نتيجة سعيهم الحثيث ، وعملهم الدءوب دراسات متنوعة للغة .

١ - جمع الألفاظ :

ذهبت طائفة من العلماء إلى البادية ، لأخذ اللغة من الأعراب الفصحاء ، وتدوينها صافية ، لم تشبها شوائب العجمة التى بدأت فى الدخول إليها ، من الأقطار المفتوحة ، ومن العلماء الأجلاء الذين أبلوا بلاء حسنا فى ذلك الخليل بن أحمد والأصمعى ، ويونس بن حبيب الضبى [٨٢] وأبو زيد الأنصارى وغيرهم .

ونتيجة لهذا الجمع برزت عدة كتب تأخذ اتجاهات ثلاثة :

(أ) جمع الألفاظ الخاصة ببعض الموضوعات :

وهذا الاتجاه مجرد جمع لبعض الألفاظ ، مصنفة حسب موضوعات معينة ، مع ذكر ما يتعلق بها من معان أو آثار أدبية وعربية ، ويبدو ذلك فى رسائل صغيرة ، من أهمها ما جمعه الأصمعى ، فى أسماء الوحوش والغابات والشجر ، والإبل والخيل ، والسلاح ، وأبو حنيفة الدينورى فى الأنواء والنبات ، وأبو زيد فى المطر ، واللبن والغرائز ، والجرائم ، ونحو ذلك مما يشبهه .

(ب) جمع الألفاظ الموضوعة لمختلف المعانى :

وهذا الاتجاه يقوم على أساس إيراد المعانى مرتبة حسب أطوارها - أولا - ثم إيراد الألفاظ الموضوعة لها بعد ذلك ، كمراحل خلق الإنسان حيث يبدأ - أولا - بذكر تلك المراحل ، من حمله ، ووضعه ، ورضاعه ، وفطامه ، ثم يذكر - بعد ذلك - الألفاظ الخاصة بها ، والتى تحمل هذه المعانى .

---

(٨٢) ت ١٨٢ هـ .

ويبدو هذا النظام في طائفة من المؤلفات اللغوية ، منها ما هو صغير مثل (الألفاظ) لابن السكيت ، و (الألفاظ الكتابية) للهمذاني ، و (مبادئ اللغة) للإسكافي ومنها ما هو كبير مثل (المخصص) لابن سيدة ، فهو يقع في سبعة عشر مجلدا .

(جـ) جمع الألفاظ على نظام معجمي دقيق :

وهذا الاتجاه يقوم على أساس جمع ألفاظ اللغة ، وتنظيمها بطريقة خاصة وشرحها شرحا وافيا ، مؤيدا بمأثور الكلام شعرا ونثرا ، وعلى رأس ذلك القرآن الكريم . والحديث الشريف ، وهذا النوع هو المعروف بالنظام المعجمي ، وكل كتاب ينتهجه يسمى (المعجم) .

ولهذا النظام المعجمي طرق متعددة ، بدأت على يد الخليل بن أحمد بابتكاره طريقة « التقليبات الصوتية » التي رتب عليها أول معجم عربي هو (العين) وسار على دربه الأزهري في تهذيبه ، والقالي في بارعه ، وابن سيدة في محكمه وتابعه ابن دريد في جمهرته على طريقة التقليبات ، لكنه خالفه في جمعه الألفاظ على الهجائية العادية لا الصوتية ثم برزت عدة نظم معجمية أخرى ، كطريقة « القافية » التي انتهجها الجوهري في صحاحه وحذا حذوه بعض اللغويين - كالفيروزابادي في قاموسه ، وابن منظور في لسانه ، وكطريقة « الأبجدية العادية » التي اتبعها ابن فارس في مقاييسه ، ومجمله ، والزمخشري في أساسه ، والمقري [٨٣] في مصباحه ، وغير أولئك من أرباب المعاجم الحديثة .

وهذا اللون الدراسي الذي يذكر الألفاظ والمعاني ، يعد دراسة حقيقية واقعية ، دون اتجاه إلى الدراسة التحليلية ، والتطورية فلم ينظر إلى اللفظ ومعناه ، في تاريخه الطويل ، وتطوره على مر العصور

---

(٨٣) ت ٧٧٠ هـ .

المختلفة، إن كان حدث له ذلك وعوامل هذا التغيير ، ونتائجه ، وقوانينه، وغير ذلك مما يكشف عن التاريخ اللغوى ، واتجاهاته ، مما هو من صميم « علم اللغة » .

ومن هنا لم يعول علماء اللغة المحدثون على مثل هذا الجمع اللغوى، فلم يدخلوه فى نطاق « علم اللغة » بمعناه المعروف حديثا .

٢ - وضع القواعد التى تقى اللسان من العثار:

هذا النوع من البحوث قامت به طائفة من العلماء ، لتصحيح الخطأ اللغوى ، والحفاظ على طبيعة السليقة العربية ، حتى لا يقع متعلمها فى اللحن ، ولتستقيم الألسنة عليها .

ويقوم هذا البحث ، على أساس وضع القواعد اللغوية الخاصة بالمفردات ، والتراكيب العربية - كما نطقها العربى الفصيح ، فالمفردات لها أنواع - من حيث الاسمية والفعلية والحرفية - ولها مواقع تتغير حسب المعانى المرادة منها ، وحسب مواقعها المختلفة ، وتجرى عليها أحكام ظاهرية من رفع ونصب وجر وجزم ، ومواقع محلية ، لتركبها فى كلام مفيد ، ويمكن أن تطرأ عليها تغيرات تؤدى إلى اختلاف أحوالها إعرابا وبناء ، وبنية ومعنى .

فوضعت لذلك القواعد التي تستمد من كلام العرب ، وتتمشى حسب مناهجهم اللغوية ، وقد أطلق على ما يختص ببنية مفردات اللغة (علم الصرف) .

وقد بدأ الأمر بدراسة النحو ، إلى نهاية القرن الأول الهجرى ثم اختلطت به دراسة الصرف ، وظلت - كذلك - تدرس مع النحو ، وإن تميزت أخيرا ببحوث خاصة ، عرفت بها مسائل الصرف .

وقد قامت بهذين اللونين من الدراسة طوائف دأبت على هذا النوع

من البحوث ، واشتد التنافس بينها ، على الإجادة والإحسان ، وحرية الرأى . فى البيئات اللغوية المشهورة البصرة ، والكوفة ، وبغداد ، والأندلس ، ومصر وغيرها .

وتاريخ المدارس اللغوية معروف لدى الباحثين ، وقد اتبع البصريون المنهج العلمي في طريقة وضع القواعد ، فاعتمدوا على جمع (عينات) لغوية ، ودرسوها دراسة وصفية تحليلية ، ثم شخصوا ظواهرها ، وحددوا معالمها ، وحكموا عليها الحكم الذى رأوه ، ووضعوا له القانون الذى يحكمه ، معتمدين - فيما نعلم - على الكثرة من الشواهد ، التى تؤكد القاعدة التى رأوها ، ولكن الكوفيين لجأوا فى تنظيم القواعد إلى الاكتفاء بنموذج واحد يستنبط منه قانون عام فهم ، - كما قال علماء اللغة - يكتفون بالشاهد الواحد ، ولو لم يعرف قائله، وهذا منهج - في رأيي ورأى الباحثين المدققين - بعيد عن الدرس اللغوى الصحيح لأنه أدي إلى التكثير من القواعد التى تعد متضاربة فى بعض الأحيان [٨٤] ، وعلى نظامهم فالضوابط متشعبة ، لا تحدد للباحث الطرق التى تعصمه من الزلل ، بل تزيد أمامه الأمر تعقيدا ، فهو قد يجد نفسه أمام الشئ ، وضده والقاعدة ، وعكسها ، فكيف يستعمل ؟

---

(٨٤) كما فى تجويزهم دخول اللام فى خبر « لكن » - على ما سبق بيانه ص ١٠ .
وقول بعضهم بجواز الجزم بـ « أن » بناء على بيتين من الشعر هما :

إذا مـــا غـــدونا قـــال ولدان أهلنا
تعـــالوا إلى أن يأتنا الصـــيد نحطب

أحـــاذر أن تعلم بهـــا فـــتردها
فـــتتركـــها ثقلا على كـــما هيـــا

مع أن الضرورة واضحة فى البيتين ..
انظر : ابن هشام : مغنى اللبيب ط . عيسى الحلبى ١ / ٢٩ .

إنه موقف محير ، وغير مفيد لما يرجى من كشف القوانين اللغوية ، ولا يتفق والبحث العلمي السديد ، ومنهج العلم الحديث يدعو إلى الكشف عن حقيقة الظاهرة بعد التأكد منها بالنماذج المتعددة ، التى تستلفت الانتباه إلى الظاهرة ، وما يترتب عليها ، شأنها فى ذلك شأن القضايا العلمية فى كل فروع العلوم المختلفة ، والتى تؤيدها التجارب العلمية .

أما الفريق الثالث - وهم البغداديون - فقد وقفوا بين الفريقين السابقين ، يأخذون من هذا وذاك ما يوافق هواهم ، وما يحلو لهم ، موفقين بين المذهبين ، وخالطين لمسائل الطرفين ، ولاستنتاجهم فيأخذون من كل بنصيب .

كما كان للأندلسيين والمصريين ، إسهام فى تلك الدراسة ، وآراء لا يستهان بها .

وعلى رأس الواضعين للقواعد الخليل بن أحمد ، زعيم البصريين ، وأبو جعفر الرؤاسى [٨٥] زعيم الكوفيين ولسيبويه ، وابن جنى ، وغيرهما من أعلام هذا الفن باع طويل فى هذا التقنين ، ثم جاء المتأخرون الذين هذبوا القواعد ، وجمعوا أهمها ، كالزمخشرى ، فى «المفصل» وابن الحاجب [٨٦] فى « الكافية » و « الشافية » وابن مالك [٨٧] فى « التسهيل » و « الألفية » وابن هشام [٨٨] فى مؤلفاته المتعددة التى تناسب مستوى المتعلمين [٨٩] .

وهذه البحوث لا تعدو - فى نظر علماء اللغة الغربيين - أن تكون دراسات أولية تعليمية ، ولا تدخل فى نطاق « علم اللغة » بمعناه الحديث

---

(٨٥) ت ١٦٧ هـ .

(٨٦) ت ٦٤٦ هـ .

(٨٧) ت ٦٧٢ هـ .

(٨٨) ت ٧٦١ هـ .

(٨٩) مثل قطر الندى - شذور الذهب - أوضح المسالك - مغنى اللبيب ... إلخ .

لأنها لا تتعدى إصلاح الأخطاء ، وتقويم اللسان إلى جوهر اللغة ، وذاتها ، فما نطلق عليه « علم النحو » يقابل - عندهم - « علم التنظيم التعليمى » وما نسميه « علم الصرف » يقابل عندهم « علم البنية التعليمى » .

٣ - الاهتمام بالقراءات القرآنية وأثره :

اهتمت طائفة من العلماء بالقرآن الكريم ، لمعرفة أصواته ، وطريقة أدائه حسب الوجوه المروية فيه ، والمسندة إلى النبى ﷺ والتى تنقل لنا آثار اختلاف اللهجات العربية ، وتأثيرها على أداء آيات القرآن الكريم ، تخفيفا من الله ، ورحمة .

وتلك الطائفة من العلماء - متمثلة فى القراء وعلماء القراءات - حافظت على تلك الوجوه وأوصلتها إلينا كاملة غير منقوصة ، فكانت تؤثر محفوظة عنهم - بالمشافهة والتلقين - حتى دونت - آخر الأمر - فى العصر العباسى واضحة القواعد والأسانيد .

فقد ظهر فى الأمصار الإسلامية - بعد انتشار الإسلام - أعلام للقراءة على الوجوه المروية عن الرسول ﷺ ، ولعلهم كانوا كثيرا - فى أول الأمر - وفى نهاية القرن الثانى اشتهر منهم سبعة عرفوا بالعدالة والأمانة والضبط .

ثم جاء ابن مجاهد [٩٠] فألف فى القراءات ، ونتيجة لما كتب ظهرت مؤلفات عدة فيها لأبى بكر بن السراج ، وأبى طاهر عبد الواحد البزاز [٩١] ومحمد بن الحسن الأنصارى [٩٢] ومحمد بن الحسن بن مقسم [٩٣] وأبى منصور الأزهرى .

---

(٩٠) ت ٣٢٤ هـ .

(٩١) ت ٣٤٩ هـ .

(٩٢) ٣٥١ هـ .

(٩٣) ٣٦٣ هـ

ومن الكتب المهمة التي وصلت إلينا الحجة لابن خالويه [٩٤] والحجة لأبي علي الفارسي ، والمحتسب لابن جني .

ثم تتتابع الكتب المؤلفة في القراءات ، والاحتجاج لها كالتبصرة ، والإبانة ، والكشف ، لمكي بن أبي طالب [٩٥] وجامع البيان ، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني [٩٦] والكافي في القراءات السبع لأبي القاسم الرعين الإشبيلي [٩٧] وحرز الأماني ووجه التهاني (الشاطبية) لأبي القاسم بن فيرة الشاطبي [٩٨] والنشر ، وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري [٩٩] وغيرها مما جد بعد ذلك حتى الآن .

وللقراءات أهمية خاصة ، حفظت لنا أصوات اللغة العربية عبر أربعة عشر قرنا ، حتى لتمثل - في معظمها - النطق العربي الأصيل ، وبذلك بقي لها جدتها ، فمخارج الحروف ، وصفاتها ، محددة مضبوطة ، وما يعرض لها من ألوان التغير والتفاعل بينها أكسبته القراءات صموده مع الزمن ، وثبوت قوانينه ، بالدليل العلمي الأكيد .

ومن هذا المنطلق أمكن ، تحديد معالم الصوتيات العربية ، ومناهجها ونتائجها فيما يعرف لدى المحدثين باسم « الفوناتيك » .

ومع ذلك فهي معين ثرى نعرف منه اتجاه اللغة العربية ، ولهجاتها التي لعبت الأسباب البيئية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والزمنية ، دورا رئيسا في تكونها ، وتلونها بألوان تلك البيئات ، وصلات القربى بينها ، وبين الأم العربية الكبرى الأصلية ، وكانت دليلا واضحا على

---

(٩٤) ٣٧٠ هـ .

(٩٥) ٤٣٧ هـ .

(٩٦) ٤٤٤ هـ .

(٩٧) ٤٧٦ هـ .

(٩٨) ٥٩٠ .

(٩٩) ٨٣٢ هـ .

تعدد اللهجات ، عند العرب الأولين ، وتجمعها فى لهجة قريش ، بعد صراع طويل ، إلا أنها لم تخل من تأثير اللهجات المحلية الأخرى ، التى تعد طبيعة من طبائع الاجتماع الإنسانى .

ومن القراءات التى حفظها لنا تاريخ القرآن ، أمكن دراسة العربية ومعرفة أصواتها ، وما يتصل بها ، وطرائق تطورها فى التاريخ السحيق ، حتى الآن ، ودرست أسباب ذلك ، وعرف - عند قدامى اللغويين ومحدثيهم - ما ترتب عليها من تغير مع الأجيال والأزمان المتطاولة ، كما درست اللهجات العربية ، والصراع اللغوى ، وقوانين الانقسام والتوحد فى اللغة ، وطرائق النطق ، واختلافها باختلاف الناطقين وبيئاتهم ، وهذان اللونان الدراسيان من أهم فروع « علم اللغة » (الفوناتيك والدياليكتولوجيا) .

وقد كان لعلماء العرب - دون تعصب - باع طويل فيهما استطاعوا أن يثبتوا معالم الفرعين بطريقة واضحة ، وعلمية .

ويكفينا الدراسات التى قام بها الخليل فى (العين) وسيبويه فى (الكتاب) وأبو على الفارسى فى كتبه التى منها (الحجة ، والبغداديات ، والبصريات) وتلميذه العبقرى أبو الفتح عثمان بن جنى ، الذى استطاع بعقله الفذ ، ودراسته العلمية الصحيحة أن يقيم عمد الدراسة العلمية اللغوية ، وأن يوطد أركان « علم اللغة » بدراسته للصوتيات ، وسبق الأوربيين بما وصل إليه من نتائج فى هذا الباب ، كأصوات اللين ، ومقاييسها ، التى سبق بها دانيال جونز الإنجليزى ، ومعرفته للفونيم ونظريته قبل هذا العالم الأوربى ، كما وصل إلى نتائج قيمة فى دراسة اللهجات ، وصراعها ، وطرق انقسامها ، وأسبابه ، ونتائجه ، حين يتلاقى العربى مع أخيه ، وحين تفرق بينهما عوامل

البيئات الصحراوية ، والحضرية ، وذلك واضح فى أهم كتبه الخصائص وسر الصناعة .

كما بحث هؤلاء العلماء سمات العربية الفصحى ، وخصائصها المميزة ، فى الاشتقاق ، والدلالة ، وصلة اللفظ بالمعنى ، وتعدد المعانى والألفاظ ، وأغراضه ، ونتائجه بما أفاد قوة هذه اللغة ، وصلاحيتها للحياة والحضارة وألقى الضوء على نشأة لغة الإنسان وطبيعتها ، وسلوكها العام ، بما أمكن الاستفادة منه فى دراسة اللغات جميعا .

٤ - الدراسة البلاغية :

وهذا النوع من البحوث يختص ببيان فصاحة الألفاظ ، وجزالتها ، وحسن الأساليب ومواقع كل لفظ فيها ، ومناسبتها لمقتضى الحال ، وظهورها فى ثوب لائق بديع .

وبه قام جمع من الباحثين فى لغة العرب فدرسوا طبيعة الألفاظ ، وطرق النظم والملابسات التى تقتضى لونا معينا من الألفاظ - بأوضاعها المتعددة - والأساليب ذات الإيجاز أو الأطناب ، أو المستعملة على وجه الحقيقة ، أو المجاز ، أو غير ذلك من وجوه الأداء العربى وأسبابه ، وأسراره ، وأمكنهم الوصول فى ذلك إلى قواعد خاصة باتجاهات الألفاظ، والأساليب المستعملة بهذا الصدد ، عرفت - فيما بعد - بعلمى (المعانى والبيان) كما درسوا الوسائل التى يستعملها العربى لإبراز عبارته فى ثوب ينم عن الاحتفاء بالمعنى المطلوب ، من الصيغ البديعى ، الذى عرف بعلم « البديع » وتلك هى علوم البلاغة « كما يسمونها » .

وقد ألف فى ذلك أبو عبيدة [١٠٠] كتابه « مجاز القرآن » -

---

(١٠٠) ٢٠٩ هـ .

والجاحظ [١٠١] كتابه « إعجاز القرآن » وابن المعتز [١٠٢] كتابه « البديع ثم جاء أبو هلال العسكرى [١٠٣] بكتابه « الصناعتين » فكان أوفى فى هذا المقام من سابقيه - بعلاجه لعلوم البلاغة الثلاثة - وتلاه عبد القاهر الجرجانى [١٠٤] بكتابيه « دلائل الإعجاز » وأسرار البلاغة » اللذين فصل فيهما مسائل هذه العلوم ، بدقة فائقة ، عد - من أجلها - إمام البلاغة غير منازع ، وعلى الرغم من ذلك داخلت الفلسفة ، والمنطق ، الدراسة البلاغية - فيما بعد - على يد السكاكى [١٠٥] فقد ضمن كتابه « مفتاح العلوم » بعض الجوانب البلاغية ، ومزجها بالفلسفة والمنطق وكذلك الخطيب القزوينى [١٠٦] فى تلخيصه المفتاح ، مما أضاع لذة البلاغة ، وصفاءها وطبيعتها اللغوية .

وهذا اللون الدراسى هو المعروف عند الغربيين بـ« علم الأسلوب التعليمى » .

٥ - الدراسة الأدبية والنقدية :

تعد الآثار الأدبية لدى كل أمة على جانب كبير من الأهمية ، ولاسيما عند العرب ، فهى التى تعى ثروتهم اللفظية ، ومادتهم الفكرية ، وأحوالهم الاجتماعية مستمدة من مأثور كلامهم ، وسجل تاريخهم الحافل .

وقد نهضت دراسة الأدب ونقده عندهم ، لما بدا لها من أهمية ، ولما بعث عليها من عوامل ، اجتماعية ، وتاريخية ، ولغوية :

---

(١٠١) ت ٢٥٥ هـ .

(١٠٢) ٢٩٦ هـ .

(١٠٣) ٣٩٥ هـ .

(١٠٤) ٤٧١ هـ .

(١٠٥) ٦٢٦ هـ .

(١٠٦) ٧٢٩ هـ .

فنشأ (علم الأدب) من دراسة الشعر والنثر ، لبيان ألفاظه ، وأساليبه ومعانيه ، وما يدل عليه من عادات وتقاليد ، وأخبار ، وحوادث اجتماعية ، تبين حال العرب ، وتكشف عن مستواهم الفكرى ، والحضارى .

كما نشأ (علم تاريخ الأدب) من دراسة الشخصيات الأدبية - شعراء وخطباء وكتابا - دراسة تتناول حياتهم ، والمؤثرات عليها ، والموازنة بينهم ، كما تتناول الموازنة بين نتاج هؤلاء الشعراء من الناحية الأدبية والفنية [١٠٧] ولا ننسى أن هذين اللونين من الدراسة ، (الأدب وتاريخه) كان يلازمهما نقد النصوص الأدبية شعرية ، ونثرية ، لإبراز خصائصها ، واتجاهات أصحابها ، - على وجه المقارنة - تبعا لأحوال نشأتهم ، وثقافتهم ، وطرق الأداء عندهم على مر العصور [١٠٨] .

وقد زادت تلك النهضة نموا فى العصر العباسى ، ولا تزال تتقدم - حتى اليوم - بخطوات واسعة .

وفى هذا الشأن ألفت كتب عديدة ، يرجع إليها فى علم الأدب والنقد [١٠٩] .

وأهم هذه الأنواع هو الصوتيات ، واللهجات ، وتحليل البنية ، والأساليب التى كان لعلمائنا شأن كبير فى بحثها ، واستخلاص النتائج منها ، بما ضارع البحوث الغربية ، أو نقول : كان على طريقها .

---

(١٠٧) مما هو جدير بالذكر أن الأدب شعرا ونثرا يمثل الشواهد العربية الأصيلة ، التى قامت على أساسها الدراسات اللغوية ، لضبط القواعد وتحديد السلوك اللغوى ، فى علوم العربية المشار إليها ، ومنها - كذلك - استنتج الخليل الألوان الموسيقية التى سار عليها الشعر العربى ، وأضحت علما مستقلا يسمى « علم العروض والقافية » .

(١٠٨) انظر د. محمد مندور « النقد المنهجى عند العرب » ففيه بيان لتدرج الدراسة الأدبية ص ١٥ وما بعدها .

(١٠٩) غنى عن الإشارة ، ما كان للعرب من فضل فى بحوث الخط ، والكتابة ، مما كان له أثر على اللغة ، وطرق رسمها ، والحفاظ عليها .

وقد مرت فترات تاريخية ، لم يحاول أهلها التجديد والإضافة ، ومتابعة السير على ما أصل الأولون ، بل انصرفوا - لقلة استعدادهم ومحصولهم العلمى وقدرتهم على الابتكار - إلى نقل أفكار المتقدمين بل إلى نقل تراثهم ، نقلا حرفيا ، ولم يحاولوا - فى أحيان كثيرة - تفسير ما نقلوه خوفا من الوقوع فى الزلل ، ولهذا - وحتى يثبتوا لأنفسهم جولات فى الميدان - داروا حول هذا التراث ، بالتعليل ، والفلسفة ، والمنطق ، بما أبعد منهجهم عن الطريق العلمى المستقيم .

وظلت الحال - كذلك - حتى كانت العصور الحديثة ، التى هب فيها أبناء العرب ، وبخاصة فى مصر ، ينظرون فى اللغات بعامة ، ولغتهم العربية بخاصة ، وقد تهيأت لهم السبل ، بمعرفة بعضهم باللغات الأجنبية ، والسامية واطلاعهم على ما أحدثه الغربيون فى هذا الاتجاه ، فطبقوا المناهج الحديثة على لغتهم العربية ، واستخلصوا النتائج ، فى ضوء المقاييس العلمية الجديدة ، واستطاعوا - بدأبهم على البحث والنظر فى تراث العربية الخالد ، إلى جانب ما هيأته لهم ثقافتهم من معرفة ملامح التطور فى الدراسات اللغوية فى الغرب ، استطاعوا أن يضعوا بعض المناهج الصحيحة للعربية ، ويكشفوا عن أسرارها ، ويؤكدوا رقيها ، ويرسموا لها طرائق للحفاظ عليها ، ومسايرتها للحياة العصرية ، وقد أحدثوا الدراسات المقارنة بين أفكار أسلافهم القدماء ونظراتهم اللغوية ، وأسس الاستنتاج عندهم ، والمواد اللغوية التى كانت أساس دراساتهم ، ومحتواها ، ومفاهيمها المختلفة ، وملاحظاتهم عليها ، قارنوا ذلك كله بما وصل إليه ، « علم اللغة الحديث » ، ووقفوا على مدى التوافق ، والتخالف . فأكدوا ما صح ، وفندوا ما زيف بالمناقشة العلمية الموضوعية .

ولهم - فى هذا الشأن - دراسات - دون شك - لها أثرها الكبير . فى توجيه الدراسات اللغوية ، فى خط مستقيم ، مفيد للغة ، ولطلابها ، ولحياتنا المعاصرة .

وقد كشفت تلك المحاولات الصائبة ، عن أسرار لغوية جديدة واتجاهات لربط اللغة العربية بما يكفل لها النمو ، وسرعة الحركة ، والتجدد ، والقوة وعمق التأثر والتأثير .

وقد شهدت الجامعات المصرية فى القرن العشرين مجموعة من النابهين فى هذا الشأن ، ومنهم من كانت لأقلامهم صولات وجولات خارجها ، ومؤلفاتهم لا تزال - وستظل - نبراسا ، يسترشد به أولو الهمم ممن يغار على لغته ، وقوميته ، فيتابعهم لإكمال البناء .

ففى الصوتيات ، واللهجات ، وعلم اللغة - بوجه عام - وتاريخ اللغة وآدابها ، رأينا الجديد ، المطبق على تراث أجدادنا ، والذى صقله ، وأظهر جلاءه وصفاءه ، ورأينا الدراسات القيمة التى فتحت الآفاق ، للباحثين ، واللغويين ، وإن كان الطريق لا يزال طويلا ، إلا أن هذه خطوات مشكورة ، ممهدة للسير فيه والاستمرار فى بذل الجهد .

فمعاجمنا لا تزال - كما سبق أن ذكرت - تغص بالألفاظ ، والمعانى ، تتعدد المعانى تارة ، واللفظ واحد ، وتتعدد الألفاظ ، والمعنى واحد تارة أخرى ، ودون تفرقة بين الحقيقى والمجازى [١١٠] والمتقدم ، والمتأخر ، وعوامل الزمن ، والبيئات المختلفة ، وأثرها فى هذا التعدد ، واتجاهاته ، وذلك يحتاج إلى جهود جبارة ، لضبط هذه الأمور ، وتحديد

---

(١١٠) هذا باستثناء أساس البلاغة « للزمخشرى » وتاج العروس « للزبيدى ت ١٢٠٥ هـ » فإنهما عنيا بالتفرقة بين الحقيقى والمجازى من المعانى ومع ذلك فلم يفرقا بين أنواع المجاز المختلفة من مجاز لغوى أو عقلى أو استعارة أو كناية ، انظر د. نجا : المعاجم اللغوية ص ١٦١ ، ١٨٤ ، ١٨٥ .

اللفظ . بأصواته السابقة واللاحقة ، ومظاهر التطور ، وأسبابه ونتائجه، وربط المعنى بالصورة الصوتية ، ونسبتها لأصحابها الأصليين ، وانتقالها من حال إلى حال ، وتغير المعنى - تبعا لذلك - وتصفية الألفاظ المشتركة والمتضادة ، والمترادفة ، بما يوضح آثار اللهجات والعوامل الصوتية ، والبيئية ، فيها .

ولا تزال اللهجات الشعبية ، في الأقطار العربية ، - كذلك - في حاجة إلى التعرف على خصائصها ، وسماتها ، على وجه الدقة ، وبخاصة ، بعد أن بدأت بعض الدراسات في هذا الشأن ، فبالوقوف على سماتها ، واتجاهاتها ، يمكن ضبط العوامل المؤثرة ، وطرق وصلها بالأم العربية ، حتى لا تفقد أواصر القربى ، فتضل الطريق ويضيع التاريخ العربى .

كذلك فالقواعد العربية ، لا تزال تحتاج إلى جهود ، في المقارنة بينها وبين التقعيد في شقيقاتها الساميات ، حتى يتضح مسار التنظيم فيها ، والوقوف على القواعد الصحيحة ، والزائفة ، ووجوه الصلات بين العربية ، وأخواتها لنقف على « الأم » السامية الأولى التى ما تزال طى الغيب ، وإن بذلت محاولات في هذا الشأن .

كذلك لا تزال الحاجة ماسة إلى جهود للاستفادة من عوامل نمو العربية كالاشتقاق ، وآثاره ، في تنوع المعنى ، وصلاحية اللفظ المستعمل للمعنى الذى يوضع له وهذه من المسائل المهمة التى تقوم على إنجازها مجامع اللغة العربية ، في مصر ، وغيرها .

وعلى كل حال ، فالطريق الآن أوضح مما كان ، والعلماء كل يوم يكتشفون جديدا ، ويستخدمون أحدث الوسائل ، التى تساعد على الوصول إلى ما تتطلبه لغتنا ، من عزة ، ومكانة ، ورقى ، وانطلاق . وهذا يحتاج - فيما يحتاج - إلى إجادة بعض اللغات الأجنبية .

والسامية ، لصحة البحث ، وسلامة النتائج ، ودراسة القدماء ينقصها هذا الجانب المقارن ، ويرجع ذلك إلى عدم إحاطة معظمهم بغير العربية من أخواتها أو الأجنبيات عنها ، مع أن كثيرا منهم أشاروا فى مواطن مختلفة ، إلى بعض اللغات السامية ، كالعبرية ، والسريانية [١١١] وعلى الباحث أن يقارن بين فصيلة الساميات ، وفصائل اللغات الإنسانية عامة، حتى نعرف سر إطلاق السامية على لغتنا [١١١] وسماتها التى عرفت بها .

وقد أصبحت تلك المعرفة من أوجب الأمور على الباحث اللغوى وإن بدا أن علماء اللغة ، وفقهاءها كانوا لا يجيدون غير لغتهم القومية [١١٢] .

فهذه المعرفة توقفه على وجوه التقارب ، والتباعد بين المتشابه من اللغات ، والمختلف منها ، والآخذ ، والمعطى ، مع الاستعانة بما كتبه الأجانب فى هذه النواحى .

ونحن على الطريق ماضون ، بعون الله ، حتى نصل إلى ما نرجوه للغتنا ، من قوة ، ولأمتنا العربية ، من وحدة وتقدم ، وازدهار .

---

(١١١) د. الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ٢٤ ، ٢٥ .

(١١٢) المصدر السابق ص ٥ ، و د. السعران : علم اللغة ص ١٢ وما بعدها .

الباب الثانى

علم اللغة عند علماء الغرب

علم اللغة عند علماء العرب

مدلوله :

عرف - حديثا - بين المشتغلين بالعلوم والفنون من الغربيين أن هناك فرقا بين اصطلاحين سائدين في تلك المجالات ، هما « علم » و «فن» فكلمة « علم » تطلق اصطلاحا : على البحث الذى يتناول دراسة مجموعة من الظواهر لمعرفة حقائقها ، ووظائفها ، وعلاقتها بغيرها ، وتطورها ، وأسباب ذلك ونتائجه .

وكلمة « فن » تطلق اصطلاحا : على البحث الذى يتناول الوسائل الموصلة لغايات معينة .

فمثلا « الفسيولوجيا » [1] « علم » لأنها تدرس الإنسان ، من حيث أعضاؤه ، ووظائفها ، ونموها ، والعلاقات بينها ، وبين غيرها ، والمبادئ التى تسير عليها نشأة وتطورا وأداء وظيفة .

ولكن « الطب » « فن » لأنه يدرس جسم الإنسان لبيان الوسائل التى تفيد فى شفائه من الأسقام التى يحتمل أن تصيبه .

« والسيكولوجيا » [2] التى تدرس القوى العقلية - على الطريقة الأولى - « علم » ، ولكن دراستها لبيان الوسائل المفيدة لترقيتها وتهذيبها - على الطريقة الثانية - وهى ما تسمى بـ« التربية العامة » يطلق عليها اسم « فن » .

وهكذا فكل ما يدرس الظواهر مشخصا لها ، ومبينا حقائقها ، وما يتصل بها ، على جهة الوصف التحليلى ، يسمى « علما » .

أما ما يتجه إلى التطبيق والاستفادة من دراسة الظواهر فإنه يسمى

---

(١) علم وظائف الأعضاء .

(٢) علم النفس .

فـ رموضـوعـات اللغـة من قـبـيل العلوم لا الفنـون ، لأنهـا تدرس الظواهر اللغوية دراسة تحليلية وصفية ، على ما هو الواقع لا ما ينبغى أن تكون عليه .

وطيلة أحقاب متطاولة من التاريخ الذى درس فيه العرب لغتهم ، ووضعوا لها القوانين والمبادئ ، كانت « أوربا » تغط فى سبات عميق .

فقبل أواخر القرن الثامن عشر لم تكن لهم دراسات لغوية ، تأخذ طابع العلم وقـوانينـه ، بل مـجـرد مـسـائل مـحـدودة ، تتـعلق بالـبنيـة ، والتنظيم والأسلوب على صورة يفيد منها المتعلمون .

ثم أخذت الدراسـة اللغـوية الحقـة فى الظهـور ، والاكـتمـال ، بعد ذلك فقـد حـاول علمـاء الغـرب دراسة لغـات العـالم ، وصـفـا وتـاريخـا ، ومـقـارنة ، فـأخـذوا يحـددون ظواهـرها ، ويصـفـونهـا وصـفـا دقـيـقـا ويبحثـونهـا فى مراحلهـا التـاريخيـة ، التى مرت بهـا ، ويوازنون أحوالهـا فى تلك العـصـور ، ويعـقـدون المقـارنات بين مـراحل اللغـة الواحـدة ، واللغـات بعضـهـا وبعض ، لمدرسوا قـواعـد اللغة النحوية ، والصـرفـيـة ، والاشـتقـاقـيـة ، والمعجمية ، ومفـرداتهـا ، ومظاهـر دلالتهـا ، وتطـوراتهـا ، فى المجتمع الواحد ، والمجتمعات المختلفة ، وعـوامل الاخـتـلاف والاتفاق ، والمؤثرات على وجـود كل منها ، ومـا يتـصـل بذلك ، وغـيـره من المظاهر اللغـويـة ، ووصلوا من ذلك إلى قـوانين عـامـة تحكم تلك الحـالات التى وقـعت تحت أبصـارهم اتفـاقـا واخـتـلافـا حـسـب مـا تمليه أحـوال النـشـأة اللغـوية ، فى اللغـات الإنسـانيـة التى تَوافـروا على بحـثـهـا ، وخلصـوا من دراساتهم إلى رسـم مناهج تسير عليها تلك اللغات ، وتحكم تصرفها .

ومن ثـم تغـيـرت النظرة إلى طبـيـعـة اللغـة ، ووظـائفـهـا ، ومنـاهج دراسـتـهـا التى أضـحـت « علـمـا » من العلوم ، مـحـدد الموضـوع والمنهج والوسائل .

وقد برز « علم اللغة » واستقل في منهجه ، وتخصص في وسائله منذ أواخر القرن التاسع عشر .

فمدلوله - حسب دراسات الغربيين - أصبح واضح القسمات فهو - عندهم - العلم الذى يتناول الظواهر اللغوية ، فيحدد معالمها ، واتجاهاتها ، في اللغات الإنسانية ، ونتائجها والقوانين التي تحكمها .

وبه يستفيد الباحث ، فيقف على مدى اختلاف اللغات ، وعلاقة بعضها ببعض ، وتطور أصواتها ، ومفرداتها وقواعدها ، ودلالتها ولهجاتها ، وعوامل انقسامها ، والمؤثرات المختلفة على سيرها ، ومن هنا يمكن تفسير الغامض من أمرها .

كما يقف به على حقيقة هذه الظواهر ، وتشخيصها ، ووظائفها التي تؤديها في مختلف المجتمعات الإنسانية .

ومن ذلك كله يمكن أن تربط المجموعات المتشابهة من الظواهر في بعض اللغات ، برباط يضمها ، ويرجعها إلى أصل واحد ، وربما كشف ذلك عن المكونات الأولى للغة الإنسانية .

ولذلك فإن موضوع هذا العلم - كما يقول فرديناند دى سوسير - : اللغة معتبرة في ذاتها ، ومن أجل ذاتها [٣] ومعنى في ذاتها ومن أجل ذاتها « أن علم اللغة بالمفهوم الحديث لا يجرى وراء تصحيح الكلام ، أو الكشف عن أخطائه ، وليس من وظيفته المباشرة وضع قواعد ، أو أحكام عامة ، للتمييز بين الجيد والردئ منه ، وإنما وظيفته دراسة اللغة ذاتها ، إذ هي - في عرفنا - ما يتكلمه الناس بالفعل ، لا ما يجب أن يتكلمه الناس » [٤] .

---

(٣) د. السعران : علم اللغة ص ٥١ .

(٤) د. بشر : دراسات في علم اللغة القسم الأول ص ١١ من مقال عن كتاب علم اللغة للدكتور السعران ، وانظر : د. السعران : علم اللغة ص ٥١ وما بعدها .

فهو يكشف عن حقيقة اللغة التى تكون موضوع دراسته ، ولا يقصد منه تحقيق أغراض تربوية ، أو أية أغراض عملية أخرى .

ومع ذلك يمكن أن يتخذ من تلك الدراسة وسائل ناجحة تفيد اللغة دراسة واصطلاحا ، فيستفاد - منه - فى تعلم اللغة المدروسة ، بأسهل الوسائل ، وكذلك فى وضع قواعدها اللغوية والأدبية ، على أسس علمية ، وإصلاح كتابتها ، وتدوين معجماتها ، وحسن الضبط للمفردات ، وتحديد دلالتها .

ويمكن - أيضا - مقاومة أسباب التحريف واللحن ، والتوسع فيها بما يحافظ على سلامتها ، ومسايرتها للحياة ، والحضارة ، وغير ذلك مما يؤدى إلى النهوض باللغة ، وصون كيانها ، وهذه جوانب فنية ، استفيدت من قيام هذا اللون ، من الدراسة يمكن أن يسمى (فن اللغة) .

ومن الدراسة العلمية للظواهر اللغوية يمكن للمشتغلين فى هذا الميدان والحريصين على اللغات ، فى كل مجتمع أن يعتمدوا على ذلك الوصف الدقيق الذى يقوم به علم اللغة ، للنظم والأحوال القائمة على الاستنتاج من دراسة الظواهر المختلفة لها ، والقوانين التى تحكمها فيأخذوا منها المنهج العلمى السليم لكل إصلاح لغوى ، أو نظرة جديدة ، لمشروعات لغوية ، - كمحاولتهم إنشاء لغة عالمية - وبذلك تكون الأسس وطيدة ، والنتائج سديدة ، عكس ما كانوا يفعلون فى الماضى من نظرات فردية لا تجد لها سندا من الواقع ، ولا من التاريخ ، ولذلك سرعان ما باءت بالفشل ، وكانت عواقبها ضياع الآمال ، والرغبات [٥] .

وبهذا المفهوم الذى وصل إليه « علم اللغة » عند الغربيين فى هذا القرن ، استقل « علم اللغة » عن « فقه اللغة » فأصبح لكل منهما مجاله الخاص به ، ولكن الصلات بينهما وثيقة .

---

(٥) انظر مزيدا من التفصيل لذلك فى كتاب « علم اللغة » د . وافى ص ١٤ وما بعدها .

فعلم اللغة : يتناول ظواهر اللغات جميعا ، لا فرق بين المتشابه منها وغيره ، ويستقى مادته من النظر فى اللغات على اختلافها ، وهو يحاول أن يصل إلى فهم الحقائق ، والخصائص التى تسلك اللغات جميعا فى عقد واحد [٦] .

وفقه اللغة : مجاله دراسة إحدى اللغات كالعربية أو الإنجليزية ، أو طائفة متشابهة منها ، كالطائفة السامية أو الحامية ، أو الهندية الأوربية « لبيان خصائصها ، وتاريخها ، وتطورها ، وتفاعلها مع الفكر ، ومع البشر ، ومع غيرها من اللغات » [٧] .

وكلا العلمين يستفيد من الآخر فى الوصول إلى نتائج صادقة ، فقوانين صراع اللغات - مثلا - من مجالات « علم اللغة » وعند تطبيقها على لغة معينة ينتقل مجال البحث إلى « فقه اللغة » ، فتغلب العربية على القبطية فى مصر إبان الفتح الإسلامى ، وعدم تغلب الإنجليزية على العربية فيها إبان الاحتلال الإنجليزى يعود إلى أسباب معينة يكشف عنها « علم اللغة العام » الذى يحدد القوانين العامة التى تخضع لها اللغات جميعا .

و « علم اللغة » يضع قوانينه بالاستعانة بالبحث اللغوى فى كل لغة على حدة ، أو مجموعة متشابهة من اللغات الأخرى ، ووضع القواعد العامة على أساسها .

« وعلى ذلك يمكننا القول بأن « فقه اللغة » و « علم اللغة » ميدانان من البحث متميزان أحدهما عن الآخر ، وإن تداخلا أحيانا واستعان كل منهما بالآخر دائما » [٨] .

---

(٦) د. السعران : علم اللغة ص ٥١ .

(٧) د. حسن ظاظا : اللسان والإنسان ص ١٢ .

(٨) المصدر السابق ص ١٤ .

الداعي إليه :

تختلف أسباب النشأة هنا عنها عند العرب ، فقد دعا الحفاظ على القرآن الكريم إلى أن يجمع علماء العربية عزمهم ، ويكرسوا جهدهم للدراسات اللغوية التي يقوم عليها فهم كتاب الله ، وبقاء دينه على الأرض ، فنشأ علم اللغة - عندهم - كما قلنا سابقا - لكن السبب هنا يختلف ، والطريقة - كذلك تختلف .

فقد كان هم الأوربيين - منذ عصر النهضة - أن يسيطروا على العالم في أطراف الأرض ، ويبتزوا أمواله ، ويعيشوا على خيراته ، وينشروا فيه مبادئهم ودياناتهم ، وطريق ذلك هو اللغة ، فلا يمكن - كما هو مسلم - أن يتصل شخص بآخر أو شعب بغيره ، دون التعرف على لغته التي تفتح الأبواب للالتقاء ، وفهم الأغراض المطلوبة للآخر ، أو محاولة إفهامه ، وفرض موضوع ما عليه .

وقد عرف الغربيون هذا المفتاح الذي يترك أبواب البلاد أمامهم على مصاريعها ، يدخلون كما يشاءون ويفعلون ما يريدون ، فانطلقوا يدرسون لغات العالم .

وفي نشأة الدراسة اللغوية في « أوربا » ما يدل على أن للاستعمار، وحملات التبشير المسيحية دورا رئيسا ساعد على ظهورها ، وانتشارها ، وتطورها ، للوصول إلى شعوب العالم التي يقصدونها ، ويرجون من ورائها السيطرة ، والنفوذ .

فالمعروف تاريخيا أن الدراسة اللغوية - عند الغرب - ظهرت منذ إحيائهم تراث اليونان والرومان ، ومع رحلات الكشوف الجغرافية التي أعطت الأوربيين فرصا واسعة للاتصال بشعوب أخرى ، ومعرفة لغاتهم ، ودراستها ، وتبعا لحركات التبشير المسيحية التي صاحبت تلك

الرحلات ، ولذلك وجدناهم ينقلون كتبهم المقدسة إلى لغات البلاد التي عرفوها ، وأنشأوا لتلك اللغات قواعد ومعاجم .

وقد درس الأوربيون بعض اللغات السامية وخطوطها ، كالسريانية ، والحبشية القديمة والعبرية والعربية .

وكان للبرتغال حظ وافر في دراسة اللغات الهندية - ما عدا لغات شمال الهند - والإنجليزى اليسوعي توماس ستيفنس درس عاميات الهند - التى عاش في أحضانها الفترة الزمنية « ١٥٧٩ - ١٦٦٩م » ووضع أول نحو للهجة الكونكاتية .

وكان للهولنديين والدانيمركيين والإنجليز دراسات في لغات الهند الجنوبية تقدمت كثيرا في القرنين السابع والثامن عشر .

وكان للبعثات التبشيرية دورها في دراسة لغات شمال الهند ، في القرنين السابقين وشملت - مع ذلك - نيبال ، والتبت ، وبورما ، والصين .

ومع كثرة احتكاك الغربيين بدول العالم أخذت الدراسة اللغوية في التقدم ، ومع البعثات التبشيرية سار البحث اللغوى ، وإحياء الدراسات اللغوية والاهتمام بها حتى ظهر علم اللغة الحديث في بداية القرن التاسع عشر [٩] .

ورب ضارة نافعة ، فقد كانت تلك الأهداف الغربية الاستعمارية ، سببا في بروز هذا العلم الذى نشأ من تناولهم للغات العالم ، وصفا ، وتاريخا ومقارنة - على ما ذكرنا سابقا - فمهد الطريق لمعرفة ظواهر كل لغة ، وأحوال نشأتها ، وتطورها ، ووسائل معرفتها واكتشاف أسرارها ، حتى انتهى هذا العلم إلى تأصيل اللغات ، والربط بينها ومحاولة إصلاحها .

---

(٩) د. السعران : علم اللغة ص ٣٥٨ - ٣٦٤ .

البحوث اللغوية عند الغربيين

مدخل تاريخي :

دراسة اللغة قديمة ، بدأت مع الإنسان ووجدت عند جميع الأجناس البشرية ، وقدماء المصريين كانوا يعتبرون إلههم « تحوت » قلب « رع » ولسانه وسائر الأمم القديمة - كاليونان والرومان - تخيلوا مثل ذلك في خالق اللغة ولذلك وجدناهم يدعون أن اللغة وما ينتابها من التغيرات كلها أمور إلهية موحى بها .

وقد كان للهنود في أصوات لغتهم « السنسكريتية » دراسة قيمة ، كما وضعوا لها نحوا وصفيا بعيدا عن الاتجاه المنطقي ، ومن أشهر نحاتهم بانيني (١٠) « الذي يسمى سيبويه السنسكريتية » ويعد - كما قالوا - خير النحويين الوصفيين القدماء .

وكان لليونانيين آراء في أصوات لغتهم ، ونحوها ، إلا أنها اعتمدت على الناحية الفلسفية والمنطقية ، فدرسوا العلاقة بين اللفظ ومعناه ، ورأوا أنها ضرورية ، وربطوا بين النحو والمنطق ، ولهم - مع ذلك - بعض الدراسات اللغوية التي تستحق الاعتبار .

وللرومان - كذلك - دراسات في اللغة اللاتينية (١١) نهجوا فيها منهج اليونانيين في لغتهم ، ولكنهم لم يبلغوا شأوهم ، أو شأو الهنود في دراساتهم اللغوية ، مع خطئهم في قياس لغتهم على لغة تخالفها منهجا واتجاها وطبيعة (١٢) .

وللعرب دراسات في لغتهم خصصناها - فيما سبق - بمزيد من البحث .

---

(١٠) عاش في القرن الرابع ق م .

(١١) بدأت منذ القرن الثاني ق م .

(١٢) انظر : د. السعران : علم اللغة ص ٣٥٢ .

أما الغربيون فحتى العصور الوسطى لم يجددوا شيئا فى مجال الدراسة اللغوية شأنهم فيها كشأنهم فى سائر النشاطات الأخرى ، علمية ، واجتماعية حيث لم يكن لهم فيها حظ يستحق النظر ، فعاشوا على ما ورثوه من دراسة قديمة للغة اليونان .

ولما بدأ عصر النهضة ، والكشوف الجغرافية ، وحملات التبشير المسيحية اتصل الغربيون بأمم أخرى ، فدرسوا لغاتها ، ووضعوا لها أنحاء ومعاجم - وإن كانت فى مبدئها غير دقيقة - وكان بين اللغات التى درست لغات جنوب الهند ، وشمالها .

وإلى ذلك التاريخ لم تكن للغربيين بحوث لغوية ذات بال ، بل كانت لهم مسائل تتعلق بالبنية ، والتنظيم ، والأسلوب ، فى صورها التعليمية وكانت مسائل اللغة مهملة اللهم إلا القليل من الاتجاهات اللغوية العامة ، وبعض النظرات الصوتية ، والآراء فى أصول الكلمات الفرنسية ، والإيطالية ، والأسبانية (١٣) ، التى عولجت على سبيل الاستطراد ، ودون خضوع للمنهج العلمى الذى لم يكن قد ظهر بعد .

ثم كان الحدث المهم والتطور الكبير بكشف اللغة السنسكريتية على يد سير وليام جونز الإنجليزى سنة ١٧٨٦م فعرف كثير من أوجه الشبه ، وصلات القربى بين اللغات الهندية والإيرانية ، وبين اللغات الإغريقية واللاتينية ، والجرمانية كما أمكن الاطلاع على الدراسات الصوتية والنحوية لعلماء الهنود والتى خلت من النواحى المنطقية

(١٣) من ذلك - كما يقول الدكتور وافى - بعض نظرات فى أصوات اللغة « الفوناتيك » وردت فى مؤلف لكورديموا ظهر عام ١٦٦٨م وبعض ملاحظات وتجارب على الصوت قامت بها المدارس المنشأة فى القرن الثامن عشر لتعليم الصم والبكم ، وبعض آراء لسانت أوجيستان بصدد تطور اللغة وبعض آراء فى أصول الكلمات لكلودفورشيه ، وبيريون وهنرى استيان وبعض بحوث لغوية عامة وخاصة قامت بها الأكاديميات « المجامع اللغوية » التى أنشئت فى صدر العصور الحديثة كالأكاديمية الفرنسية والأكاديمية الأسبانية ، وأكاديمية فلورنسا وغيرها . انظر د. وافى : علم اللغة ص ٤٨ .

والفلسفية واتجهت إلى الوصف والتحليل ، ولا ريب أن وصف الأصوات فى السنسكريتية لا يقوم على الأثر السمعى بل على أسس فسيولوجية [١٤] ونحو السنسكريتية كان - حتى ذلك التاريخ - ذا أثر كبير فى دراسات العصر ، ولم يكن من علماء اللغة آنذاك من يجهل السنسكريتية ، فكلهم عالم بها قبل أى شئ آخر .

وفى القرن التاسع عشر ازدادت درجة التقدم فى الدراسات اللغوية، لما زادت صلة العالم الغربى بالعوالم الأخرى ، وبرزت سمة النزوع إلى التطور ، وظهرت العلوم الطبيعية ، فى مجتمع هذا القرن ، مع نظرية داروين المشهورة ، وما أحدثه ذلك كله من تغير فى مناهج العلوم والفلسفة فتأثرت الدراسات اللغوية ، ومناهجها وتنظر إلى التغيرات اللغوية على أنها من طبيعة التغيرات فى العالم الطبيعى ، فما يصدق عليه يصدق عليها ، فحكم بعض علماء اللغة بأن تلك التغيرات تحكمها « قوانين عمياء » وأن اللغات واللهجات كائنات متنوعة يمكن تحديد عددها ، وتقسيمها إلى فصائل أو « عائلات » بينها صلات نسب ، وهى - فى تطورها واختلافها ، وحدوث تأثيرات فيها - مشابهة للحيوانات والنباتات وغيرها مما هو من كائنات العالم الطبيعى .

وعلى هدى ذلك تمكن العلماء من عقد المقارنات بين اللغات ، واللهجات ، وتحديد صلاتها ، ووجوه الشبه ، والاختلاف بينها ، وعوامل ذلك .

وقد نال شئ من اهتمامهم - على هذا النحو - بحثهم فى اللغات الأوربية ، والهندية ، فقارنوا بينها ، من حيث الألفاظ والمعانى ، والقواعد نحوا ، وصرفا ، واشتقاقا، وطرائق هذه اللغات فى تعبيراتها ،

---

(١٤) عضوية .

وتركيب كلماتها ، وجملها ، فعثروا على وجوه من التشابه جد كبيرة ، جعلتهم يحكمون بأنها من فصيلة واحدة هى الفصيلة «الهندو أوربية» .

وهكذا بدأ تاريخ المقارنات اللغوية ، والتغير اللغوى ، على يد طائفة من العلماء ، أنشأوا « علم القواعد المقارن » و « علم القواعد التاريخى » .

ومن هؤلاء العلماء الألمان جاكوب جريم [١٥] ، منشئ النحو المقارن وفرانز بوب [١٦] ، أول فنولوجى صوتى [١٧] وبوت [١٨] ، مؤسس النحو الهندو أوربى .

وأيضا هرمان بول [١٩] الذى يعد كتابه « أصول التاريخ اللغوى » أساس علم اللغة التاريخى .

ولدويت هويتنى العالم الأمريكى [٢٠] كتاب «اللغة ودراسة اللغة» تتضح منه سمة القرن التاسع عشر فى الاتجاه التاريخى لفقه اللغة .

علم القواعد المقارن :

كان كشف اللغة السنسكريتية على يد الأستاذ دانيال جونز فاتحة هذه الدراسة ، التى مكنت العلماء - فيما بعد - من بحث وجوه الشبه بين مجموعة اللغات الهندية ، والأوربية - كما بينا .

وقد انتقل البحث من تلك المجموعة إلى غيرها ، من اللغات الإنسانية .

---

(١٥) ١٧٨٥ - ١٨٦٣م .

(١٦) ١٧٩١ - ١٨٦٧م .

(١٧) أى أول من درس الفنولوجيا التاريخية ، وراجع معنى الفنولوجيا فى ص ٨٦ من هذا الكتاب .

(١٨) ١٨٠٢م .

(١٩) ١٨٤٦ ١٩٢١م .

(٢٠) ١٨٢٧ ١٨٩٤م .

ويجرى البحث فى هذا النوع متوخيا دراسة مجموعة متشابهة من اللغات من حيث معانى الكلمات التى قد تبقى ، وقد تتغير ، تبعا لاختلاف الزمن والبيئات ، ومن حيث تكوين الكلمات الاشتقاقى والصوتى ، ومظاهره وآثار البيئة فيه ، وأنواع الكلمات من اسم ، وفعل، وحرف ، وما يتصل بذلك من أحكام صرفية ، والتغيرات التى تتطلبها المعانى ، ومن حيث مواقع الكلمات فى الجمل ، ووظائفها ، ومراعاة أحكامها الواجبة لها من تذكير وتأنيث ، وأحكام إعرابية ، وحالات الأسلوب فى كل لغة من تلك المجموعة المتشابهة ، ومقتضيات الأحوال ، ومطابقتها لها ومقارنة كل تلك الأمور فى الطائفة اللغوية ، التى تكون موضوع البحث لمعرفة وجوه الاشتراك بينها ، واستخلاص الأصول التى تجمع بعضها ببعض وتؤلف بينها فى مجموعة واحدة ، وتؤكد رجوعها إلى مصدر واحد .

ويمكن بطريق المقارنة العلمية لأحوال اللغة الواحدة وأخواتها الأخريات أن يصل الباحث إلى نتائج مرضية ، لو أنه تتبع مراحلها التاريخية ، وتطور أصواتها ومعانيها وأحوالها البنائية ، والنحوية والمعجمية ثم وازن بين جميعها مستخلصا النتائج الأساسية التى تبرز التقارب فى أصولها جميعا .

وقد حاول العلماء - بعد تطبيق مبادئ هذا العلم على مجموعة اللغات الهندية الأوربية - أن يطبقوه على مجموعة اللغات السامية التى لا يزالون يبحثون عن الأصول التى تشترك فيها وترجعها إلى أم واحدة .

وقد تنبه علماء الشرق إلى مثل هذه المقارنات التى تعد نواة لعلم القواعد المقارن فى هذه المجموعة السامية ، فالباحثون - فى أقدم العصور - قد حكموا بانتماء أفرادها (الأكدية ، الأشورية ، الآرامية ، البابلية ، العبرية ، العربية ، اليمنية القديمة ، الحبشية) إلى فصيلة واحدة ، ومنذ

القرن العاشر الميلادى ظهر للعلماء وجوه الشبه بين العبرية والعربية ، وفى القرن التاسع عشر اكتشفوا قرابة الحبشية والعربية ، ولم يمض أكثر من نصف هذا القرن حتى أدرك المستشرقون صلات القرابة بين معظم أفراد هذه الفصيلة السامية ، وذلك قبل أن يكتشف الأوربيون رجوع أفراد المجموعة الهندية إلى فصيلة واحدة على الوضع الذى اتضح فيما بعد [٢١] .

وهكذا رأينا أن هذه الدراسة فى « علم القواعد المقارن » كانت - فى بدئها - مقصورة على المجموعة الهندية الأوربية ، ثم انتقلت إلى غيرها من مجموعات لغوية متشابهة ، ويمكن أن يمتد ذلك إلى جميع اللغات .

علم القواعد التاريخى :

يدرس هذا الفرع لغة واحدة ، دراسة تاريخية من حيث مفرداتها ، وقواعد التنظيم فيها ، واتجاهات أساليبها ، فى مراحلها التاريخية المختلفة ، فيتتبع اللغة منذ عصرها الطفولى ، كيف كانت المفردات فيه؟ ومعانيها ؟ وكيف كانت القواعد التى تنتظم الكلمات ، من أحوال إعرابية ، وصرفية ، واشتقاقية ، وأحوال التراكيب ، وصلاتها بالمعانى ، وما تقتضيه من أحكام لغوية ، وأدبية ، وبلاغية ؟ ثم فيما تلا ذلك من عصور ملاحظا أن يتناول البحث الوصف الدقيق لكل مرحلة من المراحل، من حيث النواحى السابقة فى الأصوات ، والمعانى والبنية ، والأسلوب ، والتطورات التى اعترت المواد اللغوية ، والتغيرات التى مرت بها ، والعوامل التى أثرت فيها ، ونتائج ذلك كله .

وكان هذا اللون من الدراسة نتيجة للدراسة المتقدمة فى « علم القواعد المقارن » فلما بحث العلماء فى مجموعة اللغات الهندية

---

(٢١) د. وافى : فقه اللغة ص ٣ ، ٤ .

الأوربية ، على طريق المقارنة بين دلالتها وألفاظها لإيجاد وجوه الشبه ، كان ذلك خاليا من النظر إلى تلك اللغات فى تاريخها الطويل ، ومن ملاحظة تطور قواعدها وألفاظها ودلالاتها تبعا لاختلاف الأزمنة ، ومن مقارنتها فى مراحلها التاريخية ، فكانت دراسة داخلية بحتة لا تتعلق ببيان أسباب التطور الخارجية ، ومعالمها .

فجاء هذا اللون الثانى « علم القواعد التاريخى » مرتكزا على ما سبق ، ومكملا ما فات من طرق البحث التى توصل إلى نتائج مهمة من بحث تاريخ لغة واحدة مرحلة بعد أخرى ، لبيان معالم التطور فيها ، وأسبابه ، ونتائجه وقوانينه .

ويمكن أن نوازن بين الفرعين السابقين على النحو التالى :

١ - علم القواعد المقارن يدرس الظواهر اللغوية فى طائفة من اللغات أو فى جميعها لكن علم القواعد التاريخى يخص دراسته بلغة واحدة .

٢ - يوازن المقارن بين تلك الظواهر فى المجموعة اللغوية التى يدرسها أو فى جميع اللغات ، والتاريخى لا يوازن لأن وظيفته الوصف والتحليل فقط .

٣ - يختص الأول بالعناصر الداخلية للألفاظ والقواعد ، ولكن الثانى يختص بالعناصر الخارجية التى تكشف عن الجو الذى عاشت فيه تلك الألفاظ والقواعد وما أحاط بها من ظروف .

وقد كان هذا الفرع « علم القواعد التاريخى » - فى أول الأمر - خاصا بلغة ما من مجموعة اللغات الهندية الأوربية التى عكف علماء الغرب على دراستها ، ثم انتقل إلى اللغات الأخرى فى العالم ، فدرست - ولا تزال تدرس - بعض تلك اللغات واحدة واحدة ، فى تاريخها الطويل على هذا الطريق التحليلى والوصفى ، الخالى من الموازنة ، ليدرك كنه اللغة التى هى موضوع البحث وطريق سيرها ، واتجاهاتها ، ونتائجها والقوانين التى تحكمها .

وقد أدت هذه البحوث المستحدثة في اللغات جميعا إلى البحث عن اللغة الإنسانية الأولى ، كيف نشأت ؟ ومتى ؟ وأصولها الأولى فى اللغات العالمية ، من حيث الأصوات ، والدلالة ، وظواهر التطور المختلفة ، ومنابعها الأولى .

وقد ألفت - فى هذا العصر - مجموعة من الكتب التى تبحث فى أمور عامة فى أصول اللغة فقد ألف العالم الألمانى فرن همبولت [٢٢] - ضمن ما ألف - بحثا عن اختلاف الكلام الإنسانى ظهر سنة ١٨٣٦ [٢٣] وهو - بهذا المعنى - خاص بعلم اللغة العام ، ومن أتباعه عالم ألمانى آخر يسمى هيمان ستينشال [٢٤] وله مؤلفات فى موضوعات عامة عن اللغة وأصولها ، وله بحث عن الأنواع الرئيسية للبنية اللغوية نشر عام ١٨٦١م ، ويميل فيه إلى بعض التفسيرات النفسية ، وكتب ولهلم فنت [٢٥] بحثا عد فيه « عالم نفس » أكثر منه « عالم لغة » فقد عنى فيه بإبراز العلاقة بين الظواهر اللغوية ، والظواهر النفسية [٢٦] .

ولم تكن تلك الكتابات خاضعة للمناهج العلمية التى ترسم الطرق السديدة وكانت الطريقة السائدة هى الطريقة التاريخية المقارنة للقواعد والأساليب وتوزيع اللغات تبعا للتقسيم العائلى أو البنائى .

فلما كانت أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين هب العلماء يرفضون ربط الظواهر اللغوية بما يحدث فى العالم الطبيعى ، وبدا لهم صلتها بالمجتمع الذى توجد فيه ، بناء على ما ثبت لهم من صلتها بالظواهر الاجتماعية .

---

(٢٢) ١٧٦٧ - ١٨٢٥م .

(٢٣) أى بعد وفاة مؤلفه بعام واحد .

(٢٤) ١٨٢٣ - ١٨٩٩م .

(٢٥) ١٨٣٢ - ١٩٢٠م .

(٢٦) انظر د. السعران : علم اللغة ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

فكما تخضع الظاهرات الاجتماعية - بشتى أشكالها - لقوانين معينة مستمدة من الواقع الاجتماعى الذى يمارسه أربابها ، فى مختلف الأمم والأزمان - وقد ثبت لهم ذلك علميا - كذلك لأن اللغة ظاهرة اجتماعية - تخضع لمثل ما تخضع له بقية الظواهر الاجتماعية من قوانين.

وقد استطاع علماء القرن العشرين أن يصلوا من وراء هذه النظرة الجديدة إلى قوانين تحكم الظواهر اللغوية ، فى حالات الدلالة ، والأصوات والقواعد النحوية ، والصرفية ، والأسلوبية ، وما يمكن أن يؤثر عليها من عوامل نفسية واجتماعية .

وكان هذا - فى منشئه - تبعا للمذهب الجديد الذى جاء به جول جيرون [٢٧] فى « علم اللغة الجغرافى » الذى حدد أن اللغة يمكن دراستها من حيث هى لغة ، لأنها بنية أو نظام يعتمد بعضه على بعض ، وعن طريقه يمكن فهم التغير اللغوى ، واللغة من حيث هى لغة ، ورسالتها فى المجتمع .

وفصل ذلك فرديناند دى سوسير [٢٨] وزاد تصورا جديدا هو الفرق بين اللغة التى هى بنية ونظام ، وبين الكلام الذى هو النشاط العضلى الذى يمارسه المتكلم باللغة ، فاللغة نظام اجتماعى ، والفرد يستخدم هذا النظام على طريق الأثر السمعى المعروف ، واللغة - عند دى سوسير - « نظام من العلامات » ولذلك اقترح دراسة هذا النظام فى فرع يسمى « السسيولوجيا » أى علم العلامات [٢٩] .

وهذه النظرة إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية متأثرة بمذهب اميل دوركيم ونظريته فى الظواهر الاجتماعية .

---

(٢٧) ١٨٥٤ - ١٩٢٦م .

(٢٨) ١٨٥٧ - ١٩١٣م .

(٢٩) د. السعران : علم اللغة ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

وبناء على هذا التطور فى النظرة العلمية إلى اللغة ، بدأت دراستها تأخذ مظهر الجدية فى البحث العلمى ، فحددت خطة السير فى البحوث اللغوية وفى تحديد الإطار الخاص لكل موضوع يمكن أن يستقل به النظر اللغوى .

١ - فقد تمكن العلماء الغربيون - منذ أواخر القرن التاسع عشر - من إضفاء صفات المناهج العلمية على البحوث اللغوية ، كسائر العلوم الأخرى الطبيعية والرياضية وغيرها ، فبرزت الحقائق ، وأبعدت الأمور الميتافيزيقية التى تبعد بالظواهر اللغوية عن الوصف الدقيق لها ، وتزج بها فى عالم فلسفى غامض لا تدرك من خلاله ، ولا يستفاد من توجيهها فى إطاره .

وعلى هذا الأساس نحيت بحوث كنشأة اللغة ، التى يعد الخوض فيها من قبيل الحدس ، والفرض ، ولم يمكن الوصول إلى رأى يقينى بشأنها .

ومن هنا وضحت سبل البحث ، وحددت طرائقه ، وبخاصة بعد أن ظهرت مدرسة « المحدثين من علماء القواعد » التى أثبتت أن ظواهر اللغة « جبرية » لا تخضع لسلوك فردى أو للمصادفات ، والأهواء ، بل إنها تسير على ناموس لا يتخلف كسائر ظواهر العلوم ، الطبيعية وغيرها ، ولها قوانين - كقوانين العلوم - يمكن الكشف عنها .

ولكن بعض المدارس القائمة فى تلك الحقبة وهى « المدرسة الإيطالية » - ومن أعضائها أسكولى - و « المدرسة الإنجليزية » - ومن أعضائها سيس الإنجليزى وجسبرسن الدنيمركى - عارضت القول بجبرية الظواهر وأرجعتها - بما فيها الظواهر الصوتية - إلى سلوك الأفراد ، والانتشار بطريق التقليد .

وهناك مدرسة أخرى - من أعضائها بريال الفرنسى - سلمت

بجبرية الظواهر الصوتية وأرجعت الظواهر الدلالية إلى إرادة المتكلمين باللغة .

٢ - خصص العلماء - حينئذ - أنفسهم على سبيل التفرغ لدراسة كل فرع من فروع اللغة - على حدة - حتى يتقنوه ، ويصلوا فيه إلى نتائج يكون لها المقومات الأساسية ، فنهضت بذلك الدراسة اللغوية ، لأن القدماء أضاعوا الوقت فى علاجهم لجميع فروع اللغة فجاءت بحوثهم غير وافية ولذلك ظهرت دراسات فى شتى الفروع اللغوية حتى يستكمل هذا النقص ، وهى :

الفوناتيك « علم الأصوات » .

الدياليكتولوجيا « علم اللهجات » .

السيمانتيك « علم الدلالة » .

السيكولوجيا اللغوية « علم النفس اللغوى » .

السوسيولوجيا اللغوية « علم الاجتماع اللغوى » .

وتخصصت الدراسة فى كل فرع على حدة ، وإن استفاد منه غيره تبعا لما وصل إليه الباحثون فيه من نتائج ، بل هذه هى الثمرة المرجوة حقا .

أولا - الفوناتيك « علم الأصوات » :

تقدمت الدراسات الصوتية فى الغرب ، وبخاصة منذ أوائل القرن التاسع عشر - فقد أدرك اللغويون أهمية الأصوات - ولاسيما الصوت الإنسانى الذى بحثوا فيه ، وعلموا مُراحله التى مر بها ، وطوروا ألوان الدراسات فيه تبعا لتلك المراحل وهى :

١ - مرحلة صدور الأصوات من جهاز النطق :

وتلك المرحلة خاصة بالعملية الحركية التى يقوم بها هذا الجهاز - عند الإنسان - وهى عملية فسيولوجية أو عضوية .

٢ - مرحلة انطلاق الصوت غب مغادرته فم المتكلم - مارا بالهواء الخارجى إلى أذن السامع :

وتتناول الذبذبات والموجات التى تحمل الصوت فى الهواء بعد خروجه من أعضاء النطق وهى عملية فيزيائية .

٣ - مرحلة استقبال أعضاء السمع لتلك الذبذبات والموجات وتحويلها إلى أصوات مدركة :

وتتمثل فى عملية استقبال الموجات والذبذبات الحاملة للصوت ، والتى تؤثر فى أعضاء السمع ، بأعمال ميكانيكية ينجم عنها إدراك السامع للأصوات .

وتلك المراحل تدخل فى نطاق علم اللغة ، ومن أجلها ظهرت فروع ثلاثة لعلم الأصوات [٣٠] هى :

(أ) علم الأصوات النطقى أو الفسيولوجى .

(ب) علم الأصوات الأوكستيكى أو الفيزيائى .

(جـ) علم الأصوات السمعى [٣١] .

فعلم الأصوات النطقى (أو الفسيولوجى) : يبحث أعضاء النطق لدى الإنسان ، ونشاطها فى إصدار الأصوات وطبيعة وظائفها ، ودراسة الأصوات الناجمة عنها .

وقد كان لهذا الفرع وجود عند دارسى اللغات فى الأزمنة المتقدمة التى لم تسعفها الآلات ، والتجارب ، كالدراسات العربية ، واليونانية ، والهندية ، وغيرها ، ثم تقدمت الدراسات فى هذا القسم ، نتيجة لتقدم

---

(٣٠) تدخل تحت ما يسمى « علم الأصوات العام » فهى فروع له .

(٣١) د. بشر : علم اللغة - القسم الثانى ص ١٣ ، ومعنى « فسيولوجى » عضوى ، ومعنى « فيزيائى » : طبيعى .

العلوم والمعارف وبخاصة علوم التشريح والأحياء والفسيولوجيا ، التى اعتمد عليها اعتمادا مباشرا ، فعلمت خصائص الجهاز النطقى ، وتكوينه ، وما يؤدى إلى إصلاحه ، وما يعوقه عن أداء وظائفه ، فأمكن استخدامه الاستخدام الصحيح ، وبذلك وضحت عمليات نطق الأصوات الإنسانية .

وقد وجدت الأجهزة والآلات المعملية التى تساعد على تأدية هذا الجهاز لوظائفه بعد أن كان العلماء - فى الماضى - يعتمدون - فى ذلك - على الملاحظة الذاتية التى لا تؤدى إلى نتائج مؤكدة الصحة .

ولذلك سمى هذا الفرع « علم الأصوات الفسيولوجى » .

وعلم الأصوات (الفيزيائى أو الأوكوستيكى) : يتضمن البحث عن الذبذبات والموجات الصوتية التى يحملها الهواء - بعد تأثيره فى أعضاء النطق ، وخروجه منها - لتصل إلى أذن السامع ، وبعض اللغويين يرى أنه يشمل البحث عن أعضاء السمع ، وآثار الذبذبات فيها ، مما يعد - عند غيرهم - من مباحث علم الأصوات السمعى الذى سنتحدث عنه بعد قليل .

وقد نشأ هذا الفرع نتيجة تقدم العلوم الطبيعية على يد المتخصصين ، ومن لهم دراية بعلم الصوت ، وبذلك أدرك علماء اللغة طبيعة الأصوات وخواصها ومن ثم وقفوا على طبيعة الصوت الإنسانى ، وخواصه .

وسمى هذا الفرع (علم الأصواتُ الفيزيائى) أو (الأوكوستيكى) لاعتماده على بعض علوم الطبيعة (الفيزياء) .

وعن طريق هذا الفرع وصل علماء اللغة إلى نتائج صحيحة وقوانين لغوية جديدة ، وتأكدوا من صحة بعض ما توصلوا إليه من قبل ، وعلى أساسه تغيرت مناهج دراستهم للأصوات ، فاستخدموا طرقا لم

تكن موجودة فيما مضى ، وتغيرت مواقفهم بالنسبة للأحداث الصوتية ، وتطوراتها ومبادئها التي تسير عليها .

ولهذا الفرع فوائد في هندسة الصوت ، وصدوره عن أجهزة الإصدار المكبرة كالإذاعة المسموعة والمرئية وغيرها ، وبالوقوف على الجانب الأوكوستيكي للأصوات يمكن علاج بعض أنواع الصمم ، وعيوب النطق ، ويستفاد منه من دراسة تطور الأصوات تاريخيا ، ولاسيما بعد اعتماده على الأجهزة الفنية ، التي استحدثت منذ أوائل القرن التاسع عشر وزاد تجددها في النصف الثاني منه ، وإلى اليوم ، ودعا إلى الاعتماد على تلك الأجهزة - في مجال الأصوات - ظهور نقص الجانب اللغوي الدقيق في استخدام الأذن .

ومن هنا يمكن القول بأن الفرعين « النطقي والأكوستيكي » يعتمدان اعتمادا كبيرا - في العصور الحديثة - على الآلات والأجهزة المعملية ، مما دعا إلى بروز فرع آخر يسمى « علم الأصوات التجريبي » .

وعلم الأصوات السمعي : له جانبان :

أحدهما : فسيولوجي خاص بأعضاء السمع التي تستقبل الصوت فيبحث فيها من حيث طبيعتها ، ووظائفها ، وطريقة عملها ، وما يؤثر عليها .

والثاني : نفسي يتعلق بآثار الذبذبات الصوتية في أعضاء السمع ، وإدراك السامع للأصوات ، فيبحث هذا الفرع عن هذه الذبذبات الصوتية ، وتأثيراتها ، وكيفية إدراك السامع لما تحمله من أصوات .

وبعض اللغويين يقصر دراسته على الناحية النفسية فقط ، ويجعل ما يتصل بأعضاء السمع والذبذبات ، من مباحث علم الأصوات الأوكوستيكي ، كما سبق بيانه .

وحتى الآن لم تتهيأ الطرق ، والمباحث العلمية ، والأجهزة

والآلات المعملية والصوتية التى تمكن الباحث اللغوى من الوصول إلى مبادئ دقيقة لهذا الفرع من البحوث الصوتية ، بقدر ما توافر للفرعين الآخرين اللذين تقدمت الوسائل التى تهيئ لهما التقدم الذى لمسناه فى تطور الدراسات الصوتية .

وهذه الدراسة - تبعا للفروع السابقة - لم تتعد التحليل والوصف ، لكن اللغويين لم يكتفوا بذلك ، بل أرادوا الوصول إلى حقائق لغوية وقوانين يستفاد منها فى دراسة اللغات ، وبخاصة أصواتها ، ولذلك قسموا الدراسة إلى قسمين :

(أ) الفوناتيك .

(ب) الفنولوجيا [٣٢] .

فمهمة الأول هى : البحث عن الكلام المنطوق بالفعل - وهو الجانب المادى الصوتى الذى يصدر عن جهاز النطق ، دون نظر إلى وظيفته اللغوية .

ويشمل ذلك الأقسام السابقة لعلم الأصوات وهى : علم الأصوات النطقى - الأوكستيكى - السمعى .

ومهمة الثانى هى : البحث عن وظائف الأصوات فى اللغة باستعراض القيم الصوتية وصورها الذهنية ، وتنظيمها ، ووضع القواعد والقوانين لها على ما هو مختزن فى ذهن الجماعة الاجتماعية المعينة .

ومن موضوعاته دراسة الصوت كوحدة مستقلة والمقاطع الصوتية والنبر والتنغيم وتأثر الأصوات وتأثير بعضها فى بعض وهو ما يعرف فى علم الأصوات بالمماثلة .

---

(٣٢) يسمى « علم الأصوات الخاص » أو « علم الأصوات التنظيمى » أو « علم التشكيل الصوتى » .

فالوحدات الصوتية - أو كما يسمونها « الفونيمات » - لها قيم صوتية ، فهى تغير المعانى تبعا لتغير الوحدة الصوتية التى تؤدى كل منها وظيفة خاصة بها .

فمثلا : كتب وكثب [٣٣] تختلفان معنى تبعا لاختلاف « الوحدة الصوتية » أو « الفونيم » الواقعة فى المقطع الثانى فهى فى الأول تاء ، وفى الثانى ثاء .

وكذلك : سد وصد [٣٣] فالأول سين ، والثانى صاد ، فى المقطع الأول - ومن أجله اختلف المعنى فى كل من الكلمتين .

وكل « فونيم » - على حدة - تكون لها - عادة - عدة صور نطقية ، لكنها لا تؤثر فى تغير الوظيفة اللغوية التى تؤديها ، فالمعنى - مع تعدد تلك الصور يكون واحدا ، كالنون - فى العربية - فهى وحدة صوتية تتعدد صورها النطقية بين الإظهار والإدغام ، والإخفاء ، والإقلاب [٣٤] ، ولكن لا يغير ذلك من معنى الكلمة التى تكون فيها .

فهذه الأحوال من تغير الفونيم وتغير المعنى تبعا لها ، ووظائفها

---

(٣٣) الكتابة معروفة ، والكثب : القرب ، والصد : جانب الجبل ، والسد للباب ونحوه .

(٣٤) تظهر النون الساكنة إذا وقع بعدها أحد أحرف الحلق الستة مثل قوله تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ﴾ .

وتدغم بغنة مع النون أو الميم ، فمثالها مع النون قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ - ﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ ، ومثالها مع الميم : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

وتدغم مع الاختلاف فى الغنة إذا اجتمعت مع الياء أو الواو ، فمثالها مع الياء قوله عز حكمه : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ .

ومثالها مع الواو قوله سبحانه : ﴿ وما لهم من دونه من وال ﴾ .

وتخفى النون مع واحد من خمسة عشر حرفا مجموعة فى قولهم :

صف ذاثنا كم جاد شخص قد سما
دم طيبا زد فى تقى ضع ظالما

ومن أمثلة إخفائها مع الصاد قوله تعالى : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ ومع -

فى اللغة ، والفرق بين حالات استبدال غيرها بها وحالات وجودها مع تعدد الصور النطقية - تبعا للموقع السياقى ، الذى تكون فيه ، هو موضوع القسم الذى يسميه علماء اللغة « الفنولوجيا » .

فهذا اللون يدرس « الفونيمات » ووظائفها فى لغة معينة ومشكلاتها ويفرق بين الصور النطقية للصوت الواحد ، وبين اختلاف الأصوات ، التى يترتب عليها اختلاف المعانى ، التى تعد بمثابة الوظائف [٣٥] .

وهذا التقسيم فى الدراسة الصوتية بدأ فى أواخر النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وقد أدرك عالم اللهجات السويسرى ج. ونتلر الفرق بين النوعين ووجد ما يدل على إدراكه فى كتابات سويت الإنجليزى ، وتلميذه جسبرسن الدانيمركى .

ولكن دى كورتينى هو أول من فرق بينهما بشكل واضح ، وصريح حين فصل بين أصوات الكلام ، والصور الذهنية للأصوات ، وسمى الأول « علم الأصوات العضوى » والثانى « علم الأصوات النفسى » وأطلق على الصور الذهنية اسم « الفونيم » كما يظهر من قوله : إن « الفونيم هى المعادل النفسى للصوت » [٣٦] .

وقد تعددت الآراء حول الفصل بين هذين الفرعين « الفوناتيك والفنولوجيا » والصلة بينهما .

= الذال قوله سبحانه : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ﴾ إلى آخر الحروف المذكورة فى أول كل كلمة فى البيت السابق .

وتقلب ميما إذا تلتها باء مثل قوله تعالى : ﴿ يا آدم أنبئهم بأسمائهم ﴾ .

(٣٥) وهذا على سبيل المثال ، وإلا فدراسة الموضوعات المشار إليها فيما سبق تعد من صميم هذا الفرع .

(٣٦) د. بشر : علم اللغة - القسم الثانى ص ٤١ .

رأى المدرسة البراجية [٣٧] :

فرق علماء تلك المدرسة التشيكية بين النوعين .

فالكلام المنطوق بالفعل من متكلم ما فى موقف معين يدخل تحت الفرع الأول « الفوناتيك » .

أما اللغة المعينة التى لا تنطق ، وإنما تختزن فى عقول الجماعة ، ويتبعها الناس فى نطقهم ، محتذين قواعدها ، ونظمها ، فهى نطاق البحث الثانى « الفنولوجيا » .

فالأول يبحث فى أعضاء النطق ، ووظائفها ، وأوضاعها ، والذبذبات الصوتية التى تنجم عن حركة الهواء ، فهو أقرب إلى علوم الطبيعة منه إلى علم اللغة .

أما الثانى فيدرس « الفونيمات » من حيث كونها عناصر مكونة للمعانى ، وهى عناصر عقلية لا مادية ، وتحقيقها يكون بنطقها الفعلى ، وهذا الفرع داخل فى نطاق علم اللغة ، ويعد من مباحثه .

ولكن التفريق التام بين الفرعين لم يحظ بالقبول ، عند كثير من الباحثين فلا فرق بين اللغة المعينة التى تختزن صورها الذهنية فى عقول الجماعة ، وبين الكلام المنطوق فعلا ، والذى تبرز أحداثه الصوتية معبرة عما فى عقول الجماعة ، فهنا أمثلة مختزنة ، وصور نطقية تعبر عنها ، والجانب الأول عقلى ، والثانى مادى ، جماعى وفردى ، وصلتهما وثيقة .

فعالم الفوناتيك يجمع ملاحظاته عن المادة الصوتية ، ووصفها من

---

(٣٧) من مؤسسيها العلماء الروس المهاجرون تربتسكوى وجيكبسون وكارسفسكى ، وقد فرقوا بين الفوناتيك والفنولوجيا فى المؤتمر اللغوى الأول الذى عقد فى لاهاى سنة ١٩٢٨م ، وتمتاز تلك المدرسة من غيرها بآثارها الجلية وآرائها الخاصة فى البحوث اللغوية لاسيما الحديث منها . انظر د. السعران : علم اللغة ص ٣٧٥ و د. بشر : علم اللغة - القسم الثانى ، ص ٤٣ - ٤٥ .

الناحية العضوية ، لا لمجرد الجمع ، بل ليخضع تلك المادة للقواعد والتنظيم ، أو الكشف عن وظائف الأصوات التى جمعها ، ووصفها فى المرحلة الأولى .

وعالم الفنولوجيا الذى يبحث - أساسا - عن قيم الأصوات ، وتقنين قواعدها لابد أن يعتمد على الجانب العملى النطقى المادى .

فهما مرحلتان تكمل إحداهما الأخرى ، فلا يفرق بينهما إلا عند الضرورة ، كأن يكون المراد وضع منهج لبحث خاص بالجانب العملى النطقى أو الجانب الوظيفى للغة .

ومع ذلك فلا يغيب عن ذهننا أنهما متكاملان ، يرتبط أحدهما بالآخر وينبنى عليه ، ويستفيد منه .

ومن لغوبى براج من أدرك ذلك الوصل بينهما ، ويبدو واضحا من قول أحدهم - وهو ترنكا :

عندما تبدأ الدراسة من الصور الصوتية ، وتتدرج فى طريقها حتى تصل إلى القوانين المجردة ، فإنها تجد نفسها فى مجال الفنولوجيا ، أما إذا أخذت طريقها هذه المرة ، من القوانين المجردة ، وسارت فى عملها حتى وصلت إلى الصورة الواقعية للأصوات ، فإنها تجد نفسها فى مجال الفوناتيك ، إننا إذا علمنا أن الفوناتيك إنما يختلف - فقط - عن الفنولوجيا فى انتهاج طريق مخالف فى سير الدراسة أدركنا أن مشكلة الحدود الفاصلة بين الظواهر الفوناتيكية ، والفنولوجية أصبحت غير ذات موضوع ، لأن هذين النوعين من الظواهر متكاملان ، ومتعاونان ، فى سبيل تحقيق أهدافهما الفردية والاجتماعية [٣٨] .

وأى عمل تطبيقى لأصحاب التفريق بين الفرعين توجد فيه الصلة

---

(٣٨) د. بشر : علم اللغة - القسم الثانى ص ٤٩ .

بينهمـا مما يقـدم الأدلة القـوية على عـمق تلك الصلة ، والاشـتـراك ، وينقض قولهم بالافتراق .

ومن هنا وجدنا أن علماء اللغة - فى العصر الحاضر - يحاولون الجمع بينهما بصورة نظرية ، وتطبيقية ، حتى أطلقوا عليهما معا « علم الأصوات » دون نص على الجانب العملى ، أو الجانب الوظيفى .

وعلى كل حال فقد كانت جهود مدرسة براج نواة لما أتى بعدها من دراسات صوتية .

رأى المدرسة الإنجليزية [٣٩] :

كانت تلك المدرسة تطلق « الفنولوجيا » - حتى وقت قريب - على الدراسات التاريخية للأصوات ، أما « الفوناتيك » فيشمل البحث الصوتى بجانبيه المادى وغيره ، فلم يكن هناك فصل بين قسمى الأصوات العضوى الفسيولوجى . والوظيفى الذى يبحث عن القيم الصوتية ، فهو بحث عام فى الأصوات .

ولحظ هذا فى أعمال لغوييهم مثل سويت ودانيال جونز ، ومدرسة فيرث فى أول نشأتها .

وهو من علم اللغة على هذا الأساس .

وعندما شاع التفريق بين الفرعين فى القارة الأوربية ، أخذ الإنجليز بهذا التفريق ، وتركوا ما كانوا عليه ، تمشيا مع المنهج العالمى ، واعترف بذلك فيرث .

ولكن الإنجليز لم يفصلوا بين الفرعين فصلا تاما ، - على حد المبالغة التى وقع فيها غيرهم من الأوربيين - ، فلم يفرقوا بينهما إلا حيث يدعو أمر كخطة بحث تقتضى الانتقال من الجانب العضوى إلى الجانب الوظيفى .

---

(٣٩) أسسها فيرث ولها أتباع من الإنجليز وغيرهم حتى الآن .

وقد عرفوا الفوناتيك التجريبي الذى ينتقل بالأصوات إلى مجال الفيزياء ووسعوا من دائرة الفوناتيك بحيث يجمع الأصوات ، ويصفها ، ويصنفها فى نظام فنولوجى ، يخضعها لقوانين تستمد من اللغة المعينة .

وهم – لتطويرهم للدراسة الصوتية فى السنوات الأخيرة – قسموا الفنولوجيا – على حد ما وجد فى بعض المدارس اللغوية كالمدرسة الأمريكية – إلى :

« **فنولوجيا الوحدات** » :

وتختص بما يدخل فى التركيب الصوتى ، وعرف عند الأمريكيين – باسم « الفونيمات الأساسية » .

و « **فنولوجيا التطريز الصوتى** » :

وتختص بما لا يدخل فى نفس التركيب الصوتى ، مثل ظاهرة النبر ، وبداية المقاطع ، ونهاياتها ، والتنغيم وغير ذلك ، ويسمى – عند الأمريكان – « الفونيمات الثانوية أو فوق التركيب » .

وقد بنى الإنجليز ذلك التقسيم على منهجهم فى تعدد الأنظمة الذى يتبعونه عندما تتعدد الظواهر اللغوية ، على العكس من الأمريكان الذين جمعوا الاثنين تحت قسم واحد هو : « الفونيمات » تبعا لمنهجهم فى « توحد الأنظمة » .

وهناك اتجاهان آخران فى بريطانيا :

أحدهما : يفصل بين الفوناتيك والفنولوجيا .

والثانى : لا يفصل أحدهما عن الآخر ، إلا أنه يجعل الفوناتيك قسيم علم اللغة ، فهما معا يكونان ما أطلقوا عليه اسم « علوم اللغة » والفنولوجيا تمثل حلقة الاتصال بين الاثنين .

رأى المدرسة الأمريكية[٤٠] :

نظرت تلك المدرسة إلى فرعى الأصوات السابقين نظرات متفاوتة في عصور متعاقبة .

فكانت - أول الأمر - ترى أن الفنولوجيا خاصة بالدراسة التاريخية للأصوات ، على حين أن الفوناتيك يشمل الدراسة الصوتية - بوجه عام - وهذا الرأى يماثل ما عرف عن الإنجليز أول أمرهم .

ثم بعد تقدم الدراسات الصوتية - عند الأمريكان - خصوا الفوناتيك بالدراسة العضوية أو الفسيولوجية ، أو كما يقول علماء الأصوات بالجانب المادى النطقى .

ولكنهم لم يطلقوا مصطلح « الفنولوجيا » على ما عرف به من «الفونيمات» ووظائفها اللغوية ، بل استبدلوا بمصطلح الفنولوجيا هذا المصطلح الذى يعبر عن موضوعه وهو « الفونيم » وقسموه إلى :

أساسى : وهو العناصر الأساسية فى التركيب ، وتمثله الأصوات الصامتة والحركات ، فهى التى تكون التركيب الصوتى للغة .

وهامشى أو ثانوى : وهو ما لا يدخل فى التركيب الأصلى لعناصر اللغة كالنبر والتنغيم .

وليس كل أرباب المدرسة الأمريكية يستخدمون مصطلح «الفونيم» دون مصطلح « الفنولوجيا » بل منهم من علم دقة المصطلح الثانى ، فاستخدمه ، وترك الأول ، لأن الثانى يشمل « الفونيمات » الأساسية والهامشية ، دون إيحاء باقتصار الدراسة على إحداهما ، أو

---

(٤٠) برزت للأمريكيين - فى السنوات الأخيرة - دراسات لغوية ، وآراء فى البنية اللغوية تتفق مع الأوربيين من بعض الوجوه المهمة ، وقد بينوا ما تختلف فيه اللغات الهندية الأمريكية عن لغات العالم القديم ، ومن أشهر لغوييهم فى القرن العشرين ليونارد بلومفيلد وإدوارد سابير ، د. السعران : علم اللغة ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

الاهتمام بها أكثر من الأخرى ، على العكس من المصطلح الأول الذى يجعل لهذا الإيحاء بالتفضيل مدخلا لدى الباحث والدارس .

والصلة - عند علماء تلك المدرسة - وثيقة بين فرعى الدراسة الصوتية المذكورين ، وهما داخلان فى إطار علم اللغة .

ومن الأمريكيين من أخرج بحث الفوناتيك من نطاق علم اللغة وألحقه بعلمي الفسيولوجيا والفيزياء .

وقد تقدمت الدراسة بهذا العلم الصوتى هناك - فيما بعد - وحللت جزئياته ، وخصت ببحوث عميقة ، بحيث أصبحت وكأنها علوم قائمة برأسها .

وزاد اهتمام الأمريكيين بالدراسات اللغوية ومناهجها - بوجه عام - فجد - عندهم - بحث يعد وسطا بين الفنولوجيا أو علم الفونيمات ، والصرف سموه « علم الفونيمات الصرفى »[41] ومع وجود دراسات منه عند البراجيين فقد تفوق الأمريكيون إلى درجة كبيرة وعميقة ، لا تصل إليها أية مدرسة أخرى .

وهذا الفرع يدرس « المورفيمات »[42] ويحللها بحسب مواقعها فى السياق وما تدل عليه .

---

(٤١) يسمى - عند غيرهم الآن - الفنولوجيا الصرفى أو المورفولوجيا ، د. بشر : علم اللغة - القسم الثانى ص ٦٩ .

(٤٢) هى دوال النسبة التى تميز الأصل (الجذر الذى ينتظم أصل المعنى مثل « ق ت ل » ويسمى بدوال الماهية) .

ولها عدة صور تتحقق بالحركات أو اللواحق أو العلاقات بين الكلمات ، فالمورفيم يكون حركة توضح نوع الجذر والمعنى المراد منه مثل : (ق ت ل) فالحركات - فى التصرفات : (قتل - قتل - قاتل - مقتول) وفى بعض جموع التكسير كرجال - جمع رجل توضح نوع الجذر ، والمعنى المراد منه .

ويكون مقطعا مثل : (يقتل - تقتل - نقتل - قتلت) فكل من المقاطع ،

فمثلا : مادة (ق ت ل) يدرك نوعها ومدلولها بحسب «المورفيمات» التى تحدد طبيعتها ، فتكون « فعلا » - بأنواعه الثلاثة - قتل - يقتل - اقتل ، وتكون اسما مثل : قاتل ، فالعناصر الصوتية حددت نوعها .

كما يمكن أن تحدد - كذلك - تذكيرها وتأنيثها ، وشخصية المتكلم [٤٣] حسب وجودها فى السياق مثل : قتلت - قتلا - قتلوا - قتلن .

فالعناصر الصوتية - أيضا - بينت ما أراده المتكلم .

هذه هى آراء تلك المدارس فى الصلة بين فرعى الأصوات «الفوناتيك والفنولوجيا» .

ونحن - لا نرى فاصلا طبيعيا بينهما فأحدهما مكمل للآخر ودارس كل قسم محتاج إلى الاستعانة بصاحبه ، على ما استقر عليه الرأى فى عرضنا لآراء الدارسين البراجيين والإنجليز ، والأمريكيين .

وعلى أساس الفوناتيك والفنولوجيا - وما تفرع عنهما - وما ظهر من تقدم فى دراسة الأصوات ، قامت الدراسات المتخصصة ، التى وصلت إلى نتائج قيمة دعمت « علم الأصوات » وقوت من شأنه .

= (يـ - ت ن ت) مورفيم ، ويكون سابقا ، ولاحقا - كما فى هذه المقاطع وحشوا مثل ألف (قاتل) ونحوها .

ويكون كلمة كاملة مثل (كان) - فى قولك : كان الجو صحوا ، و (ليس) فى قولك : ليس الجو صحوا ، فقد حددت نسبة الصحو إلى الجو فى الزمن الماضى أو نفيته عنه كذلك .

ومثل كان وأخواتها ، أفعال الشروع ، حين تدخل على الجملة فهى تعد مورفيمات .

ويكون علاقة أو علاقات تنشأ بين المدركات (أو المعانى) مثل : (المدينة هادئة) فللمدينة حقيقة مدركة ، وللهدوء حقيقة مدركة كذلك ، ونسبة الهدوء للمدينة مورفيم.

وتسمى هذه المورفيمات بالفصائل النحوية .

انظر : فندريس : اللغة ص ١٢٥ وما بعدها .

(٤٣) مفردا - مثنى - جمع مذكر سالم - أو مؤنث .

الدراسة الصوتية المتخصصة :

كانت الدراسة الصوتية - فى العصور الماضية - تختص بلغة معينة يقوم أهلها بالنظر فى أصواتها ، وتحليلها وبيان وظائفها ، وملاحظة ما يتصل بها ، وما تخضع له من قواعد ، وقوانين ، وكان اعتمادهم فى دراستها يتم على أساس الملاحظة الذاتية التى قد تؤدى بالباحث - أحيانا - إلى البعد عن جادة الصواب .

فلما نهضت البلاد الأوربية ، وتفوقت الدراسات الحديثة ، وزاد تقدم العلوم والمعارف وجدنا ألوانا متخصصة من البحث ، فى الأصوات اللغوية .

أحدها : يعد امتدادا لما كان - قديما - من بحوث لغوية قامت بها الأمم ، لتحافظ على لغاتها ، وسلامة النطق بها ، بيد أن التقدم الأوربى ، قد أوجد الأجهزة ، والآلات الدقيقة التى ساعدت على نهوضه ، ودقة النتائج التى يتوصل إليها ، فيه بإجراء التجارب المعملية ، والعلمية ، بعد أن كان القدماء من لغويى الأمم الماضية ، لا يجدون ما يؤكد الحقائق - عندهم - أكثر من الذوق والملاحظة الشخصية .

ودرست اللغة دراسة متخصصة فى فروع محددة من علم الأصوات .

فإذا درست فى فترة خاصة لا تتعداها إلى غيرها على طريق الوصف والتحليل ، دون مقارنة أو تفسير يعتمد على مراحلها الأخرى ، التى مرت بها فى تاريخها اللغوى ، فلها قسم خاص يسمى : « علم الأصوات الوصفى » .

وإذا كان الهدف من دراسة اللغة المعينة ، فى تلك الفترة المحددة استخلاص القواعد ، والقوانين ، الصوتية التى تسير عليها وتعد نماذج «للنطق السليم» للحفاظ على اللغة ، وتصحيح نطقها ، فلهذا فرع

يسمى « علم الأصوات المعيارى » ويسمى هذا اللون الخاص بدراسة أصوات اللغة فى فترة محددة « سنكرونى » أو علم الأصوات المتزامن .

أما إذا درست أصوات اللغة فى مراحلها التاريخية المتعاقبة ، لملاحظة التطور الحادث فيها ، وعوامل تغيرها ، فذلك منهج آخر له فرع خاص يسمى «علم الأصوات التاريخى» ويطلق عليه اسم « نياكرونى » .

وعند مقارنة الظواهر الصوتية للغة معينة فى مراحلها التاريخية المختلفة ، أو مقارنة الظواهر الصوتية فى مجموعة متشابهة من اللغات ، واللهجات التى توجد بينها صلات قربى ، فى تاريخها اللغوى ، الطويل ، أو فى فترة منه ، ماضية أو حاضرة ، فلهذا قسم خاص من البحث يسمى « علم الأصوات المقارن » .

وثانيها : يعد لونا جديدا يتجه إلى دراسة الصوت الإنسانى على امتداد الناطقين به فى بقاع الأرض ، وتعدد لغاتهم ، فيتحدث عن آثاره السمعية وأعضاء النطق ، ووظائفها ، وطبيعة إصدارها للأصوات ، وما يمكن أن يؤثر فيها ، والقوانين التى تخضع لها ، بصفة عامة ، وأطلق على هذا النوع اسم « علم الأصوات العام » .

وفى هذا القسم « العام » ما يفيد « الخاص » فى منهجه ، وطبيعة بحثه ، وقوانين دراسته ، بحيث يعد الخاص بمثابة التطبيق ، المبنى على أسس علمية ، انتهجها القسم العام ، وأكد نتائجها .

ثانيا : الدياليكتولوجيا (علم اللهجات) :

قبل أواخر القرن التاسع عشر لم ينظر اللغويون الغربيون إلى دراسة اللهجات المتفرعة عن لغاتهم ، بل حاولوا أن ينشروا بين الناس الاتجاه إلى الفصحى ، ونبذ العاميات ، لأن فى الفصحى ما يحافظ على كيانهم الحضارى ، والأدبى ، فهم بحفاظهم على الفصحى من لغاتهم يستطيعون أن يحافظوا على وحدتهم الثقافية ، والقومية ، فإن تلك

اللغات قد وعت لهم تاريخ أجيال وحضارات مضت ، ونقلتها إليهم ، بحيث يستطيعون فهمها ، ووعيها ، فهم بها متصلون بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم أما لو اتجه الناس إلى العاميات ، فسوف تصرفهم عن تراثهم ، وتمزق وحدتهم ، وتقضى على أملهم فى المستقبل ولذلك حذر العلماء هناك من استعمال العاميات وطلبوا من مجتمعاتهم أن يحافظوا على فصحاهم ، بل حاولوا - ومعهم الحكام - ابتكار الطرق والوسائل التى تؤدى إلى منع انتشار العاميات ، ومن ذلك أن الجمعية الوطنية الفرنسية عهدت عام ١٧٤٩م إلى الأب جريجوار بأن يضع تقريرا بين فيه الوسائل الناجعة للقضاء على اللهجات الشعبية ، ونشر اللغة الفصحى [٤٤] .

ولم يكن الاهتمام بالفصحى على هذا النحو - وحده - هو السبب فى إهمال دراسة اللهجات ، فى تلك الحقبة من التاريخ ، بل ساعد على ذلك عوامل أخرى منها :

١ - توجه الدراسة إلى الفصحى وبيان خصائصها واتجاهاتها - لأنها - مع غرض الحفاظ عليها ودوام استمرارها - معبدة الطرق ، واضحة المسار مستقرة النظم ، ممتدة عبر التاريخ بسمات يمكن تحديدها والنظر فى أمرها ، على العكس من اللهجات الشعبية التى يحتاج تحديد مسارها ونظمها ، وسماتها إلى دراسات دائبة ، وجهود جبارة ، يتجشمها الباحث فيها ، ويحتاج معها إلى أزمان طويلة ، لاستخلاص حقائقها وما يتعلق بها من دراسة الأحوال الاجتماعية والثقافية والبيئية للشعوب .

٢ - العلماء آنذاك كانوا يحبون الدعة ، والهدوء ، ودراسة الفصحى توفر لهم ذلك لأن سماتها واضحة معلومة لا تستدعى الأسفار ولا

---

(٤٤) د. وافى : علم اللغة ، ص ٤٩ .

منشقات الانتقال أما اللهجات فتحتاج - لتتبع خصائصها والتعرف على ظواهرها - إلى تنقل وترحال لملاقاة أربابها فى بيئتهم دنت أو نأت ، سهلت أو صعبت ، مع ما يصحب ذلك من عناء السفر والرحلات الشاقة .

ولكنها - يوما ما فرضت نفسها عليهم ، وجذبتهم - إن طوعا أو إن كرها - إلى دراستها ، وتتبع مناحيها ، لأن التطور سنة الحياة ، وما فى الكون - بشتى ألوانه - يتطور ، فاللغة لا تخرج عن سنن الكائنات فى هذا الشأن ، فكما يتطور كل شئ تتطور اللغة .

ولذا - على الرغم من محاولات الغربيين أن يمنعوا زحفها - وجدنا سيلها يتدفق فى كل مكان ورأينا انشعاب اللغات الفصحى إلى عديد من اللهجات الشعبية ، تبعا لسنة الطبيعة ، وعوامل الاجتماع - فى الداخل والخارج - فلم يستطيعوا أن يحسروا الموجات المتتابعة منها ، فاضطروا إلى التسليم بالأمر الواقع ، والاتجاه إلى تلك اللهجات الناشئة ، حتى يعرفوا خط سيرها ، فبدأوا فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين فى الاهتمام بتلك اللهجات ، ودراستها .

وكما اهتم الفرنسيون - وجمعيتهم الوطنية - بمحاربة تلك اللهجات - أول الأمر - اهتموا - أيضا - بعد أن علموا ، كغيرهم ، عدم جدوى محاولاتهم - بدراستها وظهر ذلك واضحا - فى إنشاء شعبة خاصة لدراسة اللهجات الشعبية فى معهد الدراسات العليا بفرنسا على يد أول مهتم فرنسى بها وهو « جاستون باريس » ونهضت دراستها على يد طائفة من العلماء الفرنسيين منهم : تورنولون وبرنجييه ، وأنطوان توماس ، وألبرت دوزا .

وكذلك على يد غير الفرنسيين كالعالمين الإيطاليين كورنو ، وأسكولى ، ومن أشهر المشتغلين بتلك الدراسة الأب روسلو الذى اهتم

بالناحية الصوتية في اللهجات وجيليرون الذى درس اللهجات من ناحيتها الدلالية .

وقد استعانت هذه الدراسة بكل الوسائل العلمية الحديثة حتى استطاعت أن تضع قوانين لحياة اللغات ، وما يعرض لها من انقسام إلى لهجات وأسباب ذلك ونتائجه .

فاللغات قد تحيا ، نتيجة لاستمرار بقائها على الاستعمال على ألسنة أهلها وقد تموت لانقراضها من الاستعمال ، أو تغيرها ، واضمحلالها وليس معنى موت اللغة أن يقضى عليها نهائيا بحيث لا يبقى لها أثر ، لأنها - عندما تموت - تكون قد تركت آثارا فى خليفاتها ، كما يقول الدكتور السعران :

« إن اللغة اللاتينية لم تمت فى الحقيقة من الناحية التاريخية ، بل أصابتها تغيرات عميقة ، أنتجت أشكالا حديثة لها ، أبرزها البرتغالية ، والقشتالية ولغة قطالونها ولغة بروفانس ، والفرنسية ، والإيطالية ، ولغة رومانيا ، والأسبانية وقد بلغ من شدة هذه التغيرات وعمقها أنا نحس إذا نظرنا إلى الأشكال الحديثة للاتينية بأنها لغات مختلفة »[٤٥] .

ووصل العلماء - فى أمر التوحد والانقسام - إلى نتائج ذات قيمة علمية كبيرة ، فاللغات - متأثرة بحتمية العوامل الطبيعية والبيئية والاجتماعية ، والثقافية - تميل إلى الانقسام أكثر من التوحد ، وهذا رأى بعض اللغويين .

وهو اتجاه تؤيده الدلائل الواقعية ، فاللغات - منذ آدم عليه السلام - يتوالى عليها الانقسام بعد التوحد ، وهى على هذه الحال فى شتى بقاع الأرض إلى اليوم ، ولم تستمر - حتى الآن - لغة واحدة على طبيعتها دون تفرق إلى لهجات .

---

(٤٥) د . السعران : اللغة والمجتمع ص ١٦٧ ، ١٦٩ .

بيد أن « يسبرسن » يرى أن القوى الموحدة كانت فى العصور التاريخية أقوى - فى حقيقة الأمر - من القوى المقسمة [٤٦] ويستدل لذلك بكثرة المتكلمين بكل لغة فى الأزمان الحاضرة ، عنها فى الأزمان الماضية .

ولكن الرأى الأول تسانده ظواهر اللغات العالمية - دون ريب - وكثرة عدد المتكلمين لا يعنى توحد اللغة ، فهذا قد يحدث مع تشعبها ، وانقسامها ، فكيف توصف بالتوحد مع الانقسام .

وقد حدد العلماء الأسس التى تؤدى إلى ظهور لغة عامة ، وإلى استمرار التوحد اللغوى لأمة اكتملت لها تلك الأسس ، كالاتصال والاختلاط بين المتكلمين ، وشيوع الأدب ، والثقافة بعناصرها المتعددة ، وما يصحب ذلك من حالات اجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية ، وعسكرية ، وإعلامية .

واللغات قد تنتشر فى مساحات واسعة من الأرض ، وقد تبقى فى حيز ضيق من الوجود ، وربما توسط حالها ، كل ذلك يخضع لعوامل الانتشار والتعثر ، وعدم الانطلاق ، فمع أهلها تدخل أراضى جديدة ، وتتصارع مع لغات جديدة ، نتيجة الغزو والاستعمار ، أو مع زيادة الناطقين بها زيادة طبيعية ، على طريق النمو وذلك قد يدعو إلى انقسامها ، وقد تساعد على ذلك عوامل أخرى اجتماعية وسياسية ، وثقافية ونفسية ، وفسيولوجية ، وجغرافية ، فلا ريب أن الجماعات المختلفة على هذا النحو تختلف لغاتها ، بل تنقسم إذا كانت واحدة ثم اختلفت عليها هذه العوامل .

بل إن الإقليم الواحد كجمهورية مصر العربية - تنقسم فيه لغة المحادثة إلى ألوان شتى من اللهجات المحلية ، نتيجة لاختلاف البيئات

---

(٤٦) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ١٨٠ .

نسبيا - بين أهلها في مدنها وقراها ، فنحن نستطيع أن نلمس هذه الفروق من سيرنا في تلك الأماكن فمن مدينة إلى أخرى ، ومن قرية إلى أخرى نلمح مظاهر هذا الخلاف بين اللهجات فعلى حين ينطق بعضهم «يقول» ينطقها آخرون « يئول » وآخرون « يجول » ويعبر بعضهم عن السيارة بكلمة « كومبيل » وبعضهم « أتومبيل » وبعض ثالث ترمبيل » وساقية المياه يسميها بعضهم « تابوت » وبعضهم « طبلية » وبعضهم «حلزونة» وبعضهم « حلوفة » وهكذا ، على حين تبقى مع ذلك اللغة العامة مفهومة للجميع ، ومستعملة في الكتابة والأمور الرسمية كلغة قومية ، وهي - عندنا - العربية الفصحى التي تربط بين الأمة العربية في شتى أقطارها .

والملاحظ أن لكل بيئة لهجتها الخاصة ، التي تنبع من حياتها ، والمؤثرات عليها فهناك لهجات خاصة ، تبعا للطبقات المتعددة، فلهجة للارستقراطيين ، وأخرى للزراعيين وثالثة للتجاريين ، ورابعة للبحريين ، وخامسة لأرباب الصناعات والمهندسين ، وسادسة للرياضيين ، وغير ذلك من ألوان اللهجات التي تناسب كل الفئات الاجتماعية ولذا يطلق علماء اللغة المحدثون على هذا اللون اللهجي اسم « اللهجات الاجتماعية » [٤٧] وأهم تلك اللهجات ما يسمونه « اللهجات الحرفية » [٤٧] .

ويرى بعض علماء « الانتوجرافيا » أن لهجات هذا النوع ترتجل ارتجالا ، ويتفق عليها ، من أفراد الجُماعة المتكلمة بها ، ولكن الرأى السديد هو أنها تخضع لعوامل النشأة الاجتماعية ، والبيئة التي تحياها تلك الطوائف ، مع تسليمنا بأنه ربما نشأ اصطلاح أو أكثر عن طريق الاختراع ثم شاع استعماله بالتقليد ، ولكن هذا ليس ظاهرة عامة .

---

(٤٧) د. وافي : علم اللغة ، ص ١٧٣ و ١٧٦ وفندريس : اللغة ، ص ٣١٥ : ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

كل ذلك الانقسام ، واختلاف اللغات واللهجات ، قد خضع لعوامل كانت الدراسة الغربية فاتحة له ، وممهدة طريقه ، وواضعة أسسه العامة والخاصة ، حتى أصبحت له قوانين العلم التى طبقت - قديما - على اللغات الهندية الأوربية وانقساماتها إلى طوائف لغوية كثيرة [٤٨] وعلى اللاتينية - إحدى لغات الفرع الإيطالى من هذه المجموعة اللغوية - فقد انشعبت إلى عدة فروع لهجية - فى أواخر العصور الوسطى - هى : الفرنسية ، والإيطالية ، والأسبانية ، والبرتغالية ، ولغة رومانيا [٤٩] وفى العصور الحديثة أخذت إنجليزية الولايات المتحدة تختلف عن إنجليزية انجلترا فى كثير من المفردات وأساليب النطق ، وهكذا العربية فى أقطارها كالعراق ومصر وسوريا وليبيا وغيرها ، وقد علم ذلك بوسائل الدراسة اللهجية .

وعوامل تكوين اللغة العامة برزت فى دراساتهم أيضا ، فقد لوحظ أن التغيرات الفردية لا تؤثر تأثيرا فعالا فى هذا المجال ، بل الاعتماد على العوامل الاجتماعية متضافرة ، فقد كانوا - كما ذكرالدكتور السعران - يفهمون قديما « أن الإيطالية قد كونها دانتى ، والإنجليزية كونها تشوسر والألمانية كونها لوثر والدنيمركية كونها كريستيرن بدرسن فأظهر البحث أن كل لغة من هذه اللغات كانت مكونة قبل أن يخط هؤلاء حرفا » [٥٠] .

كما أن الانقسام إلى لهجات ، شعبية ومحلية ، كانت له مبادئ وقوانين عمل الغربيون على إثبات وجودها ، وتأكيدها بالأدلة السليمة النابعة من التجارب ، ودراسة الوقائع اللغوية ، التى تؤكد صحة النتائج .

---

(٤٨) لها طوائف ثمان د . وافى : علم اللغة ص ١٨٠ وما بعدها .

(٤٩) المصدر السابق ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٥٠) د . السعران : اللغة والمجتمع ص ١٧٣ .

وقد وصلوا من ذلك إلى تحديد عوامل الخلاف ، التى تحدث فى صراع اللغات ، واللهجات ، وما يعتريها من تشعب ، فقد يكون كثيرا من الناحية الصوتية ، ثم يكون - أيضا - من الناحية الدلالية ، أما ناحية القواعد فإنها تكون قليلة وبطيئة التغير عادة .

وإننا نلاحظ ذلك فى لغتنا العربية ، فالخلاف كبير بين اللهجات الفصحى التى كانت فى الجزيرة ، مثل العنعنة [٥١] ، والفحفحة [٥٢] ، والاستنطاء [٥٣] ، وغير ذلك ، وبعض الألفاظ قد اختلفت دلالتها كما فى وثب فهى - عند حمير - بمعنى جلس ، وعند غيرهم من عرب الشمال بمعنى قفز والسدفة - فى لهجة تميم - الظلمة ، وفى لهجة قيس الضوء [٥٤] أما الخلاف فى القواعد - كالبنية ، والاشتقاق ، والجمع ، والتأنيث ، والنسب ، والتصغير ، وتكوين الجمل - فهو قليل ، وهكذا فى اللهجات العربية الحديثة .

وقد ظهر من ملاحظة تلك العوامل ، وظواهر الانقسام ، ودراسات المحدثين من الغربيين ومن تابعهم أن تكوين لغة عالمية أمر بعيد المنال ، فما دام البشر مختلفين فى طبيعة بيئاتهم وأجسامهم ، وثقافتهم، والعوامل التى تتقلب عليهم ، فلا يمكن اتحاد لغاتهم ، لأنها سوف تخضع لتلك العوامل وتتأثر بها ، فمهما تكن واحدة فى أول أمرها فسوف يعروها الانقسام ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

---

(٥١) إبدال الهمزة المصدرة عينا - وهى لبنى تميم ومن جاورهم من قيس وأسد كقولهم فى أن (عن) .

(٥٢) إبدال حاء (حتى) عينا على ما هو المشهور عند هذيل مثل قراءة ابن مسعود « ليسجننه عتى حين » .

(٥٣) إبدال العين - إذا كانت ساكنة قبل الطاء - نونا مثل قراءة « إنا أنطيناك الكوثر » وهى لهجة سعد بن بكر وهذيل والأزد والأنصار .

انظر د. نجا : اللهجات العربية ص ٨١ - ٨٣ .

(٥٤) السيوطى : المزهر ط الأولى ١ / ١٨٨ ، ١٩١ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ (٢٢) ﴾ (٥٥) .

وهذا الفرع الذى يتعلق بدراسة اللهجات ، يحتاج إليه دارس الفوناتيك والسمانتيك على سواء ، بل إن أى باحث فى اللغة - بجميع فروعها - لا يستغنى عنه ، فهو يحوى دراسة أصوات اللهجات ، واتجاهاتها ، ودلالة الألفاظ والاختلافات الطارئة عليها ، كما يتناول بالبحث نظمها التقعيدية والأسلوبية وغيرها من الظواهر اللغوية المتعلقة بها ، وأسبابها ، ونتائجها .

وهى تجرى بمثابة بحوث مقارنة عن أوضاع اللغات واللهجات الحى منها والميت ، وذلك مفيد لطلاب البحث اللغوى .

كما أنه مفيد فى معرفة ما يؤدى إلى قوة اللغة ، وما يضعف من شأنها ، وبه يمكن معرفة الطريق السليم لعلاج تدهور اللغات ، والعمل على إصلاحها .

ثالثا : السيمانتيك (علم الدلالة) :

هذا البحث يتناول معانى الكلمات ، وعلاقات بعضها ببعض ، وما يطرأ عليها من تغيرات .

فاللغة رمز التعبير ، ووسيلته ، وهى الأداة التى تنقل الأفكار وتترجم عنها ، ولا ريب أن تلك الأفكار تنتقل إلى طالبيها فى قوالب خاصة هى الألفاظ ، وهذه الألفاظ يختارها كل مجتمع حسب حاجاته وأحواله الاجتماعية ، فأرباب الصحراء يميلون إلى وعورة اللفظ وخشونته ، وأرباب المدينة تحمل ألفاظهم سمات مدنيتهم وحضارتهم ، من رقة وعذوبة .

---

(٥٥) من سورة الروم الآية ٢٢ .

ولا ريب أن المعانى التى تحملها هذه الألفاظ تمر عليها - منذ نشأتها - مراحل تاريخية - كما هو الحال الآن - فاللغات البشرية قد قطعت مراحل طويلة الأمد ، وتقلبت عليها أجيال متعاقبة ، منذ أقدم العصور ، وكل جيل له سمات قد ورث بعضها عن أجداده أو أخذه ممن يخالطهم ، وابتكر بعضها الآخر ، تبعا لمقتضيات حياته ، وبيئته ، والأحداث التى مر بها ، اجتماعية ونفسية .

ولا ريب - كذلك - أن الألفاظ تمر فى تلك المراحل ، وتتلقفها الأجيال ، بما تحمله من معان قد تبقى ، وقد تتغير ، وقد تنحرف ، حسب عادات وأسباب لا يمكن التنبؤ بها جميعا ، ولكن يمكن من دراسة الألفاظ نفسها الوقوف على بعضها .

كما أن المعنى نفسه قد يتغير مفهومه لدى الأجيال من الشرف إلى الضعة ، وبالعكس ، كذلك أصوات الألفاظ عرضة لهذا التغير .

ولكل لغة قواعدها المنتظمة ، وأساليبها المعينة التى تتبعها فى سيرها عبر التاريخ ، غير أن الأيام تؤثر فيها ، وتدخل بعض التغييرات عليها [٥٦] .

وبناء على ذلك فلا نظن أن المعاجم - وحدها - فى أية لغة - مهما تكن متقدمة ومنظمة - هى التى تعبر عن دلالة الألفاظ فى اللغات بحيث لا تحتاج بعدها إلى دراسة ، لأن الدلالة تخضع لمؤثرات كثيرة ، وعوامل متعددة اجتماعية ونفسية ، وتطورية ، وتاريخية ، والمعجم إنما يصف اللغة فى مرحلة معينة ، ودون تفسير للدلالات التى تنطوى عليها ، من النواحى المذكورة . أما علم الدلالة (السيمانتيك) فهو الذى يدخل العوامل التى أشرنا إليها فى الاعتبار . فيدرس النص اللغوى أو الكلمة ملاحظا المتكلم والسامع والظروف السياسية والاجتماعية والتاريخية التى مرت عليهما

---

(٥٦) انظر رسالتنا للدكتوراه عن « ابن جنى اللغوى » ص ٥٧١

ولأهمية هذا الفرع . وتشعب بحوثه ، ولج بابه كثير من العلماء من الفلاسفة ، واللغويين وعلماء النفس ، والأنثروبولوجيا ، والأدباء والفنانين ، والاقتصاديين وعلماء الدراسات الطبيعية .

وقد ظهر اسم هذا العلم Semantique في مقال كتبه ميشيل بريال سنة ١٨٨٣ ، ويعد هذا العالم الفرنسي من أوائل الواضعين لعلم الدلالة على أساس تاريخي لا وصفي .

وعلم الدلالة التاريخي يدرس تغيير المعنى - وما يتصل به - من عصر إلى عصر .

أما الوصفي فيدرس ذلك في مرحلة معينة ، من مراحل تاريخ اللغة .

وعني بالبحث فيه - كذلك - من الغربيين كثير منهم الأساتذة : وتني الإنجليزى ، وكروس الإيطالى ، وفونت الألمانى .

وقد نهضت الدراسة فى هذا الفرع على أساس من علم النفس والاجتماع اللذين نهضا فى الغرب آنذاك ، وملاحظة لدراسة الأصوات واللهجات الشعبية التى نهضت ، وتعمقت نظراتها العلمية ، لما وجد فيها من تجارب ، وآلات ساعدت على دقة النتائج وسلامتها فكان للدلالة مناهج تتناول اللغات من هذه الزوايا بالتحليل والبحث .

فبحثت فى الغرب :

١ - معانى الكلمات ، وأسباب اختلافها باختلاف العصور والأمم (٥٧) .

٢ - الاشتقاق اللغوى ، ومظاهره ، وآثار البيئة فيه ، والمعنى الذى تدل عليه ، ويعرف ذلك اللون باسم «المورفولوجيا» أى علم البنية (٥٨) .

---

(٥٧) يقابل هذا البحث ما يسمى بالدلالة المعجمية .

(٥٨) يقابل هذا اللون ما يسمى بالدلالة الصرفية .

وهو انواع :

(أ) المورفولوجيا التعليمي : الخاص بدراسة القواعد التي تساعد على تصحيح تعلم اللغة .

(ب) المورفولوجيا التاريخي : ويدرس تلك القواعد فى لغة ما من اللغات ، عبر تاريخها الطويل ، دراسة تحليلية ، وما تعرضت له فى تلك العصور المختلفة ، من تغيرات ، وأسبابها ، ونتائجها .

(جـ) المورفولوجيا المقارن : ويتناول تلك القواعد ، فى مجموعة لغوية متشابهة ، أو فى جميع اللغات ، دراسة تحليل ، ومقارنة ، فى تاريخها الذى مرت به للوصول إلى نتائج تحكم التطورات التى اعترتها ، ووجوه التقارب والصلات ، أو الاختلاف بينها .

٣ - الكلمة - بأقسامها المعروفة (الاسم والفعل والحرف) - والمعانى التى تؤديها ، ومواقعها فى الجمل ، والعلاقات بينها ، وأحكامها المختلفة ، من فصل ، ووصل ، وتذكير ، وتأنيث ، ونحو ذلك ، وتسمى تلك الدراسة « سنتكس » أى علم التنظيم [٥٩] .

وهو أقسام - كسابقه - تعليمى - تاريخى - مقارن .

فالخاص بقواعد التنظيم التى تعين على إتقان اللغة بالتعليم هو الأول .

والخاص بدراسة التنظيم فى لغة من اللغات دراسة تاريخية هو الثانى .

والخاص بدراسة التنظيم فى إحدى الفصائل اللغوية أو فى اللغات جميعا على وجه المقارنة والتحليل فى عصور التاريخ المختلفة هو الثالث .

---

(٥٩) تقابل تلك الدراسة ما يسمى بالدلالة النحوية ، بعد أن الغربيين توسعوا فى بحوث الدلالة إلى مستوى التحليل التاريخى والمقارن . وسنتحدث عن انواع الدلالات فيما بعد

٤ - الحديث عن الأساليب اللغوية ، شعرا ، ونثرا ، وخطابة ، ومحادثة ، وغير ذلك ، ومظاهرها ، وتطورها ، ونتائجها ، ويعرف ذلك بعلم الأساليب ، ويدرس النواحى الثلاث المتقدمة ، تعليما ، وتاريخا ، ومقارنة (٦٠) .

والقسم التعليمى من هذه الأقسام لا يدخل فى نطاق علم اللغة .

وقد ربطوا بين التطور الدلالى ، ومظاهر الكون ، والحياة ، فهو يتدرج معها ، دون إرادة الإنسان ، ويمتد عبر التاريخ ، ويتأثر بالمكان الذى تعيش فيه اللغة ، وبعلاقاتها اللغوية ، كما تحدثوا عن أسباب التطور الدلالى ، تاريخية واجتماعية ، ولغوية ، وما ينشأ عنه من حياة اللغات .

واستطاع العلماء الغربيون أن يصلوا من وراء تلك الدراسات إلى نتائج وقوانين عامة ، فى علم الدلالة ، وتطور اللغات ، من هذه النواحى التى أصبحت تدرس كبحوث مستقلة على النحو الذى أوضحناه .

على أن الدلالة ، ومظاهرها ، وتطورها ، تخضع - كما قلنا - لعوامل كثيرة اجتماعية ، ونفسية ، وتاريخية وثقافية ، وغيرها ، مما يختلف من عصر إلى آخر ، ومن مجتمع إلى غيره فكانت قوانين « علم الدلالة » محتاجة كل يوم إلى جديد من الآراء والنظريات العلمية ، ولذا فليست لها صرامة القوانين التى تخضع لها التطورات الصوتية .

---

(٦٠) غنى عن البيان أن الدراسة الوصفية هى أساس تلك الدراسات التاريخية والمقارنة ، إذ التحليل التاريخى ، والمقارن ، قائم - قبل كل شئ - على أساس الوصف لكل مرحلة لغوية قبل الانتقال إلى غيرها أو المقارنة بينها وبين سواها .

رابعا : السيكولوجيا اللغوية (علم النفس اللغوى) :

التعبير وليد الفكرة التى تجول بخاطر المتكلم ، وللمتكلمين بواعث وأغراض تختلف باختلاف ظروفهم ، وحالاتهم ، فمجتمع يعيش فى هدوء وطمأنينة ، وآخر ينتابه القلق ، وتهدده الأحداث ، وهكذا المجتمع الواحد بخلاياه الأسرية وأفراده ، وباطن تلك الأحداث يظهر على اللغة ، ونبراتها ، واتجاهات معانيها ، ففكرة راقية ، وأخرى منحطة ، وتعبير واضح ، وآخر غامض ، ومعنى دقيق وآخر منحرف .

ودرجات الفهم عند الشعوب والأفراد والمؤثرات عليها تختلف مما يؤدى إلى اختلاف الإدراك ، والتصورات ، ولذلك طابعه على اللغة ، بأصواتها ، وأساليبها التركيبية والمعنوية .

وقد يرتبط حدث ما بكلمة معينة ، فتوحى إلى قائلها ، أو سامعها ، بإحساس خاص ، تبعا للحدث المرتبطة به فكلمة (الصلاة) - عند ذكرها لمؤمن يقضى حق الله فيها ، وييسر الله تعالى له أعماله - توحى له بالطمأنينة والفرح ، وحسن المثوبة ، وعند ذكرها لمستهتر حق عليه شقاء الحياة ، توحى له بالتهكم والسخرية ، وعدم الاكتراث .

وإن كلمة لها معنى قاموسى معروف قد يستعملها شخصان لإيصال معنى خاص يصطلحان عليه بينهما ، فكلمة مثل « اخرج » ، قد يستعملها شخص فى التعامل مع آخر بمعنى : « حضر فلان » - المعروف بينهما ولا يريدان التصريح به خوفا من ظروف معينة ، تحيط بهما وقت الكلام ، وكلمة مثل « ادخل » قد يستعملها فى خطابه بمعنى « لم يحضر فلان » مثلا على حين يستعمل شخص آخر كلا من الكلمتين المذكورتين فى معنيين آخرين حسب اصطلاح آخر مع سامعه ، وتبعا لظروف نفسية واجتماعية خاصة تحيط بهما .

فالألفاظ - بمعناها القاموسى - لا تعطى تلك الدلالات المتعلقة ، بالجوانب النفسية والإيحاءات الاجتماعية المختلفة .

فمن هنا أدرك علماء اللغة – ولاسيما الغربيين – العلاقة الوثيقة بين اللغة ، والظواهر النفسية .

وبالربط بينهما فسرت غوامض ، وحلت مشكلات لغوية لم يتيسر للقدماء الاهتداء بشأنها إلى طريق واضح .

كما أدرك علماء النفس أن الظواهر اللغوية تكشف عن حقائق نفسية تتعلق بحياة الأفراد والشعوب فهى المعبر عن خلجات نفوسهم ، وهى المرآة التى ينعكس عليها تاريخهم النفسى والمؤثرات عليه ، فهما لونان – من الدراسة – مرتبطان ارتباطا كبيرا .

فدراسة علم النفس تحتاج إلى دراسة الظواهر اللغوية ، كما أن دراسة علم اللغة تحتاج هى الأخرى إلى دراسة الظواهر النفسية ، وكل دراسة لهذين العلمين – دون ملاحظة للأخرى – لا تفى بالمطلوب ، ولا تحقق النتائج المرجوة منها .

ولذا نشأ « علم النفس اللغوى » وتناوله علماء اللغة ، وعلماء النفس ، بالبحث والدراسة كشعبة مستقلة تخدم أهداف كل منهما .

ومن أساتذة هذا الفرع ريبو وبالى ، وفردريك جار لاندا ، وهنرى دولاكروا وغيرهم .

وقد تقدمت الدراسات فى « علم النفس اللغوى » نتيجة لوضوح صلة الظواهر النفسية بالظواهر اللغوية ، وتأكد الفائدة من ارتباطهما وذلك لعوامل كثيرة من أهمها :

١ – قدم الدراسة الخاصة ببحوث كسب الطفل للغة : فقد علم – بالدلائل الصحيحة والبحوث الدقيقة – أن الطفل يكتسب اللغة عن طريق التقليد ، وتتوقف درجة التقليد قوة وضعفا ، على الإحساس السمعى ، ونموه عنده .

فقد ثبت علميا أن الطفل - قبل الشهر الخامس - لا تتضح عنده - الإحساسات السمعية ، ولا تتميز ، ثم يبدأ فى قوة الإحساس بعد ذلك إلى أوائل السنة الثانية ، ثم يصل بعدها إلى إدراك يتدرج شيئا فشيئا نحو الكمال والنضج وكذلك فإن حافظة الطفل وذاكرته لا تتسع لصيانة ما يسمع قبل الشهر الخامس ، ثم تبدأ عملها - منذ أول هذا الشهر ، وإلى أوائل السنة الثانية ، ثم يبدأ بعدها فى الوعى الحفظى والتذكرى ، ونتيجة لهذا التدرج يتدرج التقليد اللغوى .

فالطفل - فى مرحلة ما قبل الشهر الخامس - لا يقلد شيئا ولا يعيه ولكنه - بعد ذلك - يبدأ فى عملية التقليد اللغوى ، وكلما تقدم إحساسه السمعي وقوة حافظته ، وذاكرته ، كلما ارتقى تقليده اللغوى ، ودق .

ويتوقف التقليد - كذلك - على درجة فهم الطفل لمدلولات الكلمات فهو لا يستطيع التعبير عن شئ لا يفهمه ، فلا يمكنه نطق ما لا يفهم معناه ، فكلما ارتقى فهمه للكلمات ارتقى تقليده للأصوات .

أما إذا فقد قوة الفهم ، فإنه يفقد قوة التقليد ، فالطفل المجنون يصاب بالبكم ، ولا يمكنه أن يعبر عن شئ ولو اكتملت لديه أعضاء النطق والسمع [٦١] .

فعملية كسب الطفل للغة ، تتدرج حسب تدرج الإحساس السمعي ، والحفظ والوعى ، ودرجة الفهم لمدلول الكلمات ، وقد أجريت البحوث المتعددة التى تقدمت بهذا الموضوع الذى يتعلق بعلم النفس تقدما ملموسا .

---

(٦١) انظر د. وافى : علم اللغة ص ١٤٠ وما بعدها ، وانظر - أيضا - محمد عبد الحميد أبو العزم : المسلك اللغوى ومهاراته الطبعة الأولى ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣م ، ص ٣٤ ، ٣٩ ، ٦١ - ٧٩ .

٢ - ارتقاء البحوث الخاصة بأمراض الكلام : فقد ثبت أن القوى العقلية تتصل باللغة اتصالا وثيقا ، ففي الحرب العالمية الأولى حدثت أمراض - من هذا النوع - للجنود والضباط ، ففقد بعضهم النطق ، وبعضهم الآخر فقد الفهم ، فأصبح يهذى دون أن يحكم عقلا ، فى ذلك ، وبعضهم فقدهما معا ، إلى غير ذلك من مظاهر التلعثم فى النطق وقد تبين للأطباء أن هذا حدث نتيجة الإصابة العقلية ، لمشاهدة أحوال الحرب وأخطارها ، مما أدى إلى تلك النتائج التى ظهرت على صور مختلفة .

فبادر العلماء إلى دراسة المخ الإنسانى ، ومناطقه ، وما تختص به كل منطقة ، والمؤثرات عليها ، وأسباب ذلك ، ونتائجه .

هذا - وغيره - كان من الأسباب التى أكدت أثر العوامل النفسية فى التفكير اللغوى ، ومظاهر الكلام الإنسانى ، فى الطفولة وغيرها من مراحل النشأة الإنسانية . وفى أثناء الأحداث التى قد تعترى الإنسان ، وتصرفاته المختلفة ، فدون دراسة الجوانب النفسية تكون الدراسة غير علمية ، وربما لا تؤدى دورها المطلوب منها لحياة اللغة .

ولذلك ارتقت بحوث « علم النفس اللغوى » وحقق الأهداف المنوطة به .

خامسا - السوسيولوجيا اللغوية (علم الاجتماع اللغوى) :

لم يتنبه قدامى اللغويين وباحثوهم إلى علاقة اللغة بالمجتمع ، الذى تعيش فيه ، وتأثرها به ، وتطورها بتطوره ، ورقيها برقيه ، وانحطاطها بانحطاطه ، ولذلك بعدوا عن الصواب - أحيانا - فى تفسيرهم لبعض الظواهر اللغوية - ولاسيما الصوتية منها - فقد ذهبوا بها بعيدا عن الواقع الذى نشأت فيه ، وتركوا فلسفتهم تأخذ مجراها ، دون اتجاه إلى الصواب الذى لا محيد عنه .

ولما نشأت الدراسات الاجتماعية التى تتناول المجتمع ، وشئونه ، ومظاهر حضارته ، وعاداته وتقاليده ، ونظمه السياسية والاجتماعية ، وثقافاته ، وفنونه ، لاحظ علماء الاجتماع صلة اللغة بالمجتمعات التى تلهج بها ، وعلى أثر ذلك تبينوا ما فات قدماء اللغويين من هذا الربط الذى ترتب عليه ضياع بعض الحقائق الجديرة بالملاحظة فى بحوث اللغة .

فهب هؤلاء العلماء يفتحون الأبواب لدراسة اللغة ، على أساس اجتماعى ، وكان ذلك على يد بعض المدارس الغربية ، وفى مقدمتها المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى أنشأها إميل دوركيم فى أوائل القرن الماضى ، وانضم إليهم بعض علماء اللغة ومنهم دى سوسير ، ومييه ، وفندريس (٦٢) .

فالملاحظ أن اللغة صورة لحياة الأمة بجميع نظمها ، وتقاليدها واتجاهاتها الفكرية ، والدينية ، والاجتماعية .

فحضارة الأمة تظهر على لغتها ، وانحطاطها ملازم لها فإذا تقدمت الأمة سمت لغتها ، وارتقت فى التعبير ، واختيار الألفاظ كما حدث فى العربية ، فهى فى العصر الجاهلى وعرة الألفاظ ، محدودة الأفكار ، متعددة اللهجات التى تتمثل فيها فروق لغوية فى القواعد والأصوات والأساليب ، لكنها فى عصر صدر الإسلام وما تلاه حسنة الألفاظ ، دقيقة المعانى ، قليلة اللهجات والفروق - بعد ثبات القرشية ونزول القرآن الكريم بها ، وحضارة الأمة ، ورقيها ، ثم بعد انتشار الإسلام فى الأقطار المجاورة للجزيرة فلاحظ تلون العربية فى كل منها بلون البيئة التى تضمها ، وبقدر حضارتها ، ورقيها .

---

(٦٢) وقف الأول قسطا كبيرا من جهوده العلمية على هذه البحوث ، وتعد مؤلفات الثانى من أهم مراجع علم اللغة فى العصر الحاضر ، وقد عرج الثالث فى مؤلفاته على كثير من مسائل « علم الاجتماع اللغوى » ونشر عنه أبحاثا فى بعض المجلات العلمية . د. وافى : علم اللغة ص ٦٢ .

وعقائد الأمة وأخلاقها ، وتقاليدها تلمح من خلال لغتها ، وتظهر آثارها على الأساليب والقواعد والألفاظ وأصواتها ودلالتها .

فالعصر الجاهلى برزت فيه أسماء المعبودات الوثنية كاللات والعزى ويغوث ويعوق ونسر ، ثم اختفت بظهور الإسلام الذى دعا إلى عبادة الله وحده .

والعربية - بعد الإسلام - كنت عن العورات فيقال « قبل - دبر - لمس امرأته - قضى حاجته » والقرآن الكريم أعلى مثل فى ذلك ففيه : ﴿ نساؤكم حرث لكم - فاهجروهن فى المضاجع - لامستم النساء ﴾(٦٣) ومثل هذا الاحتشام يلاحظ فى اللغات الأوربية الحديثة (٦٤) فالإنجليزية لا تصرح بكلمة البطن ، بل تقول - كناية عنها The Stomack (أى المعدة) وسراويل الرجل تطلق عليها - أحيانا - كلمة معناها الأصلى «ما لا يمكن التعبير عنه» Inexpressitle وسراويل المرأة يطلق عليها كلمة معناها الأصلى « الجمع أو التركيب Combination (٦٥) .

واللغات التى تسوى - فى درجة القرابة للفرد - بين أسرة الأب وأسرة الأم ، تستعمل كلمة واحدة لكل من العم والخال فهما فى الإنجليزية Uncle وفى الفرنسية Dncle والعمة والخالة فهما فى الإنجليزية aunt وفى الفرنسية Tante وابن العم أو العمة ، وابن الخال أو الخالة ، فهما - فى اللغتين السابقتين Cousine وابنة العم أو العمة وابنة الخال أو الخالة Cousine(٦٦) على حين أن اللغات التى تفرق بين الأسرتين فى درجة القرابة للفرد تستعمل كلمات محددة لأفراد كل من الأسرتين

---

(٦٣) الآيات على الترتيب من سورة البقرة الآية ٢٢٣ ، والنساء الآية ٣٤ ، والمائدة الآية ٦ .

(٦٤) على حين أن اللاتينية تعبر عن العورات بوضوح دون استحياء أو كناية .

(٦٥) د. وافى : علم اللغة ص ٢٢٩ .

(٦٦) المصدر السابق ص ٢٢٩ .

مثل العربية فكلماتها - كما سبق - العم ، الخال ، العمة ، الخالة ، ابن العم ، ابن الخال ، ابنة العم ، ابنة الخال ، ابن العمة ، ابن الخالة ، بنت العمة ، بنت الخالة .

والنظام السائد فى الأمة أيا كان نوعه تحمله الظواهر اللغوية ، فإذا كان المجتمع ينعم بالمساواة بين أفراده فى الحقوق والواجبات ، ومظاهر الحياة ومتعها ظهرت آثاره ، فى اللغة ، فيخاطب كل منهم الآخر دون تعظيم للمخاطب ، ولو كان رئيسا للدولة ، كالنظام الجمهورى القائم على مبادئ العدالة ، والمساواة .

أما فى النظام الطبقى الذى يفصل بين أفراد الأمة وأسرها فى حقوقهم ، وواجباتهم ، وحظهم من لذائذ الحياة ، فيكثر التعبير فى اللغة - عند الخطاب - بصاحب الحضرة والجناب ، والسعادة ، وما إلى ذلك ، وفى العصر الملكى البائد كنا نسمع من يقول « نحن فلان ملك مصر » ، أما فى عصرنا الحاضر فالكل سيد فى ظل الجمهورية فرئيسها فرد من أفرادها حظه كحظهم فى التبجيل والاحترام .

والنظام الاقتصادى تظهر ملامحه على اللغة ، ولذا نشاهد تغاير اللغات فى دول العالم الصناعية ، والزراعية ، والرعوية ، وتغاير اللهجات فى الأمة الواحدة ، تبعا لاختلاف المناطق ، ولميل الإنجليز إلى الناحية العملية صبغت لغتهم بصبغة مادية فى مفرداتها ، وتراكيبها ، حتى إنه ليقال فيها : دفع زيارة أو تحية ، أو شكرا ، أو انتباها ، وأنفق وقته فى كيت وكيت ، وتربح الساعة أو تخسر » بدلا من « أدى زيارة وقدم تحية أو شكرا ، وأبدى اهتماما وقضى وقته فى عمل ما ، والساعة تقدم أو تؤخر »(٦٧) .

---

(67) To Pay Vist : Compliments : attention .. How Can Jpay. You for all Your good Cl. : He spent His time in .. the watch gains or loses.

د. وافى : علم اللغة ص ٢٣٩ .

وفكر الأمة الراقى العميق أو المنحط الساذج توجد آثاره فى اللغة ، فالأمم البدائية ساذجة التعبير ، بل إنه في بعضها لم يتجاوز المحسوسات «ففى لغة الهنود الحمر - مثلا - يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء ، وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء ، وهكذا ، ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم » [٦٨] على حين أن الأمم الراقية - كالشعوب الهندية الأوربية - ترقى لغتها إلى التأمل الفلسفى ، والنظر إلى الأمور الكلية ولذلك كثرت فيها الأفعال إلى أن بلغت الأزمان فى الفرنسية أحد عشر زمنا [٦٩] ، وطالت الجمل وتعددت أجزاؤها ، وعمق التعبير فيها عن الوجدان ، والحقائق العلمية والفلسفية .

ومثل ذلك اللغة العربية التى يكثر فيها التعبير عن الشئ منظورا إليه فى درجاته المختلفة [٧١] وتبين عن الفكر والوجدان بأساليب ترقى فى التصوير المعنوى إلى أفق يؤكد رقى العقلية العربية وصفاءها ، وكما يقول الدكتور عثمان أمين : « العرب يعبرون عن التفكير الواعى بألفاظ القلب واللب والحجى والنهى أكثر مما يعبرون عنه بألفاظ المخ والدماغ والرأس ، ويفرقون بين القرابة والقربى وإحداهما لحمة الدم والأخرى رابطة الروح » [٧٢] .

---

(٦٨) المصدر السابق ص ٢٤١ .

(٦٩) فى السامية للأفعال « زمن التهى » وهو الماضى و « زمن لم ينته » وهو الأمر والمضارع للحال والاستقبال ومع ذلك فلا يدل هذا - فى رأيى - على سذاجة العقلية السامية بل يدل على رقيها .

(٧٠) د. وافى : علم اللغة ص ٢٤٢ .

(٧١) فمثلا : الظمأ والصدى والأوام والهيام كلمات تدل على العطش إلا أن كلا منها يصور درجة من درجاته ، فأنت تعطش إذا أحسست بحاجة إلى الماء ، ثم يشتد بك العطش فتظمأ ، ويشتد بك الظمأ فتصدى ويشتد بك الصدى فتئوم ويشتد بك الأوام فتهيم ، انظر د. عثمان أمين : فلسفة اللغة العربية ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٧٢) د. أمين فلسفة اللغة العربية ص ٣٧

وتلك خصيصة لها تفضل بها اللغات الأخرى يقول المستشرق الفرنسي لوى ماسنيون « إنه في حين أن اللغات الهندية الأوربية جعلت للتعبير عن العالم الخارجي نجد اللغة العربية وكأنها هي لغة التأمل الداخلي ، ففيها - بفضل تركيبها الداخلي وطراز الخلوة الذى توحي به - قدرة خاصة على التجريد والنزوع إلى الكلية والشمول ، ومن هنا كان للعرب الفضل في استكشاف رموز الجبر وصيغ الكيمياء والمسلسلات الحسابية » [٧٣] .

ويقول المستشرق الفرنسي كارادوفو : إن « العربية تنطوى على قدرة ذاتية على التحليل الفلسفي العميق ، مادام أن إحداث تغيير طفيف في بنية اللفظ العربي يسمح لتلك اللغة بأن تميز بين الحالة النفسية وبين العادة البدنية التي تطابقها » [٧٤] .

وهذا يدل على رقي عقلية أصحابها .

هذا - وغيره كثير - مما أكده علماء الاجتماع واللغة الغربيون وأثبتوا الصلات الوثيقة فيه بين المجتمع واللغة ، مما دعاهم إلى إيجاد «علم الاجتماع اللغوى» الذى يبحث فيه عن تلك الصلات ، ومظاهرها وآثارها ، وما يمكن أن تخضع له من قوانين .

فكان « علم الاجتماع اللغوى » فرعا حظى بنصيب من الدراسة يبين صلة اللغة بالمجتمع ، فهي أداة تربط بين أفراده ، وتجمع شملهم وتعبر عن حاجاتهم ويمكن - في هذا الضوء - معرفة الأسباب والنتائج ، والقوانين التي تحكم ظواهر اللغة التي تصلح للحياة المتشعبة ، ومرونتها ، وقدرتها على تمثيل ألوان الحضارات والتغيرات الاجتماعية ، وأيضا اللغة التي لا تصلح لذلك .

---

(٧٣) د. أمين : فلسفة اللغة العربية ص ٨ .

(٧٤) ومما ذكر في هذا المقام أن العربية تفرق بين الكبر الداخلي والكبر الخارجي فالداخلي استعداد في النفس ، والخارجي ناتج عن أفعال الجوارح . انظر د. أمين : فلسفة اللغة العربية ص ٤٦ ، ٤٧ .

والجانب الاجتماعي للغة مهم لفهم حقائقها ، ولتفسير مشكلاتها ومن هنا أخطأ بعض اللغويين القدامى عندما عالجوا بعض الظواهر اللغوية بعيدة عن ملاحظة جوانبها الاجتماعية .

فهذا الفرع تحتاج إليه الدراسات اللغوية - بجميع فروعها - فالأصوات ، والدلالة ومظاهر الانقسام أو التوحد في اللغة ، وتعرضها للبقاء أو الفناء ، وما يطرأ عليها من تغيرات في القواعد ، والأساليب ، والمعاني ، كل ذلك - وأشباهه - مما قد يحدث للغات واللهجات لا يدرس دراسة حقيقية إلا في ضوء التفسيرات المتعلقة بالظواهر الاجتماعية .

وقد بالغ بعض الباحثين فزعم أن كل تأثير يظهر على اللغة فهو من فعل العوامل الاجتماعية ، لا غير ، ولكن ذلك غير سديد ، فهناك عوامل كثيرة غير العوامل الاجتماعية لها أثرها الكبير ، في التغيرات والآثار اللغوية ومنها عوامل جسمية فسيولوجية أو نفسية فردية أو جغرافية ، ونحن لا ننكر ما للعوامل الاجتماعية من أثر مع غيرها من هذه العوامل .

ولا ريب أن نمو الدراسة اللغوية في الغرب على هذا النحو المتقدم يعد كسبا هائلا للدراسة اللغوية - وإن جاء متأخرا - لأنه اعتمد على مناهج علمية استقرت منذ قرن ونصف من الزمان ، ونشأ عن هذا التقدم العلمي - ومنه اللغوى - أن يسرت سبل البحث ، وفي المجال اللغوى وجدت المناهج المعتمدة على الآلات والتجارب العلمية والمعملية التى أصبحت من الطرق التى يرجى من ورائها نتائج واقعية صادقة ، ومحققة للمراد منها دون عناء أو حدس ، كما كان يحدث في غابر الأزمان .

الباب الثالث

بعض قضايا علم اللغة

أولا : اللغة بين الفرد والمجتمع .

ثانيا : دلالة الألفاظ وتطورها .

ثالثا : اللغة العربية والفلسفة .

أولا : اللغة بين الفرد والمجتمع

مدخل :

الإنسان مدني بطبعه - كما يقول علماء الاجتماع - فهو يميل إلى الانتماء إلى طائفة من بني جنسه ، ليجتمع لهم جملة من الخصائص ، والسمات ، التي تميز جماعة من غيرها ، ومبعث ذلك الغريزة التي ركب عليها الإنسان ، والتي تدفعه إلى تكوين « هيئة اجتماعية » ولذا يمكن لاثنين من شعبين مختلفين أن يأتلفا على بعض الخصائص ، ويتناسيا الفروق الموجودة بين شعبيهما إذا عاشا معا مدة طويلة ، كفرنسي وفارسي ، أو عربي وإنجليزى مثلا [١] .

وانتماء الفرد للجماعة يتحدد بتحدد الجماعة ذاتها ، فالأسرة جماعة ، والقرية جماعة أشمل ، والمقاطعة ، ثم الدولة ، وأخيرا الجنس البشرى [٢] .

وهذا الانتماء ، يأخذ أشكالا متعددة ، فهو - أحيانا سياسى ، أو جغرافي أو جنسي ، أو لغوى ، وقد تعددت المصطلحات السياسية التي تطلق على تلك الجماعات [٣] .

---

(١) فندريس : اللغة ص ٣٠٢ .

(٢) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢ .

(٣) من هذه المصطلحات : « الشعب » و « الدولة » و « الأمة » فالشعب : جماعة من الناس تستقر على أرض واحدة ، أو تخضع لسلطة واحدة ، والدولة تعبير سياسي وقانوني يشير إلى الوحدة السياسية التي تضم أركانا ثلاثة هي : « شعب وإقليم وسلطة سياسية » .

والأمة : جماعة من الناس يرتبطون بأهداف مشتركة ويتبادلون الشعور بأنهم وحدة بشرية اجتماعية واحدة ، نتيجة التقائهم في عدد من العناصر ، كالأصل واللغة والدين ، ووحدة التاريخ .

وقد تسمى إحدى الجماعات « شعبا ودولة وأمة » ، وقد تسمى « شعبا ودولة » لا « أمة » كسكان سويسرا ، وقد تمزق الأمة بخضوعها لعدة سلطات سياسية ، ولا يعنى هذا فناء الأمة ، كالأمة البولندية بعد تمزقها على يد جاراتها بعد أواسط القرن الثامن عشر ، وكذلك العالم العربى أمة ، وإن توزعت السلطة فيه .

انظر د. أحمد كمال أبو المجد : دراسات في المجتمع العربى والوحدة العربية ص ٢٤-٢٩ .

بيد أننا نعني - هنا - جماعة خاصة ، ومن وجهة نظر خاصة هي ما نسميها (الجماعة اللغوية) ، وهي : هيئة اجتماعية ، صغر حجمها ، أو كبر ، أو بعبارة أخرى تتدرج من الصغر إلى الكبر ، فهي تبدأ بالأسرة ثم العائلة ، ثم القبيلة ، ثم الأمة .

ولا يهمنا كثيرا الاختلاف السياسى أو الدينى إذا توافر الاشتراك اللغوى (٤) .

ويمكن أن نقسم الوحدات الكبيرة إلى وحدات صغيرة ، وننظر إلى كل وحدة فى إطار اللغة التى تتحدث بها فى القرية ، أو المدينة ، والطبقات الاجتماعية المتنوعة ، من المعلمين ، والفلاحين ، وأصحاب المهن ، والأشقياء وغيرهم .

« وتلعب اللغة دورا ذا أهمية عظمى فى الجماعة الاجتماعية ، مهما كانت ومهما كان مقدار امتدادها ، فاللغة أوثق العرى التى تجمع بين أعضاء هذه الجماعة ، وهي - على الدوام - رمز ما بينهم من تشارك ، وحارسه الأمين ، وأية آلة أفعل من اللغة فى توطيد وجود الجماعة ؟ فاللغة بمرونتها ، وتنوع حياتها ، ولطف سريانها ، واختلاف استعمالها ، وسيلة للاتفاق بين الجماعة ، وعلامة لأعضاء هذه الجماعة ، بها يعرف بعضهم بعضا ، ويهرع بعضهم إلى بعض » (٥) .

وبديهى أن اللغة هى الأداة التى يستعملها أفراد كل جماعة لغوية ، للتعبير عما يهمهم من شئون ، وهى قانون من قوانين هذه الجماعة يعد الخروج عليه أمرا صعبا ، ومحرجاً ، ومؤديا إلى السخرية ، ويقاوم بصرامة من بقية أفرادها (٥) .

« وإن هبة الكلام واللغة من خصائص المجموعات الإنسانية ، ولم

---

(٤) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٥٢ .

(٥) فندريس : اللغة ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

يعثر قط على جماعة بلا لغة ... وحقيقة هذه المسألة أن اللغة وسيلة تعبيرية واتصالية كاملة بالضرورة ، كما نلاحظ ذلك فى كل مجتمع معروف »[٦] .

ولم يكن يدرك قديما ما للغة من صلات بالمجتمع الذى تعيش فيه ، لأنهم اعتبروها هبة الله التى لا يحق لاحد أن يغير فيها ، أو يعدل من طرائقها ، ثم درست على هذا الأساس فترة من الزمان ، ولكن بعد تقدم العلوم الإنسانية ، وإدراك حقائق الظواهر الاجتماعية لوحظ أن اللغة ترتبط بالجماعات الناطقة بها ، ويمكن أن نهتدى على إثر هذا الإدراك إلى معرفة خصائص الجماعات البشرية ، من دراساتنا للغات ، وتاريخها ، وتطوراتها [٧] .

---

(٦) د. تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١١٣ نقلا عن إدوارد سابير .

(٧) انظر ص ١٢ وما بعدها من هذا الكتاب .

أثر الفرد فى اللغة

« اللغة هى الصورة اللغوية المثالية التى تفرض نفسها على جميع الأفراد فى مجموعة واحدة » [٨] .

والفرد والجماعة عنصران لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، فالفرد يرتبط بجماعته ، ويقدس ما يقدسون ، ويأتى من الأفعال التقليدية ما يأتون وهو يتبع عرف الجماعة ، وإن خالف اعتقاده [٩] ، وإذا سلمنا بوجود الفرد والمجتمع ، باعتبار كل منهما وحدة مستقلة ، فإن من الممكن من الجانب اللغوى أيضا أن نتكلم عن اللغة الفردية ، واللغة الجماعية ، وكلا هذين العنصرين يؤثر ، ويتأثر بالعنصر الآخر [١٠] .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، تنشأ عن الأفراد ، والجماعات ، ودراستها تتم بالبحث فى الجانب الفردى ، والجانب الجمعى ، وإن كان علماء الاجتماع يقفون من ذلك موقفين متعارضين .

فيرى بعضهم أن التعرف على الفرد يؤدى إلى التعرف على الجماعة ، ولذا تدرس لغة الفرد ، ويتوصل من خلالها إلى معرفة لغة الجماعة ، لأنها مجموع الظواهر المشتركة بين جميع الأفراد .

ويقول أوجست كونت (ليس من الضرورى أن نعرف ما هو الإنسان حتى نعرف ما هى الإنسانية ، ولكن من الضرورى أن نعرف ما هى الإنسانية حتى نعرف ما هو الإنسان ؟) فالتعرف على الجماعة يؤدى إلى التعرف على الفرد ، ومن هنا تعد دراسة اللغة العامة أساسا لمعرفة لغة الأفراد [١١] .

---

(٨) فندريس : اللغة ٣٠٦ .

(٩) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٢ .

(١٠) المصدر السابق ص ٥ .

(١١) المصدر السابق ص ٤ .

وقد دار نقاش ، وجدل بين الباحثين حول اللغة والكلام ، وصلاتهما بالعقل الفردى ، والعقل الجمعى .

فيرى دى سوسير [١٢] أن اللغة غير الكلام ، فاللغة مجموعة محدودة من المفردات ، والتراكيب توجد فى كتب القواعد والقواميس ، وتختزن فى عقل الجماعة ، والكلام نشاط فردى ، يختلف من فرد إلى آخر ، من أبناء الجماعة الواحدة .

والفرد يولد بلا لغة ، ثم يرثها من جماعته ولا يملك التدخل فى اختيار مفرداتها أو تنظيم قواعدها .

وعلى الرغم من اختلاف الكلام واللغة فإن لكل منهما علاقة وثيقة بالآخر ، واللغة ذاتها تتطور بتطور الكلام .

وقد قال بالى (تلميذ دى سوسير) : إن الكلام نشاط لغوى فردى يعالج الحياة الواقعية للفرد ، ومن ثم فهو وحده الذى يعبر عن الواقعية ، والعاطفية ، بعكس اللغة التى ليست سوى إمكانيات تعبيرية .

ومن هنا فإن دى سوسير يرى أن اللغة من نتاج المجتمع ، والكلام من نتاج الأفراد ، وإذا صح أن يكون هناك عقل فردى فهناك كذلك عقل جمعى .

وقد اعترض جسبرسن [١٣] على هذا التفريق ، وقال : إن العقل خاصة توجد للفرد ، لا للجماعة ، والفرد له سلوك وحده ، وسلوك مع الجماعة ، حسب الظروف التى تمر به ، ولا يعدو الاتفاق فى العاطفة أو الرأى فى جماعة من الجماعات أن يكون مجرد اتفاق فى حكم يصدر عن عدة عقول فردية ، قد تأثرت بظروف ، ودوافع متشابهة ، ولست أدرى لماذا يقول دى سوسير « العقل الجمعى » ولا يقول « البطن الجمعى والرجل الجمعى والأنف الجمعى » إذ ليست لذلك فائدة .

---

(١٢) عالم لغوى سويسرى .

(١٣) عالم لغوى دانمركى .

فاللغة ليست القاعدة وليست الألفاظ ذاتها بل هى شئ آخر يتمثل فى الصور الذهنية الموجودة لهذه القواعد والألفاظ فى نفوس أفراد الجماعة ، لا فى العقل الجمعى ، ويقرب من ذلك قول دى سوسير فى عبارة أخرى « اللغة هى مجموعة من صور الألفاظ مختزنة فى نفوس أفراد الجماعة اللغوية » [١٤] .

وينتهى جسبرسن - بعد الرد على دى سوبسير - إلى أن اللغة ليست شيئا آخر غير الكلام ، بل هى الكلام ذاته ، ولكن باعتبار آخر .

ويبدو أن النظرتين متقاربتان ، فالفرد جزء من الجماعة والجماعة طائفة من الأفراد ، والكلام واللغة مرتبطان أحدهما بالآخر ولا يستطيع باحث أن يفرق بينهما أو يعزل أحدهما عن الآخر ، فقد اتفق الفلاسفة واللغويون على أن الإنسان لا يستطيع أن يفرق بين فكرتين تفريقا حقيقيا بلا علامات لغوية ، أى كلمات ، فالتفكير بلا كلمات عائم » [١٥] .

« والكلمات أهم مكونات اللغة وتسمى وحدات لها » [١٦] .

وما يسميه النحاة أقسام الكلام ، وهم يقصدون الاسم والفعل والحرف ليس فى الواقع إلا أقسام اللغة ، فقول صاحب الألفية الكلام وما يتألف منه يجب أن يصير إلى اللغة وما تتألف منه [١٧] .

فالكلام الذى هو نشاط إنسانى نطقى نتيجة لإرادة المتكلم [١٨] يعد الباعث لكلمات اللغة ، بحيث يجعلها حية بعد موتها ، ووجودها فى طوايا العقل ، أو المعاجم ، فاللغة بمادتها المكونة لها توجد فى

---

(١٤) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٥ - ٢٣ .

(١٥) د . تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٤ .

(١٦) المصدر السابق ص ٣٩ .

(١٧) المصدر السابق ص ٤٠ .

(١٨) فندريس : اللغة ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

القواميس أو تختزن فى عقول الجماعة الإنسانية التى تتخذها وسيلة للتفاهم ، ولها قواعد خاصة يفهمها أصحابها ، ويراعونها فى استعمالهم من ناحية النظام الصوتى ، والصرفى ، والنحوى ، واللغة بهذا الوصف تسمى بـ « اللغة المعينة » [١٨] التى هى نتاج جمعى يستعمله الأفراد ، « وللكلام علاقة باللغة المعينة ، ولذلك يجب أن يدخل فى الدراسة لأنه الجانب العملى منها » [١٩] .

ومن المتعارف عليه بين دارسى العلوم الاجتماعية أن جميع الأحداث الاجتماعية تبدأ فردية ، ثم لا تلبث أن تشيع بين عدد من الأفراد ، ثم يتسع نطاقها فتتخذ صفة الجمعية [٢٠] .

والمدرسة اللغوية الإنجليزية وضعت لدراسة أية طريقة وصفية ، تهتم بالشخص ، والشخصية ، ولكن لا تنظر إليه باعتباره « مستقلا » وإنما تدخل فى حسابها أنه عضو فى جماعة كلامية معينة [٢١] .

ولا ريب أن جوانب التأثير فى اللغة كثيرة ، بعضها ينشأ عن الأفراد ، وبعضها يرجع إلى المجتمع .

وللتأثير الفردى مظاهر عدة ، فهو يتناول : الأصوات ، والمفردات والتراكيب .

١ - أثر الفرد فى الأصوات :

تبدأ الممارسة اللغوية للإنسان منذ طفولته ، فالطفل يولد وعنده الاستعداد لتلقى اللغة - أية لغة - إذ لا توجد لدى أى طفل فى أى مكان لغة فطرية [٢٢] .

وهو يتعلم لغة المجتمع الذى يعيش فيه فاللغة ليست وراثية ، بل

---

(١٩) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٣٢ - ٣٥ .

(٢٠) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢١) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٢٥ - ٣١ .

(٢٢) كندراتوف : أصوات وإشارات ص ١٩١ .

إنه يتلقاها ممن يخالطهم ، ولذا فإن طفلا عربيا لو نشئ فى بيئة إنجليزية تعلم لغة الإنجليز ، والعكس صحيح أيضا « بل أكثر من هذا أن العلم يزخر بحالات كثيرة لأطفال ترعرعوا لدى الحيوانات كالذئاب والفهود والدببة ، وحتى الخرفان ، وتعلموا أنواعا من اللغة الحيوانية ، فعووا كالذئاب وثغوا كالخرفان ، وأصبح من الصعب بعدئذ تعليمهم اللغة الإنسانية »[٢٣] .

فالأطفال يتعلمون لغة الجماعة التى يولدون ، ويعيشون فيها ، بنفس السرعة التى يتعلمها بها أهلها الأصليون ، ويتكلمونها كما يتكلمها أهلها الأصليون[٢٤] .

وقد توصلت طائفة من اللغويين إلى بعض الملاحظات المهمة التى تتعلق بلغة الطفل ، وأهمها التقسيم الثلاثى الذى ارتضاه جسبرسن ، وهو أن النمو اللغوى للطفل يمر بثلاث مراحل :

١ - مرحلة الصياح .

٢ - مرحلة البأبأة .

٣ - مرحلة الكلام .

المرحلة الأولى « الصياح » :

فالطفل يصرخ منذ يولد ، ولكن هذا الصراخ الصادر عن جهازه النطقى ليس كلاما ، ولا يتعلم الطفل به أية لغة لجماعته أو لغيرها من الجماعات البشرية .

---

(٢٣) كندرانوف : أصوات وإشارات ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢٤) فاللغة « مكتسبة » ولكن أثمة دخل للوراثة فى قدرة الأطفال على اكتساب اللغة ؟ وهل للوراثة شأن فى اكتساب طفل لغته أسرع من اكتساب طفل غيره نفس اللغة ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ، ونظائره مرهونة بتقدم بحوث علم الوراثة ، وعلم الأعصاب ، وعلم الحياة العام « الأحياء : البيولوجيا » إذ البحث فيها لما يصل إلى الغاية المنشودة ، وينتظر أن تؤدى البحوث المقبلة فيها إلى أن يزداد فهمنا لطبيعة اللغة ووظيفتها .

انظر : د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٢٧ ، ٣٤ بتصرف .

وهذا الصياح مشترك بين جميع الأطفال ، ولا يؤدى - فى أوله - غرضا ولكنه يتطور بعد ذلك ، فيستخدمه الطفل فى التعبير العام عن كل ما يهمه وبخاصة عندما يدرك من حوله أثره فيهم .

وهذه الأصوات تدرب عضلاته ، وجهازه الصوتى على الكلام فينتقل إلى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية « البأبأة » :

وفيها يصدر الطفل مجموعات من الأصوات مثل أ أ - م م - ب ب - ت ت - د د إلخ .

وتكون فى أولها نشاطا عضليا خالصا ، ثم تأخذ أعضاء النطق عنده شيئا فشيئا فى التدرب عليها ، والتحكم فيها فيستطيع الطفل نطق الصوت الذى يريده .

ويأخذ الطفل - بعد ذلك - فى تدريب عضلاته الصوتية على النطق بهذه الأصوات التى يستمتع بها هو ومن حوله .

والشائع أن أول ما ينطقه الطفل صوائت مفردة ، أو صوائت يسبق كلا منها صوامت مثل « ل - ر - ت إلخ » - بفتح اللام وكسر الراء وضم التاء - .

« وتعد الصوامت الشفوية التى يرمز إليها بـ P : b : m (ب . ب ، م) من الصوامت الأولى التى ينطقها الطفل ، ، إن لم تكن أولها على الإطلاق » .

وفى هذه المرحلة ربما صدرت عن الطفل أصوات ليست من مجموع الأبجدية التى تستعملها جماعته مثل (P . V) عند طفل عربى مثلا ، بيد أنه ينطق عددا كبيرا من أصوات أبجدية قومه .

المرحلة الثالثة « الكلام » :

تبدأ من حوالى نهاية السنة الأولى ، وتمتد سنوات طويلة ويمر خلالها بمرحلتين :

(أ) فترة اللغة الصغيرة:

وفيها يحاول تقليد من حوله ، ويبعد كثيرا عن الأصل الذى يقلده ، كأن يقول الطفل المصرى « م م) بدلا من (الأكل) و (أمبو) بدلا من « مية » و (ب) بدلا من « عيش » مثلا ، وقد سمعت ابنى فى تلك المرحلة يقول : (مكن) بدلا من « مطبخ » .

(ب) فترة اللغة المشتركة :

وفيها ينظم كلامه كثيرا ، ويظل وقتا طويلا حتى يصير كلامه مثل الكبار .

ولا شك أن الطفل فى تلك المرحلة يحرف كثيرا من الكلمات ويتصرف فيها حسب قوانينه الصوتية .

فيقول - مثلا - : (ستينه) مكان (سكينة) و (تتاب) مكان كتاب) .

وقد لاحظت أن ابنى - في أول هذه المرحلة - يميل إلى قلب بعض الكلمات فيقول : (تعبل) مكان « ثعلب » و (لا أكلب) مكان « الله أكبر » .

وبعض الأصوات اللغوية قد يخفى على الطفل ، أو يظل صعب النطق لا يتقنه إلا فى مرحلة متأخرة كصوت الراء أو السين فى بعض الأحيان .

وكثيرا ما يكتفى الطفل ببعض مقاطع الكلمة ، عن نطقها كاملة فقد سمعت ابنى يقول : (كب) مكان « كلب » و (بايه) مكان « كبايه » ونحوها .

ويستطيع الطفل فى هذه المرحلة أن يميز الكلام الذى يوجه إليه بحب وعطف من ذلك الذى يوجه إليه بحدة ، وغضب ، فيسر من الأول وينفر من الثانى .

والطفل لا يتعلم الأصوات مفردة ، وإنما يتعلم الجانب الصوتى للكلمات مرتبطا بالمعانى .

وعادة ما يدرك معانى الكلمات التى تلقى عليه قبل أن يستطيع نطقها بزمن طويل ، وهو يدرك المحسوسات قبل المعنويات .

وأخيرا يتعلم لغة جماعته بقدرته الفائقة على تقليد ما يلقى عليه من قبل أمه وأبيه ، وأسرته والمحيطين به وينفسح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية شيئا فشيئا .

وللطفل قياسه اللغوى فى النواحى الصوتية والنحوية ، والمعنوية ، ومن ذلك قضية التذكير والتأنيث ، فقد يتسرب إلى ذهنه أن المؤنث يكون بالتاء - كما هو العادة الشائعة - فيطبق ذلك على بعض الكلمات التى لا تؤنث بالتاء وفق قواعد اللغة الصحيحة ، فإذا أراد تأنيث (أخضر) مثلا قال : « أخضرة » و (أحمر) قال « أحمرة » .

وأخطاء كل طفل تختلف عن أخطاء غيره من الأطفال الذين ينتمون إلى جماعته الكلامية وإن كانت ثمة أخطاء عامة يشتركون فيها جميعا (٢٥) .

وإذا كان الطفل يتلقى اللغة عن مخالطيه فهل لأخطائه أثر فى أصوات اللغة ؟ وهل للأفراد - بصفة عامة - صغارا أو كبارا تأثير فيها ؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول :

يختلف الباحثون فى نسبة التغير الصوتى إلى الأفراد .

فينفى جوشات أن يكون للطفل أى أثر فى التطور الصوتى للغة فهو يقول : « إن كل لغة تتهيأ تهيأ خاصا بين جيل وجيل يمكن للتطور

---

(٢٥) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٣٤ - ٥٤ و د. وافى : علم اللغة ط ٤ ص ١١٠ - ١١٥ و د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٦٨ ، ٦٩ وكندراتوف : أصوات وإشارات ص ١٩٠ ١٩٣ .

في أصواتها ، وبذلك يخضع أبناء الجيل اللاحق من الراشدين - دون الأطفال - للتطور الجديد ، وليست الطفولة سوى مرحلة تقليد لغوى لا أكثر ، وعندما يخطئ الطفل في نطق بعض الكلمات فليس ذلك بدء التطور في أصوات اللغة التي يتكلمها كما يزعم بعض الباحثين ، وذلك لأن طبيعة اللغة كفيلة بتصحيح هذا الخطأ فيما بعد ، ويتم ذلك عندما يكتمل نضوج الأعضاء الصوتية لدى الطفل ، وتتكيف طريقة سلوكها بصفة نهائية عند نطق مختلف الأصوات وهذا لا يتم قبل بلوغ الطفل سنا مناسبة ، أى عندما يتجاوز دور الطفولة »[٢٦] .

وينفي جوشات - كذلك - أن يكون للفرد - صغيرا أو كبيرا - أى أثر في التطور الصوتي فيقول : « ليس للفرد أى دخل في التطور الصوتي » وقد اعتمد في حكمه هذا على النتائج التي توصل إليها في بحث تتبع فيه الفروق الصوتية بين أفراد الجماعة اللغوية التي تقيم في المنطقة الفرنسية من سويسرا المجاورة لمدينة (بول Bull) في مقاطعة فريبورج لبيان تأثير الفرد في اللغة ، وكانت تلك المنطقة معزولة تماما عن المناطق الأخرى المجاورة لها .

وقد اكتشف جوشات فروقا كبيرة في طريقة النطق بين أبناء الجزء الأول من هذه المنطقة ، ولما انتقل إلى جزء آخر يبعد عن الجزء الأول مسافة ثلاثة أميال وجد فروقا صوتية بين أفراده تماثل الفروق التي وجدها بين أفراد الجزء الأول ، وكذلك كان الحال في الجزء الذي يليه ، والذي يليه .

وقد خرج جوشات من ذلك بأن الفروق ليست فروقا مكانية بمعنى أن اللغة في جزء ما من الإقليم تختلف عنها في جزء آخر ، بل إنها كانت فروقا زمنية ، أى فروقا بين جيل وجيل ، وأن الاختلاف اللغوى

---

(٢٦) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٤٥ . ولفظ « يمكن » في أول النص ينطق بتشديد الكاف المكسورة .

بين أبناء جيلين مختلفين فى جزء واحد أكثر مما بين أبناء جيل واحد ، فى جزءين مختلفين .

وبين أن المقارنة بين لغتى اثنين من الشيوخ - ينتمى أحدهما لجزء من هذا الإقليم يختلف عن الجزء الذى ينتمى إليه الآخر - تثبت تحقق التشابه فى مخارج الحروف لديهما أكثر مما بين أحدهما ، وبين شباب الجزء الذى ينتمى إليه .

ولهذا قسم جوشات السكان ثلاثة أقسام :

١ - **المعمرون :** وهم بين الستين والتسعين ، وهؤلاء ينطقون الكلمات بطريقة قديمة كثيرا ما تبدو غريبة لسواهم .

٢ - **المحدثون :** وهم دون الثلاثين ، وهؤلاء ينطقون ألفاظهم بطريقة حديثة .

٣ - **المتوسطون :** وهم بين الثلاثين والستين ، وهؤلاء يكونون فى نطقهم حدا أوسط بين المعمرين والمحدثين ، ولقد لاحظ جوشات أن هؤلاء يستعملون الأصوات القديمة إلى جانب الأصوات الحديثة دون أن يكون لهم فى اختيار هذا أو ذاك قاعدة خاصة ، كما لاحظ أنهم يلتزمون فى بعض الكلمات طريقة النطق الحديث ، وفى بعضها الآخر طريقة النطق القديم .

أما النساء فقد كن أكثر ميلا لاتباع طريقة النطق الحديث وقد حدا هذا بجوشات أن يقرر أن دور المرأة فى التطور الصوتى أكبر خطرا من دور الرجل .

وقد أثبت جوشات أن الفرد ليس له أثر فى التطور الصوتى بعد دراسة ما يبلغ خمسين لغة فردية لأبناء هذه المنطقة لم يتبين له من خلالها مثل هذا التأثير الفردى فى تطور اللغة التى يتكلمها أبناء هذه الجماعة اللغوية .

وينسب جوشات التغير الصوتي إلى الجماعة لا إلى الأفراد فيقول : إن التغير أمر حتمي طبيعي وليس أمرا خاضعا لإرادة فرد متميز أو غير متميز ومعنى أنه أمر حتمي طبيعي أن يحدث لأول مرة بصفة غير فردية وذلك بأن ينطق النطق الجديد شخص في مكان ما ثم يقلد وينطقه في نفس الوقت شخص ثان في مكان ثان ، وثالث ورابع في مكانين ثالث ورابع ، ثم يقلدون وهكذا [٢٧] .

ويتفق فندريس وميه مع جوشات في هذه الوجهة التي تمنع أثر الفرد في الأصوات فيقول : « ساد شطرا طويلا من الزمن الاعتقاد بأن كل تغير صوتي إنما يصدر عن الفرد ، وأنه لم يكن إلا تغيرا فرديا ، ثم عمم وهذا إدراك للأشياء غير صحيح ، فليس في وسع أى فرد أن يفرض على جيرانه نطقا تنبو عنه فطرتهم ، وليس هناك من قسر جدير بتعميم تغير صوتي ، فلأجل أن يصير تغير ما قاعدة لمجموعة اجتماعية يجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعي لتحقيقه من تلقاء أنفسهم ، بل إن سلطان المحاكاة نفسه لا يقدر هنا على شئ ، فإن النطق الشاذ لا يجلب أتباعا لصاحبه بل لا يجلب له بوجه عام إلا السخرية منه » [٢٨] .

ويرى جسبرسن أن نفي التأثير الصوتي للأفراد غير مسلم ، وأن البحث الذى أجراه جوشات يؤكد تدخل الفرد في التطور الصوتي ، فقد لاحظ جوشات من بحثه اختلاف النطق ، ووجود الفروق بين مختلف المناطق والأشخاص على مختلف الأعمار ، وهذا وحده كاف لإثبات أثر الفرد في الأصوات [٢٩] .

ولعل الدافع إلى إنكار أثر الفرد في التطور الصوتي هو الجهل بنشأة التطورات الصوتية ، ولذا يقول فندريس : « إن العالم اللغوى لا

---

(٢٧) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢٨) فندريس : اللغة ص ٦٩ .

(٢٩) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٣٧ - ٤٤ .

يعرف إلى أى مدى يحدد دراسته ، وإلى أنه يبقى مترددا بين الاعتبار الفردى والاعتبار الجنسى بأسره » [٣٠] .

ويقول الدكتور تمام « بالرغم من معرفة تاريخ بعض التغيرات الصوتية معرفة عامة لا يستطيع الإنسان أن يقول عند أى حد معين بدأ هذا التغير ، ولا نستطيع حتى أن نفطن إلى التغيرات التى تأخذ مجراها الآن على غير وعى منا ، ولا نستطيع كذلك أن نقرر ما إذا كان تغير ما قد بدأ فرديا ثم اتسع مدى تطبيقه أو أنه بدأ على ألسنة ناس مختلفين ولا يستطاع نسبته إلى فرد معين منهم » [٣١] .

والحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن التطور الصوتى يعود فى بعض نواحيه إلى الأفراد ، وإن لم يتعين الفرد الذى تابعه غيره ، فمن الحق الذى لا ريب فيه - كما يقول فندريس - « أن كل فرد يدخل فى اللغة جزءا من التجديد خاصا به » [٣٢] .

ومن المسلم به أنه لا يتكلم شخصان بصورة واحدة لا تفترق ، واللغة محدودة بحدود الفرد عند العالم الصوتى [٣٢] وإن الفرد - كما يقول الدكتور تمام - حين ينفرد بنطق خاص يظل خلفه من بعده يبعد شيئا فشيئا عن نطق المجموع حتى يختلف عنه [٣٣] .

فلا شك أن عملية التغير تحدث من فرد أو جملة أفراد ، ثم تنتقل منهم إلى غيرهم حتى تعم ، فالجانب الفردى ملاحظ فيها ، ولا يمكن حتى لمن ينسب التغيير إلى الجماعة أن ينفيه مطلقا [٣٤] .

---

(٣٠) فندريس : اللغة ص ٢٩٦ .

(٣١) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٩٤ .

(٣٢) فندريس : اللغة ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٣٣) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٩٢ .

(٣٤) ففى العربية الفصحى أصوات تحتاج إلى دقة الأداء ويتخلص منها بعض الناطقين كصوت القاف الذى تحول على لسان غير المثقفين بالعربية إلى « كاف » والذال تحولت - فى =

٢ - أثر الفرد فى المفردات والتراكيب :

أما أثر الفرد فى المفردات والتراكيب فهو واقع لغوى يعترف به الباحثون فالطفل يسمع مفردات جديدة ، وتعبيرات جديدة ، وطرائق من الكلام حديثة ، إن الصبى فى المدرسة يتصل بزملاء له يختلفون عنه طبقة وسنا وتجربة ، فيسمع من أولاد من هم أغنى من ذويه ، كلمات وعبارات لم يكن له بها علم ، بل إنه ليسمع من أولاد نظراء أهله - ولو كانوا مثله سنا - كلمات وعبارات لم يسبق له أن سمعها من أبيه وأمه أو إخوته ، وسائر من اتصل بهم من قبل [٣٥] .

ومن الممكن أن يبتكر الفرد لفظا من الألفاظ - كما يحدث فى المجامع اللغوية - أو أن يرتكب إنسان خطأ فى نطق كلمة أو تركيب جملة ثم يؤخذ عنه ويشيع ، وليس اشتراط شيوع الابتكار الفردى فى اللغة مغيرا للأمر الواقع الذى هو أن الفرد وليست الجماعة ، هو السبب فى التغير اللغوى [٣٦] .

وهناك ألفاظ لا تكون معروفة إلا فى محيط الأسرة .

= العامية - إلى زاى أو دال وهكذا ، وبعض الظواهر اللغوية تؤدى إلى التطور الصوتى ، فظاهرة التفخيم أدت - مخالفة للفصحى - إلى نطق كلمة « درب » - « ضرب » - فى العامية - بتحويل « الدال » إلى « ضاد » .

(٣٥) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٥٧ وانظر جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٥٣ ، وقد أثبتت التجارب أن الأطفال يخترعون بعض الألفاظ والصيغ ، ونحن نسمع منهم كثيرا يرتجلون كلمات مركبة من حروف عدة . انظر د. أنيس : من أسرار اللغة ط ٣ ص ٨٧ - ٨٩ وأحمد الإسكندرى : فقه اللغة ص ٣٠ .

(٣٦) وقد اعترف علماء اللغة بوقوع الارتجال فى اللغة العربية ، فالعربى الفصيح كان يخترع ألفاظا ويشتق أخرى أو يقتبسها متبعا طرق التجديد فى ذلك ، ويروى عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظا لم يسمعاها ولا سبقا إليها ، والباحث فى العربية يعثر فى بعض مصنفاتها على كلمات وصفت بالاختراع فقيل عنها إنها مصنوعة ، وقد أورد السيوطى فى المزهر عددا من تلك الكلمات غير منسوبة ووصفها بالاختراع والصنعة ، وقد روى فى بعض معاجم اللغة والأدب ما يدل على أن أحد الشعراء أو الكتاب قد يرتجل كلمة أو كلمتين تفكها وتظرفا .

وفى كتب النحاة ما يرشدنا إلى اعترافهم بالارتجال فى أثناء حديثهم عن العلم وتقسيمه إلى منقول ومرتجل .

ومما يبتكره الفرد فى مجال اللغة نقل الألفاظ إلى معان جديدة ، ويشترط علماء اللغة وجود العلاقة المسوغة لهذا الانتقال على ما هو معروف فى أسلوب المجاز .

وقد ينقل الفرد أو الأسرة بعض الألفاظ إلى معان خاصة ، لا توجد عند غيرهم كاستعمال (فرعون) أو (الطاغوت) اسما لوالد مستبد ، و (القط) لطفل مدلل فى الأسرة و (شعبة) لطفل بغية أن يعيش ، وغير ذلك مما يستعمل فى نطاق محدود ، وهو نوع من ابتكار المعانى ونقل استعمالات الألفاظ .

والفرد - حال ابتكاره للمفردات أو الأساليب ، مقيد بالعرف اللغوى المتعلق بالدلالة ، وقد أشرنا فى حديثنا عن الدلالة إلى أن مخالفة الأساليب العربية يزيد من صعوبة المعنى [٣٧] .

ولو نطقنا - فى العامية « قلم أحمد على معاه » بدل « على معاه قلم أحمد » لثار شعور السامعين لمخالفة العرف اللغوى .

ولذا يشترط فى ابتكار الفرد عنصر الإفهام لدى الجماعة اللغوية ، اللهم إلا فى لغة الطفل أو (رغائه) فإنها تفقد هذا العنصر ، وكذلك محاولة إرسال بعض الأصوات لمجرد اللهو والهوى ، وفيما عدا ذلك يجب أن يتبع الفرد فى كلامه الاصطلاحات اللغوية العامة [٣٨] .

= وفى العامية كثير من الألفاظ التى لا أصل لها فى اللغة الفصحى أو اللغات الأجنبية ، وهى ترجع إلى اختراع الأفراد والجماعات ، وذكر الدكتور إبراهيم أنيس أنهم كانوا يقولون - على سبيل الاختراع - وهم طلبة مثل :

ومد عشر بالعثلمين تفنطحت   سلفا قناه كبز فرع القنطل

انظر : ابن جنى : الخصائص ٢ / ٢١ - ٢٨ ومواضع أخرى منها ٢ / ٢٩٧ والسيوطى : المزهر ١ / ٥٢ - ٥٦ ، ٦٣ - ٦٧ - ٩٠ وغيرها والأصفهانى : الأغانى ٣ / ٦٢ والمسعودى : مروج الذهب ٤ / ٤٣ والأشمونى : ١ / ٣١ و د. أنيس : من أسرار اللغة ط ٣ ص ٩٠ - ٩٢ .

(٣٧) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢٣ ، ٤٣ .

(٣٨) المصدر السابق ص ٢٣ ، ٤٣ .

آثار المجتمع فى اللغـة

١ - اللغة والجنس :

كتبت بعض البحوث فى « علم اللغة العام » عن العلاقة بين اللغة والجنس ، فرأى بعض الباحثين أن اللغة تختلف من حيث بنيتها ونظمها ومجاراتها للحياة والأحداث باختلاف المتكلمين بها من الشعوب ، حسب طبيعتهم الجنسية ، فلغات مجعدى الشعر تختلف عن لغات ملس الشعر [٣٩] ، ولغات مستطيلى الرءوس غير لغات مستديرى الرءوس [٤٠] .

وقد استغل هذه النظرية أصحاب المذاهب السياسية ، ودعاة الاستعمار والغزو ، فتحدثوا عن طبيعة اللغات ، وفرقوا بين اللغات الهندية الأوربية واللغات السامية والحامية ، وادعى الغزاة - وهم من أرباب اللغات الأولى كالألمان ، والطليان - أنهم شعوب راقية ، وأن متحدثى اللغات الأخرى شعوب متخلفة ينبغى أن يخضعوا لسيطرة الأرقى .

وارتبط بذلك الحديث عن طبيعة اللغات المتخلفة ، فهى تعجز عن التعبير عن المعانى الكلية ، ويتعقد فيها النظم وتفتقد منها الحيوية ، وهى لغات قاصرة عن التعبير عن متطلبات الحياة الراقية ، والأحداث العصرية ، ولا يمكن لها فى أى وقت أن تتطور إلى الحد الذى وصلت إليه اللغات الأوربية الراقية .

وقد سرى الاعتقاد - كذلك - بين بعض الباحثين بأن اللغات ترتبط بعقلية أصحابها ، فاللغات الراقية ترتبط بعقليات الأمم الراقية ، والعكس صحيح .

---

(٣٩) فندريس : اللغة ص ٢٩٧ .

(٤٠) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٦٥ .

فيرى العالم اللغوى الألمانى ف . ن . فنك F. N. Finck أنه لا يجب علينا أن ننظر إلى اللغات إلا بوصفها آثارا معبرة عن عقل الشعوب ، وأن اللغات ليست إلا تصويرات لا تقدم أمام عين العالم السيكولوجى أية حقيقة واقعة ملموسة ، وأن من الخداع لأنفسنا أن ندرسها على أنها حقائق واقعة ، فيجب أن نطبق عليها طريقة ذاتية محضة ، بألا نبدأ من اللغة التى ليست إلا نتيجة ، بل من العقل الذى يخلق اللغة [٤١] .

وقالوا : إن وجود الأقسام الاسمية تشير إلى عقلية (بدائية) كما فى لغات البانتو [٤٢] .

والحقيقة أن ربط اللغة بالجنس ، وبالعقلية ، تحكم لا مسوغ له ، فليس فى لون العينين ، أو البشرة ، أو شكل الجمجمة أى دليل على أن لون البشرة أو شكل الشفتين يقابله دماغ خاص ينتج تفكيرا مختلفا عن تفكيرنا [٤٣] .

وعلماء الأنثروبولوجيا يمكنهم عند العثور على جماجم آدمية أن يحددوا أنواعها ، المستطيل منها والمستدير ، ولكن لا يمكنهم معرفة لغات أصحابها [٤٤] لأن وجود الجمجمة بين أيدينا لا يستطيع بحال أن يعرفنا شيئا عن أنواع الترابط بين الكلمات ، والأفكار ، التى كانت تتكون فيها ، ولا عن الصور الكلامية التى كانت تنشأ فى مراكزها المخية [٤٥] .

---

(٤١) فندريس : اللغة ص ٢٩٩ .

(٤٢) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ١٤ .

(٤٣) فندريس : اللغة ص ٢٩٨ .

(٤٤) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٦٨ .

(٤٥) فندريس : اللغة ص ٣٧٦ .

« ولا نستطيع أن نقول بوجود روابط ضرورية بين هاتين الفكرتين إذ لا ينبغى الخلط بين المميزات الجنسية المختلفة التى لا يمكن تحصيلها إلا بالدم وبين النظم من لغة ودين ، وثقافة التى تعد أعيانا قابلة للنقل ، تعار وتتبادل » (٤٦) .

ومن التحكم أن نعتبر اللغة وليدة العقلية أو العقلية وليدة اللغة ، لأن كليهما وليدة الظروف ، ونتاج الثقافة ، والمدنية (٤٧) .

ومن الصحيح أن نقول : إن للغة صلة بالعقلية ، إذ من الجائز أن تكون اللغة والعقلية نتاجا لأسباب واحدة ، وأن تكون المزايا التى تميزهما واحدة دون أن يترتب على ذلك صدور إحداهما عن الأخرى(٤٧) .

واللغة - فى بعض الأحيان - تستطيع أن تعدل من العقلية وتنظمها ، فعادة وضع العقل فى مكان بعينه دائما يمكن أن تؤدى إلى صورة خاصة فى التفكير وأن يكون لها أثر فى طرق الاستدلال ، والتفكير ، الفرنسى ، أو الألمانى ، أو الإنجليزى خاضع للغة إلى حد ما ، فإن اللغة إذا كانت مرنة خفيفة مقتصرة على الحد الأدنى من القواعد النحوية سمحت للفكرة بالظهور فى وضوح تام ، وأتاحت لها حرية الحركة ، وعلى العكس من ذلك تختنق الفكرة من التضييق الذى يصيبها من لغة جامدة ثقيلة ، ولكن عقلية المتكلمين تتصرف لتعتاد أى شكل من أشكال اللغة » (٤٨) .

ومن الثابت أن بنية أى لغة من اللغات ذات علاقة بعقلية المتكلمين بها ، وبنظمهم ، وبحضارتهم المادية (٤٩) .

---

(٤٦) المصدر السابق ص ٢٩٨ .

(٤٧) المصدر السابق ص ٢٩٩ .

(٤٨) فندريس : اللغة ص ٣٠٢ .

(٤٩) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٦٥ .

ولكن ليس من المؤكد أن الأسباب التى تؤثر على اللغة تحدث فى العقلية آثارا مماثلة (٥٠) .

والواقع يناقض هذا الربط ، ويعارضه ، فخريطة أوربا اللغوية فى العصر الحاضر تضم أخلاطا من الأجناس .

ومع هذا فإن فردا ينشأ لدى شعب يكتسب لغته ، وإذا أراد تعلم لغة شعبه الأصلى احتاج إلى مران طويل ، وتدريب شاق شأنه فى ذلك شأن أى أجنبى يريد تعلمها ، فالزنجى أو اليابانى الذى يربى فى فرنسا فى ظروف واحدة مع الأطفال الفرنسيين يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها ، ولو أن طفلا فرنسيا تربى فى بيئة الزنجى أو اليابانى لتكلم لغة البيئة التى نشأ فيها (٥١) .

وإن بعض اللغات التى كتب لها الذيوع والانتشار لتؤكد بطلان هذا الربط ، فالإنجليزية قد انتشرت فى مساحات واسعة من الأرض فى قارات كثيرة أيام سيطر الإنجليز على تلك الشعوب ، واستعمروها فتكلم كثير منها اللغة الإنجليزية ، وأجادوها ، كأصحابها الأصليين ، وكذلك العربية بعد الفتوحات الإسلامية الواسعة قد فرضت نفسها على شعوب كثيرة ، وأجادوها كأهلها ، دون اعتبار إلى الجنس أو اللون أو العقلية لدى هذه الشعوب المختلفة .

والحديث عن اللغات المتخلفة والراقية حديث غير موضوعى ، فاللغات التى تتسم بسمات (بدائية) يمكن أن تتحول إلى راقية لو انفسح أمامها المجال ، وأتيحت لها ظروف التغير تبعا للتحولات الاجتماعية التى تمر بها الشعوب المتكلمة بها .

---

(٥٠) فندريس : اللغة ص ٣٠٠ .

(٥١) انظر المصدر السابق : ص ٢٩٨ وأيضا ص ١٢٩ ، ١٣٠ من هذا الكتاب .

وقد حكى بعض الباحثين ما حدث لبعض الطلبة الهنود الأمريكيين من إمكان تعرفهم على المثل العليا الأفلاطونية ، مع خلو لغاتهم من الأسماء العامة التي تستعمل دون « تغير »[٥٢] .

وفي إمكان اللغات القاصرة ، أو غيرها ، معالجة كافة العلوم بشرط أن تزود بالمفاهيم والمصطلحات الجديدة .

فلغات الشعوب البدائية تملك اصطلاحات ثقافية قليلة ، ولكنها لا تقل من حيث تكييف نفسها لكافة المجالات (الحياتية) عن لغاتنا المتحضرة .

فاللغة الأراندية لا تملك مفاهيم مثل (الجبل - التل - النهر) وعلى ذلك تكون لهجة تدريس الجغرافية أمرا صعبا جدا ، ولكن علينا ألا ننسى أن فيها أسماء لكل جبل ، وحتى لأصغر التلول .

ومن السخيف التكلم عن اللغات (الأفضل) و (الأسوأ) ، إن هذا شبيه بقولنا : أيهما أفضل شجرة النخيل أم شجرة الصنوبر ؟ إفريقيا أم أوربا ؟

فالناس كلهم سواسية بغض النظر عن الجنس والثقافة ، والعرق ، وبنفس الطريقة تتساوى كافة لغات المعمورة في قيمتها وحقوقها[٥٣] :

٢ - اللغة والمكان والزمان :

للمكان أثره في اللغة ، فقد لاحظ اللغويون أن لغة سكان الصحراء تختلف عن لغات سكان المناطق الأخرى من سهول وأراض زراعية ومدن صناعية .

---

(٥٢) د . السعران : اللغة والمجتمع ص ٧١ بتصرف .

(٥٣) كندراتوف : أصوات وإشارات ص ٨٢ ، ٨٤ .

فلغة الصحراويين خشنة الألفاظ ، غليظة الأصوات ، كما يتضح ذلك في لغة العرب الجاهليين ، فالعربى فى الصحراء يجد أمامه الجو الهائل من الفراغ الطبيعى الذى يحتاج معه إلى قوة عضلية ، حتى يتضح صوته ، ويصل إلى ما يريد من أماكن قد تكون بعيدة عنه .

والبيئة التى يعيش فيها تشكل جسمه ، وعضلات نطقه بطريقة تجعلها مستعدة لإخراج تلك الأصوات ، على حين أن سكان المدن يميلون إلى رقة الألفاظ ، وانخفاض الأصوات ، ويتضح ذلك من تأذى النبى ﷺ من سماع أصوات الأعراب العالية حين قدموا عليه فى المدينة ، فطالبهم القرآن الكريم بعدم رفع أصواتهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ (٢) ﴾ [٥٤] .

يكفى أن نسمع - مثلا كلمة (افرنقعوا) - بمعنى تفرقوا - وقول بعض العرب :

خالى عويف وأبو علج المطعمان اللحم بالعشج [٥٥]

وقول بعضهم (لبيش اللهم لبيش) [٥٦] .

فهى تعبر عن صخب الأصوات البدوية ، وهكذا نجد اللهجات البدوية المتعددة ، وتنافر الأصوات ، إلى جانب ما فى بعضها من ضعف القواعد النحوية والصرفية ، والاشتقاقية .

وخيال الصحراء محدود بتلك البيئة ، فالوسائل التى يلجأ إليها البدوى لجمال الأسلوب لن تخرج عن مجاله البيئى ، وما يوجد فيه من سماء ، وأرض ، ونبات ، وحيوان .

---

(٥٤) من سورة الحجرات الآية ٢ .

(٥٥) أبو علج : أبو على - العشج : العشى .

(٥٦) لبيش : لبيك .

يقول النابغة للنعمان بن المنذر :

فـــإنك كـــالليل الذى هو مـــدركى

وإن خلـت أن المنتـــأى عنك واسـع

ويقول له كذلك :

كـــأنك شـــمس والملوك كـــواكب

إذا طلعت لم يبـــد منهن كـــوكب

ويصف امرؤ القيس فرسه فيقول :

مكر مـــفـــر مـــقبل مـــدبر مـــعـــا

كـجلمـود صـخـر حطه السـيل من عل

ويقول :

فعادى عداء بين ثور ونعجة   دراكا فلم ينضح بماء فيغسل

ولكن بعد أن تحضر العرب ، وسكنوا المدن لاحظنا تغيرا في طرق التعبير ، وحسن الأصوات ، ونظام القواعد ، فقلت اللهجات ، وبرزت القرشية كلغة عامة بين العرب ، وانطمس معها معظم تلك اللهجات ، وسما الخيال العربى ، وانطلق مع تقدم الأمة العربية ، على نحو يمكن معرفته من ملاحظة سير اللغة وآدابها ، في العصر الإسلامي وما تلاه ، وبخاصة فى العصر العباسى الذى زاد فيه اتصال العرب بأمم ذوات حضارة ، واكتساب الأدباء والشعراء لكثير من ثقافات تلك الشعوب .

ومع ذلك تظهر ملامح البيئة فيها .

فابن الرومى الذى يعيش فى الأحياء الشعبية التى يشاهد فيها صانع الرقاق يجعل ذلك مادة شعره فى أبيات هى :

إن أنس لا أنس خبازا مررت به ... يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... فى الماء يلقى فيه بالحجر

وحينما يسأل : هل يستطيع أن يأتى بمثل ما أتى به ابن المعتز فى وصف القمر من قوله :

انظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

فيقول : ويحكم ! إنما يصف ما عون بيته .. !

وقد تميزت العربية من أخواتها الساميات - كالآرامية ، والعبرية - بانتظام القواعد ، وعذوبة الألفاظ ، وسهولة التراكيب ، لأنها عاشت فى بيئة أكثر مدنية من أخواتها (٥٧) .

وللزمان تأثيره فى اللغة كذلك ، فالفرد يتأثر نطقه حسب مراحل سنه المختلفة كما ذكرنا (٥٨) .

وانتقال اللغة من جيل إلى جيل يترك أثره فى أصوات اللغة ، ومفرداتها ونظمها ، وتراكيبها .

فقد لاحظ جماعة من اللغويين أن أعضاء النطق تختلف من جيل إلى جيل آخر ، فهى - عند الأبناء - تختلف عنها عند الآباء ، وعند الآباء تختلف عن حالها عند الأجداد ، وهكذا تتطور أعضاء النطق عند الجماعة الواحدة ، من عصر إلى عصر ، وإن كان التطور يسير ببطء لكنه يؤثر فى ألفاظ اللغة ، وبخاصة فى أصواتها .

ونحن نلاحظ أن بعض أصوات اللغة العربية قد تغير على لسان العرب المعاصرين سواء فى ذلك لسان المثقفين بالعربية أو على المستوى

---

(٥٧) انظر ص ١٣٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٥٨) انظر ص ١٣٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

الشعبى ، فالجيم العربية تنطق على لسان بعض المذيعين خالية من التعطيش أو بتعطيش قليل فى مصر ، وأما على المستوى الشعبى فقد خلت نهائيا من التعطيش ، على حين أن السوريين يبالغون فى تعطيشها ، وقد غدت الثاء قريبة من السين ، والذال قريبة من الزاى على لسان بعض المذيعين وغيرهم من المتحدثين بالفصحى ، على حين انقلبت إليها على لسان العوام ، والصاد والسين والزاى قد اختلف نطقها فى الحديث عنه فى القديم ، وناهيك بالانحراف الذى يسرى على ألسنة العوام لأصوات القاف والطاء ، والظاء والضاد وغيرها مما حدث فيه خلط أو ترقيق .

وماذا نقول عن فقدان الإعراب فى العاميات ، وعن تقصير الحركات الطويلة أو حذفها ، وإطالة الحركات القصيرة ، أو خلق حركات ما أنزل الله بها من سلطان ؟ .

وانظر مثلا إلى قول المصريين العوام : جم - جه - بكام ؟ معاك .

ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما يدخله الأدباء والعلماء من ألفاظ وتراكيب كانت قديمة فيحيونها ، أو مستحدثة يبتكرونها ، أو منقولة من اللغات الأخرى للحاجة إليها فى إبراز المعنى ، أو فى تسمية المستحدثات الصناعية ، أو غير ذلك من الأغراض .

٣ - اللغة والنظم الاجتماعية :

تتأثر اللغة بالأنظمة الاجتماعية التى تكون عليها الأمة ، فتحمل سمات المجتمع فى النواحى السياسية ، والاقتصادية ، والدين ، فالمجتمع يطبع خواصه فى هذه النواحى على لغته ، فالكلمات ، والتغييرات تتمشى مع شكل النظام السياسى ، والاقتصادى والدينى ، وغيرها من النظم الاجتماعية .

ففى مجال السياسة نلاحظ اختلاف نظم الأمم ، فهناك النظام الديمقراطى أو النظام الإقطاعى ، أو النظام الشيوعى ، ولكل طريقته

التى تظهر فى أساليب لغته ، فلغة الانتخاب ، والمراسيم الحكومية ، والمجالس النيابية تتجلى فيها طريقة النظام الذى تسير عليه الدولة .

وعندما يتغير الشكل السياسى تتأثر اللغة به ، فلو درسنا الألفاظ المستعملة فى مجال السياسة الطبقية قبل الثورة ، وما استعمل بعد الثورة لوجدنا اختلافا واضحا فى كل من الفترتين ، فالنظرة إلى الفرد قد اختلفت وأخذ لفظ (السيد) مفهوما جديدا فى الاستعمال .

ونلاحظ فى أسلوب المعاهدات والمعاملات بين الدول طابع الصورة التى تكون عليها تلك الشعوب ، من النواحى السياسية ، فترد عبارات : « العالم الحر » - « عدم الانحياز » - التحالف » - « الصداقة » - «المودة» وتفسر المفاهيم السياسيّة التى تراها الدول التى يجرى بينها التعامل .

وقد نشأ عن هذا تغيير مدلولات كثير من الألفاظ والتراكيب ولو درست معانيها - فى القديم والحديث - لاكتشفت فروق هائلة بين المراد قديما ، وحديثا حسب مصطلحات العصر ، وربما أتاح هذا مادة خصبة تضم معانى جديدة لم تعرفها العربية من قبل .

ولنراجع - معا - هذه العبارات « الظلم الاجتماعى » - « سيطرة الإقطاع » - « الخلية الثورية » - « الدفع الثورى » - « الحوافز الثورية للجماهير » - « الدكتاتورية الطبقية » - « دموية الصراع الطبقى » - «نضال الشعب» ... إلخ .

وللحياة الاقتصادية طرائقها ، ونظمها التى تتخذ من اللغة أداة فعالة لها ، توجهها كما تشاء فى الأصوات والمفردات .

فالنواحي الاقتصادية كثيرة ، ومتشعبة ، والتعامل بين الأمم له وسائله ، ودعاياته ، والتعامل بين أفراد الأمة ، وجماعاتها له وسائله ودعاياته أيضا .

فأسلوب البيع والشراء له مسالكه التى يلجأ إليها كل من البائع والمشترى وطرق عرض السلع ، والإعلان عنها يأخذ أساليب شتى ، وأسواق البيع والشراء تحوى دهاء البائع والمشترى ، ولذا تبدو فى المجال اللغوى للبيع والشراء اصطلاحات ، وألفاظ وطرائق لغوية تتميز بها جماعات التجار على تعدد أنواعهم وسلعهم .

ونشاط أصحاب الحرف زراعية وصناعية وتجارية يرتبط بالمفاهيم اللغوية الجديدة التى تتمشى مع وضعهم فى المجتمع ، فأساليب الزراع ، والصناع ، والتجار تجرى حسب ميولهم ، وأهوائهم ، ومصالحهم ، وترتبط بالأوضاع الجديدة التى تعرض لهم .

ويكفى أن نعرف أن العمل ، والعمال زراعيين ، وصناعيين ، أصبح لهم - بعد الثورة - شرف الانتساب إلى أعمالهم ، وتحولت معانى الكلمات « العمل - العامل - الفلاح » من الضعة التى كانت تلاحقها فى الماضى بسخرية واستهزاء إلى شرف المعنى ، واحترامه [٥٩] .

وللدين كذلك أثره الفعال فى اللغة ، فالمجتمع فى طقوسه الدينية ، ومشاعره يسلك مسلكا لغويا ذا طابع خاص ، ولغة الدين لها ألفاظها وتراكيبها ، وطرائقها التعبيرية ، ولننظر إلى ألفاظ الأذان ، والصلاة ، والخطب الدينية ، وطرائق المدائح النبوية ، وأساليب القرآن الكريم الذى يلجأ إلى طرق خاصة فى الإقناع والتوجيه ، ولا ريب أن أداء هذه المراسيم الدينية ، وقراءة النصوص والأدعية المأثورة لها نظمها الصوتية التى تحرك المشاعر ، والوجدان .

وهناك تعبيرات شائعة لدى الناس يستمدونها من إيمانهم بخالقهم ، ويحيطونها بهالات الإكبار الذى ينبعث من الإحساس الدينى

---

(٥٩) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٧٤ ٩٤ بتفصيل أكثر .

كأساليب القسم ، وتعويذ الأطفال بآيات القرآن الكريم ، والأساليب الشعبية المستمدة من الدين مثل «اسم الله عليك - باسم النبى حرسك» .

ولو تتبع الباحث اللغوى تاريخ الألفاظ ، والتعبيرات الدينية المأثورة قديما حتى العصر الحديث لأمكنه أن يقف على تاريخ التطور اللغوى الذى ينبعث من مشاعر دينية ، لاسيما ونحن نعلم أثر الدين فى النفوس .

ولو درس الأسلوب القرآنى دراسة فاحصة لأمكن إدراك كثير من الاتجاهات ، والمسالك اللغوية التى ينتحيها .

ونلمس فى لغة الأساليب الدينية ميلا إلى الإيقاعات الصوتية كالسجع ، والفواصل وتتابع الأصوات وتنغيم الكلام .

ولو تركنا الدين الإسلامى إلى غيره من الأديان الأخرى لوجدنا الطقوس الدينية التى تسلك مسالكها ، فلا تزال الكنيسة تستخدم التعابير القبطية التى يرددها بعضهم دون فهم [٦٠] .

ولا شك أن كتابات المسيحيين باللغة العربية تحول الأساليب ، ومفهوم الألفاظ العربية ، حسب الاتجاهات التى يلجأون إليها ، فلهم عرفهم فى الاستعمالات اللغوية ، ويمكن ملاحظة ذلك من أساليب كتاباتهم الدينية ، وذلك أيضا يغير من ألفاظ اللغة ، وتراكيبها ومفاهيمها فيخضعها لما يريدون .

٤ - اللغة والطبقات الاجتماعية :

يضم كل مجتمع عناصر بشرية مختلفة تعيش فى المدن ، والقرى، وفيها الزراع ، والصناع ، والارستقراطيون ، والفقراء ومتوسطو الحال ، وفيها الأميون والعلماء والمثقفون ، كالطبيب ، والمهندس والمدرس ، وعالم الدين ، ورجل القانون ، والأديب وغيرهم .

---

(٦٠) فندريس : اللغة ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

ولكل من هذه الطوائف خصائصها ، فى نشأتها ، وطريقة حياتها ، وعاداتها وتقاليدها ، ومستواها الاجتماعى ، ولذا تستخدم اللغة استخداما مستمدا من البيئة والأعمال التى تزاولها .

وتعرف هذه اللهجات ذوات الطوابع المتميزة بـ« اللهجات الطائفية » أو « الطبقية » أو « الاجتماعية » ، كما يسميها علماء اللغة (٦١) .

فالمشتغلون بالزراعة لهم لهجتهم الخاصة المستمدة من بيئتهم وعملهم ، وما يتصل به من آلات ، وأدوات .

ففى « اللتوانية » - وهى لغة شعب زراعى - خمس كلمات للدلالة على اللون الأشهب ، ولكن هذه الكلمات ليست من المترادفات لأن كلا منها تقال عن شئ خاص - الأوز والخيل والبقر والحيوان الداجن مما عدا ما سبق وشعر الإنسان - وفيها للدلالة على « المبقع » - بتشديد القاف - أو « الأبلق » عدد من الكلمات بقدر ما يوجد فيها من الفصائل الحيوانية ، وهذا يستلزم قوما إخصائيين فى تربية الحيوان (٦٢) .

وللزراع - فى مصر - لهجاتهم الخاصة التى تختلف باختلاف المناطق التى يعيشون فيها ، ويبدو ذلك فى مظاهر حياتهم ، وسلوكهم اللغوى ، ولعل فى هذا المثل المستمد من بيئتهم ما يؤكد هذه الحقيقة ، ففى بعض المناطق يقولون « أردب ما هو لك ما تحضر كيله تتعفر دقنك ويلزمك شيله » .

ولكل حرفة أو صناعة ألفاظها الخاصة ، فللحدادين ، والنجارين ، والبحارة وغيرهم من الصناع وذوى الحرف لهجات متنوعة فى كلماتها ، وعباراتها .

---

(٦١) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٦٠ ، د. وافى : اللغة والمجتمع ص ١٤٨ .

(٦٢) فندريس : اللغة ص ٢٨٦ .

وتشتمل لهجات هؤلاء وأولئك على ألفاظ من اللغة العامة ، أو من لغات قديمة ، أو أجنبية .

ففى مجال الزراعة تحتفظ العامية - من اللغة القبطية - بأسماء الشهور ، والمواسم الزراعية ، وأسماء بعض الآلات الزراعية ، وفى العامية العراقية كثير من الكلمات البابلية ، والأشورية ، والفارسية المتعلقة بهذه الموضوعات .

وفى مجال الصناعة كلمات متوارثة ، أو منقولة من لغات أجنبية وبخاصة بعد التطور الصناعى العالمى ، وقد دخل اللغة العربية كثير من الألفاظ الإنجليزية ، والإيطالية والألمانية ، واليونانية ، مما يتصل بالهندسة والميكانيكا ، والآلات الصناعية [٦٣] .

وللطبقات الأرستقراطية ، والفقيرة ، والوسطى لهجاتها التى تنبئ عن مكانتها الاجتماعية ، وأوضاعها الاقتصادية ، وطرق معيشتها ونظامها الاجتماعى .

يقول فندريس - عن اللهجات الأرستقراطية الفرنسية - « فى كل العهود التى كونت فيها الأرستقراطية طبقة مغلقة ، تحيا حياة الصالونات وتعتز بجمال اللغة ، أدت هذه الحال إلى نشوء مفردات نبيلة أبعدت منها كل كلمة سوقية ، وهم وإن استووا فى العقل مع غيرهم ظلت لهم على غيرهم من سواد الناس ميزة التعبير بعبارات خير من عباراتهم ، وجمل أشهى إلى النفس » [٦٤] .

وللطبقات الأرستقراطية فى مصر لهجاتها الخاصة ، ولكنها تقوم

---

(٦٣) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ١٠٥ - ١٠٨ بتصرف ، وانظر : فندريس : اللغة ص ٢٨٣ وما بعدها .

(٦٤) فندريس : اللغة ص ٢٨٧ .

- أحيانا - على تشويه بعض أصوات اللغة العامة ، واستعمال كلمات وتراكيب أجنبية لاعتقادها أن ذلك علامة الرقى ، والتمدن [٦٥] .

والطبقات الفقيرة ، والوسطى أكثر استقرارا واعتدالا فى استعمال اللغة .

وقد يعرض لفرد أو أكثر من الطبقات الدنيا ثراء فجائى ينقلهم إلى مستوى مادى أعلى ، فيحاولون مجاراة الطبقة الراقية ، وإذا كانوا يستطيعون ذلك فى المسكن والملبس ، وغيرهما من مظاهر الحياة المادية ، فمن العسير عليهم مجاراة تلك الطبقة فى لهجاتهم ، فإن صعوبة التقليد الكامل تجعلهم عرضة للخطأ ، وتعود بهم إلى طبقتهم الأولى [٦٦] .

وللطبقات الخارجة على نظام المجتمع - كاللصوص ، والمجرمين ، والأشقياء - لهجات تستخدم طرائق معينة فى استعمال كلمات اللغة العامة ، بنقلها إلى معان مجازية أو استعارتها لدلالات بعيدة عن مفهومها الأصلى ، أو خلق وابتكار مفردات ، وعبارات جديدة ، لمفاهيم يصطلحون عليها ، وربما لجأوا إليها - لإخفاء جرائمهم ، وأوضاعهم الشاذة ، ففى أمريكا - مثلا - يسمى اللصوص « الجواهر » باسم «الجليد» والجواهر المسروقة « الجليد الساخن » [٦٧] .

ولذا تسمى لهجتهم بـ«اللهجة السرية» أو «الكلام السرى» [٦٨] .

وقد فطن الجاحظ إلى لهجات الطبقات الدنيا فى أيامه فهو يعرض للهجة المتسولين ، والمحتاجين ، ولاسيمًا ما جاء فى كتاب البخلاء من هذا

---

(٦٥) انظر إلى استعمالهم : أنارب مكان أرانب - زالم مكان ظالم - السبر مكان الصبر مرسيه مكان شكرا ونحو ذلك .

(٦٦) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٦٠ .

(٦٧) المصدر السابق ص ٦١ .

(٦٨) فندريس : اللغة ص ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ .

الباب كما أشار الجاحظ إلى جماعة من هذه الجماعات التى ارتضت لنفسها أن تحيا حياة خاصة ، وهم اللصوص ، وقد كتب فى الموضوع رسالة أسماها كتاب اللصوص ، وجاء ذكر الكتاب فى مظان عدة (٦٩) .

ومن أمثلة تلك اللهجات الخاصة القصيدة الطويلة التى كتبها فى القرن الرابع الهجرى الشاعر الماجن المتسول أبو دلف الخزرجي الينبوعى مسعر بن مهلهل ، واشتهرت باسم القصيدة الساسانية ، واختار منها أبو منصور الثعالبى قدرا لا بأس به وشرح المصطلحات الخاصة بالمتسولين (٧٠) .

وللعلماء والمثقفين - على اختلاف طبقاتهم ومناحى تعليمهم - من أطباء ومهندسين ومدرسين وعلماء وكتاب ، أنواع من اللهجات تتفق مع مستواهم الثقافى والعلمى .

وتبين لهجة المتكلم نوع تعليمه ، ووسطه الثقافى ، فالقانونيون لهم لهجتهم ، الخاصة ، وحيثياتهم التى يبنون عليها كتاباتهم وأحكامهم (٧١) .

ومثال ذلك حالة (المحضر) وحالة (القاضى) فهذان يستعملان فى تسبيب حيثياتهما أو فى تحريرها لغة بعيدة جدا عن اللغة الجارية ، ولغة المحاكم - بعامة - من هذا القبيل فكل مصطلح فيها اتخذ له دلالة نهائية على رجال المحاكم أن يحفظوها ، وأن يتبعوها دون أن يغيروا شيئا منها (٧٢) .

وللأطباء لهجة يستعملونها عندما يحررون نشرة طبية ، وللعلماء لهجة عندما يعالجون مادة علمهم .

---

(٦٩) د. حسن ظاظا : اللسان والإنسان ص ١١٢ .

(٧٠) الثعالبى : يتيمة الدهر ط ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤م ، ج ٣ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، د. حسن ظاظا : اللسان والإنسان ص ١١٢ - ١١٤ .

(٧١) فندريس : اللغة ص ٣١٤ .

(٧٢) المصدر السابق ص ٣١٥ .

ويسمى علماء اللغة هذه اللهجات باسم « اللهجات الفنية » ففى كل فن علمى تستخدم كلمات اللغة العادية فى معنى خاص ، كما يفعل علماء الطبيعة حين يتكلمون عن « الكتلة » أو « السرعة » أو « القوة » وأحيانا تخترع كلمات خاصة .

« واللغات الفنية تدين بوجودها إلى الحاجة للدلالة على أشياء وأفكار لا أسماء لها ، فى الاستعمال الجارى ، ولكنها أيضا ترجع إلى الحاجة للدلالة « بصورة علمية » أى بمصطلح دقيق يرفع كل لبس على أشياء مما تعبر عنه اللغة العادية تعبيرا جيدا »[٧٣] .

ولرجال الأدب من شعراء ، وقصاص لهجة ذات خصائص ، والأديب فى حاجة إلى أداة شخصية يعبر بها عما يوجد فى ذكائه ، وإحساسه من عناصر خاصة ، ومن أمثلة اللهجات الأدبية لغة الملحمة اليونانية وفى الهند لغات أدبية على أساس ما من اللهجات[٧٤] .

وللصحافة لهجتها الخاصة ، فالصحف الشعبية فى فرنسا (لا تكاد تكتب غير اللغة المتكلمة مصبوغة بالصبغة الأدبية إن قليلا وإن كثيرا) على حين أن الصحف الكبرى تستخدم اللغة التى يستعملها خير الكتاب هناك[٧٥] .

ومعظم الصحف والمجلات المصرية - الآن - وإن اصطنعت العربية الفصحى صورة فإنها تخالفها مضمونا بإدخالها كثيرا من الألفاظ والتراكيب الغريبة عليها وهى - بذلك - لها لهجتها الخاصة التى تخاطب الجماهير الشعبية .

ولكل من الرجال والنساء لهجة خاصة فى المجتمعات التى تفرق بين الجنسين ، وتعزل أحدهما عن الآخر .

---

(٧٣) المصدر السابق ص ٣١٥ .

(٧٤) المصدر السابق ص ٣٤٠ .

(٧٥) المصدر السابق ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

وكلما ازداد البعد والانفصال بين الجنسين أدى إلى وضوح الفروق بين لهجة كل منهما .

أما فى المجتمعات التى تخف فيها قيود الانفصال بين الرجل والمرأة فإن اللهجة تتقارب بينهما ، ولا يكون لها مظاهر إلا فى اختلاف يسير فى بعض الأصوات ، والمفردات ، والتراكيب ، كما يشاهد فى معظم مناطق مصر الحديثة .

ولهذه اللهجات الطبقية خصائص عامة تشترك فيها جميعا ، فهى :

١ - تشوه أصوات بعض الكلمات ، وقوانينها الصرفية ، فلكل منها اتجاه صوتى فى نطق الكلمات .

فقد يقع للعامية الخاصة أن تتبع بعض عادات فى النطق تساعد على تمييزها .

ومن أمثلة ذلك نطق الطبقات الريفية ، والمدنية للأفعال (قال - جاء - يقدر) فينطقها بعض الريفيين (جال - إيجه - يغدر) وفى المدن والقرى المتأثرة بها (آل - جه - يأدر) .

وهذا فى الحالين تشويه لأصوات وبنية بعض الكلمات .

كما أن طريقة الأداء الصوتى مختلفة بين الريف والحضر بشتى الطبقات ، ويمكن - من خلال الاتجاه الصوتى - التعرف على طبقة المتكلم الاجتماعية .

« والعامية الخاصة المستعملة فى الأطراف الباريسية تحتوى على بعض الخصائص الصوتية التى تكفى للتعريف بطبقة المتكلم الاجتماعية » (٧٦) .

---

(٧٦) المصدر السابق ص ٣١٧ .

وفى العامية الخاصة يستطيع المتكلم بوجه خاص أن يسمح لنفسه بنطق الكلمات فى صورة مختزلة ، لأنه يخاطب عددا محصورا من المتكلمين كلهم ممهد الذهن لفهمه ، وكلهم متفاهم معه مقدما ، ومن ثم يجئ هذا العدد الضخم من حالات الحذف ، والإسقاط ، والتبسيط ، وحذف النهايات ، هذه العوارض الصوتية التى تجعل العامية الخاصة لا يفهمها إلا العارفون [٧٧] .

ولذلك أمثلة كثيرة فكلمة (ولد) ينطقها بعض المصريين كاملة الأصوات هكذا ، وبعضهم (ول) وبعضهم (واد) وعلى هذا يختلفون في ندائه (يا ولد - يا ول - يواد) .

وغنى عن البيان أن الاختصار فى استعمال أصوات الكلمات يتم اعتمادا على فهم أرباب الطبقة التى منها المتكلم .

٢ - تستعير كلمات من اللغة العامة ، وتستعملها استعمالا مجازيا .

فالكلمات العامة (مشغل - عمل - صنعة - تصنيف - عملية) تتخذ بالضرورة معنى خاصا في أفواه الذين يستعملونها وفقا لنوع المهنة التى تستخدم فيها هذه الألفاظ ، فظاهرة التخصص المعنوى تلك هى أساس العملية الخاصة [٧٨] .

« والاستعارات ، والنقل فى العامية الخاصة تبلى بسرعة وتحتاج إلى كثرة التجديد ، لأن الغرض من استعمالها هو توسيع شقة الخلاف التى تفصل بين العامية الخاصة واللغة المشتركة ، والمحافظة على بقاء هذا الخلاف ، فلا يدهشنا إذاً أن تستهلك العامية الخاصة من الاستعارات أكثر مما تستهلك أية لغة أخرى » [٧٩] .

---

(٧٧) المصدر السابق ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .

(٧٨) المصدر السابق ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٧٩) المصدر السابق .

٣ - تستمد كلمات من لغات أجنبية ، والمراد بالأجنبية كل ما ليس من اللغة المشتركة ، فيدخل في ذلك ما تنقله من اللهجات الخاصة الأخرى ومن كل اللهجات المتفرعة من اللغة المشتركة ، فضلا عن اللغات الأجنبية التي تتكلمها الأقطار المجاورة (فالعامية) الخاصة الفرنسية على وجه العموم تحتوى على كلمات أجنبية قليلة العدد عربية وألمانية (٨٠) وغيرهما .

وفي اللهجات الخاصة المصرية ألفاظ مستمدة من لغات أجنبية حسب الطبقة أو الحرفة التي تتطلبها .

٤ - قد تأخذ اللهجات الخاصة من الكتب ، وهو أمر فردى في غالب الأحيان ، وهو إحدى الوسائل الاصطناعية التي تدخل في تكوين العامية الخاصة ، ويذكرون أن فرجليوس مارو النحوى الذى عاش - على ما يظهر - في القرن الخامس بعد الميلاد اخترع لغة خاصة ظلت شائعة الاستعمال زمنا طويلا بين تلامذة المدارس الأيرلندية ، وكانت تقوم هذه اللغة على تشويه الكلمات الجارية بأنواع من تضعيف المقاطع ، أو نبرها ، أو نقلها ، وبمضى الزمن تحورت ، وتمخضت عن لغة أخرى أمشاج سميت (لغة الشعراء) وهي عامية خاصة اختلطت فيها - على غير قاعدة - كلمات مستعارة من اللاتينية ، والإغريقية ، والعبرية ، وكلمات أهلية أهملها الاستعمال أو استمدت من النصوص العتيقة (٨١) .

واللهجات الخاصة لا ينفصل بعضها عن بعض انفصالا تاما فللطوائف الاجتماعية صلات تقتضيها المصالح التي تجمعهم فـ« تنوع اللغات » (اللهجات) يرجع إلى تعقد الروابط الاجتماعية ، ولما كان

---

(٨٠) المصدر السابق ص ٣١٨ .

(٨١) المصدر السابق ص ٣١٩ - ٣٢١ .

من النادر أن يعيش فرد محصورا فى مجموعة اجتماعية واحدة كان من النادر أيضا أن تبقى إحدى اللغات دون أن تنفذ إلى مجموعات مختلفة ، إذ يحمل كل فرد معه لغة مجموعته ، ويؤثر بلغته على لغة المجموعة المجاورة فيها » [٨٢] .

ولا تتكلم أسرتان متجاورتان لغة واحدة إطلاقا ، ومع هذا فإن لقاء الأسر المشترك يؤدى إلى الوحدة اللغوية بينهما ، وقد يعيش أخوان معا ولأحدهما مهنة تختلف عن مهنة الآخر ، فتميل لغة « لهجة » كل منها إلى طائفته التى ينتمى إليها ، وتدب عوامل الفرقة بين لسانيهما إلا أنهما يتغلبان عليها بلقائهما اليومى ، ولو أن أحدهما انفصل عن الآخر فى حياته ، أو أدى حدث إلى التفريق بينهما فقد يصبح لكل منهما لهجة تختلف تمام الاختلاف عن الأخرى [٨٣] .

فاللهجات الطائفية تتداخل فيما بينها لعوامل الاتصال القائمة بين أصحابها فإذا قدر لإحدى اللهجات أن تنفصل عن الأخرى - لعوامل تدعو إلى ذلك - فإن هذه اللهجة تصبح بعيدة عن أخواتها « ولذلك كانت فى فرنسا لهجة الطبقات الدنيا من العمال واللهجات السرية لجماعات المتصوفين ، والرهبان ، ولهجات المجرمين ، واللصوص ، ومن إليهم من أكثر اللهجات انحرافا عن الأصل الذى انشعبت عنه ، وبعدا عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية ، وكذلك الشأن فى انجلترا ، فلهجات اللصوص ، وقُطاع الطرق ، والمجرمين الإنجليز من أشد اللهجات بعدا عن اللغة الأصلية ، وعن المستوى العام للهجات الاجتماعية » [٨٤] .

---

(٨٢) المصدر السابق ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٨٣) المصدر السابق ص ١٠٧ .

(٨٤) د. وافى : اللغة والمجتمع ص ١٤٨ .

وهذه اللهجات الاجتماعية لا يتميز بعضها من بعض إلا فى المدن الكبرى حيث تتعدد الوظائف ، ويكثر الناس ، وتتنازع الطبقات ، كنيويورك ولندن ، وبغداد - فى عصر العباسيين - ، والقاهرة فى العصر الحديث ، (ويوجد داخل باريس عدد من اللغات « اللهجات » المختلفة تسير كلها جنبا إلى جنب ، فلغة الصالونات مثلا ليست لغة الثكنات ، ولغة الأعيان ليست لغة العمال ، وهناك رطانة المحاكم ، والعامية الخاصة التى تتكلم فى حواشى المدينة ، وهذه اللغات يختلف بعضها عن بعض إلى حد أنه قد يعرف الإنسان إحداها دون أن يفهم الأخرى) (٨٥) .

واللهجات الخاصة تنشأ من الانفصال الاجتماعى ، ولكنها تقوم دائما على مادة لغة مشتركة ، وتظل عادة تستمد منها غذاءها (٨٦) .

٥ - العرف واللياقة اللغوية :

فى كل مجتمع أمور يعاب التصريح بها ، أو التحدث عنها أحيانا بين الكبار ، وأخرى بين الصغار ، وما يباح لبعض الكبار فى موقف قد لا يباح لهم فى موقف آخر .

ولكل من الصغير والكبير ، والرجل والمرأة ، وجماعة الذكور وجماعة الإناث كلام لا يباح للآخر ، ولا يليق به .

وبعض الكلام لا يليق التفوه به فى العرف الاجتماعى كالشتائم وما يكون لدى بعض الناس من عاهات ، وكل ما هو جارح للإحساس ، والآداب العامة ، ويستعاض فى اللغات عن الكلمات الجارحة بأخرى تخفف من حدتها .

ويكره المجتمع التحدث عن بعض الأمور التى يتشاءم منها ،

---

(٨٥) فندريس : اللغة ص ٣٠٦ .

(٨٦) المصدر السابق ص ٣٢٥ .

كالموت والأمراض الخبيثة ، والجن والشياطين ، وجهة اليسار ، والشر فيلجأ عند ذكرها إلى التستر والغموض .

ويتحدث الناس في الأمور المتصلة بعالم الغيب بعبارات خاصة جرت العادة باستعمالها .

ويلجأ المجتمع في التعبير عن الأمور الممنوعة أو التى تدعو إلى القلق إلى استعارة كلمات من الخارج ، أو إلى المجاز أو استبدال كلمة مكان أخرى وتشويه بعض الكلمات أحيانا وتعديل عناصرها صوتيا .

فكلمة Pissoir (مكان البول) فى الألمانية أقل منها جرحا للأذن فى الفرنسية ، لأن استعارة كلمة من الخارج تخفف من افتضاح الشئ الذى يعبر بها عنه ، فهى تلعب دور الكناية [٨٧] .

وكلمات (كبانية - تواليت - دورة مياه) - عندنا - حلت محل كلمة (مرحاض) وكأن الاستعارة من اللغات الأجنبية ، أو استبدال كلمة بأخرى تجعلها أكثر مراعاة للياقة .

(وقد عدل الأطباء منذ حين عن استعمال كلمة « عملية » Operation التى صيرها الاستعمال قاسية مخوفة لا يسمعها المريض حتى يتصور الآلات المرعبة والملابس الملوثة بالدماء ، والجسم وقد طواه الألم طيا ، فكلمة (عملية) ضحية الصور التى تثيرها ، لذلك يسود الميل إلى الاستعاضة عنها بكلمة Intervention (تدخل) لأنها أنضر جدة منها وأكثر تحفظا وأشد غموضا ، أيضا لا يهلع لسماعها قلب المريض ، والكناية ليست إلا صورة مهذبة متحضرة مما يسمى (تحريم المفردات) [٨٨] .

---

(٨٧) المصدر السابق ص ٢٨٠ .

(٨٨) المصدر السابق ص ٢٨١ .

ولما كانت أسماء المثالب والعاهات معرضة للنهى بشكل خاص ، فلا ينبغي أن ندهش حين نرى الجرمانية تشتق من أصل واحد يدل على عاهة جسمانية ثلاث كلمات مختلفة (تدل على الصمم ، والبكم ، والحماقة) وذلك بتعديل عناصره الصوتية [٨٩] .

« ونرى الشتائم فى كثير من اللغات تصاب بشئ من التشوه المقصود ، الذى يمكن من إدخالها فى أرقى الأوساط » [٩٠] .

ونحن نقول فى عاميتنا : (يا نهار احوس - يا خراشى - يخيشك) بدلا من (يا نهار أسود - يا خرابى - يخيبك) كل ذلك للتخفيف من حدتها .

أما موضوعات التشاؤم كالموت والخوف من الجن ، والأمراض الخبيثة فنلاحظ المجاز ، والكناية عنها ، واستعمال عبارات تشير إلى الخوف أو تقلب معناها إلى ما يتمنى من الخير .

فالموت - فى أكثر اللغات - يكنى عنه بالذهاب ، وفى العربية تستعمل لفظة « الوفاة » وهى مشتقة من « الوفاء » أى رد ما يستحق الآخرون عند الإنسان ويعبر عنه بعبارات كثيرة مثل : أفلت شمسه - صعد إلى بارئه [٩١] - لبى داعى ربه .

ويكنى عن الحصبة فى العامية المصرية بـ« المبروكة » .

ويعرض الناس - عادة - عن ذكر الأمراض الخبيثة كالسل والسرطان ويدخلون فى كلامهم عبارات لإزالة مفهومها القاسى مثل :

---

(٨٩) المصدر السابق ص ٢٨٢ .

(٩٠) المصدر السابق ص ٢٨٢ .

(٩١) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٨٤ ، ١٨٥ وانظر : فندريس : اللغة ص ٢٨ ، و د. السعران : اللغة والمجتمع ص ١٣٠ .

ربنا يكفينا شره - والعياذ بالله ... إلخ ويستعيذون بالله من الأرواح الشريرة [٩٢] .

وجهة اليسار جهة يتشاءم منها ، وكأنها جهة القوى الخفية التى لا يراد إيقاظها لذلك كثيرا ما قضى بالتحريم على اسم اليسار ، وكانت نتيجة هذا التحريم الاضطرار إلى استعمال العبارات الملفوفة ، والاستعارات للتعبير عن اليسار [٩٣] .

وهناك الأمور الغيبية ، والعالم غير المنظور الذى يقتضى عبارات خاصة « فالرقى السحرية التى نعثر عليها فى قبور اليونان ، وإيطاليا ، وإفريقيا مكتوبة على ألواح من الرصاص تطبق فى غالب الأحيان هذه الخطط نفسها : استعمال الكلمات الأجنبية ، أو تشويه الكلمات الأصلية ، ولكن الباعث هنا يختلف ، إذ يبغون من وراء ذلك الاتصال بالعالم الآخر ، ومن ثم يدخلون فى تحرير النص اعتبارات لا صلة لها باللغة » [٩٤] .

---

(٩٢) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ١٣١ .

(٩٣) فندريس : اللغة ص ٢٨١ .

(٩٤) المصدر السابق ص ٣٢١ وانظر أيضا ص ٣٢٢ - ٣٢٥ .

المنافسة بين اللهجات واللغات

(أ) المنافسة بين اللهجات :

يحتاج الناس إلى اتصال بعضهم ببعض أفرادا ، وجماعات وأمما . ولهذا الاتصال آثاره اللغوية ، فلهجات ولغات تلك الجماعات والأمم تتلاقى ، ويستفيد بعضها من بعض .

والتأثر الذى يعترى لهجات اللغة الواحدة قد يبدو عاديا حين لا يكون الاختلاط بين الطبقات كبيرا ، كلهجات القرى والمدن ، فى أية دولة ، فلكل منها سمات تمتاز بها عن الأخرى وبينها اشتراك فى مظاهر كثيرة تستمدها من اللغة العامة ، ولذا لا تستعصى إحداها على الفهم خارج حدودها اللهم إلا فى حالات العزلة التى تعيش فيها بعض القرى والأماكن النائية أو الأقاليم التى تفصل بعضها عن بعض أمور جغرافية واجتماعية فإنها تؤدى إلى ظهور سمات تنفرد بها لهجاتها ، وقد تستعصى على فهم غيرها من البلاد النائية عنها قرية كانت أو مدينة .

وحين تتجاور اللهجات الخاصة فى المدن الكبرى ، والقرى المجاورة لها تزيد درجات التأثر ، ففى داخل المدن يكثر الاختلاط بين الطبقات ويحاول الأدنى تقليد الأرقى ، ومع ذلك تبقى لكل لهجة خصائصها المميزة .

وسكان القرى المجاورة للمدن يحاولون التخلى عن خصائص لهجاتهم وتقليد لهجات المدينة لأن حضارة أهل المدن وثقافتهم تجعل الرغبة فى تقليدهم ملحة لدى الريفيين .

وقد أجريت بحوث فى هذا الحقل أوضحت عوامل تفوق لهجة على أخرى وهى تعود - فى معظمها - إلى الثقافة والحضارة ، والنفوذ والسلطان ، وعدد الناطقين ونحو ذلك .

فإذا انفردت إحداها بمزية بأن كانت أكثر ثقافة أو حضارة ، أو ذات نفوذ سياسى ، أو تجارى . أو دينى واسع أو كثر عدد الناطقين بها فإن ذلك يدعو إلى تغلبها على أختها أو أخواتها من اللهجات الأخرى .

وقد حدث هذا كثيرا فى التاريخ اللغوى .

فاللاتينية التى صارت لغة إيطاليا المشتركة ، وأخيرا لغة العالم الغربى بأسره كانت لغة روما أولا وقبل كل شئ أى لغة المدينة فى مقابلة لغة الريف المجاور ، واللهجات القاصية على السواء [٩٥] .

واللهجة الباريسية أصبحت لغة فرنسا بتغلبها على اللهجات الأخرى (فالفرنسية إنما خرجت من العاصمة ، ومن طبقة اجتماعية بعينها من طبقات العاصمة ، وهى البرجوازية . . وقد استقرت فى القرن التاسع عشر ، وسلم بها القصر ، ثم الأقاليم ، والكتاب الكبار باستعمالهم إياها زودوها بالقدرة على فرض نفسها نهائيا ، وعلى استمرارها لذلك لا تكاد تحس فيها أثرا للهجات) [٩٦] .

ولهجة فلورنسا كانت مزاياها الذاتية ترشحها أكثر من غيرها للقيام بدور اللغة المشتركة إذ كانت أقرب من غيرها إلى اللاتينية [٩٧] .

ولهجة فلورنسا (فى إيطاليا) - لهجة المجتمع الراقى بهذه المدينة - هى التى صارت لغة إيطاليا .

ولهجة قريش تغلبت على سائر لهجات الجزيرة العربية قبل الإسلام لتحقيق النفوذ السياسى ، والاقتصادى ، والدينى لها .

ويمكن أن تنشأ على أثر ذلك لغة مشتركة تحمل خصائص اللهجة المتغلبة وما بقى من خصائص اللهجات الأخرى المندحرة .

---

(٩٥) فندريس : اللغة ص ٣٢٩ .

(٩٦) المصدر السابق ص ٣٢٠ .

(٩٧) المصدر السابق ص ٣٣٥ .

وهذا التوحد اللغوى يخضع لعوامل كثيرة أهمها :

١ - العامل السياسى :

فخضوع عدة مناطق لنظام سياسي واحد يؤدى إلى تقارب لهجاتها ، ثم توحدها في لغة عامة ، فالساسة والحكام يجردون أحاديثهم العامة في مختلف المناطق من المظاهر الصوتية ، والصرفية ، والمعجمية وغيرها مما يختص بلهجة قرية أو مدينة معينة ، أو طائفة حرفية ، ولو كان الحاكم من أبنائها ليكون ما يوجه إلى الشعب مفهوما لدى كل الطبقات الاجتماعية .

ونلاحظ أن عاصمة الدولة تكون محط أنظار قاطنى المناطق الأخرى فيحاولون تقليد لهجتها ، والتخلى عما تنفرد به لهجاتهم الأصلية .

ومن هنا تنشأ لغة عامة خالية إلى حد كبير من خصائص اللهجات المحلية .

ويمكن أن نمثل لذلك بامتداد نفوذ الفرنسية التى كانت لهجة باريس ، ثم انتشرت في جميع البلاد الداخلة في المجال السياسى الفرنسى .

واللاتينية صارت لغة إيطاليا المشتركة ، وأخيرا لغة العالم الغربى بأسره [٩٨] تبعا للنظام السياسى ، وذلك في الامبراطورية الرومانية القديمة [٩٩] .

وعدم خضوع الدولة لنظام سياسي واحد يضع الصعوبات في طريق التوحد اللغوى فألمانيا التى ظلت قرونا ولايات مستقلة سياسيا وبدون عاصمة مثل على عرقلة الحالة السياسية لظهور لغة عامة [١٠٠] .

---

(٩٨) المصدر السابق ص ٣٢٩ .

(٩٩) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ١٧٤ .

(١٠٠) المصدر السابق ص ١٧٤ .

وكانت تبدو آثار اللهجات المحلية فى عامية متعلمى الألمان حتى فى أيامنا هذه أكثر من غيرها من البلاد الأوربية [١٠١] (ولذا قام انتشار اللغة الألمانية المشتركة فيها على أسباب مستقلة عن كل وحدة سياسية ، فالألمانية المشتركة أولا وقبل كل شئ لغة كتابة تدين بنجاحها إلى أسباب دينية ، كما تدين بأصلها إلى الرغبة فى الاستعمار ، وكانت هناك حركة مارتن لوثر ، وترجمته للكتاب المقدس ، وهناك لغة المستشاريات فى المدن والإمارات الألمانية ، والألمانية كانت تحتل الأراضى السلافية قدما بقدم ، وتحل محل اللغات السلافية فتكونت الألمانية المشتركة فى مدن الاستعمار في ألمانيا الشرقية تلك اللغة التى وصلت بفضل الإصلاح الدينى إلى أهميتها الأدبية واستقرت بفضل اكتشاف المطبعة ، وصارت لغة الكتابة فى ألمانيا المثقفة بأسرها) [١٠٢] .

٢ - العامل الاجتماعى والاقتصادى :

تقوم بين جماعات الشعب روابط النسب ، والمصاهرة ، ويلتقون للتجارة وتبادل المنافع فى شتى المجالات ، وقد تنشب بينهم المنازعات وهذا يؤدى إلى اختلاطهم ، وقوة الاتصال بينهم .

ولذلك أثره فى التقريب بين اللهجات وظهور لغة عامة تتخلص من السمات التى تنفرد بها كل لهجة .

ومن الأمثلة التى توضح أثر هذا العامل ما حدث للهجات الجزيرة العربية من توحد - فى لغة عامة - قبل الإسلام بحوالى قرن ونصف أو قرنين من الزمان لما كان بين أهلها العرب من ارتباط فى النسب وعلاقات المصاهرة الوثيقة ، والجوار ، والتعامل التجارى وغيره من الصلات الاجتماعية .

---

(١٠١) فندريس : اللغة ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(١٠٢) المصدر السابق .

٣ - العامل الأدبى :

الأدب وسيلة مهمة من وسائل التوحد اللغوى ، فالأدباء من قصاص وشعراء يكتبون أدبهم بلغة يفهمها جميع الشعب - بمختلف طبقاته - ليروج ويذيع ، وتلك اللغة التى يكتبون بها تتخلص من الخصائص المتعلقة باللهجات المحلية لأى إقليم من أقاليم الدولة ، وهذا يهيئ سبيل التوحد للهجات الجماعات المتعددة .

وقد سادت عند العرب لغة عامة صيغ بها النثر والشعر الذى غصت به الأسواق الأدبية كعكاظ ، والمربد ، وذى المجاز ، وكم جرى التنافس والمبارزة بين الشعراء فى هذه الأسواق ليحكم لهذا بالتفوق على ذاك ، وكانت تلك الأشعار مصدر إمتاع للجماهير العربية ، وساعد ذلك على ظهور لغة مشتركة بين العرب جميعا قامت على أساس اللهجة القرشية وما استفادته من غيرها من محاسن اللهجات الأخرى .

وفى أوربا (توجد لهجات مشتركة من أصل أدبى محض مثل الإيطالية التى استقرت لغة مشتركة ابتداء من القرن الرابع عشر بفضل هيبة الكتاب العظام ، وتأثيرهم مثل ، دانتى ، وبترارك وبوكاشيو ، وذلك فى وقت لم يكن لإيطاليا فيه أية وحدة سياسية ، وأغلب الظن أن هؤلاء الكتاب استعملوا اللغة التى كانت تتكلم حولهم ... واللغة التى رفعها دانتى إلى مرتبة اللغة الأدبية والتى صارت لغة إيطاليا المشتركة كانت أولا وقبل كل شئ لغة مدينة هى فلورنسا ولغة المجتمع الراقى فى هذه المدينة) (١٠٣) .

٤ - وسائل الإعلام :

لوسائل الإعلام كالإذاعة المسموعة والمرئية ، ودور الخيالة «السينما» والمسارح ، والصحافة وغيرها أثرها فى التوحد اللغوى ، فهى

---

(١٠٣) المصدر السابق ص ٣٣٥ .

لسان حال الأمة والمعبر عن أغراضها السياسية والاجتماعية ، وهى تستخدم لغة أشبه بأن تكون عامة فيما يسمع أو يكتب على سواء ، ففى الأقطار العربية - مثلا - تستخدم الفصحى ، وبعض الأساليب العامية التى يفهمها الجميع .

وتلك الوسائل - بلا شك - لها خطرها فى التأثير على الناس ، وتكون لغة عامة .

٥ - المدن الكبرى :

للمدن الكبرى أثرها فى نشوء لغة مشتركة إذ تتطلع إليها أنظار سكان الأماكن المجاورة لها ، والبعيدة عنها ، فيكثر القادمون إليها من كل صوب ، وهم - حين يلتقون داخل تلك المدن - يحاولون - عادة - التخلى عن سمات لهجاتهم الأصلية ويميلون إلى استخدام لغة عامة يفهمونها جميعا ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنهم يلتقون بالسكان الأصليين لهذه المدن أدركنا إلى أى حد يمكن أن تبرز لغة عامة يستعملها الشعب كله .

فالدور الأساسى الذى آل إلى أثينا بعد سقوط الإمبراطورية الفارسية أدى إلى ظهور لغة مشتركة مستمدة من اللهجة الإتيكية ، ولكن زاد من قوة الإتيكية وإشعاعها شهرة شعرائها وفنانيها ، فكان لأثينا - بوصفها مركزا سياسيا وأدبيا وفنيا على السواء - شرف تأسيس اللغة المشتركة التى ظلت منذ القرن الرابع قبل الميلاد حتى القرن التاسع بعد الميلاد أداة للتفكير عند جميع الإغريقيين [١٠٤] .

ولقد تكونت الإنجليزية المشتركة فى مدينة لندن التى ساعد موقعها على أن تكون ملتقى لمختلف اللهجات (هذا إلى أن تكوّن اللغة المشتركة صادف وقوعه فترة نمو لندن المفاجئ حيث أخذت تلتقى بين

---

(١٠٤) المصدر السابق ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

أحضانها طوائف المهاجرين على اختلافهم ، يفدون عليها من كل الأقاليم ويمتزجون بالسكان السابقين . هذه الهجرات أدت إلى شحن اللغة المشتركة بآثار اللهجات حتى لنجد نطق الإنجليزية في القرن السابع عشر لم يثبت بعد ، وأنه يشتمل على عدد كثير من وجوه الخلاف ولا تزال بقايا منه موجودة حتى اليوم ، ولكن هذه الهجرة الإقليمية أنعشت تبادل السكان بين العاصمة والأقاليم ، ذلك التبادل المفيد الذى أدى أجل خدمة لانتشار اللغة المشتركة ، وإذا فانجلترا تدين أيضا بتوحيد لغتها توحيدا نسبيا إلى أهمية عاصمتها) (١٠٥) .

وفى مدينة القاهرة تتزاحم اللهجات من مختلف أقاليم الجمهورية بلقاءات أصحابها ، ولذا تميل إلى التوحد فيما يشبه أن يكون لغة عامة يفهمها الجميع .

٦ - الدين والعلم والثقافة والخدمة العسكرية :

فالدين يجمع الناس حول كتاب واحد يقرءونه ، ويتعبدون به ويطبقون أحكامه ويدعوهم إلى الاجتماعات العامة فى الصلوات ، والأعياد والحج وغيرها ولذلك أثره الكبير في التوحد اللغوى .

ولا شك أن العلم والثقافة والخدمة العسكرية تؤدى دورها فى اتخاذ لغة عامة .

فدور العلم والثقافة والخدمة العسكرية تؤدى دورها فى اتخاذ لغة عامة .

فدور العلم والثقافة ، وطلابها الذين يفدون من مختلف الأقاليم ويلتقون فى المدارس والجامعات ، وقصور الثقافة ، والمكتبات وما شاكلها ولقاءات الثكنات العسكرية كل ذلك له أثره فى تخلى هذه الطوائف عما لا يفهم من لهجاتها ، ويتجهون بذلك إلى لغة عامة .

---

(١٠٥) المصدر السابق ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

وقد حاول تيمورلنك أن يصنع لغة لجيشه تسهل مهمة قواده ومع فشل تلك المحاولة فإنها تدل على احتياج الجيوش إلى نظام لغوى مفهوم لدى أوساطها المتباينة (١٠٦) .

وفى إطار هذه الأسباب الداعية إلى توحد النظام اللغوى فإن العالم العربى قد توافرت له علاقات كثيرة اجتماعية ، ودينية وسياسية وأدبية وثقافية ، وربطت بين أرجائه الإذاعة المسموعة والمرئية والصحافة وسبل المواصلات فبرزت فيه لغة مشتركة تتمثل فى العربية الفصحى التى تضيق هوة الخلاف بين اللهجات الدارجة المنتشرة فيه .

ولا ننسى أن نشير إلى أن اللغة المشتركة التى تنشأ عن الأسباب السابقة ونحوها لا تتخلص نهائيا من خصائص اللهجات المحلية بل تبدو آثارها فيها وتنعكس عليها .

ويتجلى هذا الأثر واضحا فى العربية الفصحى المعاصرة واللهجات العامية المتفرعة منها .

وقد أشرنا من قبل إلى ما تحويه اللغات المشتركة فى ألمانيا ، وانجلترا وفرنسا من آثار اللهجات المحلية التى شاركت فيها .

(ب) المنافسة بين اللغات :

يتحقق ذلك فى السلم ، والحرب .

ففى السلم :

تتوطد العلاقات بين الشعوب للحاجات الاجتماعية المتعددة فى نواحى الاقتصاد والثقافة والعلوم ، وغيرها من المجالات فيجرى بينها التعاون الزراعى ، والصناعى ، والعلمى ، ونقل المخترعات والمستحدثات .

---

(١٠٦) د. نجا : اللهجات العربية ص ٢٤ - ٢٦ وانظر د. السعران : اللغة والمجتمع ص ١٧٢ ، ١٧٥ .

وهذا التعاون المتعدد النواحي يقتضي لقاءات متعددة بين أفراد وجماعات من تلك الشعوب ، وهذا يؤدى إلى احتكاك لغاتهم ، وتبادلها التأثر والتأثير .

فقد استفادت العربية من الفارسية بعض المفردات والأساليب المتعلقة بمظاهر الحضارة ، والأشياء التى لم تكن موجودة عند العرب ومن اليونانية بعض مصطلحات الفلسفة والعلوم .

كما أخذت الفارسية من العربية بعض المصطلحات العلمية والدينية وقد استمدت الأسبانية من العربية كثيرا من المفردات بسبب إقامة العرب هناك بعد الفتح الإسلامي للأندلس أحقابا طويلة [١٠٧] .

وكلمة الشاى قد انتقلت إلى معظم لغات العالم من لغة جزر (ماليزيا) التى كانت المصدر الأول لهذه المادة ، وكذلك كلمة (الطباق) انتقلت إلى معظم لغات العالم من لغة السكان الأصليين لأمريكا [١٠٨] .

وفى اللغات الأوربية كلمات مشتركة أصلها إيطالى أو ألمانى أو إنجليزى منها أسماء وحدات كهربائية مأخوذة من أسماء مخترعيها مثل : (أمبير) Ampere – ڤولت Volt – أوم – Ohm بل نجد كثيرا من الكلمات الأوربية تنتشر فى لغات غير أوربية كأسماء بعض المخترعات ، والآلات مثل : راديو – تلغراف – تليفون – تليفزيون – سينما – فيلم – بيانو ... إلخ [١٠٩] .

وقد تأخذ العلاقات الودية صورة أخرى تدخل فيها اللغات فى صراع عنيف ، ويتم ذلك بطرق أهمها :

---

(١٠٧) انظر د. السعران : اللغة والمجتمع ص ١٧٧ .

(١٠٨) د. وافى : علم اللغة ص ٢٣٢ ، وما تأخذه لغة عن أخرى يخضع للصقل ، والتهذيب ، حتى يجرى على طريقة اللغات ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(١٠٩) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

١ - أن تنتقل طوائف من العلماء ، أو الصناع ، أو المثقفين ليشاركوا فى نهضة الحياة لدى شعب شقيق أو صديق .
٢ - أن تهاجر جماعات من شعب زاد نموه السكانى إلى شعب آخر مجاور .

وفى هاتين الحالتين يكون التأثر والتأثير عاديا كما ذكرنا من قبل .

وقد يأخذ هذا الاتصال طابع السيطرة ، والنفوذ إذا كان المنتقلون أقوى سلطانا ، أو حضارة ممن نزحوا إليهم ، أو زاد عددهم بدرجة كبيرة تجعل وجودهم يزداد قوة ، وثباتا ، وتأثيرا فتطغى لغتهم ، وربما تتغلب على اللغة التى تنافسها (فالألمانية امتدت على رقعة واسعة مما يجاورها من المناطق فى أوربا الوسطى : « سويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا ... إلخ » وقضت على لهجاتها الأولى) [(١١٠)] .

والفرنسية تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها فى بلجيكا وسويسرا وهكذا فالمنطقة التى توجد فيها العاصمة تتغلب على البلاد المجاورة لها ، فلوقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) فى القسم الذى يتحدث الفرنسية فى مقاطعة (والونيا) ولتميز تلك المقاطعة بالنفوذ والسلطان تغلبت اللغة الفرنسية على الفلامندية (لغة القسم الشمالى من بلجيكا) [(١١١)] .

والفرنسية فى مقاطعة بريتانيا تغلبت على اللغة البريتانية شيئا فشيئا ، إذ شاركت فى كل نواحى الحياة الدينية ، والخدمة العسكرية والتعليم فى المدارس ، والنواحى الاقتصادية ، ولا يمكن للبريتانية أن تساوى الفرنسية فى القوة ، والثقافة ، والحضارة ، ولذا يمكن التنبؤ باندثار البريتانية ولكن ذلك يتوقف على تمسك البريتانيين بلغتهم ، وتعصبهم لها ، وعلى كثرة عدد المتكلمين بها [(١١٢)] .

---

(١١٠) د . وافى : اللغة والمجتمع ص ١١٠ .

(١١١) المصدر السابق ص ١١٢ .

(١١٢) فندريس : اللغة ص ٣٥٢ - ٣٥٥ بتصرف .

أما إذا كان الأمر بالعكس بأن تفوق الشعب المنتقل إليه نفوذا وسلطانا أدى ذلك إلى خضوع المهاجرين وربما تلاشى لسانهم الأصلي في غمار لغة هذا الشعب الجديد (ففي مستعمرة الكاب كان المهاجرون الفرنسيون من البروتستانت في سنة ١٦٨٨ يكونون ربع سكان المستعمرة ولما كانت الهولندية وحدها هي اللغة المسموح بها في الأمور العامة والسياسية والدينية فقد اختفت الفرنسية بعد مضى قرن واحد)[١١٣] .

ويذكر (بلومفيلد) أن الأسرات الأوربية التي نزحت إلى أمريكا، وأقامت بها إقامة دائمة لا تلبث طويلا حتى تصطنع لغة البيئة الجديدة مشوبة في أول الأمر ببعض أصوات لغتهم الأصلية وأساليبها، ثم لا يكاد يمر عليهم جيل من الزمن حتى يسيطر أبناؤهم أو أحفادهم على اللغة الأمريكية ، ذلك لأنها تمثل - في نظر معظم المهاجرين - اللغة العليا ولأنها اللغة التي تقضي مصالحهم في البيئة الجديدة ، وتساعدهم على الاندماج وتحسين أحوالهم اجتماعيا ، واقتصاديا)[١١٤] .

وفي الحرب :

قد يغزو شعب آخر غزوا عسكريا فتدخل لغتاهما في صراع يحتدم بينهما أمدا طويلا ، وهذا واضح في لغات الشعوب التي اشتركت في الحرب العالمية الأولى ، فقد استفاد بعضها من مفردات الأخرى نتيجة لطول الاحتكاك ، والاتصال بينها .

ومن الممكن أن تنتصر إحداهما إذا تهيأت لها أسباب النصر .

١ - فتنتصر لغة الغالبين إذا كان عددهم كثيرا ، أو كانت حضارتهم وثقافتهم أرقى من المغلوبين .

فنزوح الغازي بأعداد كبيرة يؤدي إلى القضاء على طابع الشعب

---

(١١٣) المصدر السابق ص ٣٥٠ .

(١١٤) د. أنيس : من أسرار اللغة ط ٣ ص ١٠٠ ، ١٠١ .

المغلوب ، وسماته ، ويصحب ذلك سلطان القوة التى تفرض لغة الغازى فى تصريف شئون الدولة ، والإدارة ، والعلوم والثقافة ، وهذا يؤدى إلى انكماش لغة الشعب الأصلى ، وتدهورها .

وإذا كانت حضارة الشعب الغازى أقوى أدى ذلك إلى انصراف الشعب المقهور عن لغته ، وهجرها بتقليد اللغة الأرقى .

ومن ذلك أن اللغة العربية انتشرت إثر الفتوحات الواسعة فى آسيا وإفريقية ، وتغلبت على كثير من اللغات الأخرى كالقبطية والبربرية .

ومن ذلك - أيضا - سيادة الإنجليزية فى أمريكا الشمالية ، وسيادة الفرنسية في أنحاء من كندا وفى جزر الجواد لوب والمرتينيك وغيرها وهذه الظاهرة ممكنة الحدوث حتى إذا كان الغزاة أقل عددا بكثير بشرط أن يكون رقيهم الحضارى والإدارى والاقتصادى ساحقا (١١٥) .

ويذكر بلومفيلد أن قلة عدد الغزاة قد يؤدى إلى انتصار لغة المغلوبين عسكريا وسياسيا ، فهؤلاء القلة من الغزاة يهضمون بعد زمن ما فى البيئة الجديدة غير أنها بعد انتصارها تصبح مثخنة بآثار ذلك الصراع المرير ، فلا تكاد اللغة الغازية تندثر أو تزول حتى تكون قد تركت فى اللغة المغزوة جروحا أو ندوبا هى فى الحقيقة بعض الصفات التى استعارتها من لغة الغزاة .

ومن ذلك النورمانديون الفرنسيون حين غزوا الجزر البريطانية واستطاعت الإنجليزية - فى النهاية - أن تقهر الفرنسية وتحل محلها بعد ما أصاب الفرنسية تشوه فى أصواتها ، وتجديد فى بعض أساليبها (١١٦) .

---

(١١٥) د. حسن ظاظا : اللسان والإنسان ص ١٢٨ .

(١١٦) د. أنيس : من أسرار اللغة ص ٩٩ ، ١٠٠ .

وقد تنكمش لغة المغزوين وتنزوى فى ناحية من بيئتها وتتحصن فيها فتعيش اللغتان الغازية والمغزوة جنبا إلى جنب كما حدث للغة الكلتية بعد غزو الإنجليز السكسون الجزر البريطانية ، فقد حلت الإنجليزية محل الكلتية فى بقاع كثيرة من تلك الجزر ولكن الكلتية ظلت حتى الآن سائدة فى بعض جهات « ويلز » [١١٧] .

وقد يتمسك المغلوب بلغته ، ويقف فى وجه الغالب سدا منيعا لا يتزحزح عنها فلا تتمكن لغة الغالب من السيطرة عليها .

فاتجاه الأيرلنديين إلى إحياء لغتهم الوطنية يعود - كما يقول فندريس - إلى بواعث ، سياسية وهى التخلص من لغة الإنجليز أعدائهم التقليديين [١١٨] .

ومثل ذلك ما حدث من تمسك الفرس بلغتهم (إذ كان الفتح العربى قد أدخل اللغة العربية إلى بلاد فارس حتى أصبح العلم والأدب والسياسة جميعا لا تعرف تعبيرا غير العربية ، وتقلص ظل الفارسية ، فأصبحت رطانة للطبقة الدنيا من الفلاحين ، والرعاة ، وصغار التجار والصناع ، ولكن العصبية الشعوبية استيقظت منذ القرن الثالث الهجرى ، وبدأت مع الدويلات الإسلامية الشعوبية التى قامت فى فارس حركة إحياء وبعث للغة الفارسية) [١١٩] .

٢ - أما إذا حدث العكس بأن كان المغزوون أكثر حضارة فإن لغتهم تبقى صاحبة السلطان ، وربما قهرت لغة الغزاة ، وصرعتها على ألسنة أهلها .

(فإرادة الإغريق فى ألا يضحوا لغتهم أمام فاتح يحتقرونه هى التى

---

(١١٧) المصدر السابق ص ١٠٠ .

(١١٨) فندريس : اللغة ص ٣٥٠ .

(١١٩) د. حسن ظاظا : اللسان والإنسان ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

حفظت الإغريقية خلال العصور فلم تستطع التركية يوما أن تحل محلها، أو حتى تنال منها ... فالتركية وهي لغة الفاتحين ليست بأية حال من لغات الحضارة ، وما كانت تستطيع الكفاح ضد الإغريقية التى تمثل ثقافة من أعرق الثقافات) [١٢٠] .

وكما حدث عندما هاجمت القبائل المتبربرة أوربا اللاتينية التى كانت شعوبها أكثر تقدما فى الحضارة ، ولذا ترك هؤلاء البرابرة لغتهم الأصلية بل تركوا أديانهم الوثنية ، واصطنعوا اللاتينية واعتنقوا المسيحية الكاثوليكية ، وكذلك التتار بعد إسقاطهم بغداد اعتنق أكثرهم الإسلام وتعلموا اللغة العربية [١٢١] .

وتظهر آثار المنافسة بين اللغتين المتجاورتين ، أو المتصارعتين - عادة - فى المفردات [١٢٢] وقد يحدث تأثير فى النظام الصوتي والصرفى ونحن نعرف أنه كثيرا ما لوحظ فى لغات مختلفة أصلا ومتجاورة جغرافيًا وجود خصائص صوتية مشتركة وكذلك الحال بالنسبة للنظام الصرفى فقد انتشرت بعض النواحي الصرفية من الفنلندية إلى اللغات الهندية الأوربية الأخرى « السلافية والبلطية » [١٢٣] .

وقد ينسخ نظام الجمل ، وبذلك ينتقل ترتيب الكلمات أحيانا من بعض اللغات إلى لغات مجاورة لها ، فالألمانية النمساوية - مثلا - تسير

---

(١٢٠) فندريس : اللغة ص ٣٥١ .

(١٢١) د. حسن ظاظا : اللسان والإنسان ص ٢٢٧ .

(١٢٢) فندريس : اللغة ص ٣٥٧ كبعض الكلمات الخاصة بالبيئة الجديدة من أعلام أو أسماء الأمكنة ، ومن ألفاظ تعبر عن أشياء تتميز بها هذه البيئة كما حدث للرومانية حين قضت على معظم لغات أوربا ، وللعربية حين قضت على القبطية فى مصر .

وقد أشرنا إلى بعض ذلك فيما سبق ، انظر : د. أنيس : من أسرار اللغة ص ١٠٠ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ من هذا الكتاب .

(١٢٣) فندريس : اللغة ص ٣٦١ ، ٣٦٤ .

على حرية كبيرة فى ترتيب الكلمات ، وذلك تحت تأثير اللغات السلافية [(١٢٤)] ، وفقدان النحو نتيجة حتمية لصراع اللغات [(١٢٥)] .

وعندما يقضى على إحدى اللغات فإن ألفاظا كثيرة تغزوها من اللغة الغالبة وينالها كثير من التحريف فى ألفاظها الأخرى ، ودلالتها ، ثم لا تلبث القواعد أن تتغير شيئا فشيئا [(١٢٦)] .

وتترك اللغة المغلوبة آثارها على اللغة الغالبة وكلما طال أمد الصراع [(١٢٧)] ، وقوى كانت التشوهات أكثر عمقا ، وظهورا ، فقد ضاع من الإنجليزية أكثر من نصف ثروتها اللفظية فى صراعها الذى انتصرت فيه على النورماندية الغازية ، واستعاضت عن هذا المفقود من اللغة الغازية المقهورة وأخذت منها كذلك مفردات جديدة ، ومع طول الصراع بين العربية والقبطية والبربرية لم تؤثر تلك اللغات فى العربية تأثيرا قويا ، لأن الصراع لم يكن شديدا ، ولم تكن هناك مقاومة تذكر من اللغات المغلوبة .

ويميل بعض اللغويين إلى القول بأن آثار الاحتكاك والصراع بين اللغات تظهر إذا كانت من فصيلة واحدة ، أو من فصيلتين متقاربتين .

أما إذا كانت غير مشتركة فى الأصل فإن الآثار الناجمة عن

---

(١٢٤) المصدر السابق ص ٣٥٩ .

(١٢٥) المصدر السابق ص ٣٦٣ .

(١٢٦) د. وافى : اللغة والمجتمع ص ١٠٠ وما بعدها .

(١٢٧) يحتاج الصراع إلى وقت طويل قد يبلغ أربعة قرون ، فالرومان تغلبوا على وسط أوروبا وشرقيها فى القرن الرابع الميلادى ، والعربية لم تتغلب على القبطية والبربرية إلا بعد أحقاب طويلة ، بل إنها بقيت مستعملة فى أداء الطقوس الدينية ، وبعض اللغات البربرية لا تزال تستعمل حتى العصر الحاضر .

الاحتكاك والصراع تكون آثارا محدودة لاسيما فيما يتعلق بالبنية ونادرا ما تؤثر لغة وتتغلب على أخرى ليست من فصيلتها [١٢٨] .

ونتيجة لتجاور اللغات وصراعها قد لا تبقى اللغة الواحدة على حالها بل تتغير ، وربما انقسمت إلى لهجات لاتساع الرقعة التي تعيش عليها ، ولاتصالها بلغات أخرى أو انتصارها عليها ، واختلاف البيئات المكانية ، والزمانية ، والثقافات المتعددة التي تتغلب عليها من الشعوب المتكلمة بها ، وانتقالهم من جيل إلى جيل كما حدث للعربية في غو المتكلمين بها وتغلبهم على المناطق المجاورة في مصر والشام ، والعراق ، وكما حدث للألمانية في امتدادها على مساحة واسعة في أوربا الوسطى ، فكل ذلك أدى إلى تغلب تلك اللغات على لغات البلاد الأصلية ، ونجم عنه تفرق العربية ، والألمانية إلى لهجات .

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية منذ نشأتها إلى العصر الحاضر .

تعقيب :

عرضنا في كلامنا السابق صورة واقعية لما يعرض للغة جماعة إنسانية ، ورأينا أنها تنشأ تلبية لحاجاتهم الاجتماعية ، ووفقا لظروفهم ، فهي تمثلهم حضاريا وثقافيا وفكريا ، ثم إن ألفاظها المعبرة عن مقصودهم تأخذ الطابع المميز لتلك الجماعة الإنسانية ، وتتطور حسب احتياجاتهم ، وما يعرض لهم من أحوال جديدة قد تطرأ عليهم في انقساماتهم الاجتماعية داخل المنطقة التي يعيشون فيها ، أو نتيجة اتصالهم بالشعوب الأخرى للتجارة أو الهجرة أو الحرب ، أو غيرها من وسائل الاتصال المتعددة ، ويمكن أن تبدو لذلك آثار بعيدة المدى في سلوك اللغة ، واتجاهاتها بين الجماعات الإنسانية المختلفة وتبدو

---

(١٢٨) د. وافي : اللغة والمجتمع ص ٩٧ - ١١٠ ، ود. السعران : اللغة والمجتمع ص ١٧٩ - ١٨١ .

ملاحظاتنا فى صور تعبر عن الجانب الاجتماعى ، وأثره فى السلوك اللغوى ، وهى كما يلى :

أولا - اللغة صورة لحياة الأمة :

ليست اللغة أداة صناعية خارجة عن علاقاتها بالمجتمع الذى تعيش فيه ، بل هى صورة له نابضة بالحياة ، فإذا كان المجتمع متخلفا ظهرت آثار التخلف فى لغته ، فهى متخلفة معه ، وإذا كان المجتمع راقيا بدا الرقى فى لغته كذلك فالشعوب البدائية يتكلمون لغة مادية لا تعرف الفكر ، أو المعانى الكلية ، إنها لا تعرف أكثر من المحسوس لتعبر عنه فالهندى الأحمر فى أمريكا لا يستطيع - فى تعبير لغوى - أن يجد اسما للشجرة دون أن يعرف لونها الأحمر ، أو الأسود فى شجر معين كالبلوط ، وبعض العشائر البدائية ، لا تسعفها لغتها على التعبير فيلجأون إلى الإشارات بأيديهم ، وأرجلهم ، وأعينهم حتى إنهم إذا أرادوا التحدث ليلا أوقدوا النار ، ليرى المخاطب حركاتهم ، فيعرف ما يريدون ، وهذا اللون من اللغات يقل فيه التفرع اللغوى كالاشتقاق ، وغيره مما يعبر عن المعانى المجردة .

أما الشعوب الراقية ذوات الثقافة والفكر فتحمل لغاتها سمات حياتها العامة ، والخاصة كاللغات الهندية الأوربية ، واللغات السامية ، التى تستطيع أن تعبر فى صور متعددة ، وعبارات لا تحتاج إلى الإشارات كتلك السابقة لها ، بل إن اللغة العربية تجنح إلى العقلية والخيال ، والتعبير عن الشئ منظورا إليه من جهات متعددة .

فاللغة سجل يعى حضارة الأمة على مدى تاريخها الطويل ، ويمكن - على هذا الأساس - فهم طبيعة حياتها ، ومعرفة الكثير عن وجودها الحضارى .

فالعربية - فى أول حياتها - كانت تعيش حياة بدوية خالصة فى صحراء الجزيرة ، ولذا تحمل ألفاظها سمات تلك المرحلة ، فكلمة

(الفصاحة) - أخذت - أساسا - من اللبن الفصيح - وهو الذى زال رغوه - وكلمة (البلاغة) أخذت من البلوغ إلى غاية المسير وكلمة (المجد) أخذت من امتلاء بطن الدابة بالعلف وكلمة (القطار) كانت تطلق على عدد من الإبل تسير فى نسق واحد .

فإذا درسنا تلك الألفاظ ، وتطوراتها وجدنا أن اللفظين الأولين (الفصاحة والبلاغة) استعملا فيما بعد لحسن الكلام ، وجودته ، ثم استعملا مصطلحين لإجادة المنطق فى علم البلاغة الذى ظهر بعد وضع قواعد اللغة ، وعكوف العلماء على دراستها فى عصر يدل على نضج تفكير الأمة ، وإدراكها لقيمة لغتها .

وبعد تحضر العرب نقلوا لفظ (المجد) من معناه القديم ، فأصبح يطلق على امتلاء حياة الشخص ، أو الجماعة بالمعانى النبيلة ، ولما تطورت الحياة عند العرب فى العصور الحديثة ، واستخدموا الآلات الصناعية فى نقل البضائع ، والأحياء من بنى الإنسان ، وغيرهم من مكان إلى آخر نقلوا اسم آلة السفر التى كانت للصحراء - وهى (القطار) من الإبل للقطار من العربات المعهود الآن .

فلو تتبع الباحث اللغوى دلالات الألفاظ ، واشتقاقاتها ، وتراكيبها اللغوية لعرف تطور الحياة ، والفنون عند الجماعة الناطقة بها .

ثانيا - اللغة تتغير تبعا لظواهر الاجتماع :

للظواهر اللغوية وتغيرها أثر فى مفردات اللغة ، وتراكيبها .

(أ) أثرها فى المفردات :

١ - معانيها :

لا ريب أن كل جماعة إنسانية تضع الكلمات للأغراض التى تريد التعبير عنها ، فيوضع لفظ لمعنى ، أو لعدة معان ، ويوضع غيره كذلك لمعان أخرى وهكذا .

وتبدأ اللغة بسيطة ، ثم تتطور ، وتتعمق . فالمعروف أن الطفل عندما يريد أن يدل على حيوان يخاف منه فإنه يسميه (هو هو) أو (عو) أو نحو ذلك مما يطلقه عليه ، ثم بعد أن يميز شيئا فشيئا يستطيع أن يفصل بعض المعانى عن غيرها ، والمسميات عن نظائرها ، فيطلق اللفظ المحدد على ما يريد بدقة ، وهكذا فالشعوب تطلق الألفاظ على ما تريد حسب طبيعتها رقيا ، وانحطاطا . فالألفاظ البدائية محسوسة المعانى ، والراقية ترقى معها الأفكار التى تحملها .

وكلمة (الفرج) كانت لكل شق ، ثم خصصت فى الإسلام بما هو معروف عند الإنسان، واللمس كان معروفا فى اتصال شئ بآخر ثم كنى به الإسلام عن الجماع كقوله تعالى : ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (١٢٩) .

ومن هنا نلاحظ تطور المعنى تبعا لتطور الحياة الاجتماعية ، ومتطلباتها .

٢ - أصواتها :

لا ريب أن الأصوات التى تتألف منها الألفاظ صورة لحياة الأمة ، فهى جافية غليظة فى أمة خشنة ذات وعورة تحيا حياتها الأولى فمثلا : حياة الصحراء تحتاج إلى الأصوات العالية ،لأن الخفوت يضيع وسط هذا الفراغ الهائل ، ولذا كانت خشونة الأصوات داعية لوصولها إلى من يريد ، وعلى هذا كان العرب الصحراويون يأتون إلى النبى ﷺ وينادونه بأصواتهم المرتفعة ، فحاول الإسلام أن يرقق منها فى الحواضر - كمكة والمدينة - حيث العمران ، والمدنية ، والحضارة التى يناسبها خفض الصوت فنبه القادمين على أن الأصوات العالية لا تليق فى مكان لا يحتاج إلى علوها قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ

---

(١٢٩) المائدة : الآية ٦ .

لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ... إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٣٠) وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (١٣١) .

ونلاحظ في الحركات أنها تأخذ الشكل المناسب لحياة البدويين ، والحضريين ، فالحركات القوية - كالضمة - يميل إليها البدويون لمناسبتها لحياتهم على حين أن حياة المدنية الرتيبة الوادعة داعية إلى الأصوات الرقيقة ، والحركات المشاكلة لها ، كالكسرة - التى قالوا إنها علامة المؤنث ، وأمارة الرقة ، وصغر الحجم .

وكلما انتقل المجتمع من حال إلى حال تتطور الأصوات اللغوية ، ففى اللهجات العربية الحديثة وجدنا صوت (القاف) العربية يتطور فى القرى إلى صوت (الجيم) مثل : (قال) تنطق (جال) وفى المدن - كالقاهرة وطنطا - تنطق (همزة) فتصبح (آل) ووجدنا فى القرى (الضُحك) - بضم الضاد - وفى المدن (الضِحك) بكسرها ، لأن الضمة تناسب مجتمع الصلابة ، والخشونة ، على حين أن الكسرة لمجتمع الرقة ، والحياة الناعمة ويظهر هذا فى بعض الأحيان دون الأخرى .

وقد تحدث تبدلات للأصوات عند بعض الناس تبعا للبيئة التى تصبغ الألفاظ بصبغاتها ، فمثلا نجد فى الصعيد من ينطقون (جاموسة) : داموسة ، ومن يقول هناك (لع) بدلا من (لأ) فى مجتمع المدينة ، و (لا) فى العربية الفصحى .

وتبدلات الأصوات أحدثت ثورة عنيفة فى اللغة العربية ، واللغات الإنسانية - بعامة - وتحتاج دراستها إلى جهود تكشف عن تطورات الألفاظ ، وعلاقاتها ، ومدى تأثرها بالتقدم الحضارى .

---

(١٣٠) الحجرات : الآيتان ٢ ، ٤ .

(١٣١) لقمان : الآية ١٩ .

وهناك أصوات تخفف حتى تتلاشى كأصوات اللين القصيرة والطويلة فى مثل (عل ومحمد حضر امبارح) .

ونلاحظ فى دراسة اللهجات العربية القديمة ، والحديثة ما يفيدنا فى هذا المجال ، ويلقى ضوءا قويا على حياة البداوة ، والحضارة فى عصورها المختلفة .

٣ - حياتها وموتها :

هناك ألفاظ فى اللغة يكتب لها أن تعيش ، ويستمر وجودها للحاجة إليها ، ولصلاحيتها للتعبير عن مرادها ، وذلك مرهون باستمرار ما يراد منها ، وقد ينتقل معناها تبعا للحاجة الاجتماعية إلا أنها تستمر لصلاحيتها لذلك أيضا ، وقد يموت معناها تبعا للتغيرات الاجتماعية التى تبطل هذا المعنى أو تؤدى إلى تغييره فتموت الألفاظ أيضا ، فأسماء كثير من آلات الحرب وغيرها قد بطل نتيجة لبطلان استعمالها ، وكذلك بعض الألفاظ الخاصة بأجزاء الغنائم فى الجاهلية التى أبطلها الإسلام مثل المرباع والصفايا وغير ذلك من الألفاظ .

وفى بعض الأحيان يحيا اللفظ بعد موته ، فقد أحيا الأدباء ، والعلماء فى العصور الحديثة كثيرا من الألفاظ القديمة للحاجة إلى معانيها ، وتبعا للمخترعات الصناعية التى تستلزم بعض المصطلحات .

ومن هنا وجدناهم يعيدون إلى اللغات كثيرا من الألفاظ المهجورة ، وهذا يضيف جزءا كبيرا من التراث اللغوى كان مهملا ، فيعيد إلى اللغة جزءا مفقودا من ثروتها ، وكثير من الألفاظ التى وجدت فى الغرب تسير على هذا الطريق ، وتشمل مصطلحات متعددة فى الصناعات ، والفلسفات والعلوم .

ولذا نلاحظ أن اللفظ يحيا فى عصر ، ويموت فى عصر آخر تبعا للنظم الاقتصادية ، والحياة الاجتماعية فى أطوارها المختلفة ، فلفظ (الاشتراكية) كان معروفا فى اللغة إلا أنه لم يدر استعماله بمثل ما دار به

فى هذا العصر فى فترة زمنية ثم خفت بعد ذلك ، ولفظ التراشق بالنيران لم يكن يلاحظ قبل اندلاع حرب السويس ، ولفظ (صاحب المعالى) و (صاحب السعادة) كان شائعا قبل الثورة ثم اختفى كل منهما بقيامها .

٤ - إضافة ألفاظ جديدة :

تستحدث اللغة بعض الألفاظ للحاجة إليها ، فقد يكون المجتمع بدائيا ، ثم يتطور ، وتكبر معه المخترعات ، وحاجات الحياة ، وقد لا تنهض ألفاظ اللغة بذلك فتخترع ألفاظ تستعمل فى هذه النواحى ، والارتجال ظاهرة لغوية فعالة تحدث عنها العلماء ، وقد قال ابن جنى إن العربى الفصيح يرتجل ، ويكون ذلك بإحياء ألفاظ قديمة ، أو بالاشتقاق منها ، ويمكن أن تنشأ بعض الألفاظ دون سابق وجود لها ، وهذا يقع فى اللغات الأجنبية . وفى لغتنا العربية ، وفى لهجاتنا العامية كثير من تلك الألفاظ المخترعة تبعا لحاجات الحياة النامية .

٥ - اقتراض الألفاظ :

تبعا للعلاقات التى أشرنا إليها بين لغة قوم وآخرين سلمية كانت ، أو حربية فإن ألفاظا من لغات الطرفين تنتقل إلى كل منهما ، وتستعمل فى التبادل اللغوى ، ويدخل فى ذلك ما يسمى فى العربية بالتعريب ، فاللغة التى تأخذ بعض الألفاظ تحاول إخضاعها لقوانينها الصوتية ، وموازينها البنائية ، حتى تشاكلها ، وتجرى على لسان أربابها ، فبعض الأصوات لا يوجد فى لغة ما ، ويوجد فى غيرها كصوت (P) فى اللغات الهندية الأوربية ، ففى الفارسية مثلا - (بندق) عرب إلى (فندق) بالفاء و (برند السيف) إلى (فرنده) بالفاء أو (برنده) بباء خفيفة .

وقد يحدث اتصال لغة بأخرى عدوانا على نظمها الصوتية ، وطغيانا على ألفاظها ، فتحل ألفاظ من اللغة الغالبة محل نظائرها من

ألفاظ اللغة المغلوبة ، ويكثر ذلك فتمزق مجالاتها الصوتية وتستولى عليها ، وتقضى عليها فى النهاية ، ويترك هذا الصراع آثارا فى اللغة الغالبة ، فتشوه بعض صوتياتها ومفرداتها ، وهذا يتوقف على حدة الصراع ، وامتداد زمانه بحيث يتناسب معه تناسبا عكسيا .

(ب) أثرها فى التراكيب والقواعد:

الزمن ، والصلات بين المجتمعات ، والحياة بمظاهرها المتعددة كفيلة بتغيير الأوضاع اللغوية ، وتراكيبها ، فالرجل البدائى - كالطفل - لا يملك قوة العبارة ، أو سلامتها وسلاستها بل يركبها حسبما يشاء له تفكيره الساذج ، وتبدو عليه الهلهلة ، والسقم ، لأن حياته ليست رتيبة ، ولا نظام فيها ، وعندما يسمو تفكيره تسمو لغته ، وتصبح دقيقة التعبير متسقة المسالك .

وتراكيب اللغات عرضة للتغير ، وقواعدها النحوية والصرفية عرضة لذلك أيضا ، يقول بعض الباحثين : إن الأمم القديمة كانت تصنع الجمل فى الوقت الذى تصنع فيه الفكرة التى تحملها ، وهى لذلك محتاجة إلى ملاحقة الجزئيات ، وأدوات الفصل والوصل وأنواع الزوائد التى (تتجاوب مع حركات عقلية جزئية تختلج فى الفكر فى لحظة التعبير على حين أن المتكلم باللغات الحية المعروفة يكاد يفرغ من تكوين فكرته داخليا قبل سبكها فى قالب الكلام فيقل فيها ما يشعر بهذا الجهد الداخلى فى بناء الفكرة نفسها) [١٣٢] .

ومن هنا ضاع الإعراب فى اللهجات العامية العربية وفى معظم اللغات البشرية كما هو مشاهد الآن .

ويذكر الباحث السابق أن الانتقال من التركيب المعرب إلى التركيب الموقوف يعد ظاهرة حتمية فى تطور اللغات [١٣٣] .

---

(١٣٢) د. حسن ظاظا : اللسان والإنسان ص ١٢١ .

(١٣٣) المصدر السابق ص ١٢٠ .

كذلك الأوزان التصريفية عرضة لهذا التبدل والتغير ، فمثلا (غار فهو عاير) من عار على عرضه بمعنى : تمسك بحمايته - يقال - فى التعبير العامى : (غيران) - على فعلان - خلافا للوزن العربى ، وصياغة المضارع اختلفت طرائقها فى القديم والحديث كما نشاهد فى عامياتنا ، ولغتنا الفصحى .

كذلك الغزو اللغوى يمكن أن يترك آثارا فى أساليب اللغات فيغير بعضها مثل ما نسمع فى العامية (هات واحد شاى) وأصله (أعطنى كوبا من الشاى) - (قابلنى اتنين من الشبان) والتعبير العربى : (قابلنى شابان) .

ومثله تسرب بعض الأساليب والتعبيرات الأجنبية إلى العربية مثل (ذر الرماد فى العيون) و (لعب دورا هاما) ونحو ذلك مما يمكن تتبعه فى اللغات الإنسانية .

وهذا اللون من الدراسة يكشف عن المنهج الصحيح لدراسة اللغات الإنسانية بتتبع سيرها التاريخى ، وما يحدث فيها من تغيرات فى معانيها وأصواتها وتراكيبها ، وما يفقد منها ، أو تستفيده بعضها من بعض .

ويمكن للباحث أن يدرك كيف يستطيع المجتمع أن يوجه اللغة إلى الطريق الذى يسير فيه ، وأن يخضعها لعوامل المحافظة ، والبقاء ، أو الانقسام والموت .

ويمكن - على هذا المنهج - أن تُدرس اللغة فى ظل علم الاجتماع وأن تعرف طرائقها الاجتماعية .

فتدرس اللغة دراسة وصفية تتناول الإنسان من حيث نشأته ، وتدرجه فى جماعة معينة ، وأثره فى اللغة - بجانب جماعته التى ينتمى إليها - فى ضوء العوامل والظواهر الاجتماعية التى تتصل باللغة ،

وبسلوك أفراد الجماعة ، ويدرس المعنى والألفاظ فى ظلال التاريخ اللغوى .

وبتناول اللغة من هذين الجانبين الوصفى ، والتاريخى يتبين أن اللغة تعد مميزا فرديا ، ومميزا طبقيا ، فيمكن أن تدرس اللغة ، والسياسة - اللغة والاقتصاد - ، اللغة والدين ... إلخ ، وعلى أثر ذلك نستطيع أن ندرك مراحل التطور اللغوى وصلته بالمجتمع ، وآثار احتكاك اللغات واللهجات .

وقد كان علماؤنا القدامى فى دراستهم للغة يغفلون هذا الجانب المهم - وهو الجانب الاجتماعى - ومن ثم جاءت تفسيراتهم - فى بعض الأحيان - غير سديدة ، ولكن بعض علماء الغرب تبعا للمدرسة الاجتماعية التى أسسها (إميل دوركيم) أدركوا أن اللغة ظاهرة اجتماعية فحاولوا دراستها على هذا الطريق ، وحذا حذوهم بعض علماء العرب فى العصر الحديث .

ثانيا : دلالة الألفاظ وتطورها

تقوم اللغة على عنصرين أساسيين هما : الألفاظ والأفكار (أو المعانى) وبينهما ارتباط وثيق بحيث متى عرف اللفظ أمكن فهم معناه ولذا نلاحظ ثلاثة أمور :

(أ) الـــدال : وهو الألفاظ .

(ب) المدلول : وهو الأفكار (أو المعانى) .

(جـ) النسبة : وهى العلاقة القائمة بين الألفاظ والأفكار .

ونزيدها بيانا فنقول :

(أ) الـدال : وقوامه ما يتلفظ به - كما ذكرنا - وهو - أحيانا - يكون لفظا مفردا وأحيانا مجموعة من الألفاظ ركب بعضها مع بعض فى صورة جمل وعبارات .

وعلماء العرب قد وضحوا لنا (الكلمة المفردة) وحددوا معالمها فهى : القول أو اللفظ المفرد الموضوع لمعنى [١] أو قول مفرد مستقل أو منتوى فيه فالمستقل مثل محمد - جاء ، والمنتوى فيه مثل فاعل (قم) وهو الضمير (أنت) [٢] .

وهم يقصدون بكلمة (قول) أنها (لفظ) ولما كان القول (الذى هو كل لفظ) يشمل المفرد والمركب والتام والناقص (الكلمة الواحدة وما هو أكثر من كلمة) حددت التعريفات مفهوم الكلمة بقولها (مفرد) .

---

(١) انظر ابن هشام : شرح شذور الذهب ص ١٢ وابن عقيل بحاشية الخضرى ١ / ٧ والأشمونى بحاشية الصبان ١ / ٦ .

(٢) السيوطى : همع الهوامع ص ٣ .

وقد عاب الدكتور تمام حسان هذه التعريفات بما يأتي :

١ - أنها لا تفرق بين الصوت والحرف أي بين عملية النطق والنظام الذي أجرى عليه .

٢ - أنها لا تفرق بين وجود الكلمة ، وعدمها في تعريفها ، وهذا ما يؤدي إلى الخلط في التفكير [٣] .

ولذلك عرفها بقوله :

صيغة ذات وظيفة لغوية معينة في تركيب الجملة تقوم بدور وحدة من وحدات المعجم ، وتصلح لأن تفرد أو تحذف أو تحشى أو يغير موضعها أو يستبدل بها غيرها في السياق ، وترجع في مادتها - غالبا - إلى أصول ثلاثة وقد تلحق بها زوائد [٤] .

ويبدو لي أن تعريف الأقدمين لا عيب فيه ، بل هو دقيق تماما وموجز واف بالمعنى المطلوب منه فهو :

١ - لا يخلط بين القول والكلمة واللفظ ، بل فيه تحديد لها ، ولا عيب أن تلتقي معاني الألفاظ الثلاثة لاشتمال الأصوات عليها ، فكل لفظ يمكن أن يطلق عليه قول ، لأن القول هو كل ما يتلفظ به وكل لفظ بهذا المعنى قول ، والكلمة ليست إلا لفظا فلا مانع من إطلاق اسم القول عليها ، وهذا لا يعد خلطا بل يعد اشتراكا في جنس هو جزء التعريف مثل الإنسان حيوان ناطق ، حيث يشترك في لفظ الحيوان مع الإنسان سائر الحيوانات ولم يعب ذلك أحد ، والجزء الآخر من التعريف يمنع ما يراد منعه ، فكلمة (ناطق) تمنع ما عدا الإنسان من الدخول في التعريف ، وقد أضيف إلى تعريف الكلمة ما منع غيرها من الدخول معها وهو (مفرد) فكلمة (مفرد) أخرجت المركبات سواء كانت تامة أو ناقصة .

---

(٣) د. تمام : مناهج البحث في اللغة ص ٢٢٦ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٣٢ .

٢ - فيما يبدو لى أنه لا يصح إدخال الوظيفة اللغوية فى تعريف أجزاء اللغة ، وهذا غير موجود فى تعريف الأقدمين ، بل هو موجود فى تعريف الدكتور نفسه وبالرجوع إليه يمكن فهم ما أقول .

- ليس هناك خلط فى التفكير بالإشارة إلى الكلمات المضمرة مثل : أنت فى (قم) بل هذا مجرد تلميح إلى أن الكلمة تارة تكون واضحة مرئية ، وأخرى مستترة قياسا على وجودها الخارجى .

وقد عرف مييه [٥] الكلمة بأنها ربط معنى ما بمجموعة ما من الأصوات صالحة لاستعمال جراماطيقى [٦] .

وهذا التعريف صالح للمورفيمات ، وللجمل ، وأجزاء الجمل أيضا .

وعند جاردنر [٧] : « أن الكلمات ذات وجهين فى طبيعتها ، فوجه هو المعنى ، ووجه آخر هو الصوت ، وحيث تكون الكلمات فى ملك كل شخص تكون من ناحيته جواهر طبيعية مكونة من منطقة المعنى من جهة ، ومن صورة صوت معين من جهة أخرى ، هذا الصوت صالح لأن يعاد نطقه بالإرادة ، والكلمات فى حقيقتها نفسية ، وهى مواد للمعرفة والتكلم مع أنها فى أحد جانبى طبيعتها تشير إلى حدث عضوى تمكن إعادته بحسب الإرادة » .

والتعريف الأول للكلمة شامل لها ولغيرها والثانى يدخلها فى عالم الفلسفة وعلم النفس « وليس الباحث اللغوى بحاجة إلى أن يبنى أفكاره على أسس غريبة عن منهج اللغة ... لاحظ فى تعريف جاردنر

---

(٥) عالم لغوى فرنسى .

(٦) د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ وفندريس : اللغة ص ١٢٤ .

(٧) عالم لغوى إنجليزى .

استعمال كلمات : الحقيقة - الطبيعة - الملك - المعرفة - التكلم - النفس »[٨] .

ويلاحظ الدكتور تمام أن تعريف الكلمة لا يمكن اتحاده فى جميع اللغات ، بل لكل منها تعريف يستمد من طبيعتها ووسائلها الخاصة فى التركيب كما يقول فندريس[٩] .

ولكن يبدو لنا أن الكلمة التى هى وحدة لغوية تدل على معنى من المعانى لا تختلف بهذا التحديد من لغة إلى أخرى ، فلا مانع من وضع تعريف شامل لها ، فهذا لا صلة له بطرق البناء الصرفى أو غيره من خصائص اللغات .

وأعتقد أن تعريف الكلمة العربية واف بالغرض المقصود ، وإن كان التحديد الصوتى الحديث يتطلب صوغه فى قالب جديد كهذا القالب الذى رآه الدكتور تمام .

وبعض المشتغلين بالدراسات الصوتية من المحدثين يرون أن الكلمة المفردة لا يمكن تصورها ، لأن اللغة كلام تتداخل أصواته فى جمل وتراكيب يتعذر الفصل بين حدود أجزائها بدقة .

ولكن هذا الرأى - كما يبدو - غير دقيق ، لأن اللفظ المفرد يمكن أن يحدد له إطار صواتى واضح منفصل عن غيره ، ولا عبرة بحالة وصل الكلام بعضه ببعض ، فإن الحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن هذا الكلام المتصل مركب من وحدات صوتية تمثل كل منها مجموعة من الأصوات المتناسقة يسهل تحديد إطارها الخاص ، ولذا فإن جماعة من الباحثين - أخيرا - استطاعوا - على هذا الأساس - أن يضعوا لها تحديدا مناسبا

---

(٨) د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، وانظر فندريس : اللغة ص ١٢٤ .

(٩) د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٢٥ وانظر فندريس : اللغة ص ١٢٤ .

فقالوا : إنه « يمكن أن نتبين معالم الكلمة أو حدودها وذلك بأن يمكن إفرادها بالنطق وحذفها من الكلام أو إقحامها فيه أو الاستعاضة عنها بأخرى » (١٠) .

وهذا يتفق مع ما ذكره علماؤنا القدماء .

أما مجموعة الألفاظ ، فهى تلك الجمل التى تتألف من الوحدات الصغيرة التى هى الكلمات المفردة ، وتدل على المعانى المرادة منها حسب اصطلاح الأمة صاحبة اللغة (١١) .

(ب) **المدلول :** هو المعنى أو الفكرة التى يحملها القالب اللفظى بوضع الواضع ، أو غير ذلك من سياقات الاستعمال اللغوى ، فالألفاظ المختزنة فى أذهان الجماعة قد ارتبطت بمعان خاصة لها تعرف - غالبا - بالرجوع إلى قواميس اللغة .

وأحيانا تطرأ على المتكلم أو السامع نواح اجتماعية ، أو أحداث نفسية تجعل الألفاظ تنصرف عن معانيها القاموسية ، وتحمل على معان جديدة باصطلاح المتكلم والسامع وتأثير الملابسات التى تحيط بالموقف الكلامى .

ولذا فإن الاقتصار على معرفة المعانى من القواميس لا يجدى الجدا المعقول فى كل الأحيان بل لابد - مع ذلك - من مراعاة حال المتكلم ، والسامع والحدث موضوع الكلام .

(جـ) **النسبة :** هى العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعانى التى تدل عليها ، وتتوقف بمقدار كبير على حالات الكلام ، وأوضاعه اللغوية وعلاقة كل من المتكلم والسامع بموضوع الحديث كما ذكرنا فى بيان المدلول .

---

(١٠) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ٤٣ ، وانظر ما قاله الدكتور تمام فى تعريف الكلمة .

(١١) هى ما يسمى فى عرف النحويين بالكلام ، انظر سيبويه : الكتاب ١ / ٦٢ ، وابن جنى : الخصائص ١ / ١٧ .

وعلاقة اللفظ بالمعنى - على هذه الصورة - تتسم بالتعقيد ، فالمعاني - كما نقلت عن القدماء - لا تستقر على حال بل يمكن لها أن تختلف تبعا للمواقف اللغوية المتعددة وعلاقة المتكلم والسامع وتغير النواحي الاجتماعية من آن لآخر سواء في ذلك الأفراد والجماعات والأمم مما يقتضي التغيير ، والتبديل ، فقد يموت معنى اللفظ ، ويحل محله معنى جديد ، وقد ينحرف وقد يقتصر على جانب من جوانب المعنى القديم ، أو يتسع فيشمل القديم وزيادة تتطلبها المواقع الجديدة وقد يحدث غير ذلك من أمور لا يمكن التنبؤ بها جميعها .

وهناك جوانب أخرى تؤثر في المعنى كأصوات الكلمات واشتقاق بعضها من بعض بصور معروفة في علم البنية ، وطرائق التعبير الخاصة بنظام القواعد .

ومن أجل ذلك كله خص الباحثون المعنى باهتمام واسع في دراساتهم وأفردوه بعلم خاص سموه (علم الدلالة) Semantique .

واتضح لهم أن لهذا العلم صلة بعلوم النفس ، والاجتماع ، والتاريخ ، والجغرافية وغيرها مما يبدو أثره في التغيرات المعنوية .

وقد أشرنا في نشأة علم الدلالة إلى منشئه ومن شاركوا فيه من المتخصصين في العلوم والفنون المختلفة ، وتفصيل فروعه المتعددة (١٢) .

مكونات الدلالة الأساسية

تقوم الدلالة على اسس اهمها :

١ - اللفظ المفرد ، وأنواع أصواته ، وارتباطه بمعناه .

٢ - تولد ألفاظ جديدة من الأصل الواحد ، وارتباطها بمعانيها .

---

(١٢) انظر ص ١٠٥ وما بعدها من هذا الكتاب .

٣ - صلة الكلمة بغيرها فى العبارات ، والتراكيب ، إذ لا غنى لها عن نظائرها ، وأخواتها ، ولا يفهم معنى اللفظ بغير جملة يسلك فيها فاللغة كلام مترابط قبل أن تكون كلمات متناثرة .

ولذا قسم الباحثون الدلالة أربعة أنواع : معجمية ، وصوتية ، وصرفية ، ونحوية .

١ - الدلالة المعجمية :

هى الدلالة التى وضعها الأسلاف للألفاظ المختلفة ، وتكفلت ببيانها قواميس اللغة حسب ما ارتضته الجماعة واصطلحت عليه ، وتستعمل فى الحياة اليومية بعد تعلمها بالتلقين والسماع ، والقراءة والاطلاع على آثار السابقين الأدبية شعرا ونثرا ، ويتطلب هذا التعليم زمنا ليس بالقصير قبل أن يسيطر المرء على لغة أبويه (١٣) .

وقد جمع العرب تراثهم فيما يسمى المعاجم اللغوية ، فى إطار مرحلة لغوية معينة هى عصر قوة اللغة العربية ، وتمثل حياة العرب وعاداتهم وأخلاقهم وآثارهم ، وكل ما مر بهم من أحوال فى إبانها .

وهى تحمل الطابع الأصيل للألفاظ ودلالاتها قبل أن يختلط العرب بغيرهم ، وتمتد يد الاعوجاج إلى لسانهم (١٤) .

بيد أنها تفسر الألفاظ دون ملاحظة ما اعتورها من تغير فى الفترة التى سبقت جمعها ، فهى لا تشير إلى تطور المعانى ، والاستعمالات (١٥)

---

(١٣) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ٤٩ .

(١٤) على أنها لم تنس الإشارة إلى بعض الكلمات التى دخلت العربية من اللغات الأجنبية ، والكلمات المصنوعة ، والمولدة للاستفادة منها أو تحاشيها .

(١٥) هذا ما يعرف فى علم اللغة بالإيتمولوجيا وهو اللون الدراسى الذى يتناول (توضيح معانى الكلمة فى المراحل التاريخية المتعاقبة بأن يقول : إن هذه الكلمة كانت فى القرن الفلانى كذا وأصبحت فيما بعد كذا ثم آلت إلى كذا ... وليس فى اللغة العربية فى الوقت الحاضر أثر لمثل هذه الدراسات على نفعها وقيمتها فى دراسة المفردات وتواريخ =

كما أنها لا تنسب المعانى - فى كثير من الأحيان - إلى الناطقين بها ففات الباحث كثير من النتائج العلمية فى مجال تطور المعنى ، وانتقاله.

وهذه الدلالة عرضة للتغير ، بل إنها تغيرت حقا بعد عصر تدوين اللغة نتيجة اختلاف حياة الأجيال المتعاقبة ، وما وجد من مستحدثات وأمور تقتضى التغيير ، وقد لاحظنا حدوث ذلك فى العصرين الإسلامى والعباسى .

ومن أمثلته تغير مدلول ألفاظ الصلاة والزكاة ، والخليفة ، والسلطان ، والديوان وغيرها .

ولما زاد اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأجنبية امتد التغير امتدادا كبيرا إلى المعاني القاموسية كما فى كلمات « شنب » و « طويل اليد » و بطح »[١٦] .

ولعل ذلك ناشئ عن نسيان المعانى الأصلية لبعض الكلمات وتحريف معانى بعضها الآخر ، وتتطور الدلالة المعجمية لأسباب كثيرة نذكرها فيما بعد .

وما يصدق على العربية يصدق على غيرها من اللغات ، فالألفاظ فى اللغات المختلفة ترتبط بمعانيها حسب الواضع القديم لها ، ثم تتطور على مر العصور ، لانتقالها بين الأجيال ، واختلاف الأحوال المتعاقبة عليها .

= النصوص ولعل المستقبل كفيل بسد هذا النقص) ، د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(١٦) الشنب - فى أصل المعنى القاموسي : البياض والبريق والتحديد فى الأسنان ، « اللسان ١ / ٤٨٨ ، ٤٨٩ » وقد تطور الآن إلى ما يعرف للرجال ، وطويل اليد : فى القاموس من تمتد يده بالعطاء ، وهى صفة كريمة ، ولذا قال ﷺ لأزواجه : « أولكن لحوقا بى أطولكن يدا » أراد : أمدكن يدا بالعطاء « ابن منظور : اللسان ١٣ / ٤٤٠ » وهو الآن بمعنى اللص وطول اليد بمعنى السرقة .

ويقال : « بطحه » بسطه ممتدا على الأرض ، « ابن منظور : اللسان ٣ / ٢٣٦ » ومعناه الآن : عوره .

٢ - الدلالة الصوتية :

هي ما يكون بين أصوات بعض الكلمات ، وطرائق نطقها وبين معانيها من ارتباط .

فقد اكتشف بعض العلماء في طائفة من الألفاظ العربية صلة بين ألفاظها ومعانيها فبينوا أن العربي كان يربط بين الصوت والمعنى ، فيجعلهما متشابهين فيدل على المعنى الضعيف بأصوات ضعيفة وعلى المعنى القوى بأصوات قوية ومن ذلك كلمتا (النضح) و (النضخ) فكلاهما لسيلان الماء ونحوه إلا أن الأول سيلان ضعيف فناسبته الحاء الرقيقة والثاني سيلان قوى فناسبته الخاء الغليظة .

ومثلهما (سد) و (صد) فكلاهما لمعنى الحاجز إلا أن الأول لسد الباب ونحوه وهو ضعيف فاستخدم له السين الضعيفة والثاني لجانب الجبل وهو قوى ، فاستخدم له الصاد القوية .

وهكذا جعل العربي الصوت في مقابل المعنى المناسب له ، وتمتد المناسبة من الحرف الواحد إلى حرفين وإلى جميع حروف الكلمة .

وبدت المناسبة - كما رأى بعض الباحثين - في بعض الصيغ اللغوية كالمضعف بنوعيه الثلاثي والرباعي مما كان حكاية للأصوات مثل صر الجندب وصرصر البازى ، وكالمصادر التى تتابعت حركاتها كالفعلان مثل الغليان والدوران ونحو ذلك (١٧) .

وللنبر والتنغيم أيضا علاقة بالمعنى وذلك وإن لم يتضح في العربية الفصحى - لعدم اكتمال دراسته فيها - فإنه يظهر كثيرا في العاميات .

---

(١٧) انظر كتابنا : العربية . خصائصها وسماتها ، ص ١٠١ وما بعدها .

ومن أمثلته (محمد جه) فهذه الجملة تستعمل استفهاما أو إخبارا حسب اختلاف موقع النبر والتنغيم ، وقولك لشخص « رائع جدا » على سبيل التهكم بنغمة خاصة وعلى سبيل المدح بنغمة أخرى .

وتعتمد بعض اللغات على النبر والتنغيم في بيان المعانى كالصينية والإنجليزية فى بعض الأحيان فالكلمة الواحدة قد تكون اسما أو فعلا تبعا للمقطع المنبور[(١٨)] .

فالصوت يرتبط بالمعنى ، وطريقة الأداء لها دخل فى التعبير عنه وهذا وإن كان خاصا ببعض الألفاظ وطرق أدائها فإن له أهمية فى كشف جانب حيوى من جوانب دلالة الألفاظ .

٣ - الدلالة الصرفية :

تلعب طرائق البنية ، واشتقاق الصيغ اللغوية دورا كبيرا فى الدلالة على المعنى .

فصيغ الأفعال - بأنواعها الماضى والمضارع والأمر - تدل على الحدث وزمنه ، وما يتصل بهذه الأفعال من حروف الزيادة والتوكيد واللواحق الأخرى وما يدخلها من التضعيف وغيره كل ذلك له أثر فى توجيه المعنى .

فمثلا : تزاد الهمزة - فى أولها - للتعدية كأكرمت محمدا ، وللدلالة على حلول وقت الشئ كأحصد الزرع [(١٩)] والدخول فى زمن أو مكان كأمسى وأتهم [(٢٠)] وللإزالة كأشكيته وأعجمته [(٢١)] إلى غير ذلك .

---

(١٨) د. أنيس : الأصوات اللغوية ص ١٩٥ وانظر حديثنا عن النبر فى كتابنا « أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى » ص ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٩ وما بعدها .

(١٩) حان وقت حصاده .

(٢٠) دخل فى المساء وتهامة .

(٢١) أزلت شكواه وعجمته .

وتضعيف العين - مثلا - يفيد قوة الحدث وكثرته كقولهم : قطع وكسر - بتشديد الطاء والسين - واعشوشب المكان واخضوضر الزرع ونحوهما .

وصيغ الأسماء تحمل العديد من المعاني التي تتنوع بتنوعها كأسماء الفاعلين ، والمفعولين ، وصيغ المبالغة ، وأسماء الزمان والمكان والتصغير والنسب ، والجموع فلكل منها معنى يؤديه .

وتظهر المعاني بالرجوع إلى كتب الصرف والأبنية التي تذكر معاني الصيغ اللغوية التي بلغت حدا كبيرا نيف - في صيغ الأسماء وحدها - على الألف كما ذكر ابن القطاع في كتابه (الأبنية) .

وقد اهتم بها علماء اللغة لصلتها الوثيقة بالمعنى .

٤ - الدلالة النحوية :

تؤثر أنماط التركيب النحوي في أداء المعنى ، فترتيب الكلمات والعبارات محكوم بقواعد ، ونظم تختلف من لغة لأخرى ، ففي العربية طرائق خاصة لتركيب الجمل ، وفيها المواقع الإعرابية المتعددة للألفاظ ولاسيما الأسماء التي تقع فاعلة ، ومفعولة ومضافة ومضافا إليها وتكثر أغراض المتكلمين بها .

فإذا قلنا (دراسة ظاهرة المعنى ذات أهمية قصوى في البحث اللغوي) فهذه جملة لها معنى خاص ، فإذا تغير ترتيب الكلمات فيها فقلنا (ظاهرة دراسة أهمية في البحث قصوى اللغوي المعنى) لأدى ذلك إلى فساد المعنى [٢٢] .

---

(٢٢) وترتيب الكلمات في العامية له أيضا تأثير في إفادة المعنى فتقول - مثلا - « فين كتاب محمد » أو « كتاب محمد فين » ولا يجوز « فين محمد كتاب » ولا « كتاب فين محمد » فذلك كله يفسد المعنى .

ولذا يشترط علماء النحو أن يجرى ترتيب الكلمات حسب ما رسموه من قواعد ، فلا يخل المتكلم بشئ منها ، حتى لا يؤدى إلى غموض عباراته أو فساد تراكيبه ، وقد عولجت صلاحية التراكيب وسقمها فى (علم البلاغة) الذى وضع القوانين الضابطة لذلك ، وعلى أساسها ثبتت ركاكة العبارة وسوء التركيب فى قول الفرزدق يمدح إبراهيم بن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك .

وما مثله فى الناس إلا مملكا   أبو أمه حى أبوه يقاربه

فأدى تعقيد اللفظ بتغيير مواقع الكلمات إلى غموض المعنى وأصل التركيب : وما مثله (أى مثل الممدوح) حى يقاربه فى الناس إلا مملكا (أى ملكا) « أبو أمه أبوه » يقصد أنه لا يشبه الممدوح إلا ابن أخته الخليفة هشام بن عبد الملك .

والمواقع الإعرابية مهمة لبيان المعنى وتوضيحه : فالجملة (أكرم محمد عليا) لها معنى خاص ، فلما تغير حكمها النحوى بأن جعل الفاعل مفعولا والمفعول فاعلا فقيل : (أكرم على محمدا) كان المعنى مختلفا تماما .

وإن الإعراب هو الذى جعل المعنى يختلف اختلافا كبيرا فى هذه العبارات :

ما أحسن محمدا - بفتح نون أحسن ونصب محمدا ، على سبيل التعجب - وما أحسن محمد ؟ - بضم نون أحسن وإضافته إلى محمد - وما أحسن محمد - بفتح نون أحسن وجعل محمد فاعلا .

وكذلك : هذا طالبا أحسن منه عاملا - بضم نون أحسن ونصب «طالبا » - وهذا طالب أحسن منه عامل - بضم نون أحسن ورفع «طالب» و « عامل » .

و : كم كتابا قرأت ؟ بنصب « كتابا » - وكم كتاب قرأت - بجر « كتاب » .

وهناك القواعد العديدة التى تضمنتها كتب النحو تجب مراعاتها حتى يكون المراد دقيقا وواضحا .

فمن ذلك نرى أن القواعد صارمة فى بيان المراد تبعا لمقاييس الأساليب اللغوية العربية ، فالقاعدة النحوية تؤدى إلى توجيه المعنى فى إطارها ، ومخالفتها تؤدى إلى فساد المعنى أو غموضه .

وما ثبت للعربية يثبت لسواها من اللغات .

وهذه الدلالات - بأنواعها - كانت مألوفة لدى السابقين ، ثم تحولت - بمضى الوقت - إلى قوانين يجب تعلمها ، واكتسابها ، بالنسبة للأجيال التى تتابعت بعدهم .

ولم تثبت هذه الدلالات على حال واحدة ، وتشهد لذلك مظاهر اختلافها فى لهجاتنا الدارجة ففيها تبدلت بعض المعانى المعجمية ، أو انحرفت ، وتلاشى كثير من دلالات الأصوات ، وتغيرت صيغ صرفية متعددة ، وأهملت خصائص التركيب النحوى ، واعتمدت العاميات على مبادئ أخرى مشوهة فى التعبير عن مراد المتكلمين .

وكثير من التطورات نشأ من اختلاط العرب بغيرهم من الأمم منذ اتسعت الفتوحات الإسلامية ، وتأثرت العربية بكثير من اللغات التى اتصلت بها من جراء ذلك .

وما حدث للعربية حدث لغيرها من اللغات فلم تكد تستقر فيها مظاهر الدلالة ، بل تغيرت وتشعبت ويقال إن الإنجليزية تتغير كل قرن

تقريبا بحيث تختلف صورتها الحديثة عنها فى صورتها القديمة حتى ليعسر على المحدثين من الأجيال فهم لغة الإنجليز السابقين [٢٣] .

وقد اخترعت ألفاظ عديدة فى اللغات ، وتولدت صيغ واستعمالات لم تكن من قبل .

واقتضى ذلك من الباحثين دراسة الدلالة ومظاهر تطورها وكل ما يتعلق بها ، وكان لحديثهم ثلاثة اتجاهات :

الأول : الاتجاه التعليمى .

الثانى : الاتجاه التاريخى .

الثالث : الاتجاه المقارن .

وقد بينا ذلك فيما سبق [٢٤] .

---

(٢٣) فإذا ذهبنا فى الإنجليزية إلى عهد تشوسر وجدنا أن الإنجليزى فى العصر الحديث لا يكاد يفهم أو يعى ما يقوله هذا الشاعر الكبير .

انظر د. أنيس : طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ص ٩ - ١١ .

(٢٤) انظر ص ١٠٧ - ١٠٩ من هذا الكتاب .

التطور الدلالي

المعنى بين الثبات والتغير :

التفكير الإنساني ، والألفاظ التي تحمله ، وتعبر به عن أغراض المجتمع ظاهرة اجتماعية - كما ذكرنا مرارا - فلابد من خضوعها للتطور ، والتغير ، وهذه سنة الحياة ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وإذا كانت الألفاظ هي المعبرة عن الأفكار ، فلا شك أنها تتطور بتطورها ، وتتأثر بعوامل التغيير فيها .

ومن هنا حاول العلماء أن يدرسوا الدور الذى تلعبه اللغة ، والرموز فى الحياة الإنسانية ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالفكر (٢٥) .

ويهمنا - فى هذا المجال - أن نسير مع تطور المعنى لأهميته ، إذ يعطينا صورة من الاجتماع الإنسانى لشعب من الشعوب ، ويدلنا على تدرج أفكاره .

وبدراسة تغير المعني «يمكننا أن نتصور علما لسيكولوجية الشعوب يقوم على اعتبار التغييرات المختلفة التى تشاهد فى اللغات التى يتكلمونها خاصة بالمعنى ، وقد تكون هذه الدراسة مضنية ، ولكنها تستحق ما ينفق فيها من عناء ، ويمكن أن نصل فى النهاية إلى أن نكشف عند جميع الشعوب اتجاهات سيكولوجية واحدة على وجه التقريب هى ميول العقل الإنسانى نفسه ، وقد نصل - أيضا - إلى إقامة الحدود ، وتحديد بعض دقيق الفروق ، فأغلب الظن - مثلا - أن تكشف لنا المفردات الإنجليزية عن احترام للأشياء الدينية ، وللأشخاص الذين كرسوا للدين أنفسهم ، أكثر مما نجد منها فى مفردات الفرنسية ، وقد تطلعنا هذه الدراسة على بعض الفروق بين الألمانيين ، والفرنسيين » (٢٦) .

---

(٢٥) د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٧ .

(٢٦) فندريس : اللغة ص ٢٦٦ .

(وإذا كان في وسع التغيرات المعنوية أن تعرفنا بالسيكولوجية فإنها ليست أقل قدرة على تعريفنا بظروف الشعوب الاجتماعية)[٢٧] .

والألفاظ - في مبدأ أمرها - ليست إلا جثثا هامدة يبعث المتكلم فيها الحياة[٢٨] متأثرا بمجتمعه ، وعوامله النفسية فالكلمات لا تدل بنفسها على شئ ، ولكن المفكر يستعملها فيصبح لها معنى ، إذ يتخذها أدوات ، وبجانب الناحية الفكرية يوجد أيضا جانب عاطفي لا يمكن التقليل من شأنه[٢٩] .

وقد أجريت تجارب لإيضاح أثر الكلمات في العقل ، فأسفرت عن أنواع متعددة من الآثار اللغوية ، ودلت كذلك - على اتجاه الأشخاص في عقلياتهم .

١ - فكان منهم الحرفيون الذين تسبح اللغة ، وكلماتها في أذهانهم كما تسبح في صفحات المعاجم ، فالكلمة تخطر ببالهم ، تعريفها ، أو مرادفها أو ضدها ، أو نحو ذلك .

وهذا النوع من الأشخاص يميلون إلى التدقيق في تخير الألفاظ ، وفي استخدامها على أساس ما يعرفون من هذه المعاني الحرفية المعجمية .

٢ - ومنهم النوع الحسي في تفكيره ، وهؤلاء يعتبرون الكلمات كالسلع ، أو كالعملة النقدية تستخدم في التبادل السريع ، وتتحول إلى صورة ذهنية ، أو حسية .

٣ - ومنهم نوع تكون الكلمات عنده نبرات لها أصوات ، وأشكال وهجاء خاص يتكون من حروف .

كل هذا يدل على أن أثر اللغة في أذهان القارئين ، أو المستمعين لا

---

(٢٧) المصدر السابق ص ٢٦٨ .

(٢٨) المصدر السابق ص ١٨٥ ، د. أنيس : من أسرار اللغة ط ١٩٥١ ص ٦ .

(٢٩) د. [illegible] مناهج البحث في اللغة ص ٢٤٧ .

يسير على منهج واحد ، وقد يجئ مخالفا ، مخالفة قليلة ، أو كثيرة لما في ذهن الكاتب ، أو المتكلم [٣٠] .

وإن الواضع الأول يستعمل اللفظ في معنى خاص ، وهذا المعنى لا يثبت ، ما دام شأن الحياة التغير ، فقد يحتاج - مع مرور الأيام - إلى تطور معناه بالاتساع - بحيث يدل على ما هو أشمل - أو الضيق - بحيث ينكمش في دائرة أقل من الأولى دلالة - وقد ينتقل إلى معنى آخر ، وقد تتعدد للفظ الواحد معان كثيرة تتأرجح بين الوجود ، والعدم فيموت معنى ، ويولد معنى آخر ، وقد يحيا القديم ، ويموت الجديد ، وقد يموت اللفظ نفسه ، أو ينحرف ، وهكذا من صنوف التبدلات والتغيرات .

وقد حاول بعض العلماء أن يبين الطريق التي يسلكها المعنى في تطوره وانتقاله فيقول :

إن المعاني الجديدة لها أربع مراحل :

١ - ورود معنى جديد في موضع خاص .

٢ - مرحلة انتقالية من تكرر الورود ، والارتباط بين الصيغة والمعنى .

٣ - ظهور معنى جديد مستقل في مواضع مختلفة .

٤ - إمكان قطع الصلة بين المعنيين القديم والجديد ، وهذا لا يحدث - بالطبع - إلا بقرار من (ملايين) المتكلمين ، وبالانتفاع بعوامل مثبتة للمعنى الجديد هي القوة العاطفية [٣١] .

وقال بعض المحدثين : إن اللفظ الواحد قد تتعدد معانيه ، إلا أن

---

(٣٠) عبد الحميد حسن : الأصول الفنية للأدب ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٣١) د. تمام : مناهج البحث في اللغة ص ٢٤٢ .

أحد المعانى لابد أن يطغى - غالبا - على ما عداه ، وهو الذى يعين معنى الكلمة الأساسى على النحو الذى يسجل عليه فى القاموس [٣٢] .

فإذا اتفق أن وجد استعمالان غالبان أو أكثر ولم يكن فى الإمكان تداخلهما فمعنى ذلك أننا أمام كلمتين مختلفتين [٣٣] .

ولكن هذا المعنى الغالب لا يستطيع أن يضمن لنفسه البقاء مطلقا ، فهو محوط بمعان ثانوية تتحفز دائما للظهور عليه ، واحتلال مكانه ، والمعنى الجديد ينمو شيئا فشيئا ، ويحل نفسه محل القديم كما يمتص فرع الشجرة العصير إلى أن يذوى الجذع الأساسى ، وعندئذ تجد الكلمة نفسها وقد تغير معناها [٣٤] .

ويمكن أن نشرح ذلك بما ذكره الدكتور تمام حسان عن كلمة Board فقد كان معناها المركزى - فى الإنجليزية القديمة - لوحة خشبية ، وكان لها بعض المعانى الخاصة الأخرى ، وكان أحد المعانى الخاصة لها

---

(٣٢) فكلمة « العين » فى اللغة العربية لها عدة معان ، أولها « الباصرة » - وهو المعنى الغالب - وباقيها يرجع إليها على طريق التشبيه والمجاز ، انظر السيوطى : المزهر ط الأولى ١ / ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٣٣) مثال ذلك - فى الفرنسية - illoueunemaison (يؤجر بيتا) و illouelavertu (يمتدح الفضيلة) فالفعل المستعمل فى الجملتين فى كلا المعنيين « يؤجر ويمتدح » واحد وهو Loue ولكن العالم الاشتقاقى يرى اختلافه فى أصل الاشتقاق ، فالفعل بمعنى « يؤجر » أخذ من الكلمة اللاتينية Locare « يستأجر » أو « يؤجر » وبمعنى « يمتدح » من الكلمة اللاتينية (Laudare « يمتدح ») ثم اجتمعا - على طريق المصادفة فى مجموعة واحدة من الأصوات ، (انظر اللغة لفندريس ص ٢٢٧) .

ومثال ذلك - فى العربية - وجد « يجئ ماضيا من الوجدان بمعنى العلم بالشئ ، والعثور عليه ، فيقال : وجدت الضالة إذا عثرت عليها ، ووجدت زيدا كريما إذا علمته كذلك ، ومن الموجدة بمعنى الغضب ، فيقال : وجدت عليه : إذا غضبت ، ومن الوجد بمعنى الحب الشديد ، فيقال : وجد به وجدا إذا هويه ، وأخلص فى حبه » (انظر السيوطى : المزهر ط الأولى ١ / ١٨٧ ، و د. وافى : فقه اللغة ص ١٨٥) .

(٣٤) فندريس : اللغة ص ٢٥٤ .

«درع» وقد بطل هذا بطلانا تاما ، وكان من هذه المعانى - أيضا - جانب السفينة ، وقد أدى هذا المعنى الأخير إلى بعض الصيغ المنعزلة .

ou board a ship
a board a ship
to board a ship

وقد توسع فى هذه الصيغ ، حتى استعملت مع المركبات الأخرى كعربات السكة الحديد ، والسيارات [٣٥] .

ويلاحظ فى انتقال المعنى وجود علاقة - غالبا - بين المعنى الأصلى ، والمعنى المنتقل إليه ، وقد توضع الكلمة لمصطلح علمى يعتمد على علاقة ما .

(ويمكننا أن نتنبأ بنشوء علم دلالة عام وذلك بجمع المعلومات المنتقاة من كل لغة عن تغيرات المعنى فيسمح لنا هذا العلم بإرجاع تلك التغيرات إلى بضع قواعد لا من وجهة نظر منطقية كما فعل العلماء حتى الآن بل من وجهة نظر سيكولوجية وذلك يتطلب الابتداء من الأفكار التى تعبر عنها الكلمات لا من الكلمات نفسها) [٣٦] .

أنواع التطور الدلالى

يعترى اللغات نوعان من التطور .

الأول :

التطور العام أو التلقائى : وهو التطور الذى يلحق اللغة دون إرادة أفراد الجماعة التى تتحدث بها فلا تقصده ، ولا تتعمده ، ولا تستطيع مقاومته ، ويلحقها لأمور تمر بها الجماعة ارتقاء أو انحطاطا (فاللغة ظاهرة اجتماعية وتطورها لا يجرى تبعا للأهواء والمصادفات ، أو وفقا لإرادة الأفراد وإنما يخضع فى سيره لقوانين جبرية ثابتة مطردة النتائج

---

(٣٥) د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٥٠ .

(٣٦) فندريس : اللغة ص ٢٦٢ .

واضحة المعالم محققة الآثار لا يد لأحد على وقف عملها ، أو تغيير ما تؤدى إليه ، فليس فى قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة ما أو يجعلوها تجمد على وضع خاص ، أو يسيروا بها فى غير السبيل التى رسمتها لها سنن التطور الطبيعى) [٣٧] .

فلفظ (جيب) فى العامية تطور معناه الأصلي وهو الدلالة على الفتحة التي يلبس منها القميص [٣٨] إلى المعنى المعروف الآن .

وكلمة (بطح) انتقلت من الدلالة على (البسط على الأرض) إلى معنى (عوره) دون قصد .

وعلى هذا المنوال انتقلت كثير من الألفاظ - فى العربية الفصحى - من معانيها القديمة إلى معان أخرى اقتضتها الحضارة العربية دون أن يعرف تدخل أحد من الأدباء أو العلماء فى ذلك ككلمة (المجد) فى تطورها من دلالتها على (امتلاء بطن الدابة بالعلف) إلى دلالة مجردة هى (امتلاء الإنسان بالصفات الحميدة) [٣٩] وكذلك اتساع دلالة كلمة (الورد) بتحولها من (إتيان الماء) إلى (إتيان كل شئ) [٤٠] .

الثاني :

التطور الخاص (أو المقصود) : وهو الذى تلجأ إليه الجماعة للحاجة ، فقد تحتاج إلى وضع مصطلحات لغوية لمخترعات حديثة فى مجالات العلوم والفنون فيلجأ فى ذلك أحيانا إلى تغيير دلالات بعض الكلمات ، ونقلها ، وهذا يتم طفرة دون سابق تدرج ، ويكون - عادة على يد المتخصصين - كعلماء المجامع اللغوية الآن .

وهذا النوع يتوقف انتشاره على مدى استجابة الجمهور لما وضع

---

(٣٧) د . وافى : اللغة والمجتمع ص ٧٨ .

(٣٨) ابن منظور : اللسان ١ / ٢٨٠ .

(٣٩) المصدر السابق ٤ / ٤٠٢ .

(٤٠) المصدر السابق ٤ / ٤٧١ ، ٤٧٢ .

من مصطلحات وتسميات ، وعلى العوامل المؤثرة فى ذيوعه كوسائل الإعلام وغيرها .

ولذا فإن الألفاظ التى تخضع للتطور الخاص لها حالات ثلاث :

١ - شيوع استعمالها في المعنى الجديد ، فكلمتا (السيارة) و (القطار قد نقلتا من القافلة (التى كانت تسير في الصحراء) إلى المركبين المعروفين ، وشاعتا في المعنى الجديد حتى كاد المعنى القديم ينسى نسيانا تاما فلا يكاد يذكره غير اللغوى المتخصص .

وكذلك كلمات (المدفع والدبابة والطائرة والمدمرة والإذاعة) قد اشتقت من مواد لغوية لها دلالة عامة لتفيد معانى خاصة بهذه الآلات المستخدمة ، وقد انتشر المعنى الجديد فلم تعد ترد على الأذهان المعانى العامة لها [٤١] .

٢ - قلة استعمالها فى المعنى الجديد ، ومن ذلك كلمة (المذياع) التى وضعت للجهاز المعروف (الراديو) ولكن لم يكتب للكلمة العربية الشيوع في الاستعمال فهى لا تكاد تذكر إلا قليلا بجوار كلمة (الراديو) الأجنبية التى تقرع آذاننا كل حين من وسائل الإعلام ، وعلى ألسنة الناس .

٣ - اختفاء الاستعمال الجديد وتلاشيه ، مثل كلمة (جماز) التى وضعها المجمع اللغوى (للترام) وهى - أصلا - مشتقة من (جمزى) اسم حمار الوحش أو لمشية سريعة [٤٢] فقد اختفت الكلمات العربية لأنها لم تجد مجالا لاستعمالها مطلقا .

---

(٤١) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٤٢) ابن منظور : اللسان ٧ / ١٨٨ .

على أن من الخطورة بمكان وضع كلمات فى بعض الأقطار العربية دون بعض ، وعدم تعميم انتشارها ، لأن ذلك يؤدى إلى الإكثار من المصطلحات والأسماء وإلى التباعد بين أبناء الأمة الواحدة ، فالواجب أن تنتشر الألفاظ التى تضعها المجامع اللغوية فى جميع أقطار الأمة ليكون التطور الدلالى مواكبا لحركة الحياة والتقدم فيها ، وحفاظا على لغتها (٤٣) .

وكلا التطورين المذكورين ذو أثر بالغ فى الدلالة وتنوعها .

والتطور - بعامة - لا يسير باللغة دائما نحو الكمال ، فقد يكون انحطاطا بها وتشويها لمعالمها ، فالعاميات تتجه نحو الانحلال بالمعانى والقواعد والتراكيب ، وبعض الأدباء والعلماء قد يدخل فى اللغة تراكيب مما يقرؤه ويترجمه من اللغات الأجنبية فى عبارات ليس لها من عروبتها إلا الألفاظ .

ولعل كثرة تقديم الفاعل وغيره من الأسماء على الفعل فى العربية الفصحى المعاصرة ، والعاميات ، نشأ - أساسا - من التأثر باللغات الأجنبية فللعربية فى هذا التقديم والتأخير منهج خاص ضاعت معالمه الآن (٤٤) .

ولهذا التطور والتبدل عوامل كثيرة نجملها فيما يلى :

---

(٤٣) انظر - مثلا - إلى كلمتى « هاتف » - للتليفون - و « حافلة » - للأتوبيس - فإنهما تستعملان فى بعض البلاد العربية ولا يتيسر انتشارهما فى باقيها مع أنهما لفظان جيدان حقا وأفضل من الكلمات الأجنبية المستعملة لهما .

(٤٤) تقول مثلا « أكرم محمد عليا » لمعنى خاص يفيد اهتمامك بالفعل ، وتلقيه لخالى الذهن ولو قدمت الفاعل على الفعل فقلت « محمد أكرم عليا » لكان معنى الجملة موحيا بالاهتمام بـ « محمد » وأن إكرامه لـ « على » كان مثار شك فتأتى العبارة بتقديم « محمد » نفيا لهذا الشك وقضاء عليه .

أسباب تطور الدلالة

الأسباب التى تؤدى إلى تغير الدلالة كثيرة ، بعضها لغوى ، وبعضها اجتماعى ، ولكل منهما علاقة بالآخر ، فاللغة ظاهرة اجتماعية ونحن نؤثر الفصل بينهما لتتضح جوانب التأثير .

الأسباب اللغوية

هذه الأسباب متعددة وأهمها :

١ - كثرة استعمال اللفظ :

فاللفظ إذا كثر استعماله تعرض معناه للتغير ، ونحن نلاحظ أن معنى الكلمة يزيد تعرضا للتغير كلما زاد استعمالها ، وكثر ورودها فى نصوص مختلفة (٤٥) .

وهذا التغير قد يتم دون شعور الناطقين ، وقد يكون مقصودا تدعو إليه أمور اجتماعية ، أو أحداث جديدة ، ويقوم به المتخصصون من اللغويين للحاجة إلى هذا الاستعمال الجديد .

ويأخذ هذا التغير - فى معظم الأحيان - إحدى صور ثلاث :

---

(٤٥) ما ذكره اللغويون منها يعد بعض الأسباب ، فالدوافع كثيرة ولا يمكن حصرها ، بل لا يمكن معرفتها أحيانا ، لأن « أسباب هذا التحديد معقدة وأحيانا تند عن كل بحث ، ذلك لأن حالات الكلمات جد غريبة تتوقف على عوارض يستحيل أن نتنبأ بها قبل وقوعها ، كما يستحيل أن نتخيلها بعد وقوعها إذا لم يمدنا التاريخ بما يدل عليها ، ومع ذلك فهناك أسباب عامة لتجديد المفردات تستطيع أن تفسر الجزء الأعظم من حالاتها » « فندريس اللغة ص ٢٧١ » .

وتتبع اللغات قاموسا خاصا فى تدرجها ، ومراحل نموها ، وهى فى قطع هذه المراحل لا تثبت على حال واحدة ، بل يعتريها بعض التغيير فى معانى طائفة من كلماتها ، وفيما ترمى إليه بعض عباراتها ولاسيما إذا كان المتكلمون بها قد بعدت بينهم الشقة ، وترامت أطراف بلادهم ، واختلفت أمزجتهم ونظم حياتهم ، ومظاهر بيئتهم ، وما يمر بهم من أحداث ، واختلفوا فى مدى ما يتمتعون به من حرية سياسية واجتماعية « عبد الحميد حسن : الأصول الفنية للأدب ص ٥٧ » .

(أ) تخصيص العام أو تعميم الخاص :

ومن أمثلة ذلك ما حدث من تخصيص ألفاظ (المؤمن والمسلم والصلاة والحج) - بعد الإسلام - فقد كانت - من قبل - تستخدم فى معان عامة ثم خصصت تبعا لما جاء به الإسلام من مبادئ وعبادات .

فالمؤمن - أصلا - مأخوذ من الأمان على النفس أو المال أو العرض أو نحو ذلك ، والتصديق بكل شئ فخصصه بالمصدق بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر .

والمسلم - فى أصل اللغة - من الإذعان والتسليم مطلقا ثم خصه الإسلام بالمذعن لأوامر الله المنقاد له وحده .

والصلاة كانت بمعنى الدعاء ثم أصبح معناها - فى الإسلام - الأقوال والأفعال المخصوصة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم بشرائط خاصة .

والحج : القصد مطلقا ثم خص فى الإسلام بقصد بيت الله الحرام على هيئة خاصة وبشرائط خاصة .

وهكذا فإن ألفاظا كثيرة خصص معناها فى الشريعة الإسلامية ويمكن الرجوع إليها فى كتب الفقه الإسلامى .

ومن أمثلة تعميم الخاص ما حدث لألفاظ (الورد - الرائد - النجعة - المنيحة) فهذه الألفاظ كانت تستعمل فى معان خاصة ثم تطورت إلى الشمول لها ولغيرها ، فالورد كان يستعمل - فى فترة قديمة - لإتيان الماء ثم أصبح إتيان كل شئ وردا [٤٦] والرائد كان خاصا بطالب الكلأ ثم عمم ليدل على طالب أى شئ مطلقا [٤٧] والنجعة كان خاصا

---

(٤٦) ابن منظور اللسان ٤ / ٤٧١ ، ٤٧٢ ، وانظر ص ٢٠٩ من هذا الكتاب .

(٤٧) المصدر السابق ٤ / ١٦٩ - ١٧٤ .

بطلب الكلأ ، ومساقط الغيث ثم عمم - بعد ذلك - ليصبح معناه : طلب أى شئ كلأ أو غيره [٤٨] . والمنيحة كانت خاصة بإعارة الناقة أو الشاة إلى شخص ليحصل على لبنها خاصة ، ثم اتسع المعنى ليشمل كل عطاء [٤٩] .

وكانت كلمة saiaire في الفرنسية بمعنى : ما يصرف للجندى من نقود نظير ما يحتاج إليه من ملح الطعام ، ثم شاع استعمالها فى كل أجرة حتى نسي معناها الأصلى [٥٠] .

وهذه الألفاظ - وأمثالها كثير - قد استعملت فى معانيها الجديدة الخاصة أو العامة ، وكثر استعمالها ، حتى نسى المعنى القديم ، فلم يعد يمر بالأذهان عند ذكرها واستعمالها .

(ب) استعمال اللفظ فى معنى مجازى يصبح لطول العهد به حقيقيا :

فلا يذكر معه المعنى الأصلى إلا بالرجوع إلى قواميس اللغة ، أو المتخصصين من علمائها .

ومن أمثلة ذلك كلمات : المجد - الوغى - الظعينة - العقيقة ، فالمعنى الأصلى - الحقيقى - الذى كانت تستعمل فيه كلمة (المجد) هو : (امتلاء بطن الدابة بالعلف) وبعد تقدم العرب استعمل فى معنى مجازى هو السمو والرفعة [٥١] ، وقد كثر استعمال لفظ (المجد) فى هذا المعنى الجديد حتى نسى معناه القديم .

و (الوغى) معناه الحقيقى : (اختلاط الأصوات فى الحرب) ثم أطلق على (الحرب) نفسها على سبيل المجاز [٥٢] وشاع استعماله فيها

---

(٤٨) المصدر السابق ١ / ٢٢٤ - ٢٢٦ .

(٤٩) المصدر السابق ٣ / ٢٢٤ / ٢٢٦ .

(٥٠) د. وافى : علم اللغة ط ٤ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٥١) بعلاقة المشابهة فى الامتلاء .

(٥٢) من إطلاق الجزء على الكل .

و (الظعينة) أطلق - قديما - على المرأة فى الهودج ، ثم نقل إلى الهودج تارة وإلى البعير الذى يحمله تارة أخرى ، وقد غلب الاستعمال المجازى [٥٣] .

و (العقيقة) هى - فى الأصل - الشعر الذى يخرج على الولد من بطن أمه ثم نقل إلى الذبيحة التى تنحر عند حلق ذلك الشعر على سبيل المجاز [٥٤] .

(جـ) استعمال اللفظ اسما أو مصطلحا علميا :

فنشأة العلوم وتقدمها يقتضيان نقل الألفاظ ، واستعمالها أسماء ومصطلحات ، ومن أمثلة ذلك مصطلحات (علم النحو) كالمبتدأ والخبر والفاعل والمفعول ، وغيرها .

فالمبتدأ - فى اللغة : اسم لكل ما يبتدأ به ثم خصص باستعماله مصطلحا علميا نحويا هو (الاسم المرفوع العارى عن العوامل اللفظية غير الزائدة للإسناد) والخبر : كل ما يلقى مما كان مجهولا أو غيره ، لكنه أطلق اصطلاحا نحويا على معنى (الجزء الذى يتمم الفائدة مع المبتدأ) بمعناه النحوى المذكور .

و (الفاعل) : من أوجد الفعل مطلقا ، وقد اصطلح نحويا على أنه (الاسم المرفوع الذى تقدم عليه فعل أو شبهه) .

و (المفعول) هو الشئ الذى وقع عليه فعل فاعل ، ثم خصص اصطلاحا بالاسم المنصوب الذى له موقع خاص فى الجملة النحوية .

وفى علم النفس -مثلا - نجد مصطلحات ثلاثة هى (الإدراك والوجدان - والنزوع) ولكل منها معنى لغوى عام خصص فى علم

---

(٥٣) بعلاقة المجاورة المكانية .

(٥٤) بعلاقة المجاورة الزمانية ، انظر د. وافى : علم اللغة ط ٤ ص ٢٨٩ .

النفس بما اصطلح عليه من العمليات النفسية الثلاث التى تترتب إحداها على الأخرى للحصول على شئ ما .

فالأول يعنى : الإحساس بالشئ أو رؤيته .

والثانى يعنى : حب الشئ .

والثالث يعنى : الحصول عليه أو محاولته .

وهكذا فإن المتخصصين فى العلوم والفنون ينقلون بعض الألفاظ من معانيها الأصلية إلى معانٍ اصطلاحية ، ويكثر استعمالها فيما نقلت إليه من دلالة جديدة فتشتهر فيها وتنسى دلالاتها القديمة عند أرباب هذه العلوم والفنون .

٢ - تطور أصوات اللفظ :

إذا تعرضت أصوات االلفظ للتغير فإن ذلك أدعى لحدوث مثله فى دلالتها لبعده عن الأسرة اللغوية التى ينتمى إليها ، وكذلك إذا تغيرت أصوات ألفاظ أخرى ليست لها علاقة بهذا اللفظ فإن ذلك يؤدى إلى اتفاق بينها وبينه من حيث الصورة الصوتية ، ويتسبب ذلك فى تغير معناه لاشتباه النطق ، واختلاط المعنى على المتكلم .

فمن الأول ما حدث من تطور لكلمة vivus اللاتينية ، فقد كانت فيها - بهذه الصورة الصوتية - بمعنى (الحى) - ضد الميت - تبعا لأسرتها اللغوية التى تنتمى إليها فى اللاتينية مثل : vivere (عاش) و vita (حياة) إلخ ولكن بعد أن انتقلت إلى الفرنسية تغيرت صورتها الصوتية فيها إلى Vif بأن آل (v)َإلى (f) وانحرف معناها شيئا فشيئا حتى أصبحت الآن تفيد معنى (القوة والحدة والنشاط) لبعدها عن أسرتها اللغوية فى الفرنسية مثل : vivre (عاش) و vivant (حياة) إلخ [٥٥] .

---

(٥٥) د. وافى : علم اللغة : ط ٤ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ بتصرف .

ومن الثاني كلمة (الكماش) بمعنى النسيج فقد تحول صوت الكاف فيها إلى (قاف) فاتفقت في النطق مع كلمة (القماش) العربية التي معناها ما على الأرض من فتات الأشياء وتقال لرذالة الناس فاستعملت هذه الكلمة في دلالة جديدة هي ما ينسج من الحرير والقطن ونحوهما [٥٦] .

وفي لهجاتنا العامية كثير من هذه الكلمات التي تطورت الأصوات في بعضها ، فاشتركت مع كلمات أخرى ليست من فصيلتها ، ويمكن أن يؤدي ذلك مع مرور الزمن إلى تغير معناها أو انتقاله من مجال استعمالها إلى مجال استعمال شريكاتها .

ومن ذلك نطق الفعل (حضر) - من الحضور بمعنى المجئ - بالظاء مكان الضاد في بعض مناطق الجزيرة العربية - كنجد واليمن - ويمكن أن يؤدي مثل هذا الاختلاط إلى تطور المعنى .

وقد جعل الدكتور أنيس ذلك من أسباب نشأة المشترك اللفظي في اللغة العربية [٥٧] .

٣ - خفاء معنى اللفظ أو نسيان مجال استعماله :

إذا خفي معنى اللفظ على الناطقين باللغة في جيل معين ، أو في انتقالها من جيل إلى آخر فلم يفهم معناه ، أو لم يتضح لديهم تعرض للتغير ، فكلمة (منيحة) كان معناها - كما عرفنا - إعارة إنسان ناقة أو شاة ليشرب لبنها ، فتطور - مع مرور الأجيال - في بعض عاميات (نجد) إلى معنى شراء ناقة لهذا الغرض [٥٨] ، فلعل المعنى - مع طول الزمن - لم يتضح لدى الأجيال أنه خاص بمعنى الإعارة فانتقل إلى معنى الشراء .

---

(٥٦) الفيروزابادي : القاموس المحيط ٢ / ٢٩٦ والمعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية ص ٥١٥ ، ٥٤١ ، و د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٥٧) د. أنيس : في اللهجات العربية ط ٣ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٥٨) سمعت ذلك بالمشافهة في الرياض .

ومن ذلك لفظ (التبرير) فقد نسى معناه الأصلى [٥٩] لدى معظم المتحدثين بالعربية الآن فاستعمل للتعليل أو بيان الأسباب بمعنى التسويغ .

وهكذا درج المتكلمون والسامعون على تفسير بعض الألفاظ والعبارات دون اعتماد على ما نقلته المعجمات العربية من استعمالات العرب الفضحاء لها فتنحرف معانيها وقد تتحول دلالتها .

ويفسر الدكتور أنيس - بناء على ذلك - دلالة بعض الألفاظ المشتركة بين عدة معان متباينة لا ارتباط بينها ولا وجه شبه ، فحين تؤكد لنا المعاجم العربية أن كلمة (الأرض) تعني الكوكب المعروف ، وتعنى أيضا الزكام ، وحين يقال لنا : إن كلمة (الليث) هى الأسد ، وهى أيضا العنكبوت لا نكاد نجد تفسيرا معقولا إلا بالالتجاء إلى تلك الطفرة الدلالية [٦٠] .

فخفاء اللفظ أو نسيان طرائق استعماله له أثر فى تطور المعنى .

٤ - أثر بعض القواعد اللغوية :

تؤدى بعض نظم اللغة وقواعدها - أحيانا - إلى تغير المعنى فكلمة (سراويل) - المعربة من الفارسية - تدل على المفرد لكنها على وزن (فعاليل) - إحدى صيغ الجموع فى اللغة العربية - ولذلك توهمها بعض العرب جمعا مفرده (سروال) .

يقول الأزهرى : (جاء السراويلُ على لفظ الجماعة وهى واحدة ، وقد سمعت غير واحد من الأعراب يقول : سروال) [٦١] .

---

(٥٩) الفيروزابادى : القاموس المحيط ١ / ٣٨٤ والمعجم الوجيز ص ٤٤ .

(٦٠) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٢٦ .

(٦١) الأزهرى : تهذيب اللغة ١٢ / ٣٩٠ .

وكلمة (paradeisos) كانت تستعمل للدلالة على المفرد في الإغريقية وقد استعملها العرب جمعا لموافقتها لوزن (فعاليل) واستعملوا لها مفردا هو فردوس [٦٢] .

وكلمة « ولد » وردت في العربية الفصحى مذكرة اللفظ فأوحى ذلك إلى الذهن بأنها مذكرة - مع أنها في الفصحى تطلق على الذكر والأنثى - فكان ذلك من عوامل اختصاصها - في كثير من اللهجات العامية الحديثة بالمذكر دون المؤنث .

ومثلها كلمة Homo اللاتينية ، فمعناها - في الأصل - (الإنسان) رجلا كان أو امرأة ولكن عنصر التذكير فيها ربطها بنوع الذكور حتى أصبحت في كثير من اللغات المتشعبة عن اللاتينية لا تطلق إلا على الرجال [٦٣] .

٥ - انتقال اللفظ من لغة لأخرى :

تنتقل بعض الألفاظ من إحدى اللغات إلى غيرها بسبب انتقال ما تدل عليه ، أو للحاجة إليها في العلوم والفنون أو لغير ذلك [٦٤] .

وربما تستعمل بمعنى يختلف عن مدلولها في اللغة الأصلية ، فيتعرض للتغير والتبدل ، وقد يؤثر ذلك على استعمالها في بيئتها ، أو في البيئة الجديدة التي دخلت إليها بأسرتها اللغوية التي تنتمي إليها على وجه التحديد [٦٥] .

---

(٦٢) الفردوس : البستان الجامع ، قيل إنها عربية أو يونانية نقلت أو سريانية والقول بتوافق اللغات هنا أولى . القاموس المحيط ٢ / ٢٤٤ والمعجم الوجيز ص ٤٦٦ .

(٦٣) د. وافي : علم اللغة ط ٤ ص ٢٩٥ ، وفقه اللغة ص ١٣٩ .

(٦٤) انظر كتابنا « العربية » ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٦٥) لكي ندرك أثر الاستعارة في تطور الدلالة علينا أن نتذكر أن نحو نصف ألفاظ اللغة الفارسية مستعار من اللغة العربية ، وأن نصف ألفاظ اللغة التركية مأخوذ إما من الفارسية أو العربية ، وأن ثلث ألفاظ اللغة الإنجليزية فقط هي التي تعد بحق ألفاظا أصيلة سكسونية (د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٥١) .

ومن ذلك كلمة : « زركون » الفارسية فهى - فى بيئتها الأصلية - بمعنى : « ذهبي اللون » فلما دخلت العربية حولت الكاف إلى جيم - بالتعريب - فنطقت (زرجون) واتسع معناها ، فأطلقت على (الخمر - الكرم [٦٦] ، وأشجاره وأغصانه - صبغ أحمر) ومع ذلك فبين المعانى الجديدة والمعنى الأصلى وشائج قربى .

وإذا استأثر اللفظ الأجنبى بالاحترام والتقدير ترك أثرا ظاهرا فى تطور المعنى [٦٧] .

= وقد استعار العرب من الفرس واليونان ألفاظا للتعبير عن أشياء ليست فى بلاد العرب . (المصدر السابق ص ١٤٩) .

(٦٦) العنب .

(٦٧) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

الأسباب الاجتماعية

١ - اختلاف طبقات المجتمع وأجياله :

يضم كل مجتمع طبقات مختلفة فى البيئة التى يعيشون فيها من مدن وقرى ، وجبال وسهول ، ووسائل حياة متنوعة ، وهذه الطبقات ذوات حرف ومهن كثيرة وبينها تباين فى نظم الحياة والتفكير ودرجات التعليم والثقافة وغير ذلك ، وينعكس أثر الاختلاف على اللغة كما ينعكس على غيرها من مظاهر حياتهم .

فلا ريب أن كل فريق منهم يفهم بعض ألفاظ اللغة على نحو خاص ، أو يدخل عليها بعض التغيير الذى يناسبه ، وذلك قد يؤدى إلى اختلاف دلالتها فكلمات (حقل - معمل - عملية) لها مفاهيم خاصة لدى الطبقات الاجتماعية التى تستعملها .

فالحقل - لدى طبقة الفلاحين - خاص بالأراضى الزراعية مكان عملهم اليومى على حين أنها تطلق لدى العلماء والباحثين على ميادين إجراء بحوثهم فيقولون : أثبتت التجارب فى هذا الحقل [٦٨] صحة ما نذهب إليه من النتائج العلمية التى تشمل كذا وكذا ، ويقال : حقل القوى البشرية إلخ .

والمعمل - لدى طائفة منتجى (الفراريج) يطلق على بناء خاص يوضع فيه البيض للتفريخ .

وهذا اللفظ عينه يطلق - فى مجال الأبحاث العلمية - على مكان الأجهزة الدقيقة التى يجرى بها العلماء والباحثون تجاربهم .

ولا تطلقه إحدى الطائفتين على غير ما تعرف فى مجالها .

---

(٦٨) يقصدون مجالا معينا من مجالات بحولهم فى مختلف نواحى الحياة زراعية وصناعية وفلسفية وغيرها .

والعملية يختلف معناها حسب نوع الطائفة التى تستخدمها ، فهى - عند الأطباء - بمفهوم خاص وعند التجاريين بمفهوم آخر ، وعند العسكريين بمفهوم ثالث ، وهكذا .

وانتقال اللغة من جيل إلى آخر يؤثر فى المعنى ، فالأبناء لا يستعملون اللغة كما يستعملها آباؤهم ، فيعتريها التغيير على ألسنتهم، وربما نقلوا اللفظ من معنى قديم إلى آخر جديد ، فتختلف مدلولات بعض الألفاظ .

فالكلمة الفرنسية Soaul كان معناها فى الأصل (الشبعان من الطعام) ثم شاع استعمالها - فى أحد العصور - بمعنى (النشوان من الخمر) على المجاز والتهكم ، والتحرج من استعمال الكلمة الصريحة فى هذا المعنى وهى ivre فعلق هذا المعنى الجديد وحده بأذهان الصغار فى هذا الجيل ، ثم استمر إطلاقها بهذا المعنى بعد ذلك ومات المعنى القديم [٦٩] .

وعن هذا الطريق تطورت معانى كثير من ألفاظ العربية الفصحى ، فانتقلت على لسان الأبناء مما كانت تدل عليه لدى الأجداد إلى معان أخرى .

وفى العاميات كثير من مظاهر هذا الانتقال ، فكلمة (الجعالة) فى الفصحى لها عدة معان من بينها الرشوة ، وقد نقلها اليمنيون المعاصرون - من هذا المعنى - إلى ما يقدم للطفل من حلوى لإسكاته عند البكاء وذلك كالرشوة له ليسكت .

وكلمة (سنب) يستعملها اليمنيون بعدة معان منها : (قف)

---

(٦٩) د. وافى : علم اللغة ط ٤ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، وفقه اللغة ص ١٢٩ بتصرف .

- (انتظر قليلا) [٧٠] وكأنهم اشتقوها على سبيل المجاز من الكلمة العربية (السنبة) التى هى الحقبة من الزمن أو البرهة منه [٧١] .

وقد لاحظنا فيما سبق تطور معانى بعض الألفاظ فى العامية المصرية مثل (جيب) و (بطح) وغيرهما .

وهكذا فإن تتبع التطور اللغوى للألفاظ يكشف عن اختلاف الأجيال فى نقل المعانى عن أسلافهم .

٢ - التغير الاجتماعى :

إذا شق المجتمع طريق التقدم فى الصناعة أو العمران أو الثقافة أو غيرها من مظاهر حياته ، تغيرت مدلولات بعض الألفاظ تبعا لذلك .

فالريشة التى يكتب بها كانت تطلق - قديما - على ريشة الطيور التى تصنع منها آلة الكتابة - آنذاك - ثم لما تطورت صناعتها ، فأصبحت قطعة من المعدن فى صورة خاصة انتقلت إلى هذا المعنى الجديد .

والقطار انتقل معناه من الإبل المقطورة إلى المخترع الحديث المعروف ومثله البريد وغير ذلك .

وعبارة (بنى الرجل بأهله) كان لها مفهوم عربى قديم هو أن المعرس إذا أراد أن يتزوج بنى لأهله خباء جديدا ليعيشا فيه مستقلين عن أبويه وإخوته ، ثم لما تغيرت التقاليد ، وتقدم العمران أطلقت هذه العبارة على (الزفاف) أو الدخول بالمرأة دون نظر إلى بناء المسكن ، ونلاحظ أن إعداد المسكن المستقل أصبح لازما لمن يريد الزواج فى مجتمعنا الحديث بطريقة تشبه ما كان يحدث قديما .

---

(٧٠) سمعت ذلك بالمشافهة فى صنعاء .

(٧١) ابن منظور : اللسان ١ / ٤٥٧ .

وتغير النظام الاجتماعي الذى تعيش فيه الأمة يعرض بعض الألفاظ ومفاهيمها للتحول المعنوى .

فحين جاء الإسلام بنظامه الاجتماعى السليم غير بعض جوانب الحياة العربية بل قلبها رأسا على عقب ، وكان لذلك أثره فى انتقال دلالة بعض الألفاظ كالمؤمن والمنافق والصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها .

كما تغيرت فى ظلال الدولة الإسلامية ونظم حياتها السياسية والاقتصادية ألفاظ أخرى كالخليفة والديوان والخراج والحسبة وغيرها .

كما غيزت النظم الاجتماعية المعاصرة مفاهيم بعض الألفاظ لتتناسب معها فألفاظ (الأمير - صاحب السمو - جلالة الملك - صاحب الفخامة - صاحب السعادة - صاحب المعالى) ارتبطت بمعان معينة تبعا للنظام السائد سياسيا واجتماعيا .

وكلمات (مجلس الأمة - منجلس الشورى - مجلس الشعب - الاتحاد القومي - الاتحاد الاشتراكى) اكتسبت معانى جديدة لم تكن لها من قبل .

وفى ظلال النظم الاجتماعية المختلفة نظر المجتمع إلى دلالة بعض الألفاظ نظرة اشمئزاز ومقت كإقطاعى ، ورجعى ، ومتخلف ، وانطوائى، وانعزالى ... إلخ .

وقد ابتذلت بعض الألفاظ فى مُجتمعنا الحديث لسقوط النظام الذى كانت ترتكز عليه فى اكتسابها شهرة ورواجا مثل كلمات (باشا - بك - أفندى) وغيرها من ألقاب تركية « فقد مرت بها تطورات فى دلالتها وانحط قدرها على توالى الأيام » (٧٢) .

---

(٧٢) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٤٠ .

٣ - الحالة النفسية :

للحالة النفسية أثر فى استعمال بعض الألفاظ ، فقد يلجأ المتكلم نتيجة لتفاؤله أو لتشاؤمه إلى استخدام اللفظ فى ضد معناه ، كما سميت (الصحراء) « مفازة » تفاؤلا بالنجاة من المخاطر التى تعترض سالكها ، وكما سمى (الأعمى) « بصيرا » عزاء لحالته التى تؤلم النفس ، وأملا فى أن يعوضه الله نورا فى بصيرته .

ومن ذلك ترك الألفاظ التى تدل على شئ يقلق النفس ، ويخلق فيها نزعة التشاؤم كمرض السرطان فبدلا من التصريح باسمه يقال عنه (المرض الخبيث) ، ويكنى عن (الموت) بالذهاب والوفاة وفيضان الروح ، كما يكنى عن (الحمى) فى الأرياف بـ (المبروكة) (٧٣) .

وقد يخاف على شئ حسن من الحسد ، فيوصف بوصف قبيح خشية أن تصيبه العين ، كما يقال للفرس الحسنة (شوهاء) والبعير الصحيح (قرحان) كأنما أصاب الفرس تشوه ، والبعير جرب مع أن شيئا من ذلك لم يحدث ، فالقصد صرف عيون الحاسدين عنهما .

وربما تدعو الحالة النفسية إلى ترك لفظ واستعمال آخر فى موضعه احترازا من اللفظ الأول ، ودلالته التى تؤثر فى النفس تأثيرا سيئا ، ويؤدى ذلك إلى تطور اللفظ الثانى .

ومن أمثلته ترك الألفاظ التى كانت تستعمل للتبول والتبرز إلى استعمال كلمات كنائية كـ (قضاء الحاجة) و (بيت الأدب) و (دورة المياه) ونحو ذلك وقد تستعمل فى هذا الصدد كلمات أجنبية مثل - كبانيه ... إلخ .

---

(٧٣) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٤٣ .

وهكذا الكلمات التي تعبر عن أفعال يستهجنها الذوق الاجتماعى ، وأسماء الأشياء التى ينفر من ذكرها الطبع السليم - كأسماء أعضاء التناسل ، أو يرى عدم التصريح بها مراعاة للياقة والأدب ، فيستعاض عنها بألفاظ كنائية - كالتعبير عن ثديى المرأة بالصدر ، وقد كنى القرآن الكريم عن العلاقة بين الرجل وزوجته بألفاظ مهذبة كالرفث فى قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ والمباشرة فى قوله سبحانه : ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ - وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ والحرث فى قوله عز وجل : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ والإفضاء فى قوله عز حكمه : ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ، والملامسة فى قوله عز من قائل : ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [٧٤] .

ومن هنا فإننا نرى أن بعض الألفاظ تكتسب معانى جديدة تنجم عن آثار نفسية تسيطر على المتكلمين .

---

(٧٤) الآيات ١٨٧ ، ٢٢٣ من سورة البقرة ، ٢١ من سورة النساء ، ٦ من سورة المائدة ، وانظر د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٤١ ، ١٤٢ .

اتجاهات التطور الدلالى

نلخص هذه الاتجاهات فى أمور ثلاثة :

١ - المقارنة بين المعنى القديم والجديد :

ترينا النظرة العقلية لتطور المعنى أن المعنى الجديد إما أن يكون أضيق من المعنى القديم أو أوسع منه أو أجنبيا عنه ، ونبدأ فى بيان هذه النواحي .

أولا - تعميم المعنى الخاص :

وذلك عند الخروج من معنى خاص إلى معنى عام [٧٥] ، ويتمثل فى كثير من الكلمات العربية الفصحى التى تطور معناها فكلمات (الورد) و (المنيحة) و (الرائد) كانت مستعملة قديما فى معان خاصة ثم انتقلت إلى معان أوسع مما عرف لها من قبل ، وقد أوضحنا ذلك فيما سبق [٧٦] .

والكلمة الإنجليزية artrve منحدة عن اللاتينية adripare وهى بمعنى : يصل إلى الشاطئ - ثم اتسع استعمالها حتى أصبحت تشمل عددا ضخما من أنواع الانتقال [٧٧] .

ثانيا - تخصيص المعنى العام :

وذلك عند الخروج من معنى عام إلى معنى خاص ، وقد ذكرنا أمثلة لهذا الاتجاه من الألفاظ الإسلامية كالصلاة والصيام والحج ، فقد استعملت قبل ظهور الإسلام لمعان عامة ثم خصصها الإسلام بمجالات معينة أشرنا إليها آنفا [٧٨] .

---

(٧٥) فندريس : اللغة ص ٢٥٦ .

(٧٦) انظر ص ٢١٣ ، ٢١٤ من هذا الكتاب .

(٧٧) ستيفن أولمان : دور الكلمة فى اللغة ص ١٦٥ .

(٧٨) انظر ص ٢١٣ من هذا الكتاب ، والسيوطى : المزهر ١ / ٤٢٧ - ٤٣٣ .

والكلمة الإنجليزية poison معناها - في الأصل - الجرعة من أى سائل ثم اقتصرت على الجرعة من السم فقط [٧٩] .

ثالثا - انتقال اللفظ من معنى إلى آخر أجنبى عنه :

ينتقل اللفظ - أحيانا - إلى معنى مغاير لمعناه القديم فيعد أجنبيا ويتم هذا في إطار علاقة تسوغ الانتقال فليس معنى أنه أجنبى عدم وجود مناسبة بين المعنيين ، ولكن اعتباره أجنبيا مبنى على عدم اشتراكهما في الفكرة الأساسية التى تتحول من العموم إلى الخصوص أو العكس كالصورتين السابقتين .

فالنافقاء إحدى جحور اليربوع التى يستطيع بها هذا الحيوان أن يفلت من صائده ، وقد اشتقت منها - بعد الإسلام - كلمة « المنافق » لمن يظهر خلاف ما يبطن والعلاقة متحققة في التشابه بين المعنى القديم والمعنى الجديد .

وكلمة (الغيث) تستعمل - في الأصل - للمطر وقد استعملت للنبات الذى ينشأ عن المطر مجازا فيقال : رعينا الغيث والعلاقة السببية ومن ذلك ألفاظ عربية كثيرة تحولت دلالتها وذكرت بعضها فيما مضى [٨٠] .

والكلمة الإنجليزية Styie معناها (أسلوب) ترجع إلى كلمة لاتينية معناها (آلة مستدقة الرأس) تستعمل في الكتابة وتظهر صورتها المصغرة في الكلمة الإيطالية stiletto ثم حدث أن خلعت الآلة اسمها على نوع من الوظائف التى تقوم بها .

وللانتقال المعنوى صورتان :

الأولى : الانتقال من المحسوس إلى المعقول كما في كلمة (المنافق) العربية و Styie الإنجليزية .

---

(٧٩) ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ص ١٦٥ .

(٨٠) انظر ص ٢١٤ ، ٢١٥ من هذا الكتاب .

الثانية : الانتقال من المحسوس إلى نظيره المحسوس أيضا كما فى استعمال كلمة (الغيث) للنبات .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الاتساع والتضييق ينشآن من الانتقال فى أغلب الأحيان [٨١] .

وحالات الاتساع والتضييق اجتماعية فى طبيعتها فالاسم العام قد يستعمل - لدى بعض المتكلمين - مرادا به الخاص فى حالات اجتماعية معينة فعند استعمال الفلاح والراعى والحوذى لكلمة « البهائم » يختلف المعنى المراد منها عند كل منهم فالفلاح قد يقصد بها « البقر » لأنه هو الموجود عنده ، والراعى يقصد منها الأغنام والحوذى يريد الخيل الخاصة به .

وهذا التخصيص كثيرا ما يترك آثاره فى اللغة [٨٢] فاسم « الطائر » فى الإغريقية القديمة أخذ معنى « دجاجة « واليوم يطلق على «الدجاجة» فى الإغريقية الحديثة وبنفس الطريقة صار اسم الطائر على العموم يطلق فى الفرنسية على « الأوزة » .

والكلمات العامة لا تكاد تستخدم فى الاستعمال بقيمتها العامة اللهم إلا إذا كان ذلك عند الفلاسفة ، فكل واحد من المتكلمين يطلقها على نوع خاص من أنواع النشاط [٨٣] فكلمة « عملية » تختلف حسب ما تستعمل فيه من طب أو مال ، أو فن حربى أو شئون الغابات أو الرياضة .

وكلمة « موسم » تختلف عند مدير الفندق وصاحب « الفلا » وتاجر الفاكهة والزارع والخياط ، بل عند كل تاجر أو صانع .

والاسم الخاص الذى يسمى به نوع من أنواع الجنس قد يطلق على

---

(٨١) فندريس : اللغة ص ٢٥٦ .

(٨٢) المصدر السابق ص ٢٥٧ .

(٨٣) المصدر السابق ص ٢٥٧ .

الجنس كله « وهذه هي حالة الأطفال الذين يسمون جميع الأنهار باسم النهر الذى يروى البلدة التي يعيشون فيها » [٨٤] .

فقد يرى الطفل القاهرى أى نهر فيسميه « نيلا » والطفل الباريسي - كما يقول فندريس - قد يرى أى نهر فيسميه « سينا » .

« وتلك غلطة طفل لا يدوم لها أثر ، ولكن هناك أخطاء مماثلة قد استمر بقاؤها ، ففى السلافية الجنوبية صار اسم الوردة يطلق على الزهر عموما » [٨٥] .

وقد حدث تبادل بين اللفظين « الوردة والزهرة » نتيجة لذلك في بعض اللغات ، فاستعملت الألمانية كلمة « الوردة » للتعبير عنهما ، واختفت كلمة الزهرة منها ، وصارت اللهجات الإيطالية - بالعدوى - تطلق اسم الوردة على كل زهرة .

« وهكذا تختلط بسهولة النسب الكامنة بين الأجناس والأنواع » [٨٦] .

« ولما كانت فكرة العموم تطغى على المعانى الخاصة فقد يحدث للعقل أن ينتقل من أحد المعانى إلى الآخر ، وهذه الظواهر تقع بصورة خاصة في النبات والحيوان وأسماء أجزاء الجسم ، والأمراض والألوان » [٨٧] .

٢ - ارتباط المعنى الجديد بالقديم :

يلاحظ - في تطور المعنى - وجود علاقة - غالبا - بين المعنى الأصلى والمعنى المنتقل إليه وقد توضع الكلمة لمصطلح علمي يعتمد على علاقة ما ، وأهم هذه العلاقات :

---

(٨٤) المصدر السابق ص ٢٥٨ .

(٨٥) المصدر السابق ص ٢٥٨ .

(٨٦) المصدر السابق ص ٢٥٩ ، وانظر للموضوع بأسره ص ٢٥٦ - ٢٦١ .

(٨٧) المصدر السابق ص ٢٥٦ - ٢٦١ .

(أ) علاقة الاستعارة وهى المشابهة :

فقد يكون الارتباط بين المعنيين - القديم والجديد - قائما على أساس المشابهة بينهما ولذلك أمثلة كثيرة نكتفى منها بما أوردناه فيما سبق مثل (المجد) فقد كان فى الأصل - كما عرفنا - يدل على امتلاء بطن الدابة بالعلف ، ثم انتقل إلى معنى السمو والرفعة الذى يعبر عن امتلاء الإنسان بالخصال الحميدة ، فالعلاقة - كما هو واضح - المشابهة فى الامتلاء ، وإن كان الأول حسيا والثانى معنويا .

وكذلك « الأفن » - فهى بالمعنى القديم - قلة لبن الناقة ثم انتقلت إلى « نقص العقل » والعلاقة المشابهة - فى النقص - وإن كان فى الأول حسيا ، وفى الثانى معنويا .

(ب) علاقات المجاز المرسل :

للمجاز المرسل علاقات كثيرة ، نذكر منها السببية كما فى قولك « رعينا الغيث » والمراد النبات ، والمسببية كما فى قوله تعالى : ﴿ وينزل لكم من السماء رزقا ﴾ والمراد المطر والظرفية كما فى قولك «شربت كأسا» والمراد ما فيه .

وقد انتقلت - بعلاقة المجاورة المكانية - كلمة الظعينة من الدلالة على المرأة فى الهودج إلى الهودج تارة وإلى البعير الذى يحمل الهودج تارة أخرى .

وانتقلت - بعلاقة المجاورة الزمانية - كلمة (العقيقة) من الدلالة على الشعر الذى يخرج على الولد عند خروجه من بطن أمه إلى الدلالة على الذبيحة التى تنحر عند حلق ذلك الشعر [٨٨] .

وكلمة burceu (مكتب) قد يكون معناها اليوم : المكتب الذى يجلس عليه الإنسان ، ويكتب عليه ، أو المصلحة الحكومية ، أو المكان

---

(٨٨) د. وافى : علم اللغة ط ٤ ص ٢٨٩ .

الذى تدار منه الأعمال ، فليست هنا علاقة المشابهة ، بل لعلاقة أخرى هى ارتباطها فى ذهن المتكلم ، فهما تنتميان إلى مجال عقلى واحد [(٨٩)] .

وهذا ما عناه فندريس حين قال : إن انتقال المعنى يتضمن طرائق شتى يطلق عليها النحاة أسماء اصطلاحية metaphore (الاستعارة) و synecdoque [(٩٠)] (إطلاق البعض على الكل) أو metonymie (المجاز المرسل بوجه عام) أو Catachrese (المجاز المرسل بعلاقة المشابهة أو غيره عند عدم وجود اسم للشئ المنقول إليه) [(٩١)] .

وفى المصطلحات العلمية يعتمد عادة على علاقة كما هو الشأن فى نقل الألفاظ وقد تلتمس التماسا لصحة النقل ووضع الاصطلاح [(٩٢)] .

---

(٨٩) ستيفن أولمان : دور الكلمة فى اللغة ص ١٧٣ .

(٩٠) فندريس : اللغة ص ٢٥٦ .

(٩١) المصدر السابق ص ٢٥٦ .

(٩٢) هناك وسائل أخرى للارتباط كالمشابهة الزائفة أى الافتراض الخاطئ بأن هناك نوعا من العلاقة بين كلمتين ليست بينهما صلة أو قرابة فى الواقع .

ويمكن توضيح هذا بالصفة الإنجليزية القديمة salld-blind (كليل البصر أو أعمى) فالصيغة الأصلية لهذه الكلمة هى sam-blind و sam هى هى الكلمة semi (بمعنى نصف أو شبه) ومن ثم كان التشابه الشكلى الصرف بين sam و sand دافعا إلى الربط بينهما ربطا زائفا .

وقد يؤدى وقوع الكلمتين جنبا إلى جنب فى عبارة تقليدية كثيرة الورود إلى نوع من الاختصار والإيجاز بحيث تقوم إحدى الكلمتين مقام العبارة كلها ، وهذا الضرب من الاختصار يقع كثيرا فى لغات المجموعات الاجتماعية المتخصصة حيث يساعد سياق الكلام على توضيح العلاقة بين أجزاء العبارة ، ومثال ذلك : (الصاحبان) - والمقصود أبو يوسف ومحمد - و (الشيخان) - والمراد أبو حنيفة وأبو يوسف .

ولو عبرنا عن هذه الحالة تعبيرا مجازيا أمكن القول بأن الجزء المحذوف قد أصاب الجزء أو الأجزاء الأخرى التى تجاوره بـ (العدوى) فى معناه ، وهذا يفسر إطلاق مصطلح (العدوى) - أحيانا - على هذه الأمثلة ونحوها .

وتعتبر هذه العلاقات أساسا نفسيا تقوم عليه الاستعارة والمجاز المرسل وغيرهما من وسائل الارتباط بين المعنيين القديم والجديد .

انظر ستيفن أولمان : دور الكلمة فى اللغة ص ١٦٨ ، ١٧٣ - ١٧٦ .

٢ - العلاقة الاجتماعية بالمعانى واستعمالها :

تظهر ملامح الميول والرغبات الاجتماعية فى صور التحول الدلالى كما أن أحوال المجتمع السياسية والاجتماعية تبدو واضحة فى تلك التغيرات ، فالمجتمع قد يرفع بعض المعانى ، ويضع غيرها ، وقد يؤدى عصر ما إلى شيوع بعض المعانى وندرة بعضها الآخر ، فالدلالة تسمو أحيانا وتنحط أحيانا أخرى باعتبار نظرة المجتمع إليها ، ونوضح ذلك فيما يلى :

(أ) سمو الدلالة :

قد تكون معانى بعض الألفاظ هينة وضيعة ، فتتحول إلى معان أخرى تعد فى نظر الجماعة أشرف أو أقوى .

ومن ذلك كلمة (المجد) - التى أشرنا إليها - فقد انتقلت من معنى هين إلى معنى أشرف وأحسن .

وكلمة (امتاز) كانت تدل على مجرد الفصل كما فى قوله تعالى : ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٩٣) ثم أصبحت فيما بعد تطلق على الفصل لمزية ، وهو معنى أرفع شأنا من سابقه .

ومن هذا القبيل انتقال كلمة (بيت) من الدلالة على المسكن المصنوع من الشعر إلى البيت الضخم الكبير المتعدد الذى نعهده فى المدن .

ومما يتمثل به لذلك فى الإنجليزية كلمة Marshal فقد كانت تعنى - فى وقت من الأوقات - « الذى يتعهد الأفراس » (Mares) أى صبى الاصطبل .

---

(٩٣) يس .

وقد اكتسب لفظا (الفلاح والعامل) معانى طريفة بعد أن كان ينظر إليهما فى العصور الماضية نظرة احتقار ومهانة .

وأشهر الأمثلة الموضحة لهذا النوع يتعلق بالمستويات والفوارق الطبقية .

(ب) انحطاط الدلالة :

بعض الكلمات التى تدل على معان شريفة أو قوية أو معان عادية قد تكتسب - فى نظر الجماعة معانى تتحاشاها ، وتنفر منها .

كما فى كلمة « الأفن » السابقة فقد انتقلت إلى معنى نقص العقل، وهو أمر معيب عند الجماعة .

وكلمة (الاحتيال) كان معناها البحث وبذل الجهد للوصول إلى هدف ما ثم تحولت - فى عصرنا - إلى معنى الخداع للوصول إلى مآرب شخصية ، وهذا مستقبح فى عرف الجماعة .

ومن ذلك ما شاع بين الناس من احتقار بعض الألفاظ نتيجة التصور الحديث لها كإقطاعى ورجعى ومتخلف ونحوها .

وقد اختفت ألفاظ كثيرة من الاستعمال لارتباطها بما يتنافى مع التأدب وحسن اللياقة كالألفاظ الخاصة بالملابس الداخلية ، وألفاظ التبول والتبرز .

وقد ضعفت - بعد الثورة المباركة - كلمات مثل (الباشا - البك) ونحوهما [٩٤] .

---

(٩٤) د. السعران : علم اللغة ص ٣٠٥ ٣٠٨ .

الدلالة عند علماء العرب

١ - علم الدلالة اللغوى :

اهتم علماؤنا العرب - قبل الغربيين - بالدلالة لأن لغتهم تمتاز بالثراء الواسع ، والتصرف المعنوى العريض ، فكل لفظ - فى اللغة العربية - له إيحاءات كثيرة ويستعمل فى التراكيب المختلفة بمعان تتفاوت بتفاوت العبارات ، أضف إلى ذلك ما تحويه من الكلمات التى تؤدى عدة معان ، تبعا لتعدد القبائل الناطقة بها .

وقد مرت الألفاظ العربية بتطورات عديدة باختلاف المناطق التى يقطنها أهلها ، وتتابع الأجيال عليها ، وقد سلكت الطريق الطبيعى لتطور اللغات والدلالات ، فانتقلت من المحسوس إلى المعقول ، وعبرت عن مظاهر الحياة العربية فى شتى صورها [١] .

فالمجتمع العربى - فى قوامه الأصيل - كان مجتمع رحلة ومرعى ، والكلمات التى تدل على معنى الجماعة فى لسان العرب قلما تخلو من الإشارة إلى الرحلة والرعاية .

---

(١) فالباحثون فى نشأة الدلالة « يجمعون على أنها بدأت بالمحسوسات ثم تطورت إلى الدلالات المجردة بتطور العقل الإنسانى ورقيه » (دلالة الألفاظ : د. أنيس ص ١٥٧) ، فالدلالة الحسية هى الأصل ، والمعنوية هى الفرع ففى أول استعمال (العربى) (قطع) لم يكن يريد بها إلا القطع الحسى لكنه بعد أن ارتقى فى الحضارة ، وارتقت تصوراته حدثت له معان جديدة بينها وبين القطع مشابهة ذهنية كقولنا : (قطع فى الأمر) أى جزم و (قطع الحوض) أى ملأه ثم (قطع الماء) فحمل عليها مجازا (جرجى زيدان : الفلسفة اللغوية ص ١٠٩) « وليس تطور اللغة إلا مظهرا من مظاهر تطور الجماعة لا تسير فيه فى طريق متصل نحو غاية محدودة » (د. مراد كامل : دلالة الألفاظ ص ١٩ ، ٢٠) وتطور اللغات يسير جنبا إلى جنب مع التطور الذى يعترى الشعوب الناطقة بها ، ولذلك فاللغات تدل على مظاهر الحياة التى مرت بها تلك الشعوب تقدما وتأخرا ، وحضارة وثقافة ، وتشير إلى عاداتهم ، وتقاليدهم ، وجميع آثارهم .

فالأمة هي الجماعة التي تؤم مكانا واحدا ، أو تأتم بقيادة واحدة ، والشعب هو الجماعة التي تتخذ لها شعبة واحدة من الطريق ، والفئة هي الجماعة التي تفيء إلى ظل واحد ، والنفر من القوم : من ينفرون معا للقتال أو لغيره ، والقوم في جملتهم : هم الذين (يقومون) قومة واحدة للقتال خاصة ، ولهذا أطلقت أولا على الرجال ، ثم شملت الرجال والنساء ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ ولا نساء من نساء ﴾ بعد قوله : ﴿ لا يسخر قوم من قوم ﴾ (٢) .

« والجيش » من جيشان الحركة في الأمكنة المتعددة ، أو المكان الواحد ، و « الجند » - على الراجح - يرجع إلى « الجَنَد » - بفتح الجيم والنون - وهي الأرض الغليظة التي لا يسهل طروقها كأنهم استعاروه لمناعة المكان الذي يحميه المقاتلون المسلحون أو المستعدون للقتال (٣) .

ولفظ « عقل » - في العربية - مأخوذ من « العقل » بمعنى الربط والتقييد ويدل ذلك على أن في معنى العقل عند العرب مفهوما خلقيا بالإضافة إلى العنصر الفكري فهو يعقل عن المنكر والشر ، ولا يدل لفظ « ريزو » الفرنسي raison على مثل ذلك فإن أصل معناه العد والإحصاء(٤) .

وكثير من تلك التغيرات الدلالية خضع لأسلوب المجاز والنقل (٥) .

ولما ظهر الإسلام تغير مدلول كثير من الألفاظ للتغييرات ، الدينية والاجتماعية التي جاء بها ، فكلمة « فرج » كانت في الجاهلية تدل على كل انفتاح كما في قول لبيد :

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها

---

(٢) الحجرات : الآية ١١ .

(٣) العقاد : اللغة الشاعرة ص ٦٥ - ٦٨ بتصرف .

(٤) د. محمد المبارك : فقه اللغة ص ١٣٨ .

(٥) انظر ما ذكرناه آنفا عن علاقات انتقال المعاني ص ٢٣٠ وما بعدها من هذا الكتاب .

ثم جاء الإسلام فخصص عموم هذا المعنى بالمدلول الفقهى للكلمة الذى يوضحه أن الصيام هو الإمساك عن شهوتى البطن والفرج ، وعلى مر التاريخ والمعانى تتغير ، فالعلق كان يدل على الشئ النفيس ، والخول كانت تدل على الخدم فى اللغة الفصحى ، ولكن معنى الكلمتين تغير على مر العصور تغيرا مخجلا إلى مفهومها العامى ... كل أولئك تغير فى الدلالة من عصر إلى عصر والعلماء يعتبرون ذلك نموا أو انحلالا (٦) .

ومن معرفة هذا التغيير الدلالى يمكن للباحث تتبع تاريخ اللغة ، والكشف عن أصالة الكلمات العربية (فإذا التبس علينا أمر كلمة من الكلمات فلم نعلم فى ظاهر الأمر أهى من ألفاظ العرب الأصيلة أم من الدخيل عليها فلدينا هذا المقياس الحاضر نقيس به دلالة الكلمة ، ونردها إلى حياة العرب وإلى المعهود من تعبيرها عن معالم تلك الحياة ، فلا يطول بناء العناء فى الرجوع إلى أصل معقول نطمئن إليه ، وقد رد الأستاذ العقاد - بناء على ذلك - كلمة القانون إلى اللغة العربية ، فالقانون Canon تصغير للقناة Cane ... ونحن نجزم بأن القناة كلمة لم يأخذها العرب عن اليونان لأن الأقنية من النخل ومن عيدان الشجر ، ومن مسايل الماء ، ومن أسنة الرماح أصول عريقة فى حياة العرب لا تستعار (٧) .

وللصيغ والحركات فى اللغة العربية أثر فى تعدد المعانى ، وكذلك قواعد النحو العربى ، قد بنيت على اتجاه المعنى (فليست قواعد النحو العربى بهذه المقاييس فى علم الألسنة ، فالمزية البينة فى هذه القواعد أنها تابعة لأغراض التعبير والدلالة ، وليست هذه الأغراض تابعة لها فى أصولها أو فروعها وقد وضعت فيها الفروق بين صيغ الأسماء والصفات على حسب معانيها وعلاقتها ، وأغراض المتكلم والسامع ، فإنما يجرى فيها الاختلاف بين الأوزان والصيغ لبيان الاختلاف فى مدلول الكلمة ،

---

(٦) د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤١ .

(٧) العقاد : اللغة الشاعرة ص ٦٨ ، ٧٠ .

ودرجتها ، وقد تشاركها اللغات الأخرى فى بعض هذه المزايا ولكنها لا تجمعها كما جمعتها فى واحدة منها) [٨] .

ومن هنا نعرف أن لغة العرب تقف على رأس اللغات التى تمتاز بالدلالة وأثرها فيها ، لهذا لم يكن الأستاذ العقاد مبالغا حين قال (إن هذا البحث يجمع بين أغراض التاريخ وأغراض البيان ، وأغراض الدراسة النفسية والاجتماعية) [٩] .

والدلالة هى قوام اللغة ، ووظيفتها ، ومقياس كفايتها ، وارتقائها عند المقارنة بين اللغات [١٠] .

وتاريخ الدراسة اللغوية يثبت أن علماء العرب تناولوا موضوع الدلالة التى (بلغوا من بحث مشكلاتها وقضاياها ما لم يبلغه علماء اللغات الأخرى فى العصور الحديثة) [١١] .

وروادهم الأوائل الذين جمعوا اللغة فى رسائل خاصة ، استمرت فى التدرج حتى وصلت إلى صورتها المثلى فى المعاجم هم الذين أرسوا دعائم هذا الفن فى اللغة العربية ، فالمعاجم تبحث الكلمات ، وتذكر معانيها غير أنه يؤخذ على جامعيها أنهم لم يبينوا تاريخ التغيرات المعنوية ، وسابقها ولاحقها اللهم إلا كتاب مقاييس اللغة لابن فارس فهو (مثل رائع للمعاجم التى تعنى بمعانى الألفاظ ، ومحاولة الربط بينها وإعادتها إلى أصول قليلة تفرعت عنها ، وقد وفق فى ذلك إلى حد بعيد) [١٢] .

ويذكر الأستاذ العقاد : أننا لا نحتاج كثيرا إلى التسلسل التاريخى فى وضع معجماتنا الحديثة ، لأن هذا التسلسل ضرورى فى

---

(٨) العقاد : أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص ١٢ .

(٩) العقاد : اللغة الشاعرة ص ٧٢ .

(١٠) العقاد : مجلة الأزهر – عدد شعبان ١٣٨١ ص ٩٢٢ .

(١١) د. المبارك : فقه اللغة ص ١٣١ .

(١٢) المصدر السابق ص ١٣ .

اللغات التى يكثر فيها إهمال الكلمة فى معنى ، وسيرورتها فى معنى آخر ، ولكنه لا يبلغ هذا المبلغ من الضرورة حين توجد الكلمة مستعملة فى جميع معانيها على السواء أو على درجات متقاربة [١٣] .

كما تناول العرب فى دراساتهم بحوثا تعد من هذا الفن ، كالاشتقاق ، والحقيقة والمجاز ، والتضمين ، ودلالة اللفظ على عدة معان ، ودلالة عدة ألفاظ على معنى واحد ، والتى يدخل تحتها المشترك والمتضاد والمترادف وغير ذلك من بحوث علم الدلالة .

وقد ألف أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازى كتابه المسمى (الزينة فى الكلمات الإسلامية والعربية) وهو مؤلف بارع فى هذه الناحية ، فقد عالج فيه مؤلفه عددا من الألفاظ الإسلامية ودرسها دراسة تطورية تاريخية ، وتتبع معانيها من العصر الجاهلى حتى العصر الإسلامى [١٤] .

وعقد ابن فارس فى كتابه (الصاحبى) فصلا بعنوان (باب القول فى حاجة أهل العلم إلى معرفة اللغة العربية) أوجب فيه العلم بالعربية على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا حتى لا يخطئ فى الأحكام ، فلقد غلط أبو بكر بن داود أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعى فى كلمات ذكر أنه أخطأ فيها طريق اللغة [١٥] .

وعقد ابن جنى فى كتابه (الخصائص) فصلا بعنوان (باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية) طلب فيه من علماء الشريعة أن يتفهموا الألفاظ العربية واستعمالاتها وأن يعرفوا مجازاتها ، لأن الجهل بها يؤدى إلى ضلال بعيد ، وضرب أمثلة للجهل باللغة الذى أوقع بعض المفسرين فى الخطأ فى تأويل بعض الآيات ، والأحاديث الشريفة [١٦] .

ولعلماء أصول الفقه - إلى جانب علماء اللغة - بحوث تتعلق

---

(١٣) العقاد : اللغة الشاعرة ص ٤٧ .

(١٤) انظر كتاب الزينة نفسه ط ٢ سنة ١٩٠٧م ، وانظر د. المبارك : فقه اللغة ص ١٣١ .

(١٥) ص ٦٣ - ٦٥ .

(١٦) ج ٣ ص ٢٤٥ - ٢٥٥ .

بالدلالة لاتصالها بكثير من المسائل الفقهية ، يقول أستاذنا الدكتور نجا (إن الباحثين الأصوليين اضطروا إلى التعرض لمباحث لغوية وإن لم تكن من صميم علم الأصول ليكون الباحث على ذكر منها كالمشترك والمتضاد والمترادف ومعاني الحروف ، والأسماء الشرعية ، وقد ذكرت في كتب الأصول في قسم خاص بها عرف بالمبادئ اللغوية) .

ومن أمثلة استخدام علماء أصول الفقه هذه المباحث أن المشترك - وهو اللفظ الدال على معنيين فأكثر دلالة مستوية كالعين لمعانيها المختلفة - قد اختلف العلماء في استعماله مرادا به معنياه أو معانيه دفعة واحدة فقد جوز ذلك مالك والشافعي مستدلين بما ورد في قوله جل ثناؤه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴿١٨﴾ ﴾ [١٧] قائلين : إن السجود قد استعمل في معنييه مرة واحدة . إذ السجود من الآدمي يكون بوضع الجبهة على الأرض ، ومن غيره بالانقياد والخضوع ، فقصد المعنيان دفعة واحدة ، ومنع ذلك الحنفية مفسرين السجود في الآية بمطلق الخضوع وهو يتحقق في الإنسان وغيره ، وإن كانت صورة الخضوع متفاوتة ... ووجهة الحنفية أولى بالقبول في هذا المقام لأن استعمال المشترك في معنييه مرة واحدة يؤدي إلى الإبهام الذي استند إليه المانعون في وجود هذا الصنف من الألفاظ [١٨] .

ومن هنا وللحاجة إلى مباحث الدلالة لتعلقها بالشريعة والقوانين الدينية ، اعتنى علماء أصول الفقه بكثير من مسائل الألفاظ ودلالتها [١٩] .

وبعد فلا جدال في أن علماء العرب قد ضربوا بسهم وافر في بحوث الدلالة ، وشاركوا في نشأة علم الدلالة اللغوي الذي ثبتت أهميته في اللغة العربية .

---

(١٧) الحج : الآية ١٨ .

(١٨) انظر د. نجا : فقه اللغة العربية ٤ / ٥ ، ٦ .

(١٩) د. المبارك : فقه اللغة ص ١٣٤ .

٢ - عناية العرب بالألفاظ والمعانى :

أردت أن أثبت بهذا البحث أصالة العربية ، وعمق دلالتها ، وأن اللفظ والمعنى فيها صنوان ، يرتبط أحدهما بالآخر ، وأن العربى لم يفصل أحدهما عن صاحبه ، بل اهتم بهما معا ، وذلك ليبطل زعم الزاعمين الذين يشككون فى جدارة العربية بالتفوق ، ويتهمونها بأنها لغة الألفاظ .

وهذا الموضوع الذى نحن بصدده يعد من أسس البحث فى دلالة الألفاظ فى اللغة العربية .

فنقول : « الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها وتعبر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ » [١] .

والعربية - كما وصلنا من آثار أهلها الناطقين بها شعرا ونثرا - تصل بين اللفظ والمعنى بوشائح القربى ، وتهتم بهما ، بل ربما كان المعنى هو الأشرف فيها ، واللفظ موضوع على سمته ، وشاهد بصحته ، وخادم له (فالعرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها ، وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة ، وبالخطب أخرى ، وبالأسجاع التى تلتزمها ، وتتكلف استمرارها فإن المعانى أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدرا فى نفوسها فأول ذلك عنايتها بألفاظها فإنها لما كانت عنوان معانيها ، وطريقا إلى إظهار أغراضها ومراميها ، أصلحوها ورتبوها ، وبالغوا فى تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها فى السمع ، وأذهب بها فى الدلالة على القصد ، ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعا لذ لسامعه ، فحفظه ، فإذا هو حفظه كان جديرا باستعماله ولو لم يكن مسجوعا لم تأنس النفس به ولا أنقت بمستودعه) [٢] .

---

(١) أبو هلال العسكرى : الصناعتين ص ٦٦ .

(٢) ابن جنى : الخصائص ج ١ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

ويبدو من هذا النص أن العرب اهتمت بموسيقى الألفاظ لتؤثر في السامع ، وللدلالة على المعنى .

ويؤكد ابن جنى أن المعنى السامي يحتاج إلى لفظ جيد للتعبير عنه (فقد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويغض منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه) (٣) .

وهو بذلك يؤكد أن العربى الذى اعتاد الفصاحة والبلاغة رسم للغته طريق قوة آدابها من الناحيتين اللفظية والمعنوية ، فهذب لفظها لتهذيب معناها .

ويعقد الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) فصلا يؤكد فيه بالشواهد بطلان كون الفصاحة في اللفظ وينسبها إلى المعنى (٤) .

ويقول : إن سبب الفساد هو ظنهم في اللفظ ، وجعلهم الأوصاف التي تجرى عليه كلها أوصافا له في نفسه ، ومن حيث هو لفظ وتركهم أن يميزوا بين ما كان وصفا له في نفسه ، وبين ما كانوا قد أكسبوه إياه من أجل أمر عرض في معناه (٥) ثم يقرر أنه « إذا كان الأمر كذلك وجب أن تعلم قطعا وضرورة أن تلك المزية في المعنى دون اللفظ » (٦) .

ويقول الجاحظ « لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح للإفصاح ، والكناية في موضع الكناية ، والاسترسال في موضع الاسترسال ، وقد قال : لكل مقام مقال (٧) .

---

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٧ .

(٤) ص ٣٢٩ - ٣٣٢ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٦) المصدر السابق ص ٢٥٥ .

(٧) الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ٤٣٣ .

وبهذا يندفع الاعتراض على الأبيات :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

بأن الشاعر قد دبج اللفظ فى حين أن المعنى ضئيل هو : لما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، لا ينظر الغادى الرائح ابتدأنا الحديث ، وسارت الإبل فى الأبطح [٨] .

وقد أوضح الإمام عبد القاهر الناحية البلاغية فى الأبيات فقال : (إن استحسانها يرجع إلى استعارة وقعت موقعها ، وأصابت غرضها أو حسن تركيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع فقوله (كل حاجة) تعبير عن قضاء المناسك بأجمعها بطريق العموم ، وكلمة (أطراف الأحاديث) تشير إلى التصرف الذى يكون بين الرفاق فى فنون القول وشجون الحديث وفنه من الإشارة ، والتلويح والرمز ، والإيحاء ، وأنبأ ذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط بين الأصحاب والأحباب ، وكذلك أشار إلى الاستعارة فى أعناق المطى ، ودلالتها التعبيرية [٩] بل قال : إنها فى غاية الحسن واللطف ، وعلو الطبقة [١٠] .

---

(٨) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٥٦ ، ٥٧ وقد نقل الاعتراض وأجاب عليه ابن جنى فى الخصائص ج ١ ص ٢٠٨ - ٢١١ ، والإمام عبد القاهر : فى أسرار البلاغة ص ٢٧ ، وابن الأثير فى المثل السائر ص ١٤٠ ، والأستاذ العقاد فى المراجعات ص ٩٦ ، والأستاذ عنبر فى قضية الأدب ص ٤٢ وتوسط أبو هلال العسكرى فعدها رائعة الألفاظ معجبة وليس تحتها كبير معنى (الصناعتين) ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٩) عبد القاهر الجرجانى : أسرار البلاغة ص ١٥ - ١٨ .

(١٠) عبد القاهر : دلائل الإعجاز ص ٤٩ ، ٥٠ .

وقد أفاض عبد القاهر فى رجوع بلاغة الأبيات إلى المعانى لا الألفاظ فحسن الكلام يرجع إلى الأولى لا إلى الثانية .

وأكد الأستاذ العقاد أن تلك القطعة حافلة بتلك الصور التى تتوارد على الخيال كما تتوارد المناظر للعين فى الصور المتحركة ، فيكاد القارئ ينسى كلماتها وحروفها وهو ينشدها لما يستشفه فيها من الأخيلة المتلاحقة وما يصاحبها من الخواطر الحية المتساوقة ، ولو أن تلك الأبيات نقلت إلى لوحة لملأت فراغا من الشريط المصور لا يملؤه أضعافها من قصائد المعانى وقصص الوقائع من صور الحجيج التى رسمها ، وصورة القائل وما فى نفسه من الشجن واللوعة ، وإلى جانب هذه المناظر والخواطر حواش يضيفها الخيال وتمليها البديهة ، فإذا أنت من الأبيات فى واد يموج بالمشاهد ، ويتتابع بدواعى الشعور [١١] .

وينتقص بعض النقاد العرب والمستشرقين من عناية العرب بالمعانى ويدعى أنهم يهتمون بالصناعة اللفظية .

فالدكتور إبراهيم أنيس يرى أن العرب عنيت باللفظ أكثر من المعنى أو بعبارة أخرى عنيت بموسيقى الكلام أكثر من عنايتها بمضمونه، ويعلل لتلك العناية اللفظية بقوله (إنا فى ندائنا بهذا الرأى نعزوه إلى الظروف الاجتماعية التى نشأت فيها تلك الآداب من شيوع الأمية بين العرب ، واعتمادهم على السمع ، والمشافهة فى تلقى النصوص وتداولها) [١٢] .

ويقول - أيضا - « وفى رأيى أن ظاهرة الموسيقية فى اللغة العربية تعزى فى أغلب عناصرها إلى تلك الأمية حين كان الأدب أدب الأذن لا أدب العين ، وحين اعتمد القوم على مسامعهم فى الحكم على النص اللغوى ، فاكتسبت تلك الآذان المران والتمييز بين الفروق الصوتية

---

(١١) العقاد : مراجعات فى الآداب والفنون ص ٩٦ .

(١٢) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٩٦ .

الدقيقة ، وأصبحت مرهفة تستريح إلى كلام لحسن وقعه أو إيقاعه ، وتأبى آخر لنبوه ، أو لأنه كما يعبر أهل الموسيقى نشاز) [١٣] .

ومن المستشرقين جارسيا جرميز فقد قال : إن الصناعة اللفظية هى موضع العناية الكبرى فى الأدب العربى بين نثر مقيد بالأسجاع وبين ألوان من المجازات ، والأشباه والطلاوات ، واللوازم تعوزها الحرارة والشعور كأنما هى كلها عرض من العروض المقنعة بالبراقع حيث البسمات لآلئ والعيون أزهار بنفسجيات ، والرياض والجداول سيوف ، أو شاعر يشبه نفسه بالطير الذى أثقل ندى الممدوح جناحيه ، فأعياه أن يطير ، أو برق يومض بين الغمام كأنه ضرام العشق فى قلب الشاعر يتوهج من خلال دموعه (وغير ذلك من) قوالب منقولة يحكيها النظامون من وحى الذاكرة [١٤] .

ودعوى أن اللغة العربية تهتم باللفظ ، ولا تنظر إلى المعنى إلا قليلا دعوى زائفة قام الدليل على نقضها ، وقد ذكرنا من كلام ابن جنى ما يؤكد اهتمام العرب بموسيقى اللفظ من أجل خدمة المعنى .

وقد أنحى الأستاذ العقاد باللائمة على المستشرقين الذين قالوا إن اللغة العربية تؤمن باللفظ أكثر من المعنى أمثال جارسيا جرميز وعد حكمهم هذا خطأ ذريعا ، كيف لا وهم لا يحسنون الحكم على شاعرين من بنى جلدتهم فأحرى بهم ألا يحسنوا الحكم على الشعراء من أبناء اللغات التى تخالف لغاتهم فى تراكيبها ومصطلحاتها ، ومن أبناء الأمم التى تخالف أممهم فى أمزجتها وعاداتها ، والسبب فى هذا الخطأ أنهم يقومون مقام الحفاظ دون إدراك محاسن الشعر العربى فى ظاهره وخفاياه ، وألفاظه ومعانيه [١٥] .

---

(١٣) المصدر السابق ص ١٩١ .

(١٤) العقاد : اللغة الشاعرة ص ٥١ .

(١٥) العقاد : اللغة الشاعرة ص ٥٢ ، ٥٣ بتصرف .

فاللغة العربية لغة معنى ، والصور المحسوسة فيها ترتفع إلى حدود المعاني المجردة ، فيستمع العربي إلى التشبيه فلا يشغل ذهنه بأشكاله المحسوسة إلا ريثما ينتقل فيها إلى المقصود من معناه ، فالقمر - عنده - بهاء ، والزهرة نضارة ، والغصن اعتدال ورشاقة ، والطود وقار وسكينة [١٦] .

وقد كتب الدكتور عثمان أمين فصلا كاملا من كتابه (فلسفة اللغة العربية) يؤكد فيه أن العربية تؤمن بالمعنى ، وتختار له اللفظ المناسب وعلى حد تعبيره : تؤثر الجوانية على البرانية ، والتفكير الواعي يتصوره العرب صادرا عن هذه الجوانية ، ألسنا نراهم يعبرون عنه بألفاظ القلب واللب والحجى والنهى أكثر مما يعبرون عنه بألفاظ المخ ، والدماغ ، والرأس ، ويفرقون بين القرابة والقربى ، وإحداهما لحمة الدم والأخرى رابطة الروح [١٧] .

وتلك خصيصة لها تفضل بها اللغات الأخرى ، يقول المستشرق الفرنسي لوى ماسنيون : إنه في حين أن اللغات الهندو أوربية جعلت للتعبير عن نظام العالم الخارجي نجد اللغة العربية وكأنها هى لغة التأمل الداخلي ففيها - بفضل تركيبها الداخلي وطراز الخلوة الذى توحى به - قدرة خاصة على التجريد والنزوع إلى الكلية والشمول ، ومن هنا كان للعرب الفضل في استكشاف رموز الجبر ، وصيغ الكيمياء ، والمسلسلات الحسابية [١٨] .

ومما ذكره المستشرق الفرنسي كارادوفو : تفرقة العربية بين الكبر الداخلي ، والكبر الخارجي ، فالداخلي هو استعداد في النفس ،

---

(١٦) المصدر السابق ص ٤٠ .

(١٧) ص ٣٧ .

(١٨) د. أمين : فلسفة اللغة العربية ص ٨ .

والخارجي ناتج عن أفعال الجوارح ، واللفظ الفرنسي الذى يدل على معنى الكبر هو orqueih (أورجى) أما التكبر فأولى أن يكون مرادفه الفرنسي superbe (سوبيرب) ولاحظ كارادوفو أن هذه الفروق المعنوية الدقيقة التي تحملها ألفاظ اللغة العربية ليس من الميسور نقلها فى لفظ واحد إلى اللغات الأخرى ، وخلص من هذه الملاحظة إلى التنويه بما تنطوى عليه العربية من قدرة ذاتية على التحليل الفلسفى العميق (مادام أن إحداث تغيير طفيف في بنية اللفظ العربى يسمح لتلك اللغة بأن تميز بين الحالة النفسية وبين العادة البدنية التى تطابقها) [١٩] .

وبهذا قد اعترف الأجانب بما للغة العربية من سبق على اللغات الأخرى فى المعانى والألفاظ جميعا .

ويبدو لنا صواب هذا الرأى ، فصيغ العربية ، والمعانى التى تؤديها والتى تنتقل إليها عن طريق المجاز وغيره ، وعلاقات الكلمات بعضها ببعض وطرائق الشعراء فى التعبير عن أغراضهم ذلك وأشباهه - بالملاحظة - يرينا قيمة المعنى فى لغتنا ، وإن الأديب العربى لم يكن ليأخذ صنعة الألفاظ مجردة من النظر إلى المعانى ، بل يضع ما يختاره من اللفظ الجزل والرقيق أو الخشن ، والمفرح أو المحزن ، والأسلوب المملوء بالأنفة والتصميم أو اللين والضعف فى مكانه وزمانه المناسبين ، فاللغة لم تكن إلا للتعبير عن الأفكار والمعانى ، والعرب أرباب البلاغة وهى معجزتهم الخالدة التى نزل بها القرآن الكريم أعلى مثل بلاغى .

---

(١٩) المصدر السابق ص ٤٦ ، ٤٧ .

٣ - من بحوث الدلالة عند العرب :

نتناول هنا بالبحث بعض قضايا الدلالة ودراسة العرب لها لنبرهن على عمق الدراسة العربية وأصالتها فى هذا الجانب المهم من الدراسة اللغوية ، ونعرض عدة قضايا هى (الإعراب) و (الاشتراك والتضاد والترادف) و (التضمين) .

قضية الإعراب

وجود الإعراب فى الساميات :

النظر فى الساميات [١] يؤكد أن الإعراب كان موجودا فى هذه الفصيلة اللغوية (الفصيلة السامية) إلا أنه فقد من معظمها على مر العصور ، وقد بقيت منه بقايا فى بعض فروعها .

يقول المستشرق برجستراسر (إن الإعراب سامي الأصل تشترك فيه اللغة الأكدية ، وفي بعضه اللغة الحبشية ، ونجد آثارا منه فى غيرها) .

ففى الأكدية [٢] - كالعربية - تستخدم علامات الإعراب .

فالمفرد : يرفع بالضمة ، وينصب بالفتحة ويجر بالكسرة .

والمثنى : تقع فى آخره ألف ونون - فى حالة الرفع - وفى حالتى النصب والجر ينتهى فى البابلية بياء ونون ، وفى الأشورية بحركة إمالة متطورة عن الياء المفتوح ما قبلها ، والنون .

---

(١) حظى بالإعراب بعض اللغات الأوربية كاليونانية ، واللاتينية ، والألمانية ، بيد أن معظم لغات أوربا الحديثة تخلو منه الآن فلا تميز فيها بين الرفع والنصب والجر وإنما يقوم مقامها إلحاق أدوات خاصة بذلك معظمها من حروف الجر أو بتقديم الألفاظ وتأخيرها على نحو ما يحدث فى عاميتنا الآن ، جرجي زيدان : الفلسفة اللغوية ص ١٣٢ وانظر العقاد : اللغة الشاعرة ص ٢٢ وابن خلدون ، المقدمة ص ٦٥٠ .

(٢) البابلية والأشورية ، وتبدأ نصوصها فى القرن الثلاثين ق.م .

وجمع المذكر السالم : يقع في آخره واو مد (ضمة طويلة) رفعا ، أما في حالتي النصب والجر فتستعمله البابلية بياء مد (كسرة طويلة) وتستعمله الأشورية بحركة إمالة طويلة كالسابقة .

وجمع المؤنث السالم : يرفع بالضمة وينصب ويجر بالكسرة كالعربية .

وفي الحبشية [٣] ينصب المفعول به ونظائره بالفتحة ، ويحرك المضاف بالفتحة كذلك ، وهي حالة غريبة لا توجد في غيرها من اللغات السامية .

وتظهر بقايا الأعراب - كذلك - في الأوجاريتية [٤] وهي تتبع نظاما أبجديا لا تظهر فيه الحركات إلا مع الهمزة ، فإذا وقعت آخرا ظهرت في صورة الضمة حال الرفع ، وفي صورة الفتحة حال النصب ، وفي صورة الكسرة حال الجر .

وفي النبطية - التي عرفت العلاقة بينها وبين العربية - وجدت بعض مظاهر الإعراب ، وبدا ذلك من النقوش التي عثر عليها ، ويذكر المستشرق الألماني (نولدكه) أن النبط كانوا يستعملون الضمة في حالة الرفع ، والفتحة في حالة النصب ، والكسرة في حالة الجر ، ويؤكد ليتمان أن النبطية كانت تختلف فيها أواخر الكلمات بحسب مواقعها الإعرابية .

وفي العبرية بقايا إعرابية تظهر في مواضع منها المفعول به ، ويبدو أن علامة النصب في العبرية القديمة كانت (الفتحة الطويلة)

---

(٣) هي لغة الموجة السامية التي هاجرت من جنوب الجزيرة العربية ، وأقامت لها مملكة في شمال الحبشة كانت عاصمتها (اكسوم) في القرن الأول الميلادي .

(٤) من الفرع الكنعاني ، وهي لغة مدينة أوجاريت شمال اللاذقية وتعرف الآن برأس شمرة ، وكانت تقوم فيها مظاهر العمران البشري في القرن التاسع عشر ق.م وانتهت حياتها في القرن الثالث عشر ق.م .

التى نشأت عنها هاء متطرفة تذكر فى أواخر الكلمات ، وتشبه الألف اللينة ، ويظهر ذلك واضحا فى الاسم المنصوب بنزع الخافض ، وفى أواخر الظروف المنصوبة مثل Laila بمعنى (ليل) و Atta بمعنى (حتى) وكذلك فى المصدر الذى يناظر المفعول المطلق فى العربية ، إلا أنه وفق القواعد العبرية تأتي بعد (الفتحة الطويلة) ميم زائدة (ما يسمونه التمييم ويقابله التنوين فى العربية) فيقال مثلا : Uomam بمعنى (يوما) و Hattam وتعني (مجانا) ونلمح آثارا فى العبرية ترشد إلى أن الضمة ، والكسرة كانتا علامتين إعرابيتين فيها .

وجوده فى العربية :

أما العربية فيكاد يجمع العلماء على أن الإعراب ظاهرة لغوية اتسمت بها من قديم الزمان ومنذ نشأتها .

ويقول المستشرق يوهان فك : إن العربية الفصحى قد احتفظت فى ظاهرة التصرف الإعرابى بسمة من أقدم السمات اللغوية التى فقدتها جميع اللغات السامية باستثناء البابلية القديمة قبل عصر نموها ، وازدهارها الأدبى [٥] .

ويقول الدكتور السامرائى : وقد احتفظت اللغة العربية الفصيحة بظاهرة الإعراب ، وهى من صفات العربية الموغلة فى القدم .

وبعض الباحثين اللغويين كانوا يخضعون البحث اللغوى - منذ زمن غير قصير - للنظرية القائلة بأن اللغات تمر بحالات ثلاث على التتابع :

---

(٥) العربية ص ٣ وجاء فى التاريخ القديم أن اللغة التى انتشرت فى المملكة البابلية قبل زمن حمورابى بعشرين قرنا أو أكثر كانت ذات حركات للإعراب ، وأنها قضت أكثر من ألفى عام وهى ذات حياة فى سجلات الحكومة ودواوينها وعلى ألسنة العلية من القوم ، انظر : أحمد رضا العاملى : مولد اللغة ص ٧٨ .

١ - حالة العزل .

٢ - حالة الإلصاق .

٣ - حالة الإعراب .

وكان من المسلم به أن كل لغة من اللغات المعروفة كانت على إحدى هذه الحالات الثلاث وفقا لمرحلة التطور التى عرفناها فيها [٦] .

ونقل ابن جنى رأيا عن أبى الحسن أجاز فيه أن تكون الكلمات المبنية قد كانت قديما معربة ، فلما كثرت غيرت ، وأجاز مع ذلك أنهم ابتدأوا بناءها لأنهم علموا أنه لابد من كثرة استعمالها على حد قول الشاعر :

رأى الأمر يفضى إلى آخر فصـــــير آخـــــره أولا

وقد رجح ابن جنى أنهم ابتدأوا بناءها لأنه أدل على حكمتها ، وأشهد لها بعلمها بمصاير أمرها [٧] .

والنظرة التطورية إلى اللغة لا تقبل بحال أن نعد ظاهرة الإعراب فى العربية وجدت هكذا دفعة واحدة ، فالطبيعى أن الإعراب لم يصل إلى هذه الدرجة الدقيقة المنظمة فى العربية إلا على مراحل ودرجات ولابد أنه بدأ يسيرا ، كما هو الحال عند أخواتها .

ولعل كثيرا من الألفاظ التى تعربها العربية الآن كانت فى وقت ما مبنية ، ثابتة أواخرها على حركة واحدة ، أو على سكون ، أقصد أن

---

(٦) فندريس : اللغة ص ٤٢٣ .

(٧) ابن جنى : الخصائص ٢ / ٣١ ، ٣٢ وقد ذكر أبو القاسم الزجاجى أن الخلاف واقع قديما فى الإعراب هل نطقت به العرب فى أول تبلبل ألسنتها ؟

فقيل : هكذا نطقت به فى أول وهلة ، ولم تنطق به زمانا غير معرب ثم أعربته ، وقد أجاز بعض الناس أن تكون العرب نطقت به أولا غير معرب ، ثم رأت اشتباه المعانى فأعربته ، فتتكلم به ، انظر الإيضاح : ص ٦٧ - ٦٩ .

الإعراب لم يكن مطردا على أواخر الألفاظ المعربة ، وعلى النحو الذى نراه الآن [٨] .

وهذا الرأى ربما استمده قائله مما ذكره فندريس وما رواه ابن جنى فى خصائصه فيما تقدم .

وقد يصح هذا القول فى عصور نشأة العربية أما بعد اكتمالها على ألسنة أهلها فقد اتصفت بالإعراب الكامل سليقة ، وطبعا .

ويرى بعض الباحثين المحدثين - كالدكتور إبراهيم أنيس - أن الإعراب كان من خصائص اللغة النموذجية ، فظاهرة الإعراب لم تكن ظاهرة سليقة فى متناول العرب جميعا - كما يقول النحاة - بل كانت صفة من صفات اللغة النموذجية الأدبية ، ولم تكن من معالم الكلام العربى فى أحاديث الناس ، وخطابهم [٩] .

ويوافقه الأستاذ عبد المجيد عابدين بعض الموافقة حين يقول : إن العربى كان إذا عاد إلى بيئته أو بيته عاد إلى لهجته الدارجة وهذه اللهجات الدارجة لم تكن فى أغلب الظن معربة إعراب لغة قريش ، وكان الإعراب فى هذه اللهجات بسيطا ، وهى تذكرنا على كل حال باللهجات العربية الحديثة [١٠] .

ويتفق د. أنيس وعابدين فى القول بأن النحويين اخترعوا بعض قواعد الإعراب ، فالدكتور أنيس يجعل الإعراب قصة يقول عنها : ما أروعها قصة ! لقد استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل

---

(٨) عبد المجيد عابدين : المدخل إلى دراسة النحو العربى ص ٣٤ - ٣٧ .

(٩) د. أنيس : من أسرار اللغة ط ٣ ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(١٠) عبد المجيد عابدين : المدخل ص ٤٣ .

الجزيرة العربية ، ثم حيكت وتم نسجها حياكة محكمة فى أواخر القرن الأول الهجرى ، أو أوائل الثانى على يد قوم من صناع الكلام [١١] .

ثم يقول : والنحويون ابتكروا فى اللغة أصولا ، وقواعد رغبة منهم فى اطراد الإعراب ، وانطباقه على كل أسلوب [١٢] .

وقد نما نفوذ النحاة على مرور الأيام ، وأصبح الكتاب والقراء يعرضون عليهم بضاعتهم ، فما أجازوه منها تقبله الناس قبولا حسنا ، وأصبح النحوى يشرع لهم ، ويقنن ، ويحل ، ويحرم ، ولا يتورع عن تخطيئ أفصح الفصحاء ، أو تجريح أبلغ البلغاء متى انحرف عن أصول النحو وقوانينه الإعرابية [١٣] .

نرى من كل هذا أن النحاة حين استقرت لهم قواعدهم الإعرابية فرضوها على الفصحاء من العرب ، وفرضوها على الفحول من الشعراء ثم فرضوها فى آخر الأمر على أصحاب القراءات [١٤] .

والأستاذ عابدين لا ينكر كذلك أثر النحاة فى ابتكار بعض ظواهر الإعراب ، وفى إجراء القياس على بعض نماذجها رغبة منهم فى الوصول إلى قواعد مطردة منسجمة [١٥] .

وقد ادعى الدكتور أنيس أن النحاة العرب قد اخترعوا قواعد الإعراب على نظام النحو فى اللغات الأخرى « كاليونانية - مثلا - ففيها يفرق بين حالات الأسماء التى تسمى Cases ويرمز لها فى نهاية الأسماء برموز معينة ، وكأنما قد عز على النحاة ألا يكون فى العربية

---

(١١) د. أنيس : من أسرار اللغة ص ١٨٣ .

(١٢) المصدر السابق ص ١٨٤ .

(١٣) المصدر السابق ص ١٩٤ .

(١٤) المصدر السابق ص ١٩٦ .

(١٥) عبد المجيد عابدين : المدخل ص ٣٩ .

أيضا مثل هذه الـ Cases فحين وافقت الحركة ما استنبطوه من أصول إعرابية قالوا عنها : إنها حركة إعراب . وفي غير ذلك سموها حركة أتى بها للتخلص من التقاء الساكنين » (١٦) .

ومن هذا يتلخص أن الدكتور (أنيس) ومن تابعه يدعون أن الإعراب لم يكن في لهجات التخاطب عند العرب القدماء ، وأن بعضه اخترع لطرد القواعد ، وانسجامها .

وربما كان هذا القائل تابعا في رأيه - بأن الإعراب لم يكن مراعى في اللهجات الدارجة - للأستاذ (Marcel Cohen) الذي يقول : إن هذه القواعد المتشعبة الدقيقة وخاصة قواعد الإعراب لم تكن مراعاة إلا في اللغة الفصيحة الأدبية لصعوبتها على اللهجة الدارجة (١٧) .

وقد بنى هؤلاء رأيهم على اللهجات العامية في العصر الحاضر في خلوها من الإعراب ، وعلى أن الإعراب صعب (١٨) .

---

(١٦) د. أنيس : من أسرار اللغة ص ٢٩ .

(١٧) د. السامرائي : دراسات في اللغة ص ١٦ ، ود. الصالح : دراسات في فقه اللغة ص ١٢٧ .

(١٨) ظهرت - منذ مطلع هذا القرن - بناء على ذلك - دعوات هدامة تحبذ استعمال العاميات في الأقطار العربية ، ونبذ الفصحى ، وتعدت ذلك إلى ترك الحروف العربية واستعمال الحروف اللاتينية ، وقد قادها المستشرقون ومن سار على دربهم من العرب .

يقول المستشرق الفرنسي ماسنيون : (إن إهمال الإعراب ييسر تعليم اللغة العربية على الأجانب ، ويكون في الوقت نفسه تجديدا يليق بمؤسسة المجمع) . (يقصد المجمع العلمي بدمشق ، وكان عضوا فيه) . ويقول بعض المتشبهين بهم : (على أن في مراعاة قواعد النحو من إلحاق علامات الإعراب بالجمل التي تتألف منها أحاديثنا ، ومحاوراتنا تفريطا في الوقت ، وتضييعا له ، وفي عدم مراعاتها توفيرا للوقت وحرصا عليه) .

ومع ذلك فشلت هذه الدعوة الهدامة كما فشل ما انبنى عليها من الدعوة إلى العامية ، فقد تبين للجماهير العربية ، وعلمائها خبث هذه الدعوات ، فوقفوا لها بالمرصاد ، كما ذللت الصعوبات التي كان يتذرع بها في هذا الصدد بتأليف الكتب السهلة التي تضم خلاصة القواعد الإعرابية والصرفية والتي تناسب مدارك المتعلمين .

انظر : سعيد الأفغاني : حاضر اللغة العربية في الشام ص ١٥٦ - ٢١١ .

ورد عليهم الدكتور وافى فى كتابه (فقه اللغة) ، وتنحصر أدلته فيما يأتى :

١ - اللهجات العامية الحديثة خضعت لقوانين التطور ، فى مفرداتها ، وأوزانها ، ودلالاتها ، فبعدت بعدا كبيرا عن أصلها ، فلا تقوم دليلا ، وقد خضعت لقانون التطور الصوتى - وهو ضعف الأصوات الأخيرة فى الكلمة وانقراضها - وهو قانون عام خضعت له جميع اللغات الإنسانية فى تطورها ، وفى اللهجات العامية الحديثة بقايا من الإعراب مثل (أبوك - أخوك) فى عامية مصر .

وفى معظم لهجات العراق [١٩] تثبت النون فى الأفعال الخمسة مثل : يمشون - تمشون - تمشين .

٢ - روى بعض الباحثين أن آثار الإعراب بالحركات لا تزال باقية فى لهجات بعض القبائل الحجازية فى العصر الحاضر ، ويستفاد ذلك من كثير من كتب التاريخ ، ففى كتب أبى الفدا أن العربية بقيت فى بعض لهجات المحادثة حتى أواخر العصور الوسطى .

ونضيف إلى هذا أن الزبيدى فى تارج العروس (مادة عكد) ذكر أن قرية قرب جبل عكادا كانت لا تزال فصيحة حتى عصره (وقد توفى الزبيدى ١٢٠٥ هـ) .

٣ - صعوبة قواعد الإعراب لا تدل على اختراعها ، فاليونانية ، واللاتينية - مع صعوبة ودقة الإعراب فيهما - كالعربية - لا تزال تستعمل حتى الآن فى المحادثة ، وخلق القواعد خلقا لا يتصوره العقل ، إذ اللغة هى التى تفرض نفسها ، ولم يكن هناك صلة بين علماء النحو العربى والإغريق ، حتى يقتبسوا منهم ، لأنهم لم يكونوا يعرفون

---

(١٩) والسعودية كما خبرت ذلك بالسماع منهم .

اليونانية مع أن قواعد العربية تختلف اختلافا جوهريا عن اللغة اليونانية .

٤ - كان علماء البصرة والكوفة يأخذون فى وضع القواعد من لغة المحادثة عند القبائل العربية ، متحرين الدقة فى ذلك ، وليس بمعقول أن يتواطأ جميع العلماء مع علماء النحو على هذا الاختلاق ، والاختراع .

٥ - اكتشفت نقوش فى شمال الحجاز تدل دلالة قاطعة على وجود الإعراب فى العربية البائدة نفسها .

٦ - أوزان الشعر العربى تقوم على الموسيقى ، ولابد لها من الإعراب .

٧ - تواتر القرآن بالإعراب [٢٠] . دليل قاطع على وصول الكلمات إلينا معربة وكذلك رسم المصحف العثمانى ، مع تجرده من الإعجام ، والشكل ، وذلك أن المصحف يرمز إلى كثير من علامات الإعراب بالحروف المؤمنون - رسولا - شهيدا ... إلخ .

ولا شك أن المصحف العثمانى قد دون فى عصر سابق بأمد غير قصير لعهد علماء البصرة ، والكوفة الذين تنسب إليهم هذه المذاهب الفاسدة اختراع قواعد الإعراب [٢١] .

وقد أثبت المستشرق يوهان فك أن الإعراب من سمات العربية القديمة ، فأشعار عرب البادية من قبل العهد الإسلامى ، ومن بعده ، ترينا علامة الإعراب مطردة كاملة السُلطان ، كما أن الحقيقة الثابتة من أن النحويين واللغويين الإسلاميين كانوا حتى القرن الرابع الهجرى ،

---

(٢٠) وكذلك نقلت إلينا الأحاديث النبوية معربة ، وطريقة نقلها موثوق فى صحتها ومقاييسها ، انظر د. الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢١) انظر د. وافى : فقه اللغة ص ٢٠٤ - ٢١٠ .

والعاشر الميلادى - على الأقل - يختلفون إلى عرب البادية لدرس لغتهم تدل على أن التصرف الإعرابى كان بالغا أشده لذلك العهد ، بل لا نزال حتى اليوم نجد فى بعض البقايا الجامدة من لهجات العرب البداة ظواهر الإعراب ، كما استدل - أيضا - بالقرآن الكريم ، وإعرابه ، إذ إنه أقدم أثر من آثار النثر الأدبى [٢٢] .

ودقة الإعراب ، وتنوعه ليست مانعا من التخاطب بلغة معربة ، ولهذا نظائر فى تاريخ اللغات الأوربية كالألمانية التى لا تزال لغة تخاطب بين الألمان [٢٣] .

وعد الدكتور مهدى المخزومى هذا الرأى - أيضا - زعما يستند إلى تجاهل تلك القرائن القاطعة [٢٤] .

ووصف الدكتور صبحى الصالح جعل الإعراب قصة بأنه غلو لا ريب فيه [٢٥] .

وكذلك الأستاذ مصطفى صادق الرافعى إذ يقول :

نقطع بأن اللحن لم يكن فى الجاهلية ألبتة ، وكل ما كان فى بعض القبائل من خور الطباع ، وانحراف الألسنة فإنما هو لغات لا أكثر ، ولا عبرة بما يهجس به بعض أولئك الذين تراهم فى مجازفتهم ، وتخرصهم كأنما يشرحون للناس علم الغيب [٢٦] .

وقد ذكر ابن جنى أن العرب أشد استنكارا لزيغ الإعراب منهم ، لخلاف اللغة [٢٧] .

---

(٢٢) يوهان فك : العربية ص ٣ ، ٤ .

(٢٣) عبد المجيد عابدين : المدخل ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢٤) د. المخزومى : مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو ص ٢٤٧ .

(٢٥) د. الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ١٢٩ .

(٢٦) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص ٢٣٩ ، ٢٥٤ .

(٢٧) ابن جنى : الخصائص ٢ / ٢٦ .

وهذه الردود القاطعة تنفى أن لهجات التخاطب الأولى كانت خالية من الإعراب ، كما تنفى أن يكون النحاة قد اخترعوا شيئا من القواعد .

فالحقيقة الناصعة أن الإعراب ثابت فى العربية ، وقديم قدم العربى نفسه .

لم دخل الإعراب الكلام ؟

١ - رأى معظم الباحثين القدامى والمحدثين :

دار حوار طويل بين علماء اللغة حول علامات الإعراب - التى هى الحركات - وما تدل عليه .

وجمهرة الباحثين قديما وحديثا يقولون : إن الإعراب دخل الكلام لإفادة المعانى المختلفة .

يقول أحمد بن فارس : فأما الإعراب فبه تميز المعانى ، ويرقف على أغراض المتكلمين ، وذلك أن قائلا لو قال : (ما أحسن زيد) - غير معرب - أو (ضرب عمرو زيد) غير معرب - لم يوقف على مراده، فإذا قال : ما أحسن زيدا - بفتح نون أحسن ونصب زيدا - أو : ما أحسن زيد - بضم نون أحسن وإضافة زيد إليه - أو : ما أحسن زيد - بفتح نون أحسن وجعل زيد فاعلا - أبان بالإعراب عن المعنى الذى أراده، ثم يقولون : هذا غلاما أحسن منه رجلا - يريدون الحال فى شخص واحد ، ويقولون : هذا غلام أحسن منه رجل - فهما إذا شخصان، وتقول : كم رجلا رأيت ؟ فى الاستخبار ، وكم رجل رأيت . فى الخبر يراد به التكثير ، وهن حواج بيت الله - بضم الجيم المشددة وإضافة حواج إلى بيت - إذا كن قد حججن ، وحواج بيت الله - بنصب بيت - إذا أردن الحج ، ومن ذلك جاء الشتاء والحطب - بنصب الحطب -

لم يرد أن الحطب جاء ، إنما أراد الحاجة إليه ، فإن أراد مجيئهما قال : والحطب - بالرفع - وهذا دليل يدل على ما وراءه [٢٨] .

ويقول في موضع آخر : إن الإعراب هو الفارق بين المعاني ، ألا ترى أن القائل إذا قال : (ما أحسن زيد) لم يفرق بين التعجب ، والاستفهام والذم إلا بالإعراب ، وكذلك (ضرب أخوك أخانا) و (وجهك وجه حر) - بإضافة وجه إلى حر - و (وجهك وجه حر) - برفعهما منونين على الصفة - وما أشبه ذلك من الكلام [٢٩] .

ويقول في موضع ثالث : من العلوم الجلية التي خصت بها العرب الإعراب الذى هو الفارق بين المعانى المتكافئة فى اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذى هو أصل الكلام ، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا مصدر ، ولا نعت من تأكيد [٣٠] .

ويقول ابن جنى : الإعراب : هو الإبانة عن المعانى بالألفاظ ، ألا ترى أنك إذا سمعت : أكرم سعيد أباه ، وشكر سعيدا أبوه علمت برفع أحدهما ، ونصب الآخر الفاعل من المفعول ، ولو كان الكلام شرحا واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه .

وهو يشرح معانى الإعراب فيقول :

إن لفظه مصدر أعربت عن الشئ إذا أوضحت عنه ، وفلان معرب عما فى نفسه : أى مبين له ، وموضح عنه ، ثم يقول :

---

(٢٨) ابن فارس : الصاحبى ، باب الخطاب الذى يقع به الإفهام من القائل والفهم من السامع ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢٩) المصدر السابق ، باب القول فى حاجة أهل الفقه والفتيا إلى معرفة اللغة العربية ، ص ٣١ .

(٣٠) المصدر السابق ، باب ذكر ما اختصت به العرب ، ص ٤٢ .

وأصل هذا كله قولهم العرب ، وذلك لما يعزى إليها من الفصاحة ، والإعراب ، والبيان ثم يقول :

ولما كانت معانى المسمين مختلفة كان الإعراب الدال عليها مختلفا أيضا ، وكأنه من قولهم : (عربت معدته) أى فسدت كأنها استحالت من حال إلى حال كاستحالة الإعراب من صورة إلى صورة .

وقد ألمح ابن جنى إلى جواز التقديم والتأخير للفاعل ، والمفعول لدلالة الحركات الإعرابية عند حديثه عن مثل (ضرب يحيى بشرى) متى يجوز تقديم الفاعل وتأخير المفعول ، فالعبرة عند خفاء الإعراب على قرائن أخرى ، وإلا لم يجز تقديم المفعول على الفاعل [٣١] .

ويقول أبو القاسم الزجاجى : إن الأسماء لما كانت تعتورها المعانى فتكون فاعلة ، ومفعولة ، ومضافة ومضافا إليها ، ولم تكن فى صورتها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى ، بل كانت مشتركة جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعانى .

ثم قال : وكذلك سائر المعانى ، جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ، ليتسعوا فى كلامهم ويقدموا الفاعل إن أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه ، وتكون الحركات دالة على المعانى هذا قول جميع النحويين إلا قطربا [٣٢] .

ومعظم الباحثين المحدثين يؤيد هذا الرأى .

فالأستاذ العقاد يقول : إن الإعراب فى اللغة العربية أثر من آثار استخدام الحركة فى التعبير عن المعنى [٣٣] ، ثم يذكر أن ذلك مفيد فى

---

(٣١) ابن جنى : الخصائص ، باب القول على الإعراب ، ١ / ٣٥ - ٣٧ .

(٣٢) الزجاجى : الإيضاح ص ٦٩ ، ٧٠ وانظر العاملى : مولد اللغة ص ٧٦ .

(٣٣) العقاد : اللغة الشاعرة ص ١٩ .

التراكيب العربية ، فهو آية السليقة الفنية فيها توافرت لها جملا مفهومة بعد أن توافرت لها حروفا تجمع مخارج النطق الإنسانى على أفصحها ، وأوفاها .

ومزية أخرى وهى أنه يجوز مع الإعراب - كما ذكر السابقون - التقديم والتأخير ، وذلك يحتاج إليه فى كل وزن من أوزان البحور .

ولم تكن قواعد الإعراب لتسعد الشعر هذا الإسعاد فى تطويع أوزانه لمعانيه لو أنه نظم قصائده بلغة أجنبية لأنه لا يظفر فى تلك اللغة بالكلمات التى تتساوق فيها أوزان الصرف ، وأوزان الشعر ، ولكن اللغة العربية تنفرد بسمة الشاعرية لأنها جمعت على هذا المثال البديع بين أبواب الاشتقاق ، وحركات الإعراب [٣٤] .

ويقول الدكتور عثمان أمين :

« لما كانت العربية لغة تتوخى الإيضاح ، والإبانة كان الإعراب إحدى وسائلها ، فكان إفصاحا عن صلات العربية ، بعضها ببعض وعن نظم تكوين الجمل ، بالحالات المختلفة لها » [٣٥] .

ويقول الأستاذ عابدين : إن « حركات الإعراب تبين وظيفة الكلمة المعربة فى العبارة ، وعلاقتها بما عداها من أجزاء الكلام » [٣٦] .

والأستاذ جورجى زيدان : يثبت أن الإعراب أرقى ما وصلت إليه اللغات حتى الآن .. فإن تقديم الألفاظ ، وتأخيرها قلما يؤثران فى المقصود من العبارة إذا حفظت حركات الإعراب ، ففى العربية الفصحى

---

(٣٤) المصدر السابق ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ .

(٣٥) د. أمين : فلسفة اللغة العربية ص ٥٢ ، وفى اللغات الأخرى غير المعربة يميز بين الكلمات بمواقعها ، وبأدوات خاصة ، المصدر السابق ص ٥٢ - ٥٤ .

(٣٦) عابدين : المدخل ص ٣٣ .

نقول : قتل الأسد النمر ، وقتل النمر الأسد والأسد قتل النمر ، والأسد النمر قتل والنمر قتل الأسد - برفع الأسد ونصب النمر فيها - وجميعها ، تفيد أن الأسد القاتل ، والنمر المقتول ، وإذا أردنا العكس لا نحتاج إلا إلى تغيير حركات الإعراب » [٣٧] .

ونحن نميل إلى هذا الرأى الذى يثبت أن الحركات الإعرابية دوال على المعانى ، فلولاها ما عرفنا الفاعل من المفعول ، ويكفى أن نذكر أن أبا الأسود الدؤلى سمع قارئا يقرأ : « أن الله برئ من المشركين ورسوله » - بالجر - فقال : معاذ الله أن يكون بريئا من رسوله اقرأ : « أن الله برئ من المشركين ورسوله » - بالرفع - فالكلام واحد ، ولم يتغير فيه إلا حركة اللام ، فإذا حركت بالكسر ، أدى إلى الكفر ، وإذا حركت بالرفع أدى إلى معنى مستقيم لا كفر فيه » [٣٨] .

وقد روى أن ابنة أبى الأسود سألته : ما أحسن السماء يا أبت ؟ - برفع (أحسن) وجر (السماء) فقال : نجومها ، فقالت : لا أريد هذا إنما أتعجب من حسنها ، فقال : ما هكذا تقولين ، قولى : ما أحسن السماء - بالنصب [٣٩] وفى رواية أخرى وافتحى فاك .

فدلالة حركات الإعراب على المعانى - فى نظم الكلام وتراكيبه - هو الصواب الذى لا معدل عنه .

رأى ابن مضاء :

يجعل ابن مضاء الإعراب جزءا من بنية الكلمة فلا يسأل عنه كما لا يسأل عن أية حركة فى بنية الكلمة .

---

(٣٧) جورجى زيدان : الفلسفة اللغوية ص ١٣٢ .

(٣٨) محمد عرفة : النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة ص ١٧ .

(٣٩) المصدر السابق ص ١١٧ .

يقول : « وكما أنا لا نسأل عن عين «عظلم» [٤٠] وجيم (جعفر) ، وباء (برثن) لم فتحت هذه ، وضمت هذه ، وكسرت هذه ، فكذلك أيضا لا نسأل عن رفع (زيد) ، فإن قيل : (زيد) متغير الآخر . قيل : كذلك (عظلم) يقال - في تصغيره - بالضم ، وفي جمعه - على فعائل - بالفتح ، فإن قيل : للاسم أحوال يرفع فيها ، وأحوال ينصب فيها ، وأحوال يخفض فيها قيل : إذا كانت تلك الأحوال معلومة بالعلل الأول ، الرفع - بكونه فاعلا ، أو مبتدأ ، أو خبرا ، أو مفعولا لم يسم فاعله - والنصب - بكونه مفعولا - والخفض - بكونه مضافا إليه - صار الآخر كالحرف الأول الذى يضم فى حال ، ويفتح فى حال ويكسر فى حال ، يكسر فى حال الإفراد ، ويفتح فى حال الجمع ، ويضم فى حال التصغير » [٤١] .

وقد عد ذلك الدكتور أنيس مذهبا جديدا ، فهو « يشبه حركات الإعراب بالحركات التى هى جزء من بنية الكلمة ، أو الصيغة والتى هى شرط فى التعرف على هذه الكلمة ، أو تلك الصيغة ، فى حين أن فقدان الكلمة لحركات إعرابها لا يفقدها شيئا من معالمها ، ولا يؤثر فى فهمنا لمعناها ، فكم من كلمات نقف عليها بما يسمى السكون ، ومع ذلك ندرك بسهولة المراد منها ، ولا يلتبس علينا الأمر فى التعرف على مركزها من الجملة [٤٢] .

ويقول : إن « قياس حركات الإعراب على تلك الحركات التى هى جزء أساسى من بنية الصيغ قياس مع الفارق لأن تغير حركات الإعراب لا يؤثر فى الصيغة ولا يغير معنى الكلمات » [٤٣] .

ولكننا نرى أن ابن مضاء يتفق مع العلماء السابقين - أصحاب

---

(٤٠) العظلم : كزبرج الليل المظلم ، وعصارة شجر ، أو نبت يصبغ به .

(٤١) ابن مضاء : الرد على النحاة ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٤٢) د. أنيس : من أسرار اللغة ص ٢٢٦ .

(٤٣) المصدر السابق ص ٢٢٧ .

الرأى الأول فى دلالة حركات الإعراب على المعانى [٤٤] ، غاية ما هنالك أنه يمنع التعليلات المعقدة التى تجعل من الإعراب مشكلة عويصة ، فهو يكتفى بأن يقال : إن هذا الاسم مرفوع ، لأنه فاعل وهذا منصوب لأنه مفعول ، ولا ينبغى أن يكون هناك سؤال بعد ذلك ، وتلك هى العلل الأولى التى يدعو إليها .

وأما الدكتور أنيس فقد هاجمه فى دلالة الحركات على المعانى فهو يؤمن بأنها ليست كذلك [٤٥] . وسنناقشه بعد قليل عند عرضنا لرأيه .

٣ - رأى قطرب ومن تابعه :

يرى قطرب (محمد بن المستنير تلميذ سيبويه) [٤٦] إن العرب (إنما أعربت كلامها لأن الاسم فى حال الوقف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضا لكان يلزمه الإسكان فى الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عند الإدراج ، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ليعتدل الكلام ، ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ، ومتحركين وساكن ، ولم يجمعوا بين ساكنين فى حشو الكلمة ، ولا فى حشو بيت ، ولا بين أربعة أحرف متحركة ، لأنهم فى اجتماع الساكنين يبطئون ، وفى كثرة الحروف المتحركة يستعجلون ، وتذهب المهلة فى كلامهم فجعلوا الحركة عقب الإسكان ، [٤٧] .

---

(٤٤) يقول الدكتور الصالح : إن ابن مضاء لم يبلغ بآرائه الجديدة فى النحو حد إنكار ما للحركة الإعرابية من مدلول ، بل كان على العكس من ذلك يرى : أن فقدان هذه الحركة فى كلمة ما لابد أن يؤثر فى توجيه فهمها حتى ليوشك أن يعتبر الحركات الإعرابية جزءا من بنية الكلمة ، انظر دراسات فى فقه اللغة ص ١٤٢ .

(٤٥) د. أنيس : من أسرار اللغة ص ٢٢٨ .

(٤٦) ت سنة ٢٠٦ هـ ، انظر : الزبيدى فى طبقاته ص ١٠٦ ، والسيوطى : بغية الوعاة ص ١٠٤ ، والقفطى : إنباه الرواة ٣ / ٣١٩ .

(٤٧) الزجاجى : الإيضاح ص ٧٠ ، ٧١ .

فالإعراب - في رأيه - ليس للدلالة على المعاني ، بل لا يعدو أن يكون مجرد حركات لوصل الكلام ، وهو يعاقب السكون ، فالكلام إما موقوف عليه أو موصول ، فإذا وقف عليه يلزمه السكون ، وإذا وصل حرك ، « ولم يلتزموا حركة واحدة لئلا يضيقوا على أنفسهم ، فأرادوا الاتساع في الحركات ، وألا يحظروا على المتكلم الكلام إلا بحركة واحدة » (٤٨) .

وقد تابع قطربا في رأيه الدكتور إبراهيم أنيس من المحدثين ، فهو يقول : يظهر - والله أعلم - أن تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل في الكلام شعرا أو نثرا ، فإذا وقف المتكلم أو اختتم جملته لم يحتج إلى تلك الحركات ، بل يقف على آخر كلمة من قوله بما يسمى السكون كما يظهر أن الأصل في كل الكلمات أن تنتهي بهذا السكون ، وأن المتكلم لا يلجأ إلى تحريك الكلمات إلا لضرورة صوتية يتطلبها الوصل » .

« ولهذا كله نرجح أن حركات أواخر الكلمات لم تكن تفيد تلك المعاني التي أشار إليها النحاة ، من الفاعلية ، والمفعولية ، ونحو ذلك ، وإنما هي حركات دعا إليها نظام المقاطع ، وتواليها في الكلام الموصول ، ثم إنها لم تكن ملتزمة في كل الحالات ، بل قد رأينا ألا ضرورة لها إلا في القليل من الأحيان ، وقد كانت تلك الحركات التي تطلبها نظام المقاطع تتذبذب بين الفتح أو الضم أو الكسر ، وكان الذي يعين الحركة أحد عاملين طبيعة الصوت المحرك ، أو انسجام الحركة مع ما يكتنفها من حركات أخرى (٤٩) .

ففي مثل : (الشجر مورق) لم يكن العربي يحتاج إلى تحريك الراء ، ولكنه في مثل : (شجر التفاح) يحتاج إلى تحريك الراء ، وقد

---

(٤٨) د. أنيس : من أسرار اللغة ص ٢٠٨ .

(٤٩) المصدر السابق ص ٢٥٣ .

نقل عن العرب أنهم كانوا يتخلصون من التقاء الساكنين بإحدى الحركات الثلاث ، - الكسرة - الضمة - الفتحة - ثم خصه النحاة بالكسرة ، وجعلوا الحالات الأخرى إعرابا ، ثم طردوا الظاهرة التى اخترعوها .

وللدكتور أنيس رأى فى الإعراب بالحروف كالمثنى ، وجمع المذكر ، والأسماء الخمسة .

فقد جعل حالات الإعراب - رفعا ونصبا وجرا - منسوبة لقبائل متعددة ، كانت كل منها تلتزم صيغة واحدة لها ، ثم جمعها النحاة ، وفرقوها على حالات الإعراب .فالمثنى كان يستعمل بالألف - مطلقا - عند بعض القبائل ، وبالياء - مطلقا - عند آخرين ، وقد عد الدكتور أنيس الصيغة بالياء أصلا وبالألف فرعا ، وجمع المذكر كان يستعمل بالواو عند قبائل معينة ، وبالياء عند غيرهم ، وخص الأولى بحالة الرفع ، والثانية بحالى النصب والجر ، وكذلك الأسماء الخمسة كانت تستعمل بالواو عند جماعة ، وبالألف عند فريق ثان ، وبالياء عند ثالث ، ثم خص النحاة كل صورة بحالة إعرابية .وقد أجرى الدكتور أنيس شرحا واسعا لطرق الوقف فى العربية محاولا أن يستنبط منها أدلة لهذا الرأى الذى «حلاله أن يلتزم به مفصلا فيه ، وكأنه أول من قال به » [٥٠] وبعد أن أجرى دراسات مستفيضة للوصل ، والوقف وبعض الاستنتاجات العربية الأخرى يقول :

فإذا عرفنا أن أصول الإعراب كانت محل الزلل ، والخطأ ، بين أصحاب اللغة ، بل الفصحاء منهم ، وإذا كانت هذه الأصول الإعرابية لا تتفق فى بعض الأحيان مع ما صح سنده من قراءات قرآنية ، ولا مع بعض الفواصل القرآنية ، وما تتطلبه من نظام موسيقى ، وإذا كان سقوط تلك الحركات الإعرابية فى حالات الوقف لا يغير من المعنى ، ولا

---

(٥٠) د. السامرائى : دراسات فى اللغة ص ١٢ .

يؤثر فيه ، وإذا كانت آراء النحاة بصدد الأصول الإعرابية على تلك الصورة من الاضطراب ، والاختلاف الشائع فى كتبهم فهل بعد كل هذا يطمئن الباحث المنصف إلى قواعده ، ويعتقد أن النحاة قد نجحوا فى تفسير ظاهرة لغوية سمعوها ، فاستقرأوا شواهدها ، واستنبطوا طرقها [٥١] .

وهذا الرأى - مع ما ذهب إليه قطرب من القدامى - لا يخرج عن اعتبار حركات الإعراب لا معنى لها ، فى الدلالة على فاعلية ، أو مفعولية ولا تفيد فى تركيب الجمل ، ونحوها من نظم التراكيب اللغوية ، بل هى مجرد حركات للوصل ، والانسجام الموسيقى فى الكلام .

وقد رد الأقدمون على قطرب بأنه لو كان كما زعم لجاز خفض الفاعل مرة ، ورفعه أخرى ، ونصبه ثالثة وجاز نصب المضاف إليه ، لأن القصد إنما هو الحركة تعاقب سكونا يعتدل به الكلام ، وأى حركة أتى بها المتكلم أجزأته ، فهو مخير فى ذلك ، وفى هذا فساد للكلام ، وخروج عن أوضاع العرب ، وحكمة نظام كلامهم » [٥٢] .

وهذا الرد يهدم مذهب قطرب ، لأنه لا يجعل للغة اطرادها وانسجامها ، كما أراد .

ولم ترتض جمهرة الباحثين انسياق الدكتور أنيس وراء هذا الرأى - بتفصيلاته التى ذكرناها - فقد وصفه الأستاذ عضيمة بأنه أسرف فى زعماته ودعاويه [٥٣] وأنه خلط وتخبط [٥٤] .

---

(٥١) د. أنيس : من أسرار اللغة ص ٢٣٣ .

(٥٢) الزجاجى : الإيضاح ص ٧١ .

(٥٣) الشيخ عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد السادس ص ٧٧ .

(٥٤) المصدر السابق ص ٨٠ ، وانظر أيضا ص ٦٩ .

وعد الدكتور السامرائي رأيه في الإعراب افتراضا لا يقوم على أساس علمي تاريخي [٥٥] .

وكذلك الأستاذ عابدين حين قال لسنا نرى ما رآه الدكتور إبراهيم أنيس من أن تحريك أواخر الكلمات كان لعوامل صوتية [٥٦] .

ولأستاذنا الشيخ عضيمة وقفات معه بيَّن فيها خطل رأيه .

فالدكتور أنيس جعل حركات أواخر الكلمات للانسجام دون أن يبين ضوابط هذا الانسجام وحدوده ، وإذا سئل عن ذلك لم تسمع منه إلا همهمة لا تبين وغمغمة لا تتضح ، تارة يكون الانسجام عنده بأن يحرك الحرف الأخير بحركة ما قبله ، وتارة يكون بأن يحرك الحرف الأخير بحركة ما بعده ، ومن حق هذا الانسجام أن يرفع وينصب ، ويجر ويسكن الأسماء والأفعال [٥٧] .

وقد جعل لنفسه امتياز الكشف عن ماهية هذا الانسجام فهو خاضع لهواه ومزاجه .. ولو جعل هذا الانسجام من حق المتكلم أو القارئ لكان سمحا كريما [٥٨] .

لقد تعرض النحويون لحملات ظالمة في عصور مختلفة ، وما جرؤ أحد على أن يرميهم بما رماهم به الدكتور أنيس .

وقد ناقشه في نظريته وبين فسادها .

فالدكتور أنيس يذكر قول أبي ذؤيب :

أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا   إلا أقض عليك ذلك المضجع

---

(٥٥) د . السامرائي : دراسات في اللغة ص ١٣ .

(٥٦) عابدين : المدخل ص ٣٧ .

(٥٧) د . عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض ، العدد السابق ص ٦٩ .

(٥٨) المصدر السابق ص ٦٧ .

ويهرب من الحديث عن كلمة (مضجع) لم جاءت مرفوعة مع أن الانسجام يقتضى خلاف ذلك ؟

ثم إنه يدعى أن قول أبى ذؤيب :

« أمن المنون وريبها تتوجع »

قد أخطأ النحويون فى ضبطه فهو يخالف النحويين فى أن تكون حركتها الكسرة ، ويرجح أن الشاعر قد نطق نون « المنون » مفتوحة لانسجام هذا مع طبيعة النون ، ومع ما يكتنفها من حركات ، ولا شك أن الانسجام بين الحركات يأبى توالى الضم ثم الكسر ثم الفتح كما يزعم النحاة .

ويقول الأستاذ عضيمة معلقا :

يزعم الدكتور أن الانسجام بين الحركات يأبى توالى الضم ، والكسر ، ثم الفتح ، من أين أتى بهذا القانون ؟ وكيف وقع عليه ؟ إن توالى الضم والكسر ثم الفتح جاء فى الكلمة الواحدة (علم) - (سمع) بالبناء للمجهول - أفلا يأتى فى كلمتين ؟

ونجد توالى الضم ، والكسر والفتح كثيرا جدا فى القرآن الكريم .

ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ﴾ (٢٠ : ١٢٨) إلى غير ذلك مما ذكره الشيخ عضيمة من آيات وجاء ذلك فى قول الأعشى :

ألأن رأت رجلا أعشى أضربه ريب المنون ودهر متبل خبل

(المنون ودهر) .

ويقول الأستاذ عضيمة : ولست أعرف معنى لقوله (إن الشاعر نطق بالنون مفتوحة لانسجام هذا مع طبيعة النون ، هل يرى أن

الكلمات المختومة بالنون لا ينبغي أن تكون مجرورة أو يرى أن كلمة (المنون) وحدها لا تكون مجرورة .

جاء لفظ (المنون) مجرورا في قوله تعالى : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ (٢٢ : ٣٠) .

ويقول الدكتور أنيس :

– وفي كلمة « ريب » في بيت أبي ذؤيب – ترى أنه يترتب على وصلها بما بعدها أن يتوالى ثلاثة حروف تواليا مباشرا هي الياء + الباء + الهاء ، ولا يتأتى هذا في نظام توالي الحروف العربية في وصل الكلام ، ولذلك وجب تحريك الباء في كلمة (ريب) غير أننا نخالف النحويين في أن حركتها الكسرة كما يزعمون ونرجح أن حركتها هنا الفتحة لتنسجم مع ما يجاورها من حركات .

ويذكر الدكتور عضيمة أن هذا الموقف تتجلى فيه ثلاثة أمور :

١ – يختلق الدكتور أنيس قوانين لا أصل لها وليست ثمرة اجتهاد ودراسة ولكنها وحي التخبيط والتخليط .

٢ – يصر الدكتور على أن النحويين عبثوا بكلام العرب ، وغيروا حركات أواخره ، يتهم النحويين هذا الاتهام الخطير من غير أن يقدم دليلا وحجة لما يدعيه .

٣ – « من » الجارة لا يسمح لها الانسجام عند الدكتور أن يقع الاسم بعدها مجرورا [٥٩] .

وقد ناقشه في غير ذلك مما لا يتسع المقام لذكره .

---

(٥٩) د. عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض ، العدد السابق ص ٧١ - ٧٥ .

وأشار إلى أن الحركات الإعرابية لها أثر فى إيضاح المعانى المرادة وطبق ذلك فى كثير من الأمثلة (٦٠) .

وقد ناقش الدكتور مهدى المخزومى - أيضا - رأى الدكتور أنيس فى رسالته « مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو » مناقشة دقيقة وتتبع كلامه نقطة بعد الأخرى .

فإذا كانت حركات الإعراب - تبعا لهذا الرأى - حركات لوصل الكلام فقد رجح الدكتور أنيس أن تكون كلمة « شاحبا » - فى قول الشاعر :

قالت أميمة ما لجسمك شاحبا　　منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

قد نطقها الشاعر مكسورة ، ولكن النحاة أبدلوا الكسرة فتحة لتنسجم مع قواعدهم (٦١) فهل يرى - مثلا - أن قوله تعالى من سورة الجن : ﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ﴾ إنما قرأها النبى ﷺ (كذب) بكسر الباء لتنسجم مع كسرة الذال كما زعم أن أبا ذؤيب كان قد نطق كلمة « شاحب » - فى البيت السابق - بكسر الباء ؟ .

وقد وقع كثير من الأمثلة المعربة بما يخالف رأى الدكتور مثل : «لواقع» فى القرآن الكريم ، فوقوع الضمة فى العين بعد الكسرة فى القاف مما لا ينطبق عليه القانون الصوتى الذى استند إليه الدكتور لأن العرب - كما صرح الفراء وغيره - يستثقلون كسرة بعدها ضمة كما يستثقلون ضمة بعدها كسرة (٦٢) .

---

(٦٠) المصدر السابق ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٦١) د. أنيس : من أسرار اللغة ص ١٤٩ ، ٢٥١ .

(٦٢) وكثير من هذه المواقع الإعرابية المشكلة فى فواصل القرآن قد خضع لتنوع القراءات وتأرجحها بين صورتين متضادتين ، وحركتين متقابلتين كالضم ، والكسر مثلا كما يقول الدكتور الصالح ، انظر كتابه : دراسات فى فقه اللغة ص ١٢٣ .

فعقلية الجماعة - كما يقول الدكتور المخزومي - قد تناست هذا العامل الصوتي الذى يلح عليها بالانسجام بين الحركات فيما يتصل بحركة آخر الكلمة وهي الحركة الإعرابية تناسته مضطرة للتمييز بين أحوال الكلمات في ثنايا التأليف وإلا فاتها الغرض وهو الإفهام .

كيف يفسر الدكتور حالات الوقف عند من ينتظر ، ففي الرفع ينطقون بالضمة ، ويطيلونها فكأنما هي واو ، وإذا وقفوا على المكسور أطالوا كسرته فكأنما هي ياء ، فيقولون : خالدو - خالدى ، وهناك من لا ينتظر ، وقريش كانوا وسطا بين هذا وذاك ، فيبقون الفتحة ، ويسقطون ما عداها : جاء خالدْ - مررت بخالد - رأيت خالدا .

« فإذا لم تكن الحركات أعلاما لمعان قصد إليها المتكلم بل لم تعد أن تكون حركات يحتاج إليها - في كثير من الأحيان - لوصل الكلمات بعضها مع بعض ، فكيف يفسرون الوقف على « خالد » في لغة من ينتظر ؟ ولماذا كانت الدال مرفوعة ، ومنصوبة ، ومخفوضة في الجمل الثلاث ؟ ولماذا لا تكسر لتنسجم حركة الدال مع حركة اللام قبلها ؟ (٦٣) .

فالقول بأن الحركات سد للحاجة إلى وصل الكلمات بعضها ببعض وأنها ليست أعلاما للمعاني قول لم يحالفه التوفيق (٦٤) إذ تعترضه مشكلات كثيرة لا يستطيع حلها ، والإجابة عنها ، فحالات الوقف التي استدل بها لا تعضده ، ومبدأ المناسبة الذى اعتمد عليه تخالفه النصوص الصريحة .

٤ - رأى الأستاذ إبراهيم مصطفى :

يدعى الأستاذ إبراهيم مصطفى أن النحاة العرب جعلوا الإعراب

---

(٦٣) د. المخزومي : مدرسة الكوفة ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .

(٦٤) المصدر السابق ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .

حكما لفظيا خالصا يتبع لفظ العامل وأثره ، ولم يروا فى علاماته إشارة إلى معنى ولا أثرا فى تصوير مفهوم ، أو إلقاء ظل على صورته (٦٥) .

ثم يخلص من ذلك ليقرر أن الضمة علم الإسناد ، ودليل أن الكلمة المرفوعة يراد أن يسند إليها ، ويتحدث عنها ، وأن الكسرة علم الإضافة ، وإشارة إلى ارتباط الكلمة بما قبلها ، سواء كان هذا الارتباط بأداة ، أم بغير أداة ، كما فى « كتاب محمد » و « كتاب لمحمد » .

أما الفتحة فليست علامة إعراب ، ولا دالة على شئ ، بل هى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب التى يراد أن تنتهى بها الكلمة كلما أمكن ذلك ، فهى بمثابة السكون فى لغة العامة .

فللإعراب الضمة ، والكسرة فقط ، وليستا بقية من مقطع ولا أثرا لعامل من اللفظ بل هما من عمل المتكلم ليدل بهما على معنى فى تأليف الجملة ، ونظم الكلام (٦٦) .

ودعوى أن النحاة لم يروا حركات الإعراب دالة على المعانى منقوضة فهم قد نصوا على أن الضمة علم الفاعلية ، والفتحة علم المفعولية ، والكسرة علم الإضافة ، وقد سبق ذكر النصوص المؤيدة لذلك .

ويمكن أن نفهم هذه الدلالة - أيضا من قول ابن مالك :

ورفع مفعول به لا يلتبس ونصب فضلة أجز ولا تقس

فمعنى البيت : أن الرفع علامة الفاعلية ، والنصب علامة المفعولية فإن كان هناك موضع تميز فيه الفاعل من المفعول بغير العلامة

---

(٦٥) إبراهيم مصطفى : إحياء النحو ص ٤١ ، وانظر د . مهدى المخزومى فى النحو العربى من تقديم الكتاب للأستاذ مصطفى السقا ص ٥ وص ١٨٦ من كلام الدكتور المخزومى .

(٦٦) إبراهيم مصطفى إحياء النحو ص ٥٠ .

فأعط كل واحد منهما علامة الآخر ، مادام الأمر لا يلتبس ككسر الزجاج الحجر ، فإنه معلوم هنا الكاسر من المكسور (٦٧) .

فقول الأستاذ إبراهيم : إن النحاة لم يجعلوا الحركات الإعرابية دلائل على المعانى قول يخالفه واقع الكلام العربى ، ودراسة النحاة له ، فكتبهم مليئة بالدلالة على ذلك .

وقوله : إن الضمة علم الإسناد ، والكسرة علم الإضافة ليس جديدا وإنما استمده من كلام السابقين .

ففى شرح الكافية للرضى أن الرفع علم كون الكلمة عمدة فى الكلام والعمدة هو ما كان أحد ركنى الإسناد ، فقول الرضى (علم كون الكلمة عمدة) مساو لقول القائل (علم الإسناد) إلا أنه أراد بعض ما تدل عليه الكلمة - وهو كون الكلمة مسندا إليها - ولم يرد الشق الآخر - وهو كون الكلمة مسندة - مع أن كلمة الإسناد شاملة للمعنيين .

والخلاف بين هذا القائل وبين ما ذهب إليه الرضى وغيره من النحويين المتقدمين منحصر فى التعليل لما خرج عن هذا الحكم ، أى ما كان مسندا إليه ونصب ، أو ما كان مسندا ونصب (٦٨) .

وقوله : إن الكسرة علم الإضافة منقول عن العلامة ابن الحاجب وشارحه المحقق الرضى (٦٩) .

فالأستاذ إبراهيم يرى أن الكسرة تدل على معنى فى الكلام - وهو الإضافة - ويرى - أيضا أن الإضافة باب كثير الدوران بيانا للأغراض المختلفة وأن على النحاة أن يدرسوها درسا واسعا عميقا لا

---

(٦٧) وإن كنا نرى أن هذا المثال ونحوه - كخرق الثوب المسمار - من صنع النحويين ، والإجابة عليها تكلف ظاهر .

(٦٨) محمد عرفة : النحو والنحاة ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٦٩) الرضى : شرح الكافية ١ / ٢١ .

ليتبينوا أثرها فى اللفظ ، وحكمها فى الإعراب بل ليعرفوا سبيلها فى البيان ، وأثرها فى تصوير المعانى ، ومدى تصرف العرب فيها .

ونحن نجيبه بأن النحاة قد فعلوا ذلك ، فكما درسوا حكمها فى الإعراب درسوا سبيلها فى البيان ، وأثرها فى تصوير المعانى ، وعقدوا بابا لبيان معانى حروف الإضافة (حروف الجر) وأطالوا ما شاءت لهم القدرة على استقصاء كلام العرب وبينوا متصرف هذه الحروف [٧٠] .

فلم يأت الناقد بجديد بل أتى برأى القدماء فى عبارة أخرى ، والذى ابتكره على وجه الخصوص وهو ابتكار غير مقبول قوله : إن الفتحة ليست علامة إعراب ولا دالة على شئ بل هى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب ، فهى بمثابة السكون فى لغة العامة .

ودلل على استقامة رأيه فى أن الفتحة أخف من السكون بلزوم قطع النفس عند النطق ببعض الحروف ساكنا ، وإرسال النفس فى البعض الآخر ، ولزوم ترديد اللسان فى بعض ثالث .

والعرب يميلون إلى التخفيف فيسكنون عين الثلاثى إذا كانت مضمومة ، أو مكسورة - كرسل وفخذ - فإذا كانت مفتوحة - مثل جمل - استبقوها مفتوحة ، فأخذ من ذلك أن السكون لو كان أخف من الفتحة لمضوا فى التخفيف ، وساووا مفتوح العين بالمضموم ، والمكسور .

كذلك استدل بقول العرب فى جمع (حسرة) : (حسرات) و (دعد) : (دعدات) - بفتح العين - وقال : إن العرب تأبى أن تبدأ بساكن ، وترفض أن يجتمع فى نطقها ساكنان حتى تفر من أحدهما بكسر أو فتح .

ثم ساق بعد ذلك أدلة على أن الفتحة ليست علم إعراب .

---

(٧٠) محمد عرفة : النحو والنحاة ص ١٦٠ ، ١٦١ .

ولكن الأدلة التي ساقها لتأييد رأيه في أن الفتحة أخف من السكون يتجه إليها النقد ، فقطع النفس في السكون ، وترديده عند النطق ببعض الحروف لا يدل على ثقل السكون ، بل إن ذلك ناشئ من أن مخرج الحرف واحد ، وهذا بمثابة التأكيد فيه ، أما الفتحة ففيها خروج إلى مخرج حرف آخر .

وتخفيف عين الثلاثي - في مثل رسل وفخذ - إن دل على أن الفتحة أخف من الضمة والكسرة ولذلك تخففوا منها بالإسكان - لا يدل على أنها أخف من السكون .

وربما أخذ الباحث مما ذكره صاحب الرأي المذكور أن السكون أخف من الفتحة - في مثل هذه المواقع - إذ لو كانت الفتحة أخف من السكون لتخففوا في الأمثلة المذكورة بها دون السكون فكانوا يقولون ، رسل وفخذ بفتح السين والخاء .

والتخفيف في حسرات ودعدات ونحوهما ليس فيه دلالة ، لأن التخفيف الحاصل جاء من تماثل الحرفين (الحاء ، والسين ، والدال ، والعين) في الحركة بدليل أنهم أجازوا في المضموم والمكسور الإتباع مثل حنطة وخطوة ، فيقولون : حِنِطات - بكسر الحاء والنون - وخُطُوات - بضم الخاء والطاء - [٧١] .

والاتفاق بيننا وبين الأستاذ إبراهيم أن الضمة والكسرة أثقل من

---

(٧١) عد الأستاذ العقاد هذا الاستدلال خاطئا قال : وهذا - أيضا - من خطأ القياس عند المعترضين على طرائق النحاة في التقدير لأن السكون هنا لا يستثقل ، وإنما يستثقل الانتقال من التحريك إلى التسكين ، ثم من التسكين إلى التحريك ولا فرق في ذلك بين الفتحة والضمة لأنهم يقولون : الحجرات والغرفات والقبلات والظلمات - بدلا من تسكين الجيم أو الراء أو الباء أو اللام - وكذلك يقولون : القطن والغصن والعمر والكتب والأسد - بضم الأول والثاني - إلى كثير من أمثالها ، لأن الاستمرار في حركة واحدة أيسر من الانتقال منها إلى تسكين ثم العودة بعد التسكين إلى التحريك ، انظر : أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ص ٣٢ ، ٣٣ .

السكون ، أما الابتداء فلا يجوز بالساكن لأن الساكن قطع فيتنافى البدء والقطع ، كذلك طبيعة النطق لا تسمح بالساكنين [٧٢] .

وقد استدل على أن الفتحة ليست علامة إعراب ببعض أحكام الوقف ، وأحكام أخرى نحوية وعروضية [٧٣] .

١ - ومما استدل به أنه يجوز الوقف بالنقل على مضموم الآخر أو مكسوره ، أما مفتوح الآخر فلا يوقف عليه بالنقل ، فعدم نقل الفتحة يدل على أنها ليست علامة إعراب [٧٤] .

والأستاذ عرفة يقول : إن العكس صحيح ، فعدم نقل الفتحة يدل على أنها علامة إعراب ، وأن الضمة والكسرة - لعدم الاحتفاظ بهما - أولى ألا يكونا علم إعراب ، وهذا دليل مساو لدليل المؤلف [٧٥] .

ويمكن أن يقال : إنهم لم ينقلوا الفتحة ، لأن الوقف على المنون المنصوب بالألف وإبقاء الفتحة فلا حاجة إلى النقل وحمل عليه الوقف على المنصوب غير المنون [٧٦] .

كذلك استدل الأستاذ إبراهيم بأن الوقف بالروم لا يكون على ساكن ، ولا على متحرك بالفتح ، وإنما يكون في الضمة والكسرة ، فيستدل بذلك على أن الفتحة لا تدل على معنى .

والأولى العكس وهو ألا يدل إشمام الضمة والكسرة على أن لهما معنى [٧٧] .

---

(٧٢) محمد عرفة : النحو والنحاة ص ١٦٤ - ١٦٦ .

(٧٣) من المفيد أن يرجع فيها وفي الرد عليها إلى كتاب النحو والنحاة للأستاذ محمد عرفة .

(٧٤) إبراهيم مصطفى : إحياء النحو ص ٨٧ .

(٧٥) محمد عرفة : النحو والنحاة ص ١٦٧ .

(٧٦) المصدر السابق ص ١٦٨ .

(٧٧) المصدر السابق ص ٨٩ .

٢ - ومن علم القافية استدل بالإقواء ، والإصراف ، فالإقواء - وهو اختلاف المجرى بكسر وضم - أباحه العلماء ، ولم يعدوه عيبا في حين عدوا الإصراف - وهو الاختلاف بفتح وغيره - من العيوب ، وأنكره قوم ، وقال بندرته آخرون [٧٨] .

والذين أثبتوا الإصراف لم يذكروا من أمثلته إلا ما كان النصب فيه سابقا وكان الصرف عنه إلى الرفع أو الخفض دون العكس .

فإذا كانت القافية مقتضية للرفع أو الجر ثم دعا داع إلى النصب لا يستجيب له الشاعر ، بل يمضى في قافيته ملتزما ما ينبغي لها من تماثل وانسجام كما في قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع

من المال إلا مسحتا أو مجلف

فالقافية في القصيدة كلها مرفوعة ، وقد اقتضى عامل الإعراب نصب (مجلف) ولكنه لم يبال به لتماثل القافية .

أما الضمة والكسرة فإن العرب تلتزمهما ، وتهجر من أجلهما تماثل القافية ، وما فيه من الانسجام .

وإذا بدأ الشاعر قصيدته بالفتحة وبنى عليها قافيته ، ثم جاء داعي الضمة أو الكسرة استجاب له ، ولم يبال بالقافية .

والأعشى بنى على الفتح قصيدته التي مطلعها :

رحلت سمية غدوة إجمالها   غضبى عليك فما تقول بدا لها

ثم قال :

هذا النهار بدا لها من همها   ما بالها بالليل زال زوالها

---

(٧٨) المصدر السابق ص ٩٠ .

فهذه التفرقة بين الضمة والكسرة ، وبين الفتحة ، ينبغي ألا نغفل وجه دلالتها ، وما تشير إليه من معنى [٧٩] .

ويوجه إلى الأستاذ إبراهيم مثل ما ذهب إليه ، فإن استنبط من ذلك مستنبط أن الفتحة والكسرة يدلان على معنى ، لذلك حوفظ عليهما ، والفتحة لا تدل على معنى لذلك لم يحافظ عليها كان حريا أن يستنبط أن الضمة لا تدل على معنى لأنها لو كانت تدل على معنى لما ألبسها ما ليس له ذلك المعنى ، لأن شارة ما إذا كانت تدل على رتبة في الجيش مثلا فكما يحرص على أن يلبسها من هو من أهلها كذلك يحرص على أن يلبسها من ليس من أهلها ، و (مجلف) كان حقها النصب ، ولكن الشاعر ألبسها الضمة [٨٠] .

وإذا كنا نحن وصاحب هذا الرأى لا نؤمن بنتيجة هذا الدليل فأحرى أن نرفضه ، ونرفض الدليل الآخر الذى هو في وزانه ، ويجب تعليل الإصراف تعليلا آخر بأنه : لو كان الروى مضموما أو مكسورا ثم استجاب الشاعر إلى داعى الفتح لظهر ظهوراً بينا عدم الانسجام بين القوافي بالمخالفة بينها ، وليس ذلك في المخالفة في الروى بطريق الإقواء ، لذا أجازوا الإقواء ، ومنعوا الإصراف [٨١] .

٣ - ومما استدل به النصب على نزع الخافض يتحول إليه من الرفع أو الكسر مثل : تمرون الديار [٨٢] .

ويرد عليه بأن النصب علم الفضلة - كما نص على ذلك الرضى - فإذا كان مجرورًا ثم نزع الخافض عاد إلى الأصل ، وهو النصب ، وهذا يؤكد أن الفتحة علم الفضلة أو علم المفعولية [٨٣] .

---

(٧٩) إبراهيم مصطفى : إحياء النحو ص ٩٠ وما بعدها بتصرف .

(٨٠) محمد عرفة : النحو والنحاة ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، وانظر أوجها متعددة في إعراب مسحت ومجلف في خزانة الأدب البغدادى .

(٨١) المصدر السابق ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٨٢) إبراهيم مصطفى : إحياء النحو ص ٩٦ .

(٨٣) محمد عرفة : النحو والنحاة ص ١٧٦ .

٤ - وقد استدل بنحو : النصب فى (كلمته فاه إلى فى) - (إياك والأسد) - (عمرك الله) - إلخ مما يمتد فيه التقدير والإضمار فإنها كلمات لا يتحدث عنها فترفع ، ولا هى مضافة إليها فتجر ، فليس لها إلا أن تلتزم الأصل ، وهو النصب [٨٤] .

ويرد عليه بأن هناك منصوبات كثيرة غير هذه الأشياء كالمفعول به ، والحال ، والتمييز ، والمستثنى ، والمفعول المطلق ، وظرفى الزمان ، والمكان ، والمفعول معه ، ولأجله ، فمن أى الأشياء هى ؟

إنها ليست مسندا إليها فترفع ، ولا مضافا إليها فتجر ، فهى منصوبة ، ولا ريب أن كل ذلك مما له معان إذ الحال فى معنى (فى حال كذا) والتمييز (لرفع الإبهام) والمفعول لأجله (للتعليل) والمفعول فيه (لبيان زمان الفعل ، أو مكانه) .

وهب اللغة العربية لا إعراب فيها فبقى بعد علينا أن نبحث هذا المبحث لنعرف علاقة الكلمة على النحو السابق [٨٥] .

وبعد هذه الجولات لتفسير رأى الأستاذ إبراهيم مصطفى ، والرد عليه يبدو لنا أن قوله : إن الفتحة ليست علم إعراب لا تؤيده الشواهد اللغوية ، بل إن الدراسة المقارنة للغات السامية تثبت ضد ما ادعاه ، يقول الدكتور إبراهيم السامرائى :

ورأى الأستاذ إبراهيم مصطفى فى دلالة الفتحة غريب ، فقد دلت المقارنات على أن الفتحة وجدت فى حالة النصب فى كثير من اللغات السامية ، ولم يكن هناك سبب للفتحة « المستحبة » كما أسماها [٨٦] .

• • •

---

(٨٤) إبراهيم مصطفى : إحياء النحو ص ٩٨ .

(٨٥) محمد عرفة : النحو والنحاة ص ١٧٩ - ١٨١ .

(٨٦) د. السامرائى : دراسات فى اللغة ص ١٥ ، ١٦ .

٥ - رأى بعض الباحثين :

يرى ابن خلدون أن الإعراب ليس ذا قيمة جوهرية فى إفادة المعانى، وأنه يمكن بدونه تحقيق المعانى البليغة ، فاللغة فى عصره - وإن خلت من الإعراب - تحقق للمتكلم ما يقصده من روائع المعانى .

فبيان المقاصد والوفاء بالدلالة - بعد فقد دلالة الحركات فى لغة أهل عصره - يكون بالتقديم ، والتأخير ، وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد ، وكل معنى لابد أن تكتنفه أحوال تخصه ، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال فى تأدية المقصود ، لأنها صفاته .

ثم عاب على النحاة تمسكهم بالإعراب باعتباره خاصية لا تتحقق البلاغة إلا بوجودها .

يقول : وما زالت هذه البلاغة ، والبيان ديدن العرب ، ومذهبهم لهذا العهد ، ولا تلتفتن فى ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق ، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وأن اللسان العربى فسد اعتبارا بما وقع أواخر الكلم من فساد الإعراب الذى يتدارسون قوانينه وهى مقالة دسها التشيع فى طباعهم وألقاها القصور فى أفئدتهم [(٨٧)] .

وذكر أن عربية عصره لم تفقد من أحوال اللسان المدون (لسان مضر) إلا حركات الإعراب فى أواخر الكلم فقط ، وأنه يمكن أن يعتاض عن الحركات الإعرابية فى دلالتها بأمور أخرى .

وهذا يعنى أن حركات الإعراب ليست مهمة فى التركيب ، ودلالته على المعانى ، وأنه يمكن الاستغناء عنها كما هو حادث فى لغة عصره وغيرها من العاميات .

---

(٨٧) ابن خلدون : المقدمة ط ١٣٢٧ ص ٦٥٠ .

وقد بيَّن ابن خلدون أن الحفاظ على الإعراب في لسان مضر إنما كان للحفاظ على القرآن الكريم والحديث الشريف .

يقول :

إنما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق ، والشام ، ومصر ، والمغرب ، وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولا ، فانقلب لغة أخرى ، وكان القرآن متنزلا به ، والحديث النبوى منقولا بلغته ، وهما أصلا الدين ، والملة ، فخشي تناسيهما ، وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذى تنزلا به ، فاحتيج إلى تدوين أحكامه ، ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه ، وصار علما ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهله بعلم النحو وصناعة العربية (٨٨) .

ولكن هذا الرأى الذى يقصر الحاجة إلى الإعراب على فهم كتاب الله وسنة رسوله فقط تنكر لخاصية الإعراب فى الأساليب العربية كلها ، شعرا ونثرا ، فأمر البلاغة وإيضاح المعانى ليس مقصورا على ما قصره عليه ابن خلدون ، بل يتعداه إلى أساليب البلغاء والعلماء فى كل زمان .

وقد اتفق على ذلك أئمة العلم والباحثون فى العربية ، وخصائصها وقد نبه البلاغيون على أهمية سلامة التركيب النحوى لصحة العبارة وبلاغتها .

ويذهب جبر ضومط إلى اعتبار الإعراب وحركاته أمرا ثانويا لا جوهريا فى الإبانة عن الأغراض .

يقول : « العاقل يعلم أن علامات الإعراب فى اللغة إنما هى من قبيل الأناقة ، والمواضعة ، لا من قبيل الجوهر ، والحقيقة ، فمن ثم قد لا

---

(٨٨) ابن خلدون : المقدمة ص ٦٥١ .

يعد الإخلال بها إخلالا يقضى على المخل بالجهل ، وعلى الناقد بالفضل ، بل كثيرا ما يكون الأمر على عكس ذلك ... ولو كان الإعراب أمرا جوهريا فى الخطاب ، والكتاب لما سقط من العبرانية والسريانية خطابا وكتابة وهما أختا العربية ولما سقط من على ألسنتنا فى كل البلاد العربية حتى من على ألسنة المشتغلين بالنحو » (٨٩) .

ويدلل لما رآه من عدم أهمية الإعراب بحالات الوقف فهى تعطيل للإعراب ، ومع ذلك تبقى الدلالة واضحة .

يقول : ودليلنا الوقف فإنه جائز كثير الاستعمال شائعه قديما وحديثا ، ولم ينقل عن نحوى قط أنه منع جوازه ، والوقف هو تعطيل الإعراب وإزالة حكمه بتاتا ... وما يتعطل أو يجوز أن يتعطل وتزول أحكامه عن شئ لا يجوز أصلا أن يكون من مقومات ذلك الشئ ، أو جوهرياته (٩٠) .

كما يدلل على عرضيته - كذلك - بوجوده فى غير العربية من اللغات الأجنبية كاليونانية ، واللاتينية (٩١) .

ولكنه لا ينسى أن يشير إلى قيمة الإعراب فى الإفصاح والإبانة عن المعانى فيقول : وهو فى كثير من المواقف زينة فى اللغة لا غير إلا أنه قد يكون أحيانا مساعدا على الفهم ، ومنع الالتباس ، وحكمه حينئذ حكم القرائن المختلفة التى تساعد على سهولة الفهم ، وصرف المعنى إلى ما يراد ، ولهذا لا يجوز الاستخفاف به دائما (٩٢) .

---

(٨٩) جبر ضومط : فلسفة اللغة العربية وتطورها ص ٢٥ ، وانظر أيضا ص ١١٣ .

(٩٠) المصدر السابق ص ١١٣ .

(٩١) المصدر السابق ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٩٢) المصدر السابق ص ١١٤ .

وهذا اعتراف بأثر الإعراب وحركاته فى المعنى ، ولعل الحديث الملتوى الذى سلكه هذا القائل يكشف عن خداعه وتزييفه ، فكيف يعده أصلا تارة ، وعرضا تارة أخرى ويتلاعب بالألفاظ التى تكشف عن هدفه الخبيث [٩٣] .

وبعد أن ناقشنا هذه الآراء - حول الإعراب وعلاماته - فلم تثبت أمام البحث نرتضى رأى جمهرة الباحثين - من القدامى ، والمحدثين - وهو أن الحركات دوال على المعانى .

ويكفى أن نشير إلى ما ذكره المستشرق يوهان فك من أدلة قاطعة استمدها من القرآن الكريم تفيد أن الإعراب دليل على المعانى بحركاته المختلفة ، كقوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ، ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ فمثل مواقع الكلمات فى هاتين الآيتين (كالاستعمال اللاتينى Matrem amat filia الأم تحب البنت) لا يمكن أن يكون إلا فى لغة لا يزال الإعراب فيها حيا صحيحا [٩٤] .

ولابد أن الضمة فى (العلماء) و (ربه) علم الفاعلية ، والفتحة فى (لفظ الجلالة) و (إبراهيم) علم المفعولية كما نص على ذلك القدماء .

ومثل ذلك قول البوصيرى فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام :

إنما مثلوا صفاتك للنا   س كما مثل النجوم الماء

فكلمة (النجوم) منصوبة - مفعولا به - وكلمة (الماء) مرفوعة - فاعلا - وعليها يتضح المعنى .

ولو عكس الأمر فرفعت الكلمة الأولى ، ونصبت الثانية لفسد المعنى .

---

(٩٣) انظر : سعيد الأفغانى : حاضر اللغة العربية فى الشام ص ١٦٧ .

(٩٤) يوهان فك : العربية ص ٣ ، ٤ .

وقد ثبت - كما يقول العقاد - أن المزية الشعرية فى قواعد الإعراب - فى لغتنا - أسبق من المصطلحات التى يتقيد بها النحاة ، والصرفيون .

فالشاعر العربى يستطيع أن يضع لفظة بعينها حيث صح له وضعها بلفظها ووزنها ، ومعناها ، ومن ذلك :

قطعوا بأيديهم خيوط سيادة

كانت كخيط العنكبوت ضئيلا

إن (ضئيلا) فى هذا البيت الذى وصف به (شوقى) سيادة بنى عثمان لتحمد للإعراب العربى تلك الطمأنينة التى تستقر بها فى موضعها فلا تضطر الخيوط إلى الجمع ، ولا تضطرها السيادة إلى التأنيث ، وليس عليه أن يقول : (كانت ضئيلة) ولا أن يقول (قطعوا خيوطا ضئالا) ، لأن لسان (الحال) هنا أصدق من لسان المقال [٩٥] .

فالإعراب ليس مخترعا ، وحركاته ذات أثر بعيد فى معنى الجمل والعبارات .

---

(٩٥) العقاد : اللغة الشاعرة ص ٢٣ ، ٥٤ .

الاشتراك والتضاد والترادف

للألفاظ والمعاني علاقات ، وارتباطات ، سنحاول بيانها والإفصاح عن أقسامها .

وقد قسم العلماء الألفاظ - بحسب ارتباطها بالمعاني - أقساما أهمها ما ذكره سيبويه من أنها على الوجه التالي :

١ - اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين نحو جلس وذهب .

٢ - اختلاف اللفظين واتفاق المعنيين نحو ذهب وانطلق .

٣ - اتفاق اللفظين مع اختلاف المعنى [1] نحو وجدت عليه من الموجدة ، ووجدت إذا أردت وجدان الضالة .

والقسمان الأخيران يعدان من وسائل نمو اللغة وسعة التعبير فيها عن طريق دلالة الألفاظ بما يسمى بالاشتراك والتضاد والترادف .

الاشتراك

هو : دلالة اللفظ على معنيين أو أكثر على التساوى .

ومن أمثلته : (العين) فإن لها معانى كثيرة منها الباصرة ، وعين الجيش الذى ينظر لهم ، وعين النفس ، وهو أن يعين الرجل بمعنى أن ينظر إليه فيصيبه بعين ، والجاسوس ، ومطر أيام لا يقلع ، وغير ذلك من معانيها الكثيرة .

ومثلها : (الخال) لأخى الأم ، وللشامة فى الوجه ، والبعير الضخم وللسحاب [2] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ١ / ٧ ط ١٩١٦م ، ٢ / ٢٤ ط دار القلم ، وأبو على الفارسى : المسائل البغداديات لوحة ٤٦ ، ٤٧ ، وابن جنى : الخصائص ٢ / ٩٣ ، وابن سيدة : المخصص ١٣ / ٢٥٨ .

(٢) السيوطى : المزهر ١ / ١٧٩ ، ١٨٠ .

فائدته :

إن تعدد المعانى للفظ الواحد يفتح مجالات متعددة أمام الناطقين باللغة ليعبروا عما يحتاجون إليه بألفاظ مرنة تطاوعهم على ما يشاءون، وتجرى حسب ما يريدون ، ولا شك أن لذلك أثرا كبيرا فى ثراء اللغة ، ونموها يفيد منه ، بخاصة - الأدباء والشعراء ، وأرباب البيان .

اسبابه :

لوقوع الاشتراك فى ألفاظ اللغة العربية أسباب كثيرة أهمها :

١ - اختلاف اللغات واللهجات :

فاللغة قد تستمد ألفاظا من لغات أجنبية عنها ، وذلك قد يسبب بجانب ألفاظ أخرى فيها - قد تتحد معها فى الصيغة - وجود الاشتراك، وقد أشار صاحب شفاء الغليل إلى إمكان ذلك ككلمة (سكر) فإنها معربة وإن كانت فى العربية مادة (سكر) بمعنى أغلق وفى القرآن الكريم : ﴿ سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا (١٥) ﴾ (الحجر) .

وفى العربية مادة (برج) ، وقد استعير (البرج) بمعنى الحصن من اليونانية ، فإذا اشتقت كلمة من المادة العربية توافق الكلمة المنقولة عن اليونانية فى الصيغة ، وتختلف عنها فى المعنى نشأ الاشتراك [٣] .

أما اختلاف اللهجات فهو أمر ملموس فى لغتنا العربية بأن يضع اللفظ لأحد المعانى حى من أحياء العرب ، وللمعنى الآخر حى آخر ، ويعلم كل فريق بوضع لآخر ، ويشيع الاستعمالان [٤] .

وقد تجمعت المعانى المختلفة للفظ الواحد فى اللغة النموذجية ، فنشأ الاشتراك .

---

(٣) د. أنيس : فى اللهجات العربية ط ٣ ص ١٩٦ .

(٤) السيوطى : المزهر ١ / ١٧٧ .

٢ - المجاز:

ذكر أبو علي الفارسي أن اختلاف اللفظين - والمعاني بعد واحدة - يكون للحاجة إلى التوسع في الألفاظ ، وأنه قد تستعمل اللفظة بمعنى ثم تستعار لشئ ، فتكثر وتغلب فتصير بمنزلة الأصل [٥] .

ومن ذلك الحوت فهو في الأصل للسمك ، ثم أطلق على أحد أبراج السماء ، وشاع ذلك حتى صار حقيقة فيه .

وقد أرجع السيوطي بعض المعاني التي تدل عليها كلمة (العين) إلى التشبيه وهي (ستة معان ، العين : الجاسوس - تشبيها بالعين ، لأنه يطلع على الأمور الغائبة - وعين الشئ : خياره ، والعين : الربيئة وهو الذي يرقب القوم ، وعين القوم : سيدهم ، والعين : واحد الأعيان ، وهم الأخوة الأشقاء ، والعين : الحر ، كل هذه مشبهة بالعين لشرفها) [٦] .

٣ - تطور المعنى:

فإذا تطور معنى اللفظ ، وبقيت أصواته دون تغير أدى ذلك إلى حدوث الاشتراك .

فقد يكون للفظ معنى واحد في اللهجات العربية ثم يحدث أن يتغير معناه في بعض اللهجات ويبقى المعنى الأصلي في بعضها الآخر فيصبح لذلك اللفظ معنيان فينشأ الاشتراك .

وقد مثل بعض الباحثين لذلك بكلمة « الهجرس » فهي تعني القرد في لهجة الحجاز ، وتعبر عن الثعلب عند تميم على أساس أنها كانت - في الأصل - تدل عند الفريقين على أحد الحيوانين ، ثم تغير هذا المعنى عند إحدى القبائل لأمر طارئ على حياتها اللغوية [٧] .

---

(٥) أبو علي الفارسي : البغداديات لوحة ٤٦ والمخصص نقلا عنه ١٣ / ٢٥٨ ، ٢٦٦ .

(٦) السيوطي : المزهر ١ / ١٨٠ .

(٧) د. أنيس : في اللهجات العربية ط ٣ ص ١٩٧ .

ولكن إدراك تطور المعانى أمر غامض لا يكاد التاريخ اللغوى يسعفنا به .

وكيفما كان الأمر فإن المعنى قد مرت به تطورات مختلفة ، وتعاورت على اللفظ الواحد تغيرات متعددة كانت سببا - فيما يبدو - فى نشأة بعض الألفاظ التى تعد الآن من المشترك اللفظى .

٤ - اختلاف الاشتقاق :

كأن تؤدى القواعد الصرفية إلى أن تتفق لفظتان متقاربتان فى صيغة واحدة ، فينشأ عن ذلك تعدد فى معنى هذه الصيغة يؤدى إلى جعلها من المشترك مثل وجد (يجئ ماضيا من الوجدان بمعنى العلم بالشئ ، أو العثور عليه ، فيقال : وجدت الضالة إذا عثرت عليها ، ووجدت زيدا كريما إذا علمته كذلك ومن الموجدة بمعنى الغضب فيقال : وجدت عليه إذا غضبت ومن الوجد بمعنى الحب الشديد فيقال : وجد به وجدا إذا هويه وأخلص فى حبه) [٨] .

٥ - التطور الصوتى :

فقد تتغير بعض أصوات اللفظ ، أو تحذف أو يزاد بعضها عليه ، فيتفق فى صورته مع لفظ آخر يختلف عنه فى المعنى فينشأ الاشتراك .

وذلك وإن كان متصورا فإن الدلائل اللغوية لا تشير إليه ، ولا تكشف لنا عنه لغموض الأحوال اللغوية وتطور أحداثها ، وتوغلها فى أزمان سحيقة فى التاريخ [٩] .

---

(٨) السيوطى : المزهر ١ / ١٨٣ ، ١٨٤ ، وابن جنى : الخصائص ٣ / ١١١ ، و د. وافى : فقه اللغة ص ١٨٥ .

(٩) ومن ذلك فى اللهجات الحديثة حضر « من الحضور بمعنى المجئ » بنطق الضاد ظاء عند أهل اليمن ونجد ، وحظر « من الحظر بمعنى المنع » فقد تطور صوت الضاد العربى المعروف إلى صوت الظاء عندهم فاتفق اللفظ الأول مع الثانى فى الصورة الصوتية التى أصبح لها معنيان « المجئ » و « المنع » ويفهم المراد منهما بالسياق ، وقد أشرنا إلى ذلك فى حديثنا عن أسباب تطور الدلالة .

٦ - حدوث الاشتراك من الواضع الواحد :

هذا عند قصد المتكلم الإبهام والتعمية على السامع ، حيث يكون التصريح سببا في المفسدة كما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقد سأله رجل عن النبى ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار : من هذا ؟ قال : هذا رجل يهدينى السبيل [١٠] .

آراء العلماء فيه

اختلف العلماء فيه بين منكرين ومؤيدين ، ونحن نعرض لآرائهم ونبين موقفنا منها .

١ - رأى المنكرين :

أنكر فريق من العلماء القدامى وجود الاشتراك فى اللغة ، ومنهم ابن درستويه [١١] « فاللغة موضوعة للإبانة عن المعانى ، فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين ، أو أحدهما ضد الآخر لما كان ذلك إبانة بل تعمية وتغطية » [١٢] ولكن هذا معيب لأن الإبهام يزول بالقرائن الصارفة .

٢ - رأى المثبتين :

قال بوقوعه طائفة كبيرة من العلماء ، منهم الخليل وسيبويه والأصمعى وأبو عبيدة ، وأبو زيد ، وأبو على الفارسى وابن فارس وابن جني ولكنهم اختلفوا فيما بينهم فى صفة الوقوع : هل ذلك يكون من جهة الوجوب ، أو الأغلب أو إمكان الوقوع مطلقا ؟

---

(١٠) السيوطى : المزهر ١ / ١٧٧ .

(١١) المصدر السابق ١ / ١٨٤ .

(١٢) المصدر السابق ١ / ١٨٥ .

والأكـثـرون على أنه ممكن الوقـوع من واضـعين أو من واضع واحد[١٣] على ما سبق بيانه فى ذكر الأسباب .

ودليلهم على ذلك وجود الألفاظ التى وقع فيها الاشتراك فى لغة العرب وأساليبهم ولا يمكن إنكارها .

ويبدو لنا أن كلا الفريقين مبالغ فيما ذهب إليه فلا يمكن إنكار الاشتراك لوقوعه فى ألفاظ العربية ، وعدم التمكن من تأويل كل ما ورد منها بأن أحد المعانى حقيقة والآخر مجاز أو غير ذلك من وجوه التأويل حسب الأسباب المشار إليها آنفا كما أن من التعسف التوسع فى إثباته بحيث يشمل العديد من ألفاظ اللغة لأن بعض ما يتصور من المشترك يمكن تأويله وإخراجه من هذا النطاق .

فالرأى الأجدر بالقبول هو ما ذهب إليه أكثر المحدثين من اللغويين وهو التسليم بوجوده فى اللغة مع عدم التوسع والمبالغة .

التضـاد

هو : دلالة اللفظ على معنيين متقابلين بمساواة بينهما .

ومن أمثلته : (الجون) للأبيض والأسود و (الجلل) للحقير والعظيم و (الصارخ) للمغيث والمستغيث [١٤] وقد عده علماء اللغة نوعا من المشترك لدلالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى ، ولذلك قالوا : المشترك يقع على شيئين ضدين ، وعلى مختلفين غير ضدين ، فما يقع على الضدين كالجون والجلل ، وما يقع على غير ضدين كالعين [١٥]

---

(١٣) المصدر السابق ١ / ١٧٧ .

(١٤) المصدر السابق ١ / ١٩٠ .

(١٥) المصدر السابق ١ / ١٨٦ .

وإذا جاز وقوع اللفظة الواحدة للشئ وخلافه جاز وقوعها للشئ وضده إذ الضد ضرب من الخلاف [١٦] وصرح السيوطى بأن المتضاد نوع من المشترك [١٧] ووافقه على ذلك بعض الباحثين المحدثين [١٨] .

فائدته :

لا ريب أن للتضاد أثرا كبيرا فى نمو اللغة ، وسعتها (بالتنقل بين السلب والإيجاب ، والتعكيس ، والتنظير ، وهو ما ليس له فى اللغات الحية نظير) [١١٩] .

أسبابه :

للتضاد أسباب كثيرة أهمها :

١ - اختلاف اللهجات :

ولذلك يقولون إذا وقع الحرف على معنيين متضادين فمحال أن يكون العربى أوقعه بمساواة بينهما ، ولكن أحد المعنيين لحى من العرب والمعنى الآخر لحى غيره ثم سمع بعضهم لغة بعض ، فأخذ هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء قالوا : فالجون : الأبيض - فى لغة حى من العرب - والجون : الأسود - فى لغة حى آخر - ثم أخذ أحد الفريقين من الآخر [٢٠] .

---

(١٦) وإن لم يكن كل خلاف ضدا ، البغداديات لوحة ٤٦ والمخصص - نقلا عنه - ١٣ / ٢٥٩ .

(١٧) السيوطى : المزهر ١ / ١٨٦ .

(١٨) د. الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ٣٣٠ وعبد الله العلايلى : مقدمة لدرس لغة العرب ص ٢٣٥ .

(١٩) د. الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ٣٦٥ .

(٢٠) ابن الأنبارى : الأضداد ١ / ١٢٢ ، والسيوطى : المزهر نقلا عنه - ١ / ١٩٤ .

٢ - المجاز :

فنقل اللفظ من معناه الأصلى إلى غيره قد يؤدى إلى التضاد ، مثل (الكأس) يطلق على الظرف والمظروف .

وهذا حين ينسى المجاز فيصبح المعنى المجازى كالحقيقى .

٣ - التطور الصوتى :

فإذا تغيرت بعض الأصوات فى اللفظ ، أو حذفت أو زيد عليه بعضها فاتفقت صورته مع لفظ آخر ذى معنى مقابل لمعناه نشأ التضاد .

٤ - اتفاق بعض الأبنية اللغوية لفظا مع اختلافها تقديرا :

وذلك نتيجة لما تؤدى إليه قواعد التصريف ، ومن ذلك اسما الفاعل والمفعول فى (افتعل) مما عينه معتلة أو ما فيه تضعيف فالفعل (اختار) معتل ، واسم الفاعل والمفعول منه (مختار) تقول : العبد مختار فى أفعاله والنبى مختار لهداية الأمة ، فهما متفقان لفظا مختلفا تقديرا ، فأصل اسم الفاعل (مختير) بكسر الياء ، وأصل اسم المفعول (مختير) بفتحها .

والفعل (اعتد) مضعف واسما الفاعل والمفعول منه (معتد) تقول : أنا معتد لك بكذا وكذا ، وهذا أمر معتد به فأصل اسم الفاعل (معتدِد) بكسر الدال الأولى ، وأصل اسم المفعول (معتدَد) بفتحها ، فهما متفقان لفظا ، مختلفان تقديرا [٢١] .

٥ - رجوع الكلمة إلى أصلين :

فتكون دلالتها على أحد الضدين منحدرة من أصل ، ودلالتها على مقابله منحدرة من أصل آخر ، ويرجح هذا التأويل أو يحتمل الصدق فى

---

(٢١) د. وافى : فقه اللغة ص ١٩٢ .

طائفة كبيرة من الأضداد مثل (هجد) بمعنى نام ، وسهر ، فمن المحتمل أن تكون في معنى النوم منحدرة من (هدأ) إذا سكن ، وفي معنى السهر من (جد) إذا جهد لما في السهر من الاجتهاد في منع النوم [٢٢] .

وقد حاول الأب : مرمرجي الدومنكي أن يرجع إلى هذا العامل عددا كبيرا من الأضداد وهو يبحث عن الأصول الثنائية للكلمات .

آراء العلماء فيه

يختلف العلماء فيه بين منكرين ومؤيدين لوجوده ، وتلكم الآراء بالتفصيل :

١ - رأى المنكرين :

ينكر فريق من العلماء وجود المتضاد في اللغة ، ومنهم ابن درستويه ، قال في شرح الفصيح : النوء : الارتفاع بمشقة وثقل ، ومنه قيل للكوكب : قد ناء إذا طلع وزعم قوم من اللغويين أن النوء السقوط أيضا ، وأنه من الأضداد ، وقد أوضحنا الحجة عليهم في ذلك في كتابنا في إبطال الأضداد .

قال السيوطي في المزهر : فاستفدنا من هذا أن ابن درستويه ممن ذهب إلى إنكار الأضداد [٢٣] .

وشبهة المنكرين في رأيهم هذا أن التضاد إذا ثبت وجوده في اللغة فإنه يؤدى إلى الإبهام واللبس وذلك يكون دلالة على « نقصان حكمتهم وقلة بلاغتهم ، وكثرة الالتباس في محاوراتهم عند اتصال

---

(٢٢) الأب مرمرجي الدومنكي : أبحاث ثنائية ألسنية صفحات ١٣٥ - ١٤٤ ، والمعجمية العربية ص ٢٢٩ .

(٢٣) ١ / ١٩١ .

مخاطباتهم فإذا اعتور اللفظة الواحدة معنيان لم يعرف المخاطب أيهما أراد المخاطب [٢٤] ولا يكون ذلك إبانة بل تعمية وتغطية واللغة موضوعة للإبانة عن المعانى [٢٥] .

وهذا مردود ، لأن سياق الكلام كفيل ببيان المعنى المراد .

٢ - رأى المؤيدين :

اختلف هؤلاء فيما بينهم في طريقة إثبات التضاد ولكل فريق وجهة خاصة .

(أ) فذهب فريق ، إلى أن التضاد موجود في اللغة ، سواء كان من واضع واحد أم أكثر مع ملاحظة أن اللفظ موضوع فى الأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل المعنى الآخر على جهة الاتساع ، وهذا مبنى على رجوع المعنيين الضدين لأصل اشتقاقى واحد ، فمن ذلك الصريم لليل والنهار ، لأن الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع ، وكذلك الصارخ : المغيث ، والمستغيث ، سميا بذلك لأن المغيث يصرخ بالإغاثة والمستغيث يصرخ بالاستغاثة ، فأصلهما من باب واحد [٢٦] .

(ب) وذهب ابن دريد ، إلى أن التضاد موجود بشرط أن يكون من واضح واحد [٢٧] قال في الجمهرة : الشعب : الافتراق ، والشعب :

---

(٢٤) أبو على الفارسي : البغداديات ٤٦ ، وابن الأنبارى : ٢ ، ٣ ، والسيوطى : المزهر ١ / ١٩٢ .

(٢٥) السيوطى : المزهر ١ / ١٨٥ .

(٢٦) ابن الأنبارى : الأضداد ص ٨ ، والسيوطى : المزهر ١ / ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٢٧) السيوطى : المزهر ١ / ١٩١ .

الاجتماع وليس من الأضداد ، وإنما هى لغة لقوم ، فأفاد بهذا أن شرط التضاد أن يكون استعمال اللفظ فى المعنيين فى لغة واحدة [٢٨] .

(جـ) وترى جمهرة العلماء ، ومنهم أبو زيد والأصمعى ، وأبو عبيدة ، وقطرب ، والصغانى ، وابن السكيت ، وأبو على الفارسى ، وابن فارس، وابن جنى ، وغيرهم أن التضاد واقع فى اللغة من أكثر من واضع واحد ، « فإذا وقع الحرف على معنيين ضدين ، فمحال أن يكون العربى أوقعه عليهما بمساواة بينهما ولكن أحد المعنيين لحى من العرب والمعنى الآخر لحى غيره ، ثم سمع بعضهم لغة بعض ، فأخذ هؤلاء من هؤلاء ، وهؤلاء من هؤلاء ، فالجون الأبيض فى لغة حى من العرب ، والجون الأسود فى لغة حى آخر كما ذكر السيوطى [٢٨] .

وقد بدا لعلماء اللغة أن وجهة القائلين بأن التضاد موجود على طريق الاتساع غير سديدة لأن هذا أمر عقلى بحت لا يمس الواقع اللغوى،ولا يوجد ما يؤيده من الدلائل،أو الشواهد العلمية أو المعجمية.

كذلك فإن رأى ابن دريد غير مقبول ، لأن الناطق الواحد يهمه التعبير عما يحتاج إليه ، وذلك يكفى فيه لفظ واحد ومعنى واحد حتى يكون الأمر واضحا للسامعين [٢٩] .

والقائلون بوجود التضاد - مطلقا - قد بالغوا فيه ، فالرأى الأكثر إنصافا والجدير بالقبول هو القول بثبوته لكنه ليس كثيرا بالصورة التى ذهب إليها هؤلاء ، وهو أقل من المشترك ورودا فى اللغة .

---

(٢٨) ابن الأنبارى : الأضداد ص ١١ ، ١٢ والسيوطى : المزهر ١ / ١٩٤ .

(٢٩) وهذا فى مقام تفسير الألفاظ المتضادة فى العربية ومع ذلك ففى نظرنا يعد رأيه أساسا لشرط الاشتراك والترادف عند المحدثين ، وهو اتحاد البيئة اللغوية ، وانظر ص ٣٠٧ من هذا الكتاب .

الـترادف

هو دلالة لفظين ، أو أكثر على معنى واحد .

ومن أمثلته : (أسد وليث وضرغام) للحيون المفترس ، و (عقار وصهباء وقهوة) للخمر ، و (بر وقمح وحنطة) للحبة المعروفة .

أثـره اللغـوى :

١ - التوسع بما يفيد الشاعر والناثر ، وكثرة الوسائل إلى الإخبار عما في النفس ، وقد كان بعض الأذكياء فى الزمن السالف ألثغ لا يستطيع نطق الراء [٣٠] فكان يتخلص من ورودها فى حديثه عن طريق الترادف .

٢ - من المترادفات ألفاظ تبدو فيها خاصة لغوية رائعة هى إظهار ألوان المعانى ، وظلالها ، وهذه ميزة تكاد تنفرد بها اللغة العربية ، وتعد من خصائصها التى تتجلى فى ألفاظ مترادفة - أحيانا - ويسميها الدكتور عثمان أمين : « خاصية التلوين الداخلى » الذى كأنما يرسم للماهية الواحدة بالأطياف والظلال صورا ذهنية متعددة تغنينا باللفظ الواحد عن عبارات مطولة نحدد بها المعنى المقصود [٣١] .

وتظهر تلك الميزة فى كثير من الألفاظ الدالة على الشئ منظورا إليه فى مختلف درجاته ، وأحواله ومتفاوت صوره ، وألوانه ، فالظمأ ، والصدى ، والأوام ، والهيام كلمات تدل على العطش إلا أن كلا منها يصور درجة من درجاته فأنت تعطش ، إذا أحسست بحاجة إلى الماء ثم يشتد بك العطش فتظمأ ، ويشتد بك الظمأ فتصدى ، ويشتد بك الصدى فتئوم ، ويشتد بك الأوام فتهيم ، وإذا قلت إن فلانا عطشان ، فقد أردت أنه بحاجة إلى جرعات من الماء ، لا يضيره أن تبطئ عليه ، أما

---

(٣٠) السيوطى : المزهر ١ / ١٩٦ بتصرف .

(٣١) د. أمين : فلسفة اللغة العربية ٥٨ .

إذا قلت : إنه هائم فقد علم السامع أن الظمأ برح به حتى كاد يقتله ...
وهذا على حين أن الفرنسي لا يستطيع أن يؤدى هذا المعنى إلا فى ثلاث كلمات إذ يقول :

(مائت من الظمأ Mourant de soif » أو فى سبع كلمات ليكون المعنى أوضح فيقول : « على وشك أن يموت من الظمأ » .

Sur le point de mourirbe soif

ففي كلمات العربية إيجاز يجعل من الكلمة الواحدة جملة كاملة [٣٢] .

وبهذا تخلص لنا قيمة الترادف ، وأثره اللغوى .

أسبابه :

للترادف أسباب كثيرة أهمها :

٢ - اختلاف اللغات واللهجات :

فقد دخل اللغة العربية - بعد الإسلام - كثير من الكلمات الأجنبية ، إما للحاجة إليه فى العلوم ، والفنون ، والحضارة ، أو للإعجاب به ، أو لسهولته وغير ذلك من الدواعي التى من أجلها انتقل إلى العربية كثير من الألفاظ الفارسية ، والرومية وغيرها .

ومن ذلك النرجس ، والمسك مع وجود نظيريهما العربيين وهما : العبهر والمشموم ، ومن هنا ينشأ الترادف .

كذلك تلاقى اللهجات يجعل الألفاظ التى تستعملها تتلاقى وقد يكون بينها أكثر من لفظ يدل على مُعنى واحد فينشأ الترادف مثل : وثب بمعنى قعد عند حمير ، فهما مترادفان .

وهذا كثير فى اللهجات العربية ، التى اجتمعت فى لغة واحدة عند العرب جميعا .

---

(٣٢) المصدر السابق ص ٥٨ ، ٥٩ .

٢ - المجاز :

فقد تستعمل بعض الألفاظ في معان مجازية ، فتتفق مع بعض الألفاظ في معانيها الحقيقية ، ثم ينسى المجاز ، حتى يظن أنها حقائق ، فتصبح تلك الألفاظ مترادفة ، كإطلاق (اللسان) على اللغة (والعين) على الجاسوس ، فقد شاع ذلك حتى عد ترادفا بين اللسان واللغة ، والعين والجاسوس .

٣ - تناسى الصفات والفروق :

فكثير من المترادفات كانت في الأصل نعوتا لأحوال المسمى الواحد ، ثم غلبت عليها الاسمية ، فالخطار والخطام والباسل والأصيد ، من أسماء الأسد وكانت أوصافا في الأصل(٣٣) .

ومن أسماء السيف : الصمصام ، والحسام ، والصارم ، والرداء ، والصقيل ، والمشرفى ، وكلها تشتمل على فروق معنوية (٣٤) مع كونها أوصافا في الأصل .

وقد أورد الأستاذ محمد عبد الجواد في كتابه (التذكرة في فقه اللغة) مجموعة كبيرة لأسماء مختلفة في الزراعة وأسماء الأشجار والطيور واللحوم والمعادن وكلها تؤكد فروقا بين المترادفات ، وترجع المشتق إلى أصله وتبين معناه (٣٥) .

٤ - التغير الصوتى :

للعوامل الصوتية أثر في اختلاف اللفظ ، وتحوله من حال إلى آخر ، بحيث يصبح نتيجة للتغير الصوتى لفظين بعد أن كان واحدا ،

---

(٣٣) على الجارم : مجلة المجمع اللغوى ١ / ٣٠٧ ، ٣٠٧ ، ٤٢٧ .

(٣٤) السيوطى : المزهر ١ / ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٣٥) كل ذلك بالكتاب المذكور من أوله إلى آخره ويقع فى ١١٢ صحيفة .

ومن ذلك قولهم : بغداد وبغدان وقالوا أيضا : مغدان ، وقالوا للحية : أيم ، وأين ، وأعصر ويعصر أبو باهلة [٣٦] .

كذلك ما يكون عن طريق القلب المكانى للأصوات ، وحلول بعضها محل بعض كما فى جذب وجبذ .

وقد تتغير الكلمة حروفا ، نقصا وزيادة ، بحيث تصبح على صور مختلفة « كأن تنحرف الصيغة واللفظ الواحد ، نحو قولهم هى : رغوة اللبن ورغوته ورغوته - بفتح الراء وضمها وكسرها - ورغاوته ورغاوته ، - بفتح الراء وضمها دون تنوين - ومن علا ، ومن علوْ - بسكون اللام وضم الواو - ومن علو بضم اللام وتشديد الواو - ومن عال ومن معالٍ - بكسر اللام والتنوين - ونحوه أشياء كثيرة » [٣٧] .

ولكن بعض المحدثين [٣٨] لا يعترفون بذلك سببا للترادف «فاختلاف الصورة بين تلك الألفاظ ليس إلا ظاهريا ، وإنها كلمات ذات أصل واحد ، وتطورت صورتها لعامل من عوامل تطور الأصوات [٣٩] » ، بيد أن الدكتور كمال بشر يرد على هؤلاء بأنه قد يكون هذا صحيحا ، ولكن من المحتمل أن تكون هذه الفروق الصوتية راجعة إلى اختلاف اللهجات [٤٠] .

آراء العلماء فيه

تعددت وجهات النظر اللغوية حول إثبات الترادف ونفيه تبعا لفكرة معينة ذهب أصحابها إليها ، وتلكم هى الآراء :

---

(٣٦) ابن جنى : الخصائص ١ / ٣٧٢ .

(٣٧) المصدر السابق ١ / ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

(٣٨) كالأستاذ الجارم والدكتور أنيس .

(٣٩) د. أنيس : فى اللهجات العربية ط ٢ ص ١٧٢ .

(٤٠) ستيفن أولمان : دور الكلمة فى اللغة ، التعليق للدكتور كمال بشر ص ١٠٨ - ١١٠ .

١ - رأى المنكرين :

اتفق جماعة من علماء اللغة على إنكار وجود الترادف غير أنهم اختلفوا فيما بينهم فى طريقة الإنكار ذاتها .

(أ) فيرى فريق أن كل ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات ، إما لأن أحدهما اسم الذات والآخر اسم الصفة أو صفة الصفة .

وقد حكى الشيخ القاضى أبو بكر بن العربى بسنده عن أبى على الفارسى ، قال : كنت بمجلس سيف الدولة بحلب ، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ، وفيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسما ، فتبسم أبو على وقال : ما أحفظ له إلا اسما واحدا ، وهو السيف ، قال ابن خالويه : فأين المهند ، والصارم ، وكذا وكذا ؟ فقال أبو على : هذه صفات وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة (٤١) .

وهذا الفريق يرى عدم وجود الترادف فى اللغة .

ودليله على رأيه ، أن المعنى المراد يؤديه لفظ واحد ، فلا حاجة إلى أن تتعدد الألفاظ ، لأن ذلك عبث لا يقع فيه الواضع الحكيم .

(ب) وذهب فريق آخر منهم ابن درستويه ، وثعلب ، وابن فارس ، إلى إنكار الترادف بالمعنى الشائع من تساوى لفظين ، أو ألفاظ ، فى معنى واحد ، لأن كلا من تلك الألفاظ يوجد فيه فرق معنوى لا يوجد فى الأخرى .

---

(٤١) السيوطى : المزهر ١ / ١٩٥ ويبدو أن أبا على الفارسى كان ممن يقول بالترادف مع الفروق بين الألفاظ ، ففى البغداديات ما يناقض هذه القصة ، فقد اعترف « باختلاف اللفظين والمعانى بعد واحدة للحاجة إلى التوسع فى الألفاظ .. وإفادة الشاعر والناثر » وبعد شرح الأقسام الثلاثة يقول : فثبت بصحة ذلك صحة الأقسام التى ذكرها سيبويه ، وذهب إليها ، أبو على الفارسى : البغداديات لوحة ٤٦ ، ٤٧ .

ودليلهم على ذلك أن تساوى عدة ألفاظ فى معنىً واحد عبث لا يليق بلغة العرب الحكيمة .

قال ابن درستويه « محال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد كما يظن كثير من اللغويين ، والنحويين وإنما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها ، ولم يعرف السامعون لذلك العلة فيه والفروق ، فظنوا أنها بمعنى واحد ،وتأولوا على العرب هذا التأويل من ذات أنفسهم »[٤٢] .

وبهذا يعيب ابن درستويه على القائلين بالترادف ذاكرا أنهم جهلوا حقيقة الأمر ، وأنهم تأولوا على العرب ما لا يجوز ، فهو يرى أن الفروق فى الدلالات كان يعرفها العرب الأوائل ، ولكن القائلين بالترادف لم يستطيعوا فهم هذه الفروق وإدراكها فقالوا بالترادف على خلاف الواقع اللغوى [٤٣] .

وهذا يوافق ما رواه المزهر عن أبى العباس عن ابن الأعرابى قال : كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد ، فى كل واحد منهما معنى ليس فى صاحبه ، ربما عرفناه فأخبرنا به ، وربما غمض علينا فلم تزل عن العرب حكمة العلم بما لحقنا من غموض العلة ، وصعوبة الاستخراج علينا [٤٤] .

ويقول بذلك ابن فارس - كشيخه أبى العباس فيما سبق - ونصه « يسمى الشئ الواحد بالأسماء المختلفة نحو السيف والمهند ، والحسام . والذى نقوله فى هذا أن الاسم واحد وهو السيف ، وما بعده من الألقاب صفات ، ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى »[٤٥] .

---

(٤٢) السيوطى : المزهر ١ / ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٣ - ١٩٦ .

(٤٣) ستيفن أولمان : دور الكلمة فى اللغة ، التعليق للدكتور بشر ص ١٠٦ .

(٤٤) السيوطى : المزهر فيما سبق بالمرجع ٤٢ .

(٤٥) المصدر السابق ١ / ١٩٥ .

وقد وجه إليه : أنه لو كان لكل لفظة معنى غير معنى الأخرى لما أمكن أن نعبر عن شئ بغير عبارة ، فلا يصح فى (لا ريب فيه) : لا شك فيه ، بل تكون الثانية خطأ .

فأجاب على ذلك بأنه « جاز أن يعبر عن الشئ بالشئ من طريق المشاكلة ، ولسنا نقول : إن اللفظين مختلفان ، فيلزمنا ما قالوه ، وإنما نقول : إن فى كل واحدة منها معنى ليس فى الأخرى »[٤٦] .

وهذان العالمان - ابن فارس وأستاذه ثعلب - يريان أن الفروق المعنوية كما توجد بين الاسم والآخر ، أو بين الاسم والصفة توجد بين الأفعال من حيث معانيها التى تدل عليها ، نحو مضى وذهب وانطلق وقعد ، وجلس ، ورقد ونام ، وهجع ، ففى قعد معنى ليس فى جلس ألا ترى أنا نقول ، قام ثم قعد ، وأخذه المقيم والمقعد ، ثم نقول : كان مضطجعا فجلس ، فيكون القعود عن قيام ، والجلوس ارتفاع عما هو دونه ، وعلى هذا يجرى الباب كله .

وقد رد المثبتون للترادف على هؤلاء المنكرين من الفريقين بأن الترادف لا سبيل إلى إنكاره ، لأن وقوعه معلوم بالضرورة[٤٧] .

وقولهم : إن وضع عدة ألفاظ لمعنى واحد عبث لا يتأتى إلا إذا كان ذلك من واضع واحد لكن المعروف أن ذلك يكون من واضعين مختلفين فانتفى العبث الذى يقولون به .

كما توجد بعض المترادفات التى لا فروق بينها ، وبخاصة فى الأسماء الجامدة كالعير ، والحمار ، والبر ، والقمح ، والحنطة فلا فروق بين تلك المترادفات ، فاللفظان الأولان موضوعان للحيوان الناهق ، والألفاظ الأخيرة موضوعة للحبة المعروفة دون ملاحظة لفروق معنوية .

---

(٤٦) المصدر السابق ١ / ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٤٧) المصدر السابق ١ / ١٩٥ .

ووجود مترادفات بينها فروق لا يؤدى إلى إنكار المترادفات كلها بل إلى إنكار طائفة منها فحسب ، على أن المشتقات التى اتضحت فيها تلك الفروق كالحسام ، والصارم ونحوهما قد كثر استعمالها مكان موصوفاتها حتى استغنى بها عنها ، فجرت مجرى الجوامد فى إهمال الفروق ، وعدم النظر إليها .

ونحن نسلم بأن بعض الألفاظ لا تزال تحمل فروقا معنوية ، لكن القائلين بهذا الرأى بالغوا فيه ، لأنهم كانوا من الباحثين فى الاشتقاق والمتشبثين بإرجاع كل كلمة إلى أصل ، ولو كانت جامدة ، أو غير عربية كإبليس وجهنم حيث زعموا أنْ لهما اشتقاقا .

ولذا يقول السيوطى « وتعسفات الاشتقاقين لا يشهد لها شبهة فضلا عن حجة »[٤٨] .

هذا إلى أن بعض هؤلاء المنكرين للترادف كانوا من الأدباء النقاد الذى يشتفون فى الكلمات أمورا سحرية[٤٩] .

(جـ) يرى بعضهم أن الترادف غير موجود فى العربية ، ولكن أرباب المعاجم هم الذين اختلقوه ، ودليلهم : أن اللفظ الواحد يؤدى المعنى المراد ، وهذا واضح فى اللغات العامية ، فليس بنا حاجة إلى دلالة أكثر من لفظ على هذا المعنى .

وهذا الرأى فاسد ، لأنه يتهم علماء اللغة ، ورواتها بالاختلاق ، والكذب ، وهم من تلك التهمة براء ، لأنهم قد جمعوا اللغة عن العرب الخلص ومن القرآن والحديث وقد كانوا على درجة من الورع تمنعهم من التورط فى الكذب إلى جانب دقتهم الفائقة فى الأخذ وقد أخذنا عنهم أمور اللغة كلها ، فكيف نقبل منهم بعضها ونتهمهم فى الباقى ؟ .

---

(٤٨) السيوطى : المزهر ١ / ١٩٥ .

(٤٩) د. أنيس : فى اللهجات العربية ص ١٦٩ .

على أن اللهجات العامية ليس فيها ذلك الترف اللغوى لأنها تقتصر على ما يحتاج إليه الاستعمال فى الحياة اليومية ، على حين تختلف الفصحى عنها فى ذلك ، وهذا موجود فى كل اللغات .

ولا تسلم بعض العاميات من وجود الترادف فيها وبخاصة إذا اتصلت بلغات أخرى .

وهذا يوضح لنا أن « ما يذهب إليه بعضهم من أن الترادف بالمعنى الكامل لهذه الكلمة لا وجود له فى اللغات ليس صحيحا [٥٠] وفساد هذا الرأى الذى نحن بصدده لا يحتاج إلى بيان » [٥١] .

٢ - رأى المثبتين :

أثبت فريق من العلماء - منهم ابن خالويه - الترادف مطلقا كأسماء السيف ، والعسل ، والعسجد ، والذهب [٥٢] ، فهذه الأمثلة «وإن اختلفت ألفاظها ، فإنها ترجع إلى معنى واحد» [٥٣] .

ويرى أصحاب هذا الرأى أن الترادف « يكون من واضعين ، وهو الأكثر بأن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين ، والأخرى الاسم الآخر ، للمسمى الواحد من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى ثم يشتهر الوضعان ، ويخفى الواضعان ، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر ... ويكون من واضع واحد وهو الأقل » [٥٤] .

---

(٥٠) د. وافى : علم اللغة ص ٢٦٠ .

(٥١) د. وافى : فقه اللغة ص ١٦٣ .

(٥٢) السيوطى : المزهر ١ / ١٩٦ .

(٥٣) المصدر السابق ١ / ١٩٦ .

(٥٤) المصدر السابق ١ / ١٩٦ .

منشأ خلاف العلماء فيه

تفرقت الأقوال فى الترادف ، ووقوعه ، فمن منكر لوجوده ، فى اللغة ومن مثبت له ، والمثبتون على درجات متفاوتة ، فمنهم المبالغ فى وجوده ، والمقتصد فيه .

وكل وجهة من تلك الوجهات لها ما يسوغها من طرائق البحث اللغوى فالواقع أن هناك منهجين لدراسة دلالة الألفاظ :

الأول :

هو المنهج التاريخى الذى يتناول الكلمة منذ نشأتها ، وتطورها الدلالى ، فالدلالة لا يمكن أن تثبت على حال واحدة ، بل هى فى تطور ، وتغيير مستمر ، فالباحث التاريخى إذا كشف عن معانى مجموعة من الألفاظ يراها متحدة المعنى أمامه ، ولكن وقائع التاريخ تبين له اختلاف العصر . أو البيئة اللغوية ، أو التطور الصوتى الذى نجم عنه اختلاف اللفظين صورة ، واتحادهما معنى ، وعندئذ لا يعترف بوجود ترادف بينهما .

الثانى :

هو المنهج الوصفى ، وذلك لون آخر من ألوان البحث اللغوى ، يدرس طائفة من الألفاظ فى عصر ما من العصور ، ويحدد مفاهيمها ودلالتها فى ذلك العصر دون النظر إلى سواه من عصور أو بيئات ، أو تطورات .

وعلى هذا فيمكن للباحث أن يرى طائفة من الألفاظ اختلفت صورها ، واتحد معناها ، فيحكم بوجود الترادف بينها .

ومن ذلك التفصيل نستطيع أن نتصور أساس الخلاف الدائر بين علماء اللغة حول وجود الترادف .

فالمنكرون : قد نظروا إليه من الناحية التاريخية ، حيث كانت هذه الكلمات لها معان مختلفة ، ومن ثم لا ترادف بالمعنى الحقيقى .

وعلى هذا نظر المحدثون من علماء اللغة إلى قضية الترادف فى أية لغة من اللغات ، فقد اتجهوا الوجهة التاريخية ووضعوا شروطا لابد من تحققها حتى يتأتى الحكم بالترادف على مجموعة من الألفاظ اتحد معناها واختلفت صورها ، فهم يشترطون ما يأتى :

١ - أن يكون اللفظان ، أو الألفاظ التى يراد الحكم عليها بالترادف متفقة فى المعنى من جميع الوجوه وذلك كالقمح والحنطة والبر للحبة المعروفة ولكن إذا اختلف المعنى لم يعد ذلك ترادفا كما قيل من الفرق بين جلس وقعد .

٢ - أن تكون الألفاظ المتحدة فى المعنى متحدة فى البيئة اللغوية أيضا بأن يكون ذلك فى لهجة طائفة من العرب ، أو لهجات طوائف عربية قوية الصلات ، أما إذا كان بعضها فى بيئة ، وبعضها فى بيئة أخرى فلا ترادف .

٣ - أن تكون تلك الألفاظ فى عصر واحد ، فإذا تصادف أن اتفق لفظ فى أحد النقوش القديمة مع لفظ آخر فى عربية العصر الجاهلى من حيث المعنى ، فلا يعد ذلك ترادفا لاختلاف العصر .

٤ - أن تكون صورة كل من تلك الألفاظ لم تتطور من الناحية الصوتية عن الأخرى .

فإذا وقع فى الحسبان أن أحد اللفظين المتفقين فى المعنى قد تطور عن الآخر تطورا صوتيا لم يعدا من الترادف مثل الجثل ، والجفل بمعنى النمل ، فالاقتراب فى مخرجى الثاء والفاء يدعو إلى تغيير صورة أحد الحرفين وتطورها عن الأخرى (٥٥) .

---

(٥٥) د. نجا : اللهجات العربية ص ٩١ ، و د. أنيس : فى اللهجات العربية ط ٢ ص ١٦٧ .

هذه هى شروط المحدثين للحكم بالترادف ، وعليها لا يوجد الترادف في لهجات العربية القديمة وإنما يمكن وجوده فى العربية النموذجية التى سادت بين العرب فيما بعد وصارت لغتهم الأدبية .

وبذلك يمكن فهم السر الذى بنى عليه رأى المنكرين للترادف فالكلمات أمامهم وإن اتحد معناها ، واختلفت صورها فإن تتبعها من الناحية التاريخية يرجعها إلى لهجتين مختلفتين أو إلى أن إحداهما متطورة عن الأخرى ، أو كانت مختلفة فى المعنى - قبل ذلك - ثم اتحدت مع أختها ، تبعا لعوامل التطور ومن ذلك يدركون وقوع تفاوت بين معانى تلك الألفاظ ووجود فروق لغوية هى - وإن تنوسيت الآن - موجودة فعلا وواقعا تاريخيا ، وعلى هذا فلا ترادف .

أما القائلون به فقد انتهجوا المنهج الوصفى المعتمد على دراسة الكلمات فى عصر معين دون نظر إلى أية اعتبارات أخرى من لهجات أو تطورات .

وعلى هذا كانت اللهجات العربية على اختلافها - واحدة - عندهم وبيئتها - وهى جزيرة العرب - واحدة ، وابن خالويه حين عد للسيف خمسين اسما لم يكن ينظر إلى الناحية التاريخية مع أن الألفاظ التى وقع بينها ترادف قد وجدت فى عصور كثيرة ، ومختلفة .

وقد تنوسيت الفروق بين دلالات الألفاظ ، وأهملت مع ما يعتورها من التغير ، والتطور ، فنجم عن ذلك اجتماع عدة ألفاظ على معنى واحد .

فالحسام والصقيل ، والصمصام ، ونحوها ، قد ترددت فى الشعر دون قصد إلى زوائدها المعنوية ودلالاتها الفرعية ، بل قصد منها هذه الآلة بغض النظر عن صفاتها التى كانت - أصلا - من خصائص هذه الألفاظ [٥٦] .

---

(٥٦) انظر فى ذلك تفصيلات كثيرة فى : د . نجا : اللهجات العربية ص ١١٦ - ١١٩ ، و د . أنيس : فى اللهجات العربية ط ٢ ص ١٦٦ - ١٦٩ ، وستيفن أولمان : دور الكلمة فى اللغة ، تعليق الدكتور بشر ص ١٠٩ .

ويتبين من النظر إلى آراء المنكرين : والمثبتين - على سواء - أنهم مبالغون ، ومتطرفون ، فليس من المعقول إنكار تلك الثروة اللغوية وجهل مزاياها ، كما أنه ليس من اللائق إثبات وجود الترادف بين كل لفظين يظهر اتحادهما فى المعنى .

والأمثل : القول بالوجود مع البحث والتأنى .

ويبدو لنا - كما يدعو إليه معظم الباحثين المحدثين - أن الدراسة الواعية للألفاظ التى أوردتها كتب اللغة للأنواع الثلاثة « الاشتراك - التضاد - الترادف » - على ضوء الأسباب التى ذكرناها لكل منها - هى الطريق السليم للوصول إلى نتائج حاسمة فى شأن هذه العوامل اللغوية والثروة اللفظية التى تنتمى إليها .

وتحرى الألفاظ على هذا الطريق سوف يفتح المجال لدراسة جديدة دقيقة توقفنا على تلك الأنواع من الألفاظ فى صورها الحقيقية ، وبذلك يمكن إخراج كثير من الألفاظ التى يحكمون عليها بأنها من المشترك ، أو المتضاد أو المترادف ، من هذه المباحث ، وفيما مضى ذكرنا كلمات نشأ الاتفاق بينها وبين دلالاتها من اختلاف اللهجات ، أو المجاز ، أو التطور الصوتى .

وقد أجرى الأستاذ على الجارم فحصا شاملا للأسماء الثمانين التى ذكروها للعسل ، وخلص من ذلك الفحص إلى أن الكثير منها ليس من المترادف على سبيل الحقيقة والواقع اللغوى ونورد منها بعض الكلمات ، وكيفية إخراجها من المترادف على طريقة ذلك البحث الواعى .

الضرب : العسل الأبيض ، استضرب العسل : ابيض ، وغلظ ، فالضرب العسل مقيدا بصفة خاصة .

الضريب : من معانيه : المثل ، والرأس ، والموكل بالقداح ، أو الذى يضرب بها ، والقدح الثالث ، واللبن يحلب من عدة لقاح فى إناء فليس من معانيه العسل وأشبه الأشياء أن يكون بمعنى اللبن يحلب من عدة لقاح وقد أطلق على العسل مجازا ، لعلاقة المشابهة ، لأن العسل يجمع من عدة خلايا .

الورس : نبات كالسمسم ليس إلا باليمن ، فإطلاقه على العسل مجاز علاقته المشابهة في اللون .

الذواب : العسل ، وصفة الذوبان ملحوظة ، ومثله : النسيلة للعسل أيضا .

الماذية : الخمرة السهلة في الحلق - وإطلاقها على العسل من قبيل المجاز .

لعاب النحل - رضاب النحل - جنى النحل - ريق النحل - قئ الزنانير : هذه أشبه شئ بالكنايات .

الصموت : الشهدة الممتلئة حتى ليس فيها ثقبة فارغة ، ففي إطلاقه على العسل مجاز مرسل علاقته المحلية .

الختم : العسل ، وأفواه خلايا النحل ، وختم النحل : جمع شيئا من الشمع رقيقا أرق من شمع القرص ، فطلاه به ، فهي تسمية بالمجاورة .

السعابيب : ما يمتد منه الخيوط من العسل ، والخطمي ، فتسمية العسل بها تسمية باللازم .

ثم بعد نهاية الدراسة للأسماء الثمانين للعسل يقول الجارم :
وجلي مما قدمناه من الشرح أن قليلا جدا من الأسماء السابقة للعسل أطلقت عليه إطلاقا غير مقيد ، أو منظور فيه إلى ناحية خاصة ، أما جمهرة الأسماء فهي إما مقيدة بوصف ، أو نسبة ، وإما مجاز ، أو كناية (٥٧) .

ولا شك أن دراسة الألفاظ المترادفة على تلك الصورة ستخرج ألفاظا كثيرة من دائرة الترادف .

وهكذا يمكن من الملاحظات العلمية الدقيقة التفريق بين ما هو منه على الحقيقة ، وما هو بعيد عنه .

ولكن ذلك لا يدعونا إلى المغالاة في تتبع الفروق ، والدقائق التي تخرجنا عن حدود البحث المنهجي .

---

(٥٧) على الجارم : مجلة مجمع اللغة العربية ١ / ٣١٤ - ٣٢٠ .

التضمين

التضمين من خواص العربية ووسائل سعتها وبلاغة أساليبها فهو نوع من أنواع المجاز الذى هو ركن من أركان البلاغة [١] .

ويمكن أن يتوسع به فى اللغة الأدبية لإخصاب الخيال الشعرى والأدب الذاتى [٢] .

تعريفه :

فى اللغة له كثير من المعانى أشهرها جعل شئ فى باطن شئ آخر وإيداعه إياه [٣] فقد قال صاحب اللسان ضمن الشئ الشئ أودعه إياه كما تودع الوعاء المتاع والميت القبر وقد تضمنه هو [٤] .

وفى الاصطلاح : له تعريفان نحوى ولغوى .

فالتضمين النحوى : هو دلالة الاسم بالوضع على معنى حقه أن يدل عليه بالحرف كأسماء الشرط والاستفهام وهو من علل البناء أى أنها تضمنت مع المعنى الأصلى الموضوعة له معنى آخر جزئيا حقه أن يؤدى بحرف [٥] ومثاله علة بناء (متى) شرطية واستفهامية و (من) الشرطية والاستفهامية [٦] فالشرطية مضمنة معنى (إن) والاستفهامية معنى الهمزة وهذا زيادة على المعنى الأصلى الموضوع له (متى) وهو الظرفية ، و (من) وهو الدلالة على العاقل .

---

(١) أحمد الإسكندرى فى بحثه بمجلة مجمع اللغة العربية ١ / ١٩٥ .

(٢) إبراهيم السامرائى : دراسات فى اللغة ص ١٨٤ .

(٣) مجلة المجمع ١ / ١٨١ .

(٤) ابن منظور : اللسان ١٧ / ١٢٦ .

(٥) مجلة المجمع ١ / ١٨٣ .

(٦) انظر كتب النحو فى باب المعرب والمبنى .

التضمين اللغوى : اختلف العلماء فى تفسيره .

فيعرفه بعضهم بأنه (إشراب لفظ معنى لفظ آخر وإعطاؤه حكمه لتصير الكلمة تؤدى مؤدى كلمتين) .

وعللوا لذلك بأنهم يرون فى بعض أنواع التضمين حرف جر يناسب المعنى الأصلى الوضعى ومعمولا يناسب المعنى المتضمن وما ذلك إلا لأن الفعل المذكور يدل على المعنيين معا كقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ [٧] ففسر انتبذت بمعنى اعتزلت وهو يتعدى بـ (من) وجعل (انتبذت) مضمنا معنى (أتت) لتنصب (مكانا) [٨] فعلق لفظ (من أهلها) و (انتبذت) على حقيقته ونصب (انتبذت) (مكانا) على أنه مفعول به لتضمنه معنى (أتت) .

وكذلك قالوا فى (من) التى هى بمعنى العاقل إذا ضمنت معنى الشرط أو الاستفهام فإنها مع دلالتها على العاقل بالوضع دلت على معنى الشرط أو الاستفهام بالتضمين .

ولكن لفظ الإشراب يفضى إلى مشكلات أقلها الجمع بين الحقيقة والمجاز فى كلمة وهذا لم يقل به أكثر علماء العربية .

والتضمين فى أدوات الشرط والاستفهام غير التضمين الذى يشمل المعانى [٩] .

ويعرف المجمع اللغوى التضمين بأن يؤدى فعل أو ما فى معناه فى

---

(٧) الآية ١٦ من سورة مريم .

(٨) تفسير البيضاوى ٤٠٤ والقرطبى : الجامع لأحكام القرآن ط الشعب ٢٩ / ٤ .

(٩) لا يقول بذلك إلا من يرى جواز الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو ظاهر قول ابن هشام فى المغنى : إن فائدته أن تؤدى كلمة مؤدى كلمتين ، انظر حاشية يس على التصريح ٢ / ٤ ، ٥ ، ومجلة المجمع ١ / ١٨٢ .

التعبير مؤدى فعل آخر أو ما فى معناه فيعطى حكمه فى التعدية واللزوم [١٠] .

فمثال الفعل الذى يؤدى مؤدى فعل آخر فيعطى حكمه فى التعدية قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴿١٤﴾ ﴾ [١١] فأصل (خلا) يتعدى بالباء يقال (خلوت بفلان) فضمن هنا معنى (أنهى أو أفضى) فعدى بالى [١٢] .

ومثله (رحبتكم الدار) فالفعل (رحب) لازم يتعدى بحرف جر خاص وهو الباء إذ هو مضمن معنى (اتسعت) ثم ضمن هنا معنى (وسعت) فتعدى بنفسه ، ومثال ما كان متعديا بنفسه فضمن معنى فعل يتعدى بالحرف (قتل) فى قول الفرزدق .

كيف ترانى قاليا مجنى أضرب أمرى ظهره للبطن
قد قتل الله زيادا عنى

لما كان معنى قد قتله : قد صرفه عداه بعن [١٣] .

ومثال ما فى معنى الفعل المشتق إذا تعلق به جار ومجرور كحاتم بمعنى جواد والصفة المشبهة المجموعة فى قوله تعالى : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴿١٤﴾ ﴾ [١٤] إذ معناه من ينضاف فى نصرتى إلى الله [١٥] .

والمصدر فى قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ

---

(١٠) مجلة المجمع ١ / ١٨١ .

(١١) من الآية ١٤ من سورة البقرة .

(١٢) مجلة المجمع ١ / ١٨١ .

(١٣) ابن جنى : الخصائص ٢ / ٣١٠ كان زياد بن أبيه قد غضب على الفرزدق ففر هاربا من البصرة إلى المدينة واختفى فيها حتى مات زياد سنة ٥٣ هـ فظهر وأنشد رجزا منه هذا الشطر شماتة بزياد وفرحا بنجاته من شره .

(١٤) من الآية ١٤ من سورة الصف .

(١٥) ابن جنى : الخصائص ٢ / ٣٠٩ .

نسائكم ﴿١٨٧﴾ [16] فالرفث يتعدى بالباء أو مع تقول : رفثت بالمرأة أو معها فضمن الرفث معنى الإفضاء فعدى بالى [17] .

ومثال ما كان لازما فضمن معنى فعل متعد بنفسه قوله تعالى : ﴿ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴿١٣٠﴾ [18] ضمن سفه معنى أهلك [19] .

وهذا التعريف يستند إلى ما ذكره ابن جنى فى تعريف التضمين إذ يقول واعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر بآخر فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانا بأن هذا الفعل فى معنى ذلك الآخر [20] .

ولعل ابن جنى يقصد الفعل وما فى معناه وإن لم يشر إلى ذلك صراحة فقد ذكر المصدر والصفة المشبهة كما نقلنا فى الأمثلة الماضية .

آراء العلماء فى التضمين

للعلماء قديما وحديثا آراء لها جوانبها المتعددة واتجاهاتها المختلفة فى تفسير ظاهرة التضمين اللغوى وتلكم الآراء .

١ - رأى الكوفيين :

ليس الكوفيون فى حاجة إلى القول بالتضمين لنيابة بعض الحروف عن بعض عندهم قياسا [21] فالمعنى الملحوظ غير الوضعى غير مستفاد من توسع فى الفعل بل مستفاد من أن بعض حروف الجر ينوب عن بعض بطريق الوضع أى أن الحرف موضوع لأكثر من معنى واحد [22] .

---

(١٦) من الآية ١٨٧ من سورة البقرة .

(١٧) الخصائص : ٢ / ٣٠٨ - ٣١٠ ، ٤٣٥ .

(١٨) من الآية ١٣٠ من سورة البقرة .

(١٩) مجلة المجمع ١ / ١٩٨ .

(٢٠) ابن جنى : الخصائص ٢ / ٣٠٨ ، ١ / ٣٥٣ .

(٢١) حاشية الصبان على الأشمونى ٢ / ٢١٠ ، ومنار السالك : من التعليق ، ومجلة المجمع ١ / ١٨٦ .

(٢٢) الإسكندرى فى بحثه بمجلة المجمع ١ / ١٨٤ .

وهذا بناء على نظريتهم المعروفة فهم يجعلون لكل حرف عدة معان موضوع لها وضعا لغويا [٢٣] فإلى عندهم تكون بمعنى مع مثل قوله تعالى ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ⑭﴾ ، الصف ، أى مع ، و (فى) تكون بمعنى على كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ⑦١﴾ [٢٤].

والباء بمعنى عن وعلى مثل قولك : رميت بالقوس أى عنها وعليها وكقول الشاعر :

أرمى عليها وهى فرع أجمع [٢٥].

ولما فطنوا عند تفسيرهم القرآن الكريم والشعر القديم إلى أن بعض الأفعال والمشتقات يؤدى معنى غير معناه الوضعى أى غير المعنى المتبادر منه أول وهلة خشى الكوفيون أن يسموا ذلك تضمينا لئلا يلتبس بالتضمين الذى هو علة البناء فسماه الكسائى حمل الشئ على ضده أو على نظيره [٢٦].

فمن الأول قول الشاعر :

إذا رضيت على بنو قشير　　　لعمر الله أعجبنى رضاها

قال الكسائى لما كان (رضيت) ضد (سخطت) عدى (رضيت) بعلى حملا للشئ على نقيضه .

ومن الثانى قول الآخر :

إذا ما امرؤ ولى على بوده　　　وأدبر لم يصدر بإدباره ودى

فعلى هنا بمعنى عن وجاز ذلك لأنه أمر عليه لا له [٢٧] فقد أفسد

---

(٢٣) المصدر السابق ١ / ١٨٠ .

(٢٤) من الآية ٧١ من سورة طه .

(٢٥) الضمير يعود إلى (قوس) يتحدث عنها الشاعر ، ومعنى (فرع اجمع) إنها صنعت من غصن كامل لا من شق لتكون قوية متينة .

(٢٦) مجلة المجمع ١ / ١٨٣ .

(٢٧) ابن جنى : الخصائص ٢ / ٣١١ ، ٣١٢ ، وانظر فى قول الكسائى فى البيت الأول حاشية يس على التصريح ٢ / ٧ .

عليه ورده بأخذه منه وإبعاده عنه لأن هذا الأخذ يحمل سمات تبديده وإهلاكه فلما كان ولى بمعنى أخذه على جهة الإفساد والإذهاب عامله معاملة أفسد وأهلك معاملة النظير لنظيره ولا يعد هذا الحمل مجازا بل من قبيل المشاركة فى اللفظ ومجرد تغير فى الصلة أى الجار وتصرف فى النسبة الناقصة [٢٨] .

وهم يؤلون ما كان لازما فتعدى بنفسه كـ (رحبتكم) الدار أو متعديا بحرف واستعمل متعديا بنفسه مثل (تمرون الديار ولم تعوجوا) أو قاصرا لا يتعدى مطلقا فتضمن معنى فعل متعد بنفسه نحو (سفه نفسه) بالضرورة أو الشذوذ ويجعلون التضمين من باب الشذوذ وإن كثر وقوعه فى الكلام [٢٩] .

وعلى ذلك فلا تجوز على قول الكوفيين ولا توسع وقد أعجب مذهبهم أكثر النحاة المتأخرين ومنهم ابن هشام فى المغنى حيث وضع جزءا عظيما من كتابه فى تعدد معانى الحروف اللغوية وقال : إنه أقل تعسفا [٣٠] .

ولم يرتض ابن جنى هذا الرأى واعتبره مغسولا ساذجا من الصنعة وقال : ما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه [٣١] .

٢ - رأى البصريين :

لا يقول البصريون بنيابة بعض حروف الجر عن بعض قياسا كما لا

---

(٢٨) مجلة المجمع ١ / ١٨٣ .

(٢٩) المصدر السابق ١ / ١٨٦ ، ١٩٨ .

(٣٠) ابن هشام : المغنى ط المدنى ١ / ١١١ ، وانظر أيضا الشيخ خالد الأزهرى : التصريح ٢ / ٦ ، ٧ ، وحاشية الصبان على الأشمونى ٢ / ٢١٠ والتعليق فى منار السالك ١ / ٣٥٣ .

(٣١) الخصائص ٢ / ٣٠٦ .

تنوب حروف الجزم عن حروف النصب فليس للحرف وضعا عندهم إلا معنى واحد ، وما أوهم خلافه لا يخرج عن أمور ثلاثة :

(أ) تأويله تأويلا يقبله اللفظ باستعارة الحرف الذى تعدى به الفعل لمعنى الحرف الذى كان ينبغى أن يتعدى به ، على طريق الاستعارة التبعية إن سهل تطبيق هذه الاستعارة على الحرف بكل شروطها ، ومن ذلك استعارة (فى) لمعنى (على) كقول عنترة فى معلقته :

بطل كأن ثيابه فى سرحة

يحذى نعال السبت ليس بتوأم [٣٢]

أى : على سرحة ، فمن المعلوم أن ثيابه لا تكون فى داخل سرحة إذ السرحة لا تنشق فتوضع الثياب ولا غيرها فيها .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾ أى : عليها [٣٣] ، وكاستعمال (إلى) بمعنى (فى) فى قول النابغة .

فلا تتركنى بالوعيد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب

يريد فى الناس .

وقول طرفة :

وإن يلتق الحى الجميع تلاقنى إلى ذروة المجد الكريم المصمد

أى فى ذروة المجد الذى يصمد إليه ويقصد [٣٤] .

(ب) التوسع فى استعمال الفعل أو ما يقوم مقامه فى معنى لا يتبادر منه أول وهلة إذا لم يكن ثمة حرف يستعار ، بأن استعمل الفعل المتعدى بحرف جر خاص استعمال اللازم فلم يتعد إلى مفعول أصلا أو تعدى

---

(٣٢) السرحة : شجرة طويلة مشرفة ، ونعال السبت : المدبوغة بالقرظ وهى أجود النعال ، وليس بتوأم : أى لم يكن له أخ فى بطن أمه فهو قوى أو المعنى أنه لا ند له .

(٣٣) الخصائص ٢ / ٣٠٧ .

(٣٤) مجلة المجمع ١ / ١٨٤ .

ولكن بحرف جر آخر ، لا يستساغ بلاغة إجراء الاستعارة فيه ، أو تعدى إلى مفعول لا يناسبه [٣٥] .

وقد سموا هذا التوسع تضمينا ، وهو أيضا من قبيل الاستعارة التبعية أو المجاز المرسل فى الفعل وحرف الجر قرينته [٣٦] أو المفعول وقد مرت أمثلة لذلك [٣٧] ومنها أيضا قوله تعالى : ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [٣٨] وأنت تقول هل لك فى كذا ؟ لكنه لما كان على هذا دعاء منه ﷺ صار تقديره : (أدعوك وأرشدك إلى أن تزكى) ومن ذلك ما ذكره السيوطى فى الهمع عند الكلام على جواز عطف مفعول على آخر وكان العامل فيهما لا يصح وقوعه على الثانى ، كقول الشاعر :

(وزججن الحواجب والعيونا)

فقد ذهب جماعة منهم أبو عبيدة والأصمعى وأبو محمد اليزيدى والمازنى والمبرد إلى تضمين (زججن) معنى يتسلط به على المتعاطفين وهو (حسن) وعليه قول الآخر :

(علفتها تبنا وماء باردا)

أى أطعمتها ، وهناك تأويلات أخرى [٣٩] .

(جـ) اعتبار التعدية أو اللزوم غير المألوفين فى الفعل من قبيل نيابة بعض الحروف عن بعض ، على طريق الشذوذ ، وهذا إذا قبح تطبيق الاستعارة فى الحرف أو التضمين فى الفعل أو المشتق وكلما تعذر ذلك [٤٠] ولابد لهذا الرأى الذى قال به البصريون من تحقيق شرط المجاز

---

(٣٥) المصدر السابق ١ / ١٨٥ .

(٣٦) المصدر السابق ١ / ١٨٧ .

(٣٧) انظر ص ٣١٢ .

(٣٨) من الآية ١٨ من سورة النازعات .

(٣٩) ابن جنى : الخصائص ٢ / ٤٣١ ، ٤٣٢ .

(٤٠) مجلة المجمع ١ / ١٨٥ ، وانظر فيما سبق ابن هشام : المغنى ١ / ١١١ والتصريح ٢ / ٤ ، ٥ ، وحاشية الصبان ٢ / ٢١٠ .

وهو : وجود علاقة مقبولة ، ووجود قرينه يؤمن معها اللبس وتتحقق العلاقة لوجود مناسبة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازى مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴿٨٣﴾ ﴾ [٤١] ضمن (أذاعوا) معنى (تحدثوا) فتعدى بالباء والمعنيان متناسبان ، يشملهما جنس قريب هو الإعلان مثلا ، فيكون التقدير لأعلنوه أو لأعلنوا به ولا يجوز (أكلت إلي الفاكهة) على أن أكل مضمن معنى (مال) ، و (تناولت عن القوس) مضمنا معنى (رميت) إذ لا يحتمل الفعل معنى بعيدا عن معناه الوضعي بحيث تفضي تعديته بحرف ذلك الفعل البعيد المعنى إلى إفساد الكلام وعدم ضبط معاني الأفعال [٤٢] .

ويذكر ابن جني أنك لا تقول : (سرت إلى زيد) وأنت تريد (معه) وأن تقول : (زيد في الفرس) وأنت تريد (عليه) ، و (زيد في عمرو) وأنت تريد (عليه في العداوة) ، وأن تقول : (رويت الحديث بزيد) وأنت تريد (عنه) ونحو ذلك مما يطول ويتفاحش [٤٣] .

وكما ذكرنا لابد من وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ويؤمن معها اللبس ، كحرف الجر الذى يتعدى به الفعل ولم يكن من حقه أن يتعدى به ، كاللام الداخلة على (من) في قول المصلي : (سمع الله لمن حمده) فـ (سمع) ينصب ما في معنى الكلام والصوت بنفسه - وهذا أشهر القرائن - وقد تكون القرينة المفعول مثل : (مكانا) مفعول (انتبذت) في قوله تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [٤٤] فالفعل (انتبذت) يتعدى بحرف جر وقد عدى بنفسه لتضمنه معنى فعل آخر يتعدى بنفسه وهو (أتت) وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

---

(٤١) من الآية ٨٣ من سورة النساء .

(٤٢) مجلة المجمع١ / ١٩٦ ، وانظر حاشية يس على التصريح ففيها أمثلة أخرى٢ / ٥ - ٧ .

(٤٣) ابن جنى : الخصائص ٢ / ٣٠٨ .

(٤٤) الآية ٢٢ من سورة مريم .

وقيد أمن اللبس احترازعن القرينة التى يفهم معها - على سبيل الاحتمال الاقتصار على المعنى الحقيقى فى الملفوظ .

ومن ذلك قول امرئ القيس :

وهل يعمن من كان أحدث عهده   ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال

فقد قيل : إن (فى) استعيرت لمعنى (مع) والمراد : مع ثلاثة أحوال ولكن ابن جنى جعل (فى) مستعملة فى معناها الحقيقى وأن الكلام على حذف مضاف والتقدير : ثلاثين شهرا فى عقب ثلاثة أحوال قبلها ، أى : بعد ثلاثة أحوال فالحرف إذن على بابه وإنما هنا حذف المضاف الذى قد شاع عند الخاص والعام ومثله قول الآخر :

شدوا المطى على دليل دائب   من أهل كاظمة بسيف الأبحر (٤٤)

فقد قيل : إن (على) استعيرت لمعنى (الباء) والأصل: بدليل، لكن ابن جنى جعل الكلام على حذف مضاف ، وتقدير الكلام : على دلالة دليل، وقد حذف المضاف لأن لفظ (الدليل) يدل على المدلالة(٤٥).

ويتضح من هذه الشواهد أن التضمين عند البصريين لا يتحقق إلا بتحقق شرط المجاز - سواء كان مجازا مرسلا أم استعارة - وهو وجود علاقة بين المعنى الأصلى والمعنى المراد ، ووجود قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلى .

٣ - رأى البيانيين :

جمهور البيانيين - وفى مقدمتهم الزمخشرى - يجعلون المعنى المتضمن تابعا من توابع الفعل المذكور مدلولا عليه بلفظ محذوف مقدر حالا غالبا ، فيقولون فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ (٤٦) :

---

(٤٥) ابن جنى : الخصائص ٢ / ٣٠٨ - ٣١٤ ، والسيف : ساحل البحر . اللسان ١١ / ٦٨، ١٣ / ٢٦٤ .

(٤٦) من الآية ٢٨ من سورة الكهف .

إن تقدير الكلام : ولا تقتحمهم عيناك متجاوزين عنهم فيكون اللفظ المذكور مستعملا فى حقيقته ، واللفظ الملحوظ معناه محذوفا لدليل من الكلام وهو حرف الجر أو القرينة وإن لم يوجد حرف جر فهو من باب مجاز الحذف .

وقد يجعلون المحذوف أصلا والفعل المذكور تابعا ، على تقدير أنه حال فيقولون فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴿٢﴾ ﴾ (٤٧) : إن تقدير الكلام : ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم آكلين، أو على تقدير أنه مفعول به فى نحو (أحمد إليك الله) أى أنهى إليك حمد الله ، فيسبكوا من الفعل (أحمد) مصدرا بدون سابك كسبك الفعل بعد همزة التسوية نحو : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ (٤٨) .

٤ - رأى المتأخرين من النحاة والبلاغيين :

للمتأخرين آراء متعددة فى تخريج التضمين ، مأخوذة من كلام السابقين من البصريين والكوفيين والبيانيين وقد جمع الشيخ يس فى حاشيته على التصريح كثيرا منها ، فذكر مما قاله النحويون ، والبيانيون ثمانية أقوال ملخصة فيما يأتى :

(أ) أنه مجاز مرسل : لأن اللفظ استعمل فى غير معناه لعلاقة وقرينة .

(ب) أن فيه جمعا بين الحقيقة والمجاز ولكن بتأويل أن الفعل المذكور فى التركيب دل على معناه الحقيقى بنفسه ، وعلى المعنى الملحوظ بطريق اللزوم والقرينة .

---

(٤٧) من الآية ٢ من سورة النساء .

(٤٨) من الآية ٦ من سورة البقرة ، وانظر مجلة المجمع ١ / ١٨٦ ، ١٨٧ ، وانظر أيضا ١٨٢ وحاشية يس على التصريح ٢ / ٥ ويؤولون قوله تعالى : ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ على معنى (يعترفون به مؤمنين) ، انظر حاشية يس ٢ / ٥ ، ٦ .

(جـ) أن الفعل المذكور في التركيب مستعمل في حقيقته ، ولم يشرب معنى غيره (كما جرى عليه صاحب الكشاف ولكن مع حذف حال مأخوذة من الفعل الآخر المناسب بمعرفة القرينة اللفظية) .

(د) أن اللفظ المذكور مستعمل في معناه الحقيقي ، ولكنه مستتبع معنى آخر يناسبه من غير أن يستعمل هو فيه ، ومن غير أن يستعمل له لفظ آخر ، فيكون الكلام من باب الحقيقة التي قصد منها معنى آخر يناسبها ، ويتبعها في الإرادة كما يدل تأكيد الخبر على إنكار المخاطب ، وعليه فلا مجاز ولا كناية ولا حذف ، والكلام مستعمل في معناه الحقيقي .

(هـ) أن المعنيين مرادان على طريق الكناية فيراد المعنى الأصلي توصلا إلى المعنى المقصود ، ولا حاجة إلى التقدير إلا لتصوير المعنى ، وضعف هذا القول بأن الكناية يصح معها إرادة المعنى الحقيقي وصرف النظر عن المعنى اللازم .

(و) أن المعنيين مرادان على طريق عموم المجاز وهو غير متسق التخريج كسابقه .

(ز) أنه مجاز عقلي في النسبة غير التامة أي في النسبة بين الفعل ومتعلقاته .

(ح) أنه نوع مستقل من أركان الكلام العربي ، وقسم رابع للحقيقة والمجاز والكناية :

فللمتأخرون لفقوا مذاهبهم من مجموع المذاهب القديمة ورجح كل منهم ما اختاره من مذهبي المنع والجواز[٤٩] .

٥ - رأي المحدثين :

عقب بعض الباحثين المحدثين على أقوال العلماء السابقين في التضمين وأبدوا وجهات نظر جديدة نعرض أهمها ونبين موقفنا منها :

---

(٤٩) انظر حاشية يس على التصريح ٢ / ٤ - ٧ ، ومجلة المجمع ١ / ١٨٧ - ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤ .

(أ) رأى الإمام محمد الخضر :

يرى الإمام محمد الخضر أن الكلام الذى يشتمل على فعل عدى بحرف وهو يتعدى بنفسه ، أو عدى بحرف وهو يتعدى بغيره يأتى على وجهين :

الأول : ألا يكون هناك فعل يناسب المعنى المنطوق به حتى تخرج الجملة على طريقة التضمين ، ومثل هذا نصفه بالخطأ والخروج على العربية ولو صدر من العارف بفنون البيان .

الثانى : أن يكون هناك فعل يصح أن يقصد المتكلم لمعناه مع معنى الملفوظ به ، وبه يستقيم النظم ، وهذا إن صدر ممن شأنه العلم بوضع الألفاظ العربية ، وموضع طرق استعمالها حمل على وجه التضمين الصحيح كما قال سعد الدين التفتازانى : (فشمرت عن ساق الجد إلى اقتناء ذخائر العلوم) والتشمير لا يتعدى بإلى فيحمل على أنه قد ضمن (شمر) معنى الميل الذى هو سبب التشمير عن ساق الجد فإن صدر مثل هذا من عامى أى ممن يدلك حاله على أنه لم يبن كلامه على مراعاة فعل آخر مناسب للفعل الملفوظ كان لك أن تحكم عليه بالخطأ مثل قوله : (أرجو الله قضاء حاجتى) فلا يصح لأن المتكلم لا يعرف معنى التضمين، على أن يضمن (أرجو) معنى (أسأل) مثلا وإن قام شاهد على أن المتكلم لم يقصد التضمين وإنما تكلم على جهالة بوجه استعمال الفعل كان قضاؤك عليه بالخطأ قضاء لا مرد له [٥٠] .

والمتأمل لكلام الأستاذ الإمام يرى أنه يعترف بمذهب البصريين القائلين بأن التضمين توسع على طريق المجاز ، مع تحقيق العلاقة والقرينة المانعة .

---

(٥٠) الشيخ محمد الخضر حسين : دراسات فى العربية وتاريخها ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

ولكن الإمام يشترط أن يكون المتكلم بهذا الأسلوب عالما بأسراره وطريقته بحيث يعرف المعنى الأصلى ، والمعنى المضمن ، والعلاقة بينهما ويضع كل شئ فى موضعه ، وعلى ذلك يجوز للشخص المتكلم إجراء كلامه على طريق التضمين ، أما إذا كان جاهلا بطرائق التعبير فلا يجوز له ذلك وبناء الأستاذ الإمام رأيه على ملحظ العلم ، وعدم العلم خارج عن الوصف المنهجى ، إذ لا علاقة لعلم المتكلم أو جهله بذلك ، بل الأمر موقوف على تحقيق الشروط اللغوية ، فمتى وجدت كان الأسلوب صحيحا ، صدر ذلك من عالم أو جاهل ، ولا ينبغى أن نحكم على أسلوب الجاهل بالخطأ طالما كان موافقا للقواعد العربية وسائرا على نهجها .

(ب) رأى الدكتور السامرائى :

اقترح الدكتور إبراهيم السامرائى لنفسه رأيا يعتقد أنه جديد ، فقرر أنه لابد للباحث فى علم الدلالات بغية الإفادة فى اللغة العربية أن يعانى صعوبة البحث إذا ما أراد أن يخلص للمنهج السليم ولاسيما فى عصورنا الحديثة [٥١] .

وهو يرى أن البصريين والكوفيين فى هذا الباب لم يستقرئوا كلام العرب استقراء وافيا ليسجلوا هذه الاستعمالات ، وليقيدوها بقائليها ، وبالزمن الذى قيلت فيه مهتمين بموضوع اللغات الخاصة التى أجازت استعمالا دون آخر [٥٢] ولم يستطيعوا أن يدرسوا المشكلة دراسة أسلوبية حديثة [٥٣] ولذا فلابد أن تؤرخ الألفاظ ، وتقيد بعصورها وبقائليها حاسبين للأقاليم والمجتمعات حسابها فى الاستعمالات وما شاع بينها من فنون القول ، وبهذا تفيد المعجمية العربية فائدة كبيرة فيعاد بناء

---

(٥١) د. السامرائى : دراسات فى اللغة ص ١٧٥ .

(٥٢) المصدر السابق ص ١٨٢ .

(٥٣) المصدر السابق ص ١٨٢ .

المعجمات المطولة على أساس جديد ، بمراعاة الظروف التاريخية وتطورها وانعكاس هذه الظروف المتطورة فى المادة اللغوية ، ومن هنا تأتى ضرورة القيام بمعجم تاريخى [٥٤] .

والواقع أن القدماء قد استقرأوا الظواهر اللغوية في هذا الموضوع ووفوه حقه ، أما تأريخ الألفاظ وتقييدها بقائليها فإن الأيام لم تمكنهم منه ولا يزال حتى الآن في حاجة إلى من يمضى فى طريقه ، وينقب عنه .

(جـ) رأى بعض المحدثين كالأستاذ جورجى زيدان :

يرى هؤلاء أن حروف الجر التى تستعمل لعدة معان لها معنى وضعي واحد ، والمعانى الأخرى تعد تفننا عربيا ، فالباء وضعت للظرفية فى أخوات العربية ويرجح أن هذا هو الأصل فى دلالتها عندنا ، وما بقى من المعانى ليس إلا تفننا عربيا [٥٥] .

ويرجع هذا الرأى إلى أن الحروف والأدوات بقايا كلمات مستقلة قديمة أفرغت من معناها الحقيقى ، واستعملت مجرد موضحات ، أى : (مجرد رموز) [٥٦] فالباء بقية كلمة ذات معنى مستقل وهى (بيت) بدليل وجود ذلك فى السريانية والكلدانية وورود الباء بمعنى (فى البيت) فى التلمود والترجوم ، والكاف بقية كلمة يظهر أنها فقدت من العربية ، وحفظت فى أخواتها فهى فى العبرانية بقية Khin (كن) التى مفادها (كذا) فمعنى زيد كالأسد : زيد كذا الأسد و Khin هذه منحوتة من Aakhin (أكن) فى العبرانية بمعنى (حقيقة) .

فبناء على ما تقدم تكون كاف التشبيه بقية أصل يقابل Aakhin (أكن) العبرانية فقد من العربية ، ولم يزل محفوظا فيها مركبا مع (لا)

---

(٥٤) المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٥٥) جورجى زيدان : الفلسفة اللغوية ص ٥٠ ، ٥١ .

(٥٦) فندريس : اللغة ص ٢١٦ .

النافية أعنى به (لكن) ولذا قال بعض أئمة اللغة إنها تفيد الاستدراك فكأن أصل مؤداها (لا حقيقة بنفي ما ذكر وتأكيد ما هو آت) [٥٧] .

ونحن نتفق مع هؤلاء المحدثين في أن الحرف الموضوع لعدة معان له معنى واحد منها حقيقي ، والباقي تفنن عربي على طريق المجاز ، وكون الحروف بقايا كلمات قضية لم تتضح بعد لدى الباحثين فالثابت أنها استعملت من أول أمرها أدوات لوصل الكلام وربط بعضه ببعض ، بما تحمل من هذه المعاني الحقيقية والمجازية .

قياسية التضمين

يبدو أن هذا التوسع في تعدى الأفعال وما يشبهها بحروف جر غير التي تتعدى بها قياسي على رأى الكوفيين المحيلين هذا الباب على قياس نيابة بعض الحروف عن بعض ، بالوضع بلا تعسف ولا تكلف ، وقياسي على رأى بعض البصريين القائلين بالتوسع فيما يمكن فيه من الفعل ، وهو ضرب من المجاز وقياسي عند جميع البيانيين ، لأنه من باب التوسع في حذف الحال ونحوه المتعلق به حرف فيكون من باب الحذف لدليل وهو قياس مطرد ، وقياسي على رأى أكثر المتأخرين أيضا [٥٨] وقياسي عند المحدثين إذا دعت إليه الحاجة فيستخدم استخداما فنيا في الحياة العامة وما جد فيها من ضروب العلم التجريبي والنظرى [٥٩] .

وقد أخذ المجمع بقياسيته إلا أنه أوصى بألا يلجأ إليه إلا لغرض بلاغي [٦٠] وهذا يجعل التضمين مبدأ لغويا سليما ، يمد العربية بطاقات تعبيرية وملامح فنية ، تفتح المجالات للغة مرنة مستعدة لكل متطلبات الحياة والحضارة .

---

(٥٧) جورجي زيدان : الفلسفة اللغوية ص ٥٢ وقد طبق الأستاذ زيدان ذلك على حروف كثيرة من ص ٦٨ - ٧٩ .

(٥٨) مجلة المجمع ١ / ١٩٥ .

(٥٩) د. السامرائي : دراسات في اللغة ١٨٤ .

(٦٠) مجلة المجمع ١ / ١٨٠ ، ١٨١ .

الدلالة عند علماء الغرب

يعد هذا الفرع من أهم وأخطر الدراسات اللغوية ، ولذا اتجهت إليه الدراسة الحديثة فى الغرب عند المتخصصين وغير المتخصصين فى اللغة والمهتمين بها ، لأن علاقته بالحياة والمجتمع كبيرة ، واحتياج الناس إليه شديد ، فهو مفيد لكل طبقات الأمة ومتطلباتها ، وعلاقتها مع غيرها فى ميادين الحقوق ، والواجبات والأخلاق والمعاملات ، وغيرها ، وتبدو آثر تغير المعنى فى كل المجالات ، سياسية ، واجتماعية ، وقضائية، ودولية .

ولهذه الأهمية تناوله اللغويون وغيرهم بالدراسة والبحث .

وقد اختلف الباحثون حول دراسة المعنى فى علم الدلالة (السيمانتيك) فبعضهم يرى دراسته فى المفردات ، وبعضهم يدرسه فى التراكيب (السيمانتيك المعجمى والسمانتيك النحوى) وبعضهم يدرسه فيهما معا فى إطار اجتماعى معين ، كما اختلف الدارسون فى تعريف المعنى وتحديده اختلافا واسعا ، وذلك يرجع إلى سببين :

(أ) تعدد الدارسين واختلاف ميادين دراستهم ، فمنهم المناطقة ، والفلاسفة ، وعلماء النفس ، وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجى ، وعلماء اللغة .

(ب) كثرة مصطلحاتهم بهذا الصدد ، وعدم اتفاقهم على تحديد المراد منها بدقة .

وقد أدى ذلك إلى أن بعض الباحثين أهمل مشكلة المعنى وأخرجها من دائرة الدرس اللغوى [1].

---

(١) د. بشر : علم اللغة العام - القسم الثانى - ص ١٥٣ - ١٥٦ .

أولا - دراسة المتخصصين :

أول من تكلم في موضوع المعنى ، وتناوله بالدراسة التي توحي بنشأة (علم الدلالة) هو (ميشيل بريال) ، فقد درس مجموعة من اللغات القديمة هي : « اليونانية - اللاتينية - السنسكريتية » على طريقة « الاشتقاق التاريخي » وخلص من دراسته إلى أن تغير المعنى يخضع لخصائص عقلية [٢] .

وجاءت بعده طائفة من العلماء تبعته في هذا المسلك ، دون ملاحظة - منه أو منهم - لأحداث تغير المعنى من الجانب الاجتماعي أو غيره .

ولكن من أتى بعدهم من الباحثين رأوا أن المعاني اللغوية تسير وفق الظواهر الاجتماعية ، والإنسانية - بعامة - وتتبع تقاليد الأمة ، وعاداتها وهي مختلفة من شعب إلى آخر ، ومن طائفة لأخرى ، ومن عصر لغيره ، والقيم المثالية مختلفة حسب هذه الحالات ، ومن أجل ذلك تختلف المعاني وتتغير .

فدرسوا المعاني - في ضوء الحياة الثقافية والاجتماعية للشعوب - بجمع الألفاظ التي تدور حول موضوع واحد - في اللغة موضوع الدرس - كالأخلاق ، أو الزراعة ، أو الصناعة ، وتحليلها ، وإبداء ملاحظات عليها ، كما فعل الأستاذ « جوست ترابر » بجمعه الألفاظ الخاصة بالذكاء في نصوص اللغة الألمانية العليا القديمة والوسطى .

وقد ثبت لهؤلاء الدارسين أن معاني الألفاظ المدروسة تتسع - في بعضها - وتضيق - في بعضها الآخر - ويختفي سواهما [٣] .

---

(٢) كالحاجة إلى الوضوح .

(٣) د. السعران : علم اللغة ص ٣١٧ - ٣١٩ .

ثم تعمقت الدراسة الدلالية فى الغرب ، واتسع نطاقها ، فبرزت الاتجاهات الآتية :

١ - الاتجاه الاجتماعى :

وهو الذى يربط اللغة ودلالتها بالمجتمع ، وظواهره ، ولهم فيه رأيان :

(أ) رأى دى سوسير والمدرسة الاجتماعية السويسرية الفرنسية :

هذا الرأى مبنى على ما قرره علماء الاجتماع - وعلى رأسهم دور كيم - من أن الظواهر الاجتماعية لها وجود خاص مستقل عن وجود الأفراد ، والسلوك الاجتماعى العام له وجود خاص - كذلك - واللغة ظاهرة اجتماعية .

فقدر دى سوسير أنها تخضع لما لتلك الظواهر من أحكام ، ولذا فرق بين ثلاثة مصطلحات :

١ - **اللغة :** فى إطارها الإنسانى العام وهى من هذا الجانب مقدرة أو استعداد أو ملكة أو طاقة .

٢ - **اللغة المعينة :** وهى مجموع العادات اللغوية المختزن فى عقل الجماعة المعينة ، والذى يعد نتيجة للملكة اللغوية العامة ، ويمكن للفرد أن يعبر عنها فى صورة الكلام المنطوق ، وهى - بهذا - تجمع النظام الصوتى ، والنحوى - كما يعبر عنه المتكلم بتلك اللغة فى أى عصر من عصور تاريخها كالعربية أو الإنجليزية - مثلا - وكأن تلك العقول بمنزلة القواميس التى تجمع الألفاظ صامتة مع صلاحيتها للنطق ، والاستعمال .

واللغة ، واللغة المعينة - إذا - مستقلان عن الفرد .

٣ - الكلام : هو الجانب العملي للغة المعينة ، لأنه تعبير عنها بالأصوات المنطوقة بالفعل ، وهذا خاضع لاستعمال الفرد ، وسيطرته .

وقد فرق دى سوسير بين (القيمة اللغوية للكلمة) و (المقصود) منها على ضوء الفكرة ، والصورة السمعية الناشئة عنها في صورة علامة لغوية هي الكلمة ، وتدرك قيمة العلامة مع وجود سائر العلامات في اللغة المدروسة .

كما فرق أيضا بين الدراسة الوصفية ، والدراسة التاريخية في اللغة، واتخذ منهجا علميا لدراسة المعنى على طريق الوصف في عصر معين ، أو بيئة معينة ، وعلى طريق التاريخ دراسة تحليلية تطورية [٤] .

وقد أثر دى سوسير - الذى يعد رائد الدراسة اللغوية الاجتماعية - بهذا الرأى وغيره في المدارس اللغوية ، وبخاصة المدرسة الفرنسية التي يعد من أعضائها فندريس وميبه .

(ب) رأى مالينوفسكى البولندى [٥] واتباعه فى المدرسة الاجتماعية الإنجليزية :

عد مالينوفسكي اللغة أداة تخدم أغراض الجماعة ، فلا تقتصر وظيفتها على نقل الأفكار ، والانفعالات فقط ، بل لها وظائف كثيرة غير ذلك ، ثم إنها تؤدى وظائفها في نطاق ما عرف - عنده - باسم (سياق الحال) (الماجريات) .

وجاء فيرث الإنجليزى فطور من هذا السياق ، بحيث جعله يشمل النشاط اللغوى كله كلاما وكتابة .

---

(٤) انظر في هذا الموضوع د . السعران : علم اللغة ص ٣٢٧ - ٣٣١ ، ود . تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص ٣٧ - ٣٩ ، ٢٤٤ .

(٥) كان لمالينوفسكى أثر على علماء الأنثروبولوجيا واللغة من الإنجليز .

وهذا السياق له عناصر منها :

١ - المتكلم والسامع والحاضرون معهما ، سواء اشترك بعضهم معهما فى الحديث والمناقشة ، أو اكتفوا بالاستماع والمشاهدة ، ومبلغ صلتهم بموضوع الحديث ، ودرجة ثقافتهم ، وغير ذلك مما له علاقة بهذا الموقف .

٢ - ما يتركه الكلام من انطباعات على السامعين من تصديق أو عدمه ، وتقدير أو سخرية ، وغير ذلك مما يثيره الموضوع الكلامى .

والمعنى - عند فيرث - يحتاج لبيانه إلى دراسة النواحى الصوتية ، والصرفية ، والنحوية ، والقاموسية ، والوظيفة الدلالية لسياق الحال ثم تستخلص نتائج تلك الدراسات ويضم بعضها إلى بعض للتوصل إلى المعنى المطلوب .

وعلى هذا فتحليل نص لغوى عنده يلزم له :

(أ) تحليل النص على المستويات اللغوية المذكورة .

(ب) بيان سياق الحال .

فالمعنى عنده مجموعة من الخصائص والارتباطات والمميزات اللغوية التى نستطيع التعرف عليها فى الموقف المعين .

فإذا أردنا البحث عن معنى كلمة يجب أن نأخذ فى تقديرنا الأسس المشار إليها فيما سبق ، والنظر إلى المتكلم فى الموقف الخاص بجعله كلا متكاملا ، فمثلا كلمة (ولد) لها معنى مركب هو مجموع عدة وظائف وخصائص تتبين من التحليل الآتى :

١ - (ولد) لها وظيفة صوتية ، أو معنى صوتى يختلف عن كلمة (بلد) (أو وجد) مع اشتراكها فى بعض الأصوات ، لكن الاختلاف فى البعض الآخر غير المعنى صوتيا وغير صوتى .

٢ - (ولد) معناها القاموسى يختلف عن معانى الكلمات التى قورنت بها ، ولذا يختلف استعمالها فتقول (ولد نحيل) ولا تقول (بلد نحيل) وتقول (ولد بنتا) ولا تقول مثل ذلك فى بلد .

٣ - (ولد) لها معنى صرفى فتتصرف على هيئة أفعال (ولد - ولدت) - (ولدن - ولدوا) وعلى هيئة أسماء (ولد - ولدان - أولاد - وُلْد بضم الواو وسكون اللام -) .

٤ - (ولد) لها معنى نحوى يتضح من بيان وظائفه فى الجمل مثل (ولدت المرأة - ولدت - ولد كبير - ذلك ولد إلخ) .

٥ - (ولد) لها معنى اجتماعى حسب اختلاف المقام والأحوال والملابسات الخارجية ، وشخصية المتكلم والسامع ، والناحية الصوتية من تنغيم وموسيقى ، وما يصحب الكلام من حركات جسمية .

فإذا قلت (يا ولد) كانت له عدة معان فى سياقات متعددة ، فتكون مدحا وتعظيما أو تحقيرا أو زجرا ، وقد يخاطب به ذكر أو أنثى ، أو طفل أو رجل فى مناسبات متعددة .

وهذا التحليل يؤكد أن المعنى اللغوى مجموعة من الخصائص والمميزات اللغوية للكلمة ، وعلى هذا فطبيعة المعنى اللغوى تختلف من لغة إلى أخرى ، حسب اختلاف طبائع المتكلمين من عرب وإنجليز وغيرهم ، فاستعمال الأصوات الإنسانية وارتباطها بالمعنى يختلفان من مجمتع لآخر (٦) .

وهكذا نرى الربط بين اللغة والمجتمع ، وفهم المعنى على أساس السلوك الاجتماعى ، والأمور التى تحيط بالكلام والآثار المترتبة عليه .

---

(٦) د. بشر : دراسات فى علم اللغة : القسم الثانى ص ١٧٥ - ١٧٨ .

٢ - الاتجاه السلوكى :

برز هذا الاتجاه لدى المدرسة الأمريكية التى أخذت بالمذهب السلوكي في علم النفس ، وظهر - بوجه خاص - عند (بلو مفيلد) اللغوى الأمريكي المشهور .

تفسر النظرية السلوكية سلوك الإنسان بطريقة فسيولوجية ، أو فيزيقية ، وعند السلوكيين أن مصطلحات (الإرادة - الشعور - الفكرة - الانفعال) ينبغى أن تفسر على الأساس السابق .

وقد لاحظ (بلو مفيلد) وجود صعوبات جمة تجعل مشكلة المعنى ضعيفة وليست من شأن اللغويين ، يقول « إن تقديم تعريف علمى لمعنى كل صيغة فى لغة ما يوجب علينا أن نكون عارفين تماما لكل شئ فى عالم المتكلم بهذه اللغة ، ولكن القدر الحقيقى لمعرفة الإنسان بهذا العالم قدر ضئيل جدا ، قد تكون لدينا المقدرة على تحديد معنى كلمة من الكلمات تحديدا علميا ، وذلك عندما يكون هذا المعنى مختصا بأشياء لنا معرفة علمية بها ، إنه من الممكن مثلا تعريف أسماء المعادن عن طريق الالتجاء إلى أساليب الكيمياء ، أو علم المعادن كأن نقول مثلا إن المعنى العادى لكلمة (ملح) هو (كلوريد الصوديوم) ، وكذلك يمكننا أن نعرف أسماء النبات والحيوان عن طريق الاصطلاحات المستعملة فى علم النبات وعلم الحيوان ، ولكن ليست لدينا طرق عديدة لتحديد معانى كلمات كثيرة أخرى ككلمة حب أو كراهية التى تتصل بمواقف غير محددة تحديدا واضحا ، وهذه المواقف وأمثالها تشكل الغالبية العظمى من مواقف الكلام الإنسانى »[٧] .

---

(٧) ومن الصعوبات التى تعترض طريق المعنى : وجهة النظر الخاصة للمتكلمين - فى استعمال اللفظ للمعنى المراد - واختلافهم فى شرح معناه ، وتعدد الأشخاص المستعملين له ، ومزاج المتكلم ، وحالته النفسية والثقافية ، واستعمال اللفظ فى غير ما وضع له ، أو ما اعتاد =

ولكنه يعرف المعنى مشيرا إلى مواقف المتكلم والسامع محاولا ان يطبق نظرية السلوكية على اللغة فوجدت عنده مصطلحات ثلاثة هي : (الاستجابة - الاستجابة البدلية - المثير البدلى) .

فالكلمات - والنطق عامة - تفسر على أساس الأحداث الفسيولوجية والفيزيقية ، وقد ضرب مثلا لذلك ملخصه أن : جاك وجيل - زوجته أو أخته - كانا يسيران ، وكانت جيل جائعة ، فشاهدت تفاحة على شجرة فى حديقة فقالت : (أنا جائعة) فوثب جاك وأحضر التفاحة فأخذتها وأكلتها .

وهنا يتصور (بلومفيلد) ثلاثة أشياء :

١ - الأحداث العملية التى سبقت الكلام :

وهى أن (جيل) حدث لها تقلص عضلى نتيجة الجوع ، وقد وقع نظرها على التفاحة نتيجة الموجات الضوئية المنعكسة على عينيها وهى ترى جاك بجوارها .

فهذه أحداث تعد بمنزلة (المثير أو المنبه) لجيل .

٢ - الكلام :

أصدرت (جيل) بعض الأصوات بحركات عضلية معينة تمثل رد فعل لغوى لأنها لا يمكنها أن تقوم برد فعل عملى بأن تقفز من فوق سور الحديقة لتأتى بالتفاحة ، فاستبدلت من الحدث العملى الحدث اللغوى ، فيسمى كلامها (رد فعل لغوى) لأنه كان بدل الحدث العملى الذى كان يتوقع أن تقوم هى به بمجرد رؤيتها التفاحة لو أنها تستطيع وعد كلامها (مثيرا) بالنسبة لجاك بجانب رؤيته (التفاحة) .

= الناس استعماله فيه ، كالحديث عن تفاحة حيث لا تفاحة بعيدا عن المعانى القاموسية ، ويبدو ذلك فى لغة الكذب والتهكم والشعر والقصص الخيالى .

انظر د. بشر : دراسات فى علم اللغة ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

فهناك مثيران أحدهما (لغوى) أو (بدلى) وهو الموجات الصوتية المتتابعة على أذن جاك - والثانى (عملى) - وهو رؤيته التفاحة وجوع زوجته أو أخته جيل .

٣ - الأحداث العملية التى تلت الكلام :

هى قفز جاك من فوق السور ، وإحضاره التفاحة ، وإعطاؤه إياها لجيل لتأكلها ، وتسمى تلك الأحداث (استجابة) السامع .

فالمعنى اللغوى يتكون من هذه الأشياء المهمة التى يرتبط بها الكلام ، أو بعبارة أخرى : المعنى هو مجموع الحوادث السابقة للكلام والتالية له المعبر عنها فى الكلام السابق بالجزأين (١ ، ٢) .

فللكلام - بناء على هذا المثل - علاقة قوية بالأحداث العملية التى توجد على هيئة مثيرات ، أو ردود أفعال للكلام ، فيفسر على هذا الأساس الفسيولوجي ، وما يتصل به من الظواهر المادية ، فالجوع يعرف بالتقلص العضلى ، وما يصحبه من إفرازات معدية أو عطش أو نحو ذلك ، ويعرف (الملح) بتحليل عناصره الكيماوية التى يتركب منها ، ويمكن تطبيق ذلك على الأفكار والتصورات المختلفة ، فيفسر الحب والكره وغيرهما عن طريق الألفاظ الفيزيقية ، وهكذا كل ما يتعلق باللغة ودلالتها .

ويرى الدكتور (بشر) أن قول (بلومفيلد) بضعف مشكلة المعنى فى الدراسات اللغوية قول مرفوض ، لأن دراسة المعنى أساس الدراسات اللغوية وهدف مهم للغويين ، ويصف مذهبه فى شرح مشكلة المعنى بأنه ميكانيكى عقلى ، فهو يحلل سلوك الإنسان وفقا لنظريات المدرسة الميكانيكية فى علم النفس ، ولا يمكن إخراج العقل والفكر من

الدراسة ، إذ لا يمكن أن نخرج الدوافع الأساسية كالبواعث ، والحاجات والرغبات للإنسان والطبيعة الاجتماعية [٨] .

ومع ذلك فالمدرسة السلوكية - كما يقول الدكتور السعران - (لا تتجاهل العناصر الاجتماعية لكنها تعبر عنها بمصطلحات خاصة بها فهى لا تتجاهل شخصية المتكلم ، وشخصية السامع ، وبعض الأمور المحيطة بالكلام ، وهى بذلك وجهت عناية اللغويين إلى ربط المعنى بمجالات غير الكلام مجالات تستلزم التحليل على مستويات خاصة) [٩] .

ثانيا - دراسة غير المتخصصين :

لما لمشكلة المعنى من تعقيد ، وغموض ، وأهمية ، تناولها غير اللغويين بالدراسة والبحث .

فقد ألف (أوجدن ، وريتشاردز) كتابا سمياه (معنى المعنى) أوضحا فيه طبيعة المشكلة وتعقدها ولكن تركاها دون علاج .

وتقوم فكرتهم الأساسية على القاعدة المشهورة التى سمياها (المثلث الأساسى) فأية علامة رمزية لها ثلاثة جوانب أساسية :

(أ) **الرمز نفسه :** وهو فى دراسة اللغة (الكلمة المنطوقة) مثل (منضدة) .

(ب) **المحتوى العقلى :** الذى يحضر فى ذهن السامع حين يسمع الكلمة (منضدة) .

(جـ) **الشئ نفسه :** وهو (المنضدة) وقد يطلق عليه (المقصود) أو (المعنى) .

---

(٨) د. بشر : دراسات فى علم اللغة - القسم الثانى - ص ١٦٢ ، ١٧٠ ، ١٧١ .

(٩) د. السعران : علم اللغة ص ٣٣١ - ٣٣٦ ، وانظر د. بشر : دراسات فى علم اللغة ص ١٦٦ - ١٦٨ .

وكان لرأيهما أثر فيمن أتى بعدهما من المهتمين بدراسة المعنى فقد بنى (ستيفن أولمان) نظريته في المعنى على ما قام به العالمان السابقان إلا أنه أدخل شيئا من التعديل على نظريتهما فقد أهمل (الشئ) من حسبانه ونظر إلى الفكرة والرمز ، وارتباط أحدهما بالآخر ، وأطلق على الأول - الفكرة - اسم (المدلول) وعلى الثانى - الرمز - اسم (اللفظ) ، وقال إن المعنى هو العلاقة المتبادلة بين اللفظ ، والمدلول فاللفظ يستدعى المدلول كما أن المدلول يستدعى اللفظ فحين يفكر الإنسان فى (منضدة) ينطق الكلمة (منضدة) وسماعه هذه الكلمة سوف يجعله يفكر فى (المنضدة) ، وهذه القوة التى تربط بين اللفظ والمدلول هى أساس العملية الرمزية وتميز أو تعرف بكلمة (المعنى) .

ويمثل ما ذهب إليه هؤلاء النظرية العقلية فى دراسة المعنى .

ويرى الدكتور (بشر) أن هذه النظرية تلجأ إلى الفلسفة ، أو علم النفس أو ما شابه ذلك من العلوم ، وهى تنظر إلى الثنائية (أى العقل والجسم) ، وفى هذا خلط للمناهج ، ولا يتفق مع مبادئ علم اللغة التى تجعل الإنسان كلا متكاملا دون تفريق بين عناصره المادية والروحية [١٠] .

كذلك ألف (بردجمان) كتابين هما « منطق الفيزياء الحديثة - والفرد الذكى والمجتمع » بين فيهما أن استعمال الألفاظ فى المصطلحات العلمية يختلف من عالم إلى آخر ، فكلمتا «الزمان والمكان» لهما معنى شائع متداول ، لكن الفيلسوف أو عالم الفيزياء يتخذ لكل منهما فى تعبيره دلالة خاصة .

---

(١٠) د. بشر : دراسات فى علم اللغة - القسم الثانى - ص ١٥٥ - ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .

وقد حاول أن يفسر اللغة بطريقة « العمليات الفيزيائية أو الإجراءات » فإذا عجز عن تصور معنى كلمة مثل : الديمقراطية أو الواجب أو الأخلاق ، فإنه يطلب اطراحها ، والإعراض عنها ، والاتجاه إلى السلوك الفردى .

وهو تفسير غير سديد ، لأن اللغة ظاهرة اجتماعية ينبغى أن تفسر فى ضوء السلوك الاجتماعى لا الفردى كما عرفنا من دراسات اللغويين .

وقد حاول « ثورمان أرنولد » - وهو من رجال الإدارة الحكومية المشتغلين بالقانون - أن يبين فى كتابه « فلكلور الرأسمالية » ما لبعض الكلمات والعبارات فى الإنجليزية الأمريكية من قوة سحرية يستخدمها بعض من يسيئون استعمال اللغة ، ورموزها فى التأثير على الناس [11] ولكنه لا يقدم علاجا مفيدا لهذه الإساءة .

أما « الفرد كورتسبسكى » ومن تبعه مثل « ستيوارت تشيز وهايا كاوا » فقد طلبوا فى مؤلفاتهم وكتاباتهم تحديد المصطلحات ، والرموز، بمعانيها الدالة عليها حتى لا ينحرف بها أصحاب الأهواء الذين يضللون الناس باستعمالهم الكلمات بعيدة عن أغراضها الأساسية ، وهذا يؤدى إلى انحراف الشخصية ، والقومية العالمية .

وتنبأ الثلاثة وأتباعهم فى مدرسة كورتسبسكى بأن دراسة الدلالة تحل كل المشكلات ، وهى الدواء العالمى للأمراض الإنسانية ، ومعنى ذلك أن تلك الدراسة اللغوية - فى أصلها - ستحل جميع

---

(١١) مثل : The Cousititution (الدستور) .

The founders of This Contry (مؤسسو هذا البلد) .

مشكلات البشر حتى الفقر ، والجهل والحرب ، وأسرفوا في الوعود والبشارات [١٢] .

ونحن نؤمن بأن انحراف بعض مسثى الاستعمال في اللغة ، يؤدى إلى كوارث ، ويخلق مشكلات في مجالات السياسة والصحافة ، والخيالة (السينما) والإذاعة المرئية ، وبخاصة إذا كان بطريق مقصود ، وهو يحدث كثيرا في مجتمعاتنا المعاصرة .

وهذا يوجب على عالم اللغة أن يقدم المساعدات الممكنة في هذا السبيل لرجال السياسة والصحافة ، والاقتصاد والاجتماع ، وعلماء النفس وغيرهم .

ولكن لا نستطيع أن نتفاءل إلى حد بعيد ، فنجعل تلك الدراسة - التى تتصل باللغة - حلالة جميع العقد ، فتحل جميع المشكلات الاجتماعية ، والأخلاقية - كما ادعى أصحاب تلك المدرسة - لأنه ليس فى طاقة اللغوى أن يفعل ذلك [١٣] .

وعلى الرغم من أن هذه الدراسات صدرت عن غير المتخصصين فى اللغة ، فإنها أثارت الاهتمام بمشكلة المعنى فى الدراسات اللغوية - عند المتخصصين - وبخاصة فى الدراسات الأمريكية ، ويرجع ذلك إلى ما تتسم به طبيعة المشكلة من تعقيد ، وما كان لهؤلاء الكتاب من مهارة فى الكتابة باتجاهاتهم التى شرحناها ، وما أثر عن بعضهم من شغف الناس بكتاباته كثورد أرنولد ، ومن براعة الصياغة اللفظية وطريقة التأثير التى تستولى على القراء كما شاع عن الفرد كورتسبسكى [١٤] .

---

(١٢) د. السعران : علم اللغة ص ٢٢٣ .

(١٣) المصدر السابق ص ٣٢٦ .

(١٤) انظر فى تفصيل هذه الدراسة د. السعران : علم اللغة ص ٣١٧ - ٤٣١ ، وكتابات متفرقة فى د. تمام : مناهج البحث فى اللغة .

فكان نتيجة لذلك ، ولما أولاه المتخصصون من عناية فى المدارس اللغوية التى أشرنا إليها أن تقدمت دراسة المعنى فى ثباته ، وتغيره ، وعوامل ذلك مستمدة من الواقع الاجتماعى واللغوى الذى صحب تلك الأحوال الدلالية ، واستطاع علماء اللغة أن يصلوا - بالدراسة المتأنية والمتفحصة - إلى القوانين التى تحكم هذه الظواهر ، وانتقالها من حال إلى حال ، كما تنوعت عندهم الدلالة إلى صوتية ، وصرفية ، ونحوية ، ومعجمية ، وعلمت مظاهرها المتعددة ، لأن دراسة المعنى كانت أثرا من آثار الدراسات المتعددة فى الأصوات ، واللهجات ، والقواعد والأساليب وعلم النفس ، وعلم الاجتماع اللغويين - كما ذكرنا سابقا - فأخذت صفة المنهج العلمى ، وحققت كثيرا من النتائج المرجوة منها .

ثالثا : اللغة العربية والفلسفة

(أ) تأثر الدراسات اللغوية بالفلسفة والمنطق

اللغة - كما قدمنا - ظاهرة اجتماعية ، وإذا كانت الظاهرة الاجتماعية تمتاز بخواص معينة فإن هذه الخواص تصدق على اللغة كذلك ، والظواهر الاجتماعية هي التي يتألف من دراستها موضوع علم الاجتماع La sociologie وهي تمتاز بصفات كثيرة من أهمها الخواص الثلاث الآتية :

١ - أنها تتمثل في نظم عامة يشترك في اتباعها أفراد مجتمع ما ، ويتخذونها أساسا لتنظيم حياتهم الجماعية .

٢ - أنها ليست من صنع الأفراد ، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع (من نتاج العقل الجمعي) .

٣ - أن خروج الفرد على نظام منها يلقى من المجتمع مقاومة .

وهذه الخواص تتوافر في اللغة . إذ يشترك فيها المجتمع ، ويتخذ منها أساسا للتعبير عما يجول بخواطر أفراده ، وفي تفاهم بعضهم مع بعض .

واللغة من الأمور التي يرى فيها كل إنسان نفسه مضطرا إلى الخضوع لما ترسمه [1] .

فاللغة أداة اجتماعية لا عقلية بحتة ، ولهذا فطريقها غير طريق المنطق العقلي .

ويحدثنا التاريخ أن اليونان نبغوا في العصور القديمة نبوغا عظيما ، وبخاصة في الفلسفة والمنطق .

---

(١) د. وافي : اللغة والمجتمع ص ٣ ، ٤ .

ولا ريب أن ذلك الاتجاه الفلسفي كان له أثره في دراسة لغتهم ، فكان الإغريق اللغويون يعدون الجملة حكما منطقيا ، وينظرون إلى طرفي الإسناد النحوي نظرتهم إلى الموضوع والمحمول في المنطق ، ومن يقرأ ما كتبه أرسطو في المقولات ، والعبارة ، والتحليلات الأولى ، والثانية يجدها مليئة بالنظرات التي تخلط بين التفكير اللغوي ، والفلسفة .

ومن ذلك قوله عن الاسم إنه اللفظ الذي لا يدخل الزمن في مدلوله ولا يدل جزء منه مستقلا عن الأجزاء الأخرى .

ويقول : إن الاسم لا يوصف بالصدق ، أو الكذب إلا إذا أسند ، والوصف بالصدق أو الكذب ليس من الدراسات اللغوية ، وإنما هو من الدراسات المنطقية [٢] .

وقد استطاع أرسطو أن يقرب بين منطقه ، واللغة اليونانية ، إن لم يكن قد جعلهما منطبقين تمام الانطباق متآلفين تمام التآلف ، وأعجب المفكرون في الأمم الأخرى بمنطق أرسطو ، وحاولوا صب لغاتهم في تلك القوالب [٣] .

وتبعا لهذا ادعى بعض الباحثين أن دراسة اللغة اليونانية في تراكيبها ، وطرقها ، صادقة على كل لغات العالم إذ إن هذه اللغات تجري على مقياس اليونانية [٤] .

ونحن نميل إلى القول بفساد هذا الرأي لعدم صدق منهج اليونانية على كل اللغات .

ويهمنا الآن البحث في تأثر الدراسات اللغوية العربية بالفلسفة اليونانية ، أو غيرها فنقول :

---

(٢) د. تمام : مناهج البحث في اللغة ص ١٤ ، ١٥ .

(٣) د. أنيس : من أسرار اللغة ص ١١٨ .

(٤) د. تمام : مناهج البحث في اللغة ص ١٤ .

لقد وجدت بذور الدراسة اللغوية منذ عهد أبى الأسود الدؤلى . ثم أخذت تتسع شيئا فشيئا ، وقويت بقيام مدرستى البصرة ، والكوفة، والمدرسة البغدادية ووصلت تلك الدراسات أوجها فى القرن الرابع الهجرى .

فالمعروف أن هذا القرن كان عصر ازدهار فكرى ، ولغوى ، وأدبى وعصر ازدهار الترجمة ، ظهرت فيه حركة علمية واسعة النطاق ، وظهر فيه علماء أفذاذ قادوا ركب النهضة ، وبخاصة فى بغداد مدينة العلم الزاهرة .

وكان بعض المشتغلين بالدراسة اللغوية من المعتزلة ، وأرباب الثقافات الأجنبية فلابد أن يكون لذلك أثره فى الدراسة اللغوية ، وكانت القواعد التى استنبطها علماء البصرة والكوفة سببا فى كثير من التعليلات ، والفلسفات التى أدخلت على قواعد اللغة لتسويغ موقف أو شذوذ مثال .

ولكن هل تأثرت بعض هذه الاتجاهات اللغوية بمنطق اليونان وفلسفتهم ؟

يرى الدكتور إبراهيم سلامة مدكور أن القواعد العربية متأثرة بمنطق أرسطو ، وبنى رأيه هذا على أمور أهمها :

١ - اعتبار القياس أصلا من أصول النحو ، وتحديده ، ووضعه على نحو ما حدد القياس المنطقى ، ثم التشابه بين ما جاء من تقسيم الكلمة عند سيبويه ، وعند أرسطو إلى اسم وفعل وأداة .

٢ - ظهور النحو السريانى فى مدرسة نصيبين فى القرن السادس الميلادى على مقربة من النحاة العرب الأولين ، ثم ترجمة عبد الله بن المقفع لمنطق أرسطو التى تعد - كما يقول - ثروة جديدة نقلت إلى العالم الإسلامى ، ثم تلمذة بعض السريان على الخليل بن أحمد كحنين بن إسحاق الطبيب السريانى المعروف الذى كان له أثر فى نقل علوم اليونان .

وقرر الدكتور أن حنينا عاصر الخليل ، وسيبويه .

ويقول الدكتور مدكور في هذا البحث : ولم يقف الأمر - فيما نعتقد - عند الفقه والكلام ، والفلسفة ، بل امتد إلى دراسات أخرى من بينها النحو ، وقد أثر فيه المنطق الأرسطي من جانبين :

أحدهما موضوعي - كطريقة تقسيم الكلمة .

والآخر منهجي - كمسلك القياس والعلة .

وتأثر النحو العربي عن قرب ، أو بعد بما ورد على لسان أرسطو في كتبه المنطقية من قواعد نحوية ، وأريد بالقياس النحوي أن يحدد ، ويوضع على نحو ما حدده القياس المنطقي (٥) .

ويرى هذا أيضا بعض الباحثين ، كالدكتور عبد الرحمن أيوب الذي يقول :

وقد تأثرت قواعد اللغة العربية بهذه القواعد (أى قواعد اللغة الإغريقية) بل لعلنا لا نكون مجاوزين للصواب إذا قلنا بأن قواعد اللغة العربية التي نراها في كتب النحاة ليست سوى مزيج من تقليد قواعد اللغة الإغريقية ، ومنطق أرسطو (٦) .

ولكننا نرى - كما يقول الدكتور السامرائي - أن اليونانية تختلف نحوا ، وطبيعة عن العربية (٧) .

---

(٥) د. مدكور من بحث بعنوان (منطق أرسطو وَالنحو العربي) نوقش في جلسة مؤتمر مجمع اللغة العربية ، الدورة الخامسة عشرة (١٩٤٨ - ١٩٤٩) في الجلسة السابعة (٧ من ديسمبر سنة ١٩٤٩) ونشر بمجلة المجمع الجزء السابع ص ٣٣٨ - ٣٤٦ ، ومجلة الأزهر عددي رمضان وشوال سنة ١٣٧١ هـ - مايو ويونية سنة ١٩٥١ ، وانظر تفرعات القياس والعلة بصورة خاصة في العدد الأخير ص ٤١ - ٤٥ .

(٦) د. عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ص ١٤ .

(٧) د. السامرائي : دراسات في اللغة ص ١٣ .

فليس من المعقول أن يكون العرب قد وضعوا قواعدهم اللغوية على نظام القواعد اليونانية ، ومجرد التشابه في تقسيم أو أكثر أو في بعض المصطلحات لا ينهض دليلا لإثبات مثل هذه الدعوى العريضة ، ولا شك أن أقسام الكلمة موجودة عند شعوب أخرى - كالهنود مثلا - والأمر بعد هذا يحتاج إلى دراسة تحليلية مقارنة بين النحوين اليوناني والعربي وهو ما لا يزعم أحد ممن أثبت التأثير اليوناني أنه قام به حتى الآن [٨] .

وقد ارتكب الدكتور مدكور خطأ تاريخيا فحنين بن إسحاق لم يعاصر الخليل ، فوفاة الخليل سنة ١٨٠ هـ أو قبل ذلك أو بعده بقليل ، وولادة حنين لم تكن قبل سنة ١٩٤ هـ فالزعم باطل من أساسه [٩] .

فطبيعة العرب وحياتهم الاجتماعية ، وطبيعة لغتهم لا تسمح لنظام أجنبي أن يأخذ طريقه إليها .

ولم تكن الدراسة اللغوية العربية دراسة فلسفية ، وإنما كانت تخضع لتناول اللغة من خلال النصوص .

وعلماء العربية الذين درسوا القواعد لم يتأثروا بلغات أجنبية يونانية أو غيرها .

فالخليل أستاذ سيبويه كان عربيا اعتمد على مشافهة العرب في جمع اللغة ، ودراستها ، ولم يستعن بلغات أجنبية في صوغ قواعد النحو ، ويثبت التاريخ أنه لم يكن يعرف اللغة اليونانية [١٠] .

وسيبويه - على الرغم من أنه فارسي الأصل - لم يتأثر في دراسته اللغوية بالفلسفة ، وإنما تأثر بالنقل عن العرب الخلص ، وبأستاذه الخليل .

---

(٨) د. أحمد مختار : البحث اللغوي عند العرب ص ٢٣٩ .

(٩) د. السامرائي : دراسات في اللغة ص ١٤ .

(١٠) د. نجا : المعاجم اللغوية ص ٢٠ .

فالمطالع لكتابه يلاحظ اعتماده على النصوص المنقولة عن العرب الخلص ، فيقول ، حدثني من أثق بعربيته ، أو حدثني الخليل ، ونحو ذلك [١١] .

وقد بدأت الفلسفة في الدخول إلى الدراسة النحوية منذ القرن الرابع الهجرى الذى كثرت فيه المناظرات ، والجدل ، وعلم الكلام ، ومن هنا ظهرت سمات المنطق ، والبحوث اللاهوتية .

ومع ذلك فإن كثيرا من الباحثين - فى هذا العصر - يؤمن بأن للغة منهجها الخاص الذى يجب ألا يتأثر بالمنطق إلا فى حدود ضيقة .

فأبو سعيد السيرافى شارح كتاب سيبويه لا ينكر فضل المنطق اليوناني ولكنه يرى تشكيله وتكييفه حسب طبيعة اللغة العربية مع الاعتزاز بتلك الخصائص اللغوية التى لا تمت لمنطق اليونان بصلة .

يقول السيرافى [١٢] : والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية ، والمنطق نحو لكنه مفهوم باللغة ، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعي ، والمعنى عقلي [١٣] .

وللسيرافى حديث آخر يؤكد فيه أن منطق اللغة يبتعد عن منطق

---

(١١) انظر مثلا : سيبويه : الكتاب ١ / ١٨٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٥ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٧٤ وغيرها .

(١٢) فى المناظرة التى كانت بينه وبين متى بن يونس . وكان يمثل الفريق المغالى فى الاعتزاز بثقافة اليونان ، وكانت تلك المناظرة فى حضرة الوزير ابن الفرات ، المتوفى سنة ٣٢٠هـ، ويكنى متى بن يونس - فى كتاب الإمتاع والمؤانسة - بأبى بشر ، وأبو بشر هو ابن يونس القنائى من أهل دير قُنى - بضم القاف - كان نصرانيا ، عالما بالمنطق ، وإليه انتهت دراسة المنطقيين فى زمنه ، نزل بغداد بعد سنة عشرين وثلاثمائة ، وكانت وفاته فى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، انظر : أبو حيان التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٠٧ والتعليق ١٠٧ ، ١٠٨ .

(١٣) أبو حيان : الإمتاع والمؤانسة ١ / ١١٥ .

الفلسفة ، فقد كان يرى أن لكل لغة خصائصها التي لا يمكن أن تخضع لمنطق اليونان ، إلا مع التكلف ، والتعسف ، فيقول : على أن ههنا سرا ما علق بك ، ولا أسفر لعقلك وهو أن تعلم لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها ، بحدود صفاتها ، في أسمائها ، وأفعالها ، وحروفها ، وتأليفها ، وتقديمها ، وتأخيرها ، واستعارتها ، وتحقيقها ، وتشديدها ، وتخفيفها وسعتها وضيقها ، ونظمها ، ونثرها ، وسجعها ، ووزنها ، وميلها ، وغير ذلك مما يطول ذكره [١٤] .

ثم يضرب السيرافي أمثلة من الأساليب اللغوية لبيان بعض ما اختصت به اللغة العربية سائلا مناظره عن الفرق بين هذه الأساليب الثلاثة : بكم الثوبان المصبوغان ؟ . بكم ثوبان مصبوغان ؟ . بكم ثوبان مصبوغين ؟ [١٥] .

كما يسائله : أي الأسلوبين أصح : زيد أفضل إخوته وزيد أفضل الأخوة ؟ ويقرر أن الأسلوب الأول خطأ ، لأن (زيدا) فيه خارج عن جملة (إخوته) ولا يصح مثل هذا التفضيل حينئذ [١٦] .

وكذلك أبو القاسم الزجاجي ، يود أن يكون للنحو أسلوبه ومنهجه ، وألا يضيق عليه ، أو يفرض عليه منهج دخيل آخر ، ولذلك نراه يفرق بين ما هو من أوضاع النحو ، وما هو من غيرها .

فيقول - بعد أن يذكر بعض حدود الفلسفة - وإنما تذكر هذه الألفاظ في تحديد الفلسفة ههنا ، وليس من أوضاع النحو ، لأن هذه

---

(١٤) أبو حيان : الإمتاع والمؤانسة ١ / ١١٥ ، ١١٦ .

(١٥) المصدر السابق ١ / ١٢٢ .

(١٦) المصدر السابق ١ / ١٢٠ والمناظرة كلها بهذا الكتاب (الليلة الثامنة ج ١ من ص ١٠٤ - ١٤٣) وانظر في تخريج المثال (زيد أفضل إخوته وأفضل الأخوة) ابن جني : الخصائص ٣ / ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

المسألة نجيب عنها من يتعاطى المنطق ، وينظر فيه فلم نجد بدا من مخاطبتهم من حيث يفعلون ، وتفهيمهم من حيث يفهمون [(١٧)] .

وكما يقول الدكتور أنيس ، ليس من الهين أن يقال لم اتخذت هذه اللغة ذلك النظام المعين الذى قد يخالف ما جرت عليه لغة أخرى شقيقة لها ؟ وذلك لأن ترتيب الكلمات فى كل لغة ليس إلا إحدى تلك العادات اللغوية التى تتميز بها هذه اللغة ، وهو بعد أن يستقر على صور معينة ، ليس إلا وليد تطور طويل المدى ، ونتيجة مرور قرون كثيرة على هذه اللغة ، ومن الصعب الوقوف على كل الأحوال اللغوية ، أو الاجتماعية التى أسهمت فى مثل هذا التطور ، حتى صار على ما نألفه ، ونعهده ، فى كل لغة [(١٨)] .

واللغويون الأجانب عدوا دخول الفلسفة فى النحو مفسدة له .

يقول فندريس : « وقد قام بناء النحو - عندنا - (أى عند الفرنسيين) فى القرن السابع عشر والثامن عشر على كتب النحو فى الإغريقية القديمة ، أو اللاتينية ، وقد خرج من ذلك زائفا ، وبقى زائفا ، فنحن لا نزال نعضده بتسميات لا تتفق مع الحقائق ، ونعطى عن بنية لغتنا فكرة غير صحيحة ، فلو أن المبادئ التى نخضعها مقياسا لنا كانت قد وضعها قوم من غير أتباع أرسطو إذا لتغيرت معالم النحو الفرنسى على وجه التأكيد » [(١٩)] .

فطبيعة الفلسفة - إذا - تختلف عن طبيعة اللغة .

بيد أن بعض الدارسين أغفلوا استغلال المادة اللغوية التى هى أصل الدراسة ، لأن الذين جاءوا بعد الطبقة الأولى كانت المسافة بينهم وبين مادة العربية بعيدة ، وشغلتهم أعمال السلف عن أن يرجعوا إليها أو

---

(١٧) من كلام الأستاذ مازن المبارك فى تحقيقه لكتاب : الإيضاح للزجاجى ص ١٧ ونص كلام الزجاجى بالكتاب المذكور ص ٢١٠ .

(١٨) من أسرار اللغة ط ١٩٥١ ص ٢١٠ .

(١٩) فندريس : اللغة ص ١٢٦ .

يبحثوا عنها فيما حفظته لهم هذه المدونات من نصوص ، وأصبح كل همهم أن يلموا بما وصل إليه أسلافهم من قوانين ، وأن يفلسفوا ما انتهى إليهم من علل ، حتى أصبح للقوانين قوانين ، وللعلل علل ثوان ، وعلل ثوالث [٢٠] .

ومن هؤلاء على بن عيسى الرمانى الذى كان نحويا متكلما من أصحاب الاعتزال [٢١] وقال أبو على الفارسى عن نحوه :

إن كان النحو ما يقوله أبو الحسن فليس معنا منه شئ ، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شئ ، وكان الرمانى من إيغاله فى الحيل والمنطق بحيث كان المتصلون به لا يفهمون شيئا من كلامه [٢٢] .

وكان يقال : النحويون فى زماننا ثلاثة : واحد لا يفهم كلامه - وهو الرمانى - وواحد يفهم بعض كلامه - وهو أبو على الفارسى - وواحد يفهم جميع كلامه وهو السيرافى [٢٣] .

وهذه النصوص المتقدمة شكوى من قائليها لطغيان الفلسفة على الدراسة النحوية .

وقد وضع ابن جنى خصائصه لبيان أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه [٢٤] وجعل علل النحويين أقرب إلى علل المتكلمين [٢٥] .

ويجعل الدكتور تمام حسام ابن جنى فى (باب فى قلب اللفظ إلى

---

(٢٠) د. مهدى المخزومى : مدرسة الكوفة ص ٢٠١ .

(٢١) السيوطى : بغية الوعاة ص ٤١١ ، وابن الأنبارى : نزهة الألبا ص ٣٩٠ ، وانظر : على النجدى ناصف : سيبويه إمام النحاة ص ٢٩ .

(٢٢) ياقوت : معجم الأدباء ١٤ / ٧٤ ، ٧٥ .

(٢٣) المصدر السابق ١٤ / ٧٥ .

(٢٤) ابن جنى : الخصائص ١ / ٢ من المقدمة .

(٢٥) المصدر السابق ١ / ٤٨ .

لفظ آخر بالصنعة والتلطف لا بالإقدام والتعجرف) فيلسوفا نظريا وإن ادعى أن فى ذلك لطفا ، ويقول : إنه متعجرف تماما [٢٦] .

ولما طغت الفلسفة ظهر للنحو أصول كأصول الفقه ، فيذكر ابن الأنبارى حين يعد علوم الأدب أنه لحق بها « علم أصول النحو » فيعرف به القياس ، وتركيبه ، وأقسامه ، من قياس العلة ، وقياس الشبه ، وقياس الطرد ، إلى غير ذلك على حد أصول الفقه ، والمناسبة بينهما ظاهرة ، لأن النحو معقول من منقول كما أن الفقه معقول من منقول [٢٧] .

والاقتراح فى أصول النحو رتبه السيوطى على نظام أصول الفقه ، وهو يقول : هذا معلوم من أصول الشريعة ، وأصول اللغة محمولة على أصول الشريعة [٢٨] .

وهذه الفلسفة نشأت بعد أن وضعت القواعد ، واستقرت ، ثم حافظ المتأخرون عليها ، وحاولوا الانتصار لها ، مع أن اللغة ظاهرة اجتماعية ولا تخضع - كما قلنا - للتعليل والفلسفة ، ولذا نجد أن ابن جنى يحاول أن ينسب العلل التى جاء بها النحاة إلى العرب ، فيعقد باباً (فى أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وحملناه عليها) [٢٩] .

ومن هنا ندرك مدى تأثر الدراسات اللغوية بالفلسفة ، وأن وقت ظهور الفلسفة اللغوية وتغلغلها هو القرن الرابع وما بعده أما قبل ذلك فلم يكن للفلسفة مكان قوى .

والدراسة الفلسفية بعيدة عن المنهج اللغوى ، وقد أحس بذلك

---

(٢٦) د . تمام : مناهج البحث فى اللغة ص ١٨ ، وانظر الخصائص ج ٢ ص ٨٨ - ٩٣ .

(٢٧) نزهة الألبا ص ١١٧ .

(٢٨) السيوطى : الاقتراح ص ٣ .

(٢٩) ابن جنى : الخصائص ١ / ٢٢٧ - ٢٥١ .

بعض المشتغلين بالدراسة اللغوية أمثال السيرافى ، والزجاجى ، ولاحظ ذلك أيضا علماء اللغة المحدثون كما لاحظوا خطر المنطق على علوم اللغة .

يقول الدكتور المخزومى :

وإذا أفلح القدماء أن ينظموا دراستهم فى أصول مطردة فقد فاتهم ما يتوخاه الدارس من نتائج ، وأصبحت تلك الأصول تحفظ وتطبق تطبيقا لفظيا (٣٠) .

ويقول الدكتور أنيس : المنطق اللغوى بعيد كل البعد عن المنطق العقلى العام الذى يهدى التفكير الإنسانى فى كل البيئات ، فهو نظام للناس عامة ، فى حين أن المنطق اللغوى نظام خاص ، لا ينتظم إلا طائفة خاصة من الناس هم الذين يطلق عليهم (أبناء البيئة اللغوية) فاللغة منطق ، لأن لها نظاما تخضع له ، ويرتبط هذا النظام بعقول أصحاب اللغة ، وتفكيرهم ، إلى حد كبير ، ولكنه النظام الذى يختلف من لغة لأخرى ، ويتصف فى كل بيئة بخصائص معينة تجعل لكل لغة استقلالها ، وتمييزها من اللغات الأخرى (٣١) .

وهذه الفلسفة لا نعتقد أنها تناولت القواعد - فى أساسها الأول - بحيث وضعت - كما يدعى بعض المحدثين - على أسس القواعد اليونانية ، بل إن القواعد وضعت بالاستنباط من النصوص العربية ، ثم دخلت الفلسفة فيما بعد للتعليل لها ، وهذا أمر لا داعى إليه لأن العربى لم يكن يربط لغته بالفلسفة ، بل كان ينطق بما توحيه له طبيعة العربية ، وسليقته التى خلقه الله عليها .

---

(٣٠) د. المخزومى : مدرسة الكوفة ص ٢٨٩ .

(٣١) د. أنيس : من أسرار اللغة ط ٣ ص ١٢٣ .

(ب) فلسفة العلة وموقف العلماء منها

نقلنا فيما سبق نصوصا تؤكد أن بعض المشتغلين بالدراسة اللغوية مزجها بالفلسفة ، إلى حد أن حديث بعضهم أصبح غير مفهوم لإثقاله بالعلل ، والتفسيرات المنطقية الغامضة كالرمانى ، والفارسى .

وقد ورد عن علماء المدارس النحوية (البصرية والكوفية والبغدادية) كثير من العلل ، فكل حكم نحوى يعلل ، وكل ظاهرة نحوية - كلية أو جزئية - لابد لها من علة عقلية ، ولم يكتفوا بالعلل القريبة ، فقد ذهبوا يغوصون على كوامن العلل ، وخفياتها ، ودقائقها ، وكل نحوى - بصرى أو كوفى ، أو بغدادى - يجرب ملكاته الذهنية ، ويستنبط عللا جديدة بحسب ما اسعخزن عقله من قوة البرهان ، وحشى من عمق الدلالة (٣٢) .

وقد بدأت العلل منذ الخليل بن أحمد إلا أن علله كانت واقعية لا تتعدى النصوص على ما نعتقد .

وهو أول من بسط القول فى العلل ، بسطا لفت نظر بعض معاصريه (٣٢) .

يقول أبو إسحاق الزجاجى :

وذكر بعض شيوخنا أن الخليل بن أحمد - رحمه الله - سئل عن العلل التى يعتل بها فى النحو ، فقيل له : عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : إن العرب نطقت على سجيتها ، وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقام فى عقولها علله ، وإن لم ينقل ذلك عنها ، واعتللت أنا بما عندى أنه علة لما عللته منه ، فإن أكن أصبت العلة فهو الذى التمست ، وإن تكن هناك علة له ، فمثلى فى ذلك مثل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء ، عجيبة النظم والأقسام ، وقد

---

(٣٢) الزجاجى : الإيضاح (من المقدمة) للدكتور شوقى ضيف ص ب .

صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة ، والحجج اللائحة ، فكلما وقف هذا الرجل فى الدار على شئ منها قال : إنما فعل هذا لعلة كذا ، وكذا ، والسبب كذا وكذا ، سنحت له وخطرت بباله ، محتملة لذلك ، فجائز أن يكون الحكيم البانى للدار فعل ذلك ، للعلة التى ذكرها هذا الذى دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك .

فإن سنح لغيرى علة لما عللته من النحو هى أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها (٣٣) .

فهذا النص يؤكد لنا أن الخليل من أوائل الرواد الذين تكلموا فى توجيه القواعد اللغوية ، وأنه كان يراعى العرب ، واتجاهاتهم اللغوية : وتلك هى الطريقة المثلى فى التعليل ، والاستنتاج .

ثم تدرجت العلل على أيدى علماء اللغة فأبدى كل منهم - سابقا ولاحقا - توجيه ما وضع من قواعد .

ولما دخلت الفلسفة بدأت تتصل بالدراسة النحوية ، وأخذت العلل تتشعب ، وتتفرع فمن علة ، وعلة علة ، فيقال فى نحو (قام زيد) لم رفع (زيد) ؟ فيقال : لأنه فاعل ، فيوجه سؤال آخر :

ولم كان الفاعل مرفوعا ؟ وهكذا تتنوع الأسئلة .

وكالسؤال عن سبب الإعراب فى الاسم ، ولم كان يظهر فى آخره ، ولا يظهر فى وسطه ، أو أوله ؟ ولكل سؤال من هذه الأسئلة جواب ، وفى يد كل جواب علته ، ودليله ، وتتقابل العلل ، والأدلة ، ويتجادل فيها النحاة جدالا عنيفا لا يفيد اللسان ، ولا اللغة أى فائدة ،

إنما يفيد العقل من حيث هو ، وكأنما وجد فيها النحويون تمارين هندسية يشغلون بها أوقاتهم [٣٤] .

وقد نقل لنا هذه الصورة المتدرجة في العلل كتاب يعد من أوائل كتب أصول النحو [٣٥] إذ لم يصل إلينا قبله كتاب أو بحث خصه صاحبه بالعلة ، وهو كتاب الإيضاح لأبي القاسم الزجاجي .

وهو ينقل لنا تطور كثير من العلل ، فقد بدأ بأطراف منها منذ الخليل وسيبويه ، وسار بها مع الزمن لا يغادر علة لمعتل ، وهو جانب مهم في الكتاب لأنه يرينا تطور العلل النحوية ، وكيف أخذت تنمو ، وتتعقد بمضي الوقت على ضوء ما ثقف النحاة من المنطق أو من الفلسفة ، أو من الفقه ، أو من علم الكلام [٣٦] .

والزجاجي لم يتناول في كتابه القواعد النحوية لأنه خصه بموضوع العلل هذا الموضوع الذي نزل به الضيم حتى غدا بحثا مهملا أو ثانويا يؤتى به بعد الأصول ، ولا يغفل الزجاجي الإشارة في كتابه إلى حديث من سبقوه عن العلل ، فيذكر أنه استنبط من كتب غيره من العلماء ، وأنه أخذ الكثير عن الشيوخ تلقينا ، ومشافهة [٣٧] .

قال الزجاجي في مقدمة كتابه :

وهذا كتاب أنشأناه في علل النحو خاصة ، والاحتجاج له ، وذكر أسراره ، وكشف المستغلق من لطائفه ، وغوامضه ، دون الأصول ، لأن الكتب المصنفة في الأصول كثيرة جدا ، ولم أر كتابا إلى هذه الغاية مفردا في علل النحو ، مستوعبا فيه جميعها ، وإنما يذكر في الكتب بعقب الأصول الشيئ اليسير منها ، مع خلو أكثرها منها وتضم إلى

---

(٣٤) الزجاجي : الإيضاح (من المقدمة) للدكتور شوقي ضيف ص د .

(٣٥) من كلام الأستاذ مازن المبارك محقق الكتاب السابق ص ١٦ .

(٣٦) من المقدمة للدكتور شوقي ضيف ص (جـ) .

(٣٧) من كلام الأستاذ مازن المبارك ص ٩ .

العلل بعد تقديمها مسائل مجموعة ، منثورة من سائر الحدود منها ما استخرجناه من كتب العلماء ، وبسطناه وهذبنا ألفاظه وقربناه ، ومنها ما تلقيناه من علمائنا رضي الله عنهم تلقينا ومشافهة مما لم يودعوه كتبهم ، ولا يوجد فيها البتة [٣٨] .

وقد جمع الزجاجي في هذا الكتاب العلل النحوية التي عرفت حتى عصره سواء ما اتصل منها بالحدود ، وأحكام الإعراب ، وما اتصل منها بالفروض والظنون الجدلية ، ونثر في تضاعيف ذلك بعض آرائه ، وقد يتدخل فيؤثر رأيا على رأى ، أو علة على علة ، وقد يترك ذلك للقارئ ، ما دامت لم تستبن الحجة الصحيحة التي يحكم على أساسها بين الطرفين المتعارضين [٣٩] .

ولحديث الزجاجي عن العلة حدود رسمها في كتابه .

فهو يقول :

إنها ليست عللا موجبة ، وإنما هي مستنبطة أوضاعا ، ومقاييس ، ثم يقسمها إلى ثلاثة أضرب :

تعليمية - قياسية - جدلية نظرية .

فالأولى : هي التي يتوصل بها إلى تعلم كلام العرب ، وهو ما يتناول أمر القياس على ما ورد عن العرب كما عرفنا من مجئ اسم الفاعل (قائم) سمعنا ذلك منهم فقسنا عليه آكل وضارب ... إلخ .

وكذلك علة نصب (زيد) في (إن زيدا قائم) فيقال : لم نصبتم (زيدا) نقول : لأنا كذلك علمناه ، ونعلمه .

---

(٣٨) الزجاجي : الإيضاح ص ٣٨ .

(٣٩) من المقدمة للدكتور شوقي ضيف ص (جـ) .

وأما النوع الثانى فيقال : لم وجب أن تنصب (إن) الاسم فيقال : لأنها وأخواتها ضارعت الفعل المتعدى إلى مفعول ، فهى تشبه من الأفعال ما قدم مفعوله على فاعله .

وأما الجدلية النظرية ، فكل ما يعتل به فى باب (إن) بعد هذا مثل أن يقال : فمن أى جهة شابهت هذه الحروف الأفعال ؟ وغير ذلك من الأسئلة التى ملأت صحيفة كاملة من الكتاب .

ثم يعلق على ذلك فيقول :

وكل شئ اعتل به المسئول جوابا عن هذه المسائل فهو داخل فى الجدل والنظر [٤٠] .

وإذا كان الزجاجى يعد من السابقين فى هذا الباب ، فإن ابن جنى الذى عاش بعده أكثر من نصف قرن [٤١] قد تناول هذا الموضوع أيضا فى كتابه (الخصائص) ووضع للعلل قواعد ، وأصولا فى إطار يتفق أو يختلف عما ذهب إليه الزجاجى .

فقد حاول ابن جنى أن يفرق بين العلة ، والسبب ، وجعل مناط التفريق اللزوم وعدمه ، فالعلة من شأنها اللزوم بخلاف السبب وقد أوضح ذلك فى (باب ذكر الفرق بين العلة الموجبة والعلة المجوزة) وضرب أمثلة للعلة الأولى منها :

نصب الفضلة أو ما شابه فى اللفظ الفضلة - كخبر كان ومفعول ظن - « فعلل هذه الداعية إليها موجبة لها ، غير مقتصر بها على تجويزها وعلى هذا مفاد كلام العرب » .

ومثل للأسباب كذلك - وهى النوع الثانى من العلل - بأمثلة كثيرة منها :

---

(٤٠) الزجاجى : الإيضاح ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٤١) توفى الزجاجى سنة ٣٣٧ وابن جنى سنة ٣٩٢ هـ .

الأسباب الداعية للإمالة فهى علة الجواز لا علة الوجوب ، ألا ترى أنه ليس فى الدنيا أمر يوجب الإمالة لابد منها ، وأن كل ممال لعلة من تلك الأسباب الستة لك أن تترك إمالته ، مع وجودها فيه ، فهذه إذا علة الجواز لا علة الوجوب .

وكذلك كل ما جاز لك فيه من المسائل الجوابان والثلاثة وأكثر من ذلك على هذا الحد فوقوعه عليه علة لجواز ما جاز منه لا علة لوجوبه ، فلا تستنكر هذا الموضوع [٤٢] .

فالموجب هو العلة ، والمجوز هو السبب ، كما فى الاقتراح للسيوطى ، وشرحه لابن علان [٤٣] .

وقارن ابن جنى - أيضا - بين الدليل ، والنظير ، ومتى يؤخذ بأيهما ؟ وعلى أى وجه يتحدد ذلك .

وفى الباب الذى عقده بعنوان (باب فى عدم النظير) ساق أمثلة شتى عزز بها ما رآه ، مع براعة فى العرض والتحليل [٤٤] .

ويقسم ابن جنى العلل بما يقرب من تقسيم الزجاجى غير أن له مذهبا يخالفه على النحو التالى :

١ - العلل الأوائل :

قسمها ابن جنى إلى نوعين فقال

إن علل النحويين على ضربين :

أحدهما : واجب لابد منه ، لأن النفس لا تطيق فى معناه غيره .

والآخر : ما يمكن تحمله على تجشم ، واستكراه .

---

(٤٢) ابن جنى : الخصائص ١ / ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٤٣) حيث قسم العلة إلى أنواع كثيرة ، انظر ص ١٩٣ ٢١٤ .

(٤٤) ابن جنى : الخصائص ١ / ١٩٧ ، ١٩٨ .

فمن الأول : قلب الألف واوا أو ياء للضمة أو الياء قبلها فهذا ونحوه مما لابد منه من قبل أنه ليس في القوة ، ولا احتمال الطبيعة وقوع الألف المدة الساكنة بعد الكسرة ، ولا الضمة ، فقلب الألف على هذا الحد علته الكسرة والضمة قبلها .

فهذه علة برهانية ، ولا لبس فيها ، ولا توقف للنفس عنها .

ومن الثاني : قلب واو عصفور - ونحوه - ياء إذا انكسر ما قبلها ، نحو عصيفير أو عصافير ، ألا ترى أنه قد يمكنك تحمل المشقة في تصحيح هذه الواو بعد الكسرة ، وذلك بأن تقول : عصيفور ، وعصافِوْر - بكسر الفاء وسكون الواو - .

وكذلك نحو : موسر ، وموقن ، وميزان ، وميعاد ، ولو أكرهت نفسك على تصحيح أصلها لأطاعتك عليه ، وأمكنتك فيه ، وذلك قولك : موازن وموعاد - بكسر الميم وسكون الواو - وميسر وميقن - بضم الميم وسكون الياء - [45] .

ومن هذا النوع قوي يأخذ مجرى القياس ، وضعيف يجري على منهج الاستحسان كما في علم أصول الفقه [46] .

٢ - العلل الثواني :

أشار إليها في « باب في العلة وعلة العلة » فقال :

ذكر أبو بكر في أول أصوله هذا ، ومثل منه : برفع الفاعل ، قال : فإذا سئلنا عن علة رفعه قلنا : ارتفع بفعله ، فإذا قيل : ولم صار الفاعل مرفوعا ؟ فهذا سؤال عن علة العلة [47] .

---

(٤٥) ابن جني : الخصائص ١ / ٨٨ .

(٤٦) انظر باب الاستحسان في الخصائص ١ / ١٢٣ - ١٤٤ .

(٤٧) ابن جني : الخصائص ١ / ١٧٣ .

وابن جنى يفسر هذا النوع بأنه ليس أصلا قائما بنفسه ، بل تابع للعلل الأوائل قال :

وهذا موضوع ينبغى أن تعلم منه أن هذا الذى سماه علة العلة إنما هو تجوز فى اللفظ ، فأما فى الحقيقة فإنه شرح وتفسير ، وتتميم للعلة ، ألا ترى أنه إذا قيل له : فلم ارتفع الفاعل ؟ قال لإسناد الفعل إليه ، ولو شاء لابتدأ هذا فقال فى جواب رفع « زيد » من قولنا : « قام زيد » إنما ارتفع لإسناد الفعل إليه ، فكان مغنيا عن قوله : إنما ارتفع بفعله ، حتى تسأله فيما بعد عن العلة التى ارتفع لها الفاعل ، وهذا هو الذى أراد المجيب بقوله : ارتفع بفعله ، أى بإسناد الفعل إليه (٤٨) .

ومعنى حديث ابن جنى هذا أنه يقبل النوع الثانى من العلل ، ويراه مفيدا لشرح المسائل ، ومتمما لمعناها ، وهو يسلك فى تعليلاته اللغوية هذا المسلك كثيرا .

٣ - العلل الثوالث وما يليها :

أشار إليها بقوله - بعد ذلك - نعم ، ولو شاء فقال له : ولم صار المسند إليه الفعل مرفوعا ؟ فكان جوابه أن يقول : إنه صاحب أقوى الأسماء ، والضمة أقوى الحركات ، فجعل الأقوى للأقوى ... وأيضا فقد كان له أن يتجاوز هذا الموضوع إلى ما وراءه فيقول : وهلا عكسوا الأمر ، فأعطوا الاسم الأقوى الحركة الضعيفة ، لئلا يجمعوا بين ثقيلين؟ فإن تكلف متكلف جوابا عن هذا تصاعدت عدة العلل ، وأدى ذلك إلى هجنة القول ، وضعفة القائل به (٤٩) .

وهذا النوع الثالث ينفر ابن جنى منه ، ويعد السؤال فيه نوعا من المماطلة ، كما يعد الإجابة عليه خارجة عن نطاق اللغة ، وذاهبة إلى التكلف ومؤدية إلى هجنة القول ، وضعفة القائل به .

---

(٤٨) ابن جنى : الخصائص ١ / ١٧٣ .

(٤٩) المصدر السابق .

ومعنى هذا أنه غير راض عن العلل الثوالث ، لأنها مضيعة للوقت ، بعيدة عن نصوص اللغة ، وأهدافها .

وتبدو الأقسام الثلاثة واضحة من قوله :

« إنه كان يجب على ما رتبه أبو بكر أن تكون علة وعلة العلة ، وعلة علة العلة » .

وبهذا يعلم الفرق بين موقف ابن جنى وموقف الزجاجي ، فالزجاجي يورد كلا منها مع قبوله ، وابن جنى يقبل الأولى والثانية أساسا صحيحا للتعليل ، ولا يقبْل النوع الأخير لتكلفه [٥٠] .

وقد تناول ابن جنى العلل النحوية فى أبواب متعددة من كتابه الخصائص [٥١] وبالنظر فى هذه الأبواب المتعددة نجد أن بعضها مكرر يفيد ما يفيده صاحبه مثل : « باب فى تخصيص العلل » [٥٢] - « باب فى أن العلة إذا لم تتعد لا تصح » [٥٣] - « باب فى إدراج العلة واختصارها » [٥٤] - « باب فى الزيادة فى صفة العلة لضرب من الاحتياط » [٥٥] .

---

(٥٠) قسم أرسطو العلل إلى أربعة أنواع يهمنا منها اثنان : الصورية أو الفاعلة effecient والغائية Final فالأولى نسميها العلة ببساطة والثانية الغائية تشْبه القسم الثانى للزجاجي.

وكلام ابن جنى « لم رفع الفاعل ولم نصب المفعول ؟ » ، وجوابه بقوله : ليقل فى كلامهم ما يستثقلون » من هذا النوع ويمكن ربط هذا النوع بعلم التوحيد عند الكلام عن القضاء والقدر والإرادة إلخ ، د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٤٣ .

(٥١) انظر على سبيل المثال ١ / ٤٨ - ٩٦ ، ١٤٤ - ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢١٥ .

(٥٢) ١٤٤ - ١٦٤ .

(٥٣) ١٦٩ - ١٧٣ .

(٥٤) ١٨١ - ١٨٣ .

(٥٥) ١٩٤ - ١٩٧ .

فهذه الأبواب جميعها تحكي معنى واحداً ، هو أن النحاة وضعوا عللهم قاصرة ، ولو أنهم احتاطوا لها ، وأحاطوا بجوانبها لتفادوا حدوث أى اعتراض عليهم ، وقد ضرب لنا ابن جنى فى كل منها أمثلة عديدة للصورة النهائية التى يصح وضع القاعدة عليها حتى تخلو من النقض .

والواقع أن مناقشته لهذا الموضوع ليست جديدة كل الجدة ، فقد جمع العلل المبعثرة فى كتب النحو ، وجعل منها سطورا متماسكة ، وقد اعترف بذلك فى آخر الفصل الذى عقده بعنوان : « باب فى تخصيص العلل » يقول :

واعلم أن هذه المواضع التى ضممتها ، وعقدت العلة على مجموعها ، قد أرادها أصحابنا ، وعنوها ، وإن لم يكونوا جاءوا بها مقدمة محروسة ، فإنهم لها أرادوا ، وإياها نووا .

ويعرض أمثلة توضح إرادتهم لها ، ورجوعهم إليها .

ثم يقول : فهذا الذى يرجعون إليه فيما بعد متفرقا قدمناه نحن مجتمعا ، وكذلك كتب محمد بن الحسن رحمه الله إنما ينتزع أصحابنا منها العلل ، لأنهم يجدونها منثورة ، فى أثناء كلامه ، فيجمع بعضها إلى بعض بالملاحظة ، والرفق ، ولا تجد له علة فى شئ من كلامه مستوفاة محررة ، وهذا معروف من هذا الحديث عند الجماعة غير منكور [٥٦] .

ونضرب مثلا لذلك ليتضح ما نقول :

يعترض ابن جنى على القاعدة الصرفية التى تنص على قلب الواو والياء ألفا ، إذا تحركتا ، وانفتح ما قبلهما ، ويقول : إنها علة قاصرة

---

(٥٦) ابن جنى : الخصائص ١ / ١٦٢ ، ١٦٣ .

لصحة الواو في (اعتونوا) و (اعتوشوا) و (رميا وغزوا) وذلك القصور دعا السابقين إلى الاعتذار عنه ، بما هو معروف هناك .

وهنا يبدي رأيه قائلا :

لو احتاط السابقون في وضع هذه القاعدة لما توجه إليهم سؤال ، ولما كانوا بحاجة إلى الاعتذار .

ثم وضع نبراسا ، وألقى إلينا مثلا لهذا الاحتياط فقال : كان الواجب أن تتخذ القاعدة الصورة التالية :

الواو والياء متى تحركتا حركة لازمة وانفتح ما قبلهما ، وعرى الموضع من اللبس أو أن يكون في معنى ما لابد من صحة الواو والياء فيه ، أو أن يخرج على الصحة منبهة على أصل بابه فإنهما يقلبان ألفاً [٥٧] .

وقد أتى بأمثلة شتى في هذا المجال ، تخرجها محترزات التعريف ، والقاعدة الشاملة [٥٨] .

وفي آخر هذا الاحتياط وشرحه يقول : الآن قد أريتك بما مثلته لك من الاحتياط في وضع العلة كيف حاله والطريق إلى استعمال مثله فيما عدا ما أوردته ، وأن تستشف ذلك الموضع ، فتنظر إلى آخر ما يلزمك إياه الخصم ، فتدخل الاستظهار بذكره في أضعاف ما تنصبه من علته لتسقط عنك فيما بعد الأسولة ، والإلزامات التي يروم مراسلك الاعتراض بها عليك ، والإفساد لما قررته من عقد علتك [٥٩] .

---

(٥٧) المصدر السابق ١ / ١٤٧ .

(٥٨) المصدر السابق ١ / ١٤٤ - ١٦٣ .

(٥٩) المصدر السابق ١ / ١٦٣ .

ونلاحظ على (باب فى علل العربية أكلامية هى أم فقهية) أنه وضع الخطوط العريضة ، والمبادئ الأولى للتعليل ، وارتباطه بالفلسفة ، فقد تحدث فيه عن علل النحو ، وصلاتها بعلم الكلام الذى يقوم على الجدل والفلسفة [٦٠] ، وفيه يذكر قيمة كتابه ، ونزوعه إلى النواحى الكلامية والفقهية ، والفلسفية ، والنحوية ، والأدبية ، وأنه يتساهم فيه أرباب ذلك كله [٦١] .

بيد أنه يذكر أنه يعلل بما أراده العرب ، وأن من يعترض على ذلك ليست له دراية بأحوالهم .

وقد عقد بابا خاصا لإرهاف حس العرب ، وكونهم أرادوا تلك العلل التى قال بها وهو (باب أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها ، وحملناه عليها) [٦٢] .

ومما رواه فى هذا الباب قول العربى اليمنى لأبى عمرو - فيما حكاه الأصمعى - فلان لغوب جاءته كتابى فاحتقرها ، فقلت له أتقول جاءته كتابى ؟ فقال : نعم ، أليس بصحيفة ، وهذا مثل قولنا : فعلوا كذا لكذا [٦٣] .

وقد أطال الحديث عن العربية ، وشرفها ، وشغف أهلها وغيرهم بها على عادته فى ذلك .

ويكرر القول عنهم فى (باب فى الاعتلال لهم بأفعالهم) فقد حمل بعض الأمور اللغوية على أمور أخرى لتناسبها معها ، ولأنها من أفعالهم ، ولها علة قد أرادوها ، كما قال فى وجوب إبراز الضمير مع

---

(٦٠) المصدر السابق ١ / ٤٨ .

(٦١) المصدر السابق ١ / ٦٧ .

(٦٢) المصدر السابق ١ / ٢٣٧ - ٢٥١ .

(٦٣) المصدر السابق ١ / ٢٤٩ .

الصفة المشبهة ، لأنهم يوجبون إبرازه مع اسم الفاعل ، مع قوة تحمله الضمير ، وذلك إذا جرى كل منهما على غير من هو له .

وفي (باب في تعارض العلل) تحدث عن خلاف العلماء في مسائل اللغة ، وأن كلا منهم يستدل بوجهة نظر خاصة ، وهذا الخلاف قائم - أحيانا - على ما ورد مختلفا فيه من أقوال العرب ، ولهجاتهم ، وأحيانا يقوم على فهم خاص للنصوص وتفسيرها .

وفي (باب في تقاود السماع وتقارع الانتزاع) يبين كيف يمكن أن يستنبط من النصوص اللغوية الواردة عن العرب أدلة متعددة الجوانب ، تفسر بها قواعد ، ومبادئ لغوية أخرى .

فنحو : ضربتك ، وأكرمتك مما ورد عن العرب يمكن أن يستدل به على تصحيح شئ ، أو فساد غيره ، ويستدل به من وجه آخر على شئ غير الأول .

وقد حاول ابن جني ببراعته الفائقة أن يوضح لنا كيفية ذلك فاستدل به على شدة اتصال الفاعل بفعله ، واستدل به أيضا على فساد رأى القائلين بأن العامل في المفعول هو الفاعل [٦٤] .

وفي بابين من الجزء الثالث من خصائصه لمس بعض جوانب العلل وطرافة أمرها في العربية ، فقد تأخذ مظهرا من التناقض الشكلي وتنتقل العلة بين أمرين قد يبدو بينهما بعد كبير ، وهما عند التأمل على وفاق تام ، فقد تستعمل العلة الواحدة في الحكم وضده ، فالتصحيح في « القود والحركة » مع ما فيهما من مقتضى الإعلال وهو التحرك وفتح ما قبل حرف العلة كان لحركة العين ، وهي السبب فيه ، لأنها شبهت بحرف اللين ، فكأن « فعَلا » بفتح العين « فعال » وكأن

---

(٦٤) المصدر السابق ١ / ١٠١ - ١٠٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .

(فعِلا) بكسر العين - مثل « شول » - « فعيل » ، فحركة العين كانت سببا للإعلال ، وهى الآن سبب للتصحيح ، وقد عادوا فشبهوا حرف اللين بالفتحة ، روى ذلك عن العرب مثل :

في ليلة من جمادى ذات أندية

لا يبصر الكلب في ظلمائها الطنبا

فجمع « ندى » على « أندية » مثل « غذاء وأغذية » [٦٥] .

وقد سفه - فى فصل خاص - أحلام ذوى العقول القاصرة عن إدراك العلل، وأرجع ذلك إلى ضعفهم العقلى، وعدم ممارستهم للغة [٦٦] .

وكان واضحا أن ابن جنى استخدم الفلسفة ، وبراعة المنطق فى التعليل ، ولا غرو فهو معتزلى الاعتقاد ، وفقيه حنفى ، مع ما عرفناه من اشتغال المفكرين من المعتزلة ، والفقهاء الأحناف بالفلسفة ، وسيرهم فى مسالكها .

وقد ثار بعض العلماء على تلك الفلسفات ، وناهضها .

وابن مضاء الأندلسى من أشهر هؤلاء الذين وقفوا فى وجه النحاة قد ألف كتابه (الرد على النحاة) ليعارضهم فيما ذهبوا إليه من اويلات ، وعلل ، وأقيسة .

يقول عن العلل :

ومما يجب أن يسقط من النحو العلل الثوانى والثوالث ، وذلك مل سؤال السائل عن (زيد) من قولنا : (قام زيد) لم رفع ؟ فيقال

---

٦٥) المصدر السابق ٣ / ٥١ - ٥٣ ، وانظر أيضا (باب فى بقاء الحكم مع زوال العلة) ٣ / ١٥٧ - ١٦٤ .

(٦٦) المصدر السابق ١ / ١٨٤ - ١٨٦ .

لأنه فاعل ، وكل فاعل مرفوع ، يقول : ولم رفع الفاعل ؟ فالصواب أن يقال له : كذا نطقت العرب به ، ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر مثل الشئ الحرام الذى لا يحتاج إلى استنباط علة لينقل حكمه إلى غيره ، فيسأل : لم حرم ؟ فإن الجواب على ذلك غير واجب على الفقيه .

ثم أورد أمثلة للفرق بينه وبين المفعول مثل أن يسأل ولم لم يعكس؟ فيقال : ليقل فى كلامهم ما يستثقلون ، ويكثر ما يستخفون فلا يزيدنا ذلك علما بأن الفاعل مرفوع ، ولو جهلنا ذلك لم يضرنا جهله ، إذ قد صح عندنا رفع الفاعل الذى هو مطلوبنا ، باستقراء للتواتر الذى يوقع العلم [٦٧] .

ويدعو ابن مضاء - فى نهاية الكتاب - إلى إلغاء كل ما لا يفيد مطلقا كاختلافهم فى علة رفع الفاعل ، ونصب المفعول ، وسائر ما اختلفوا فيه من العلل الثوانى ، وغيرها كاختلافهم فى رافع المبتدأ ، وناصب المفعول فنصبه بعضهم بالفعل ، وبعضهم بالفاعل ، وبعضهم بالفعل والفاعل معا [٦٨] .

---

(٦٧) ابن مضاء : الرد على النحاة ص ١٥١ .

(٦٨) ابن مضاء : الرد على النحاة ص ١٦٤ ، وقد قسم العلل الثوانى إلى ثلاثة أقسام :
قسم مقطوع به ، وقسم فيه إقناع ، وقسم مقطوع بفساده .
والفرق بين العلل الأول والعلل الثوانى أن العلل الأول بمعرفتها تحصل لنا المعرفة بالنطق بكلام العرب المدرك منا بالنظر ، والعلل الثوانى هى المستغنى عنها فى ذلك ، ولا تفيدنا إلا أن العرب أمة حكيمة ، وذلك فى بعض المواضع كأن يقال فى (أكرم القوم) : لم حركت الميم من (أكرم) وهو أمر ؟ فيقال : لأنه لقى ساكنا آخر وهو لام التعريف وكل ساكنين التقيا بهذه الحال فإن أحدهما يحرك ، فإن قيل : ولم لم يتحركا ساكنين ؟ فالجواب : لأن النطق بهما ساكنين لا يمكن الناطق فهذه قاطعة ، وهى ثالية واضحة ، ولكن يستغنى عنها .
ومثال غير البين من العلل الثوانى : السؤال عن علة إعراب الفعل المضارع لشبهه بالاسم وإعراب الاسم لشبهه بالفعل ، انظر الرد على النحاة من ص ١٥٢ - ١٥٦ بتصرف .

وابن مضاء ظاهرى المذهب ، كان يقرن النحو بالفقه فى عدم العلل ، وهذا مذهب الظاهرية الذى كان يجله ابن مضاء ، كما كان يجله مولاه يعقوب بن يوسف الذى أمر بحرق كتب المذاهب التى تعتمد على العلل ، ولا تعتمد على الأصول من القرآن والحديث ، وقد تبعه قاضى قضاته ابن مضاء [٦٩] .

لذلك كان الخوض فى العلل ، والاجتهاد فيها عند ابن مضاء حراما .. لأن رسول الله ﷺ قال : من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ .. ومقتضى هذا الخبر النهى ، وما نهى عنه فهو حرام ، إلا أن يدل دليل عليه [٧٠] والرأى ما لم يستند إلى دليل فهو حرام ، ومن بنى الزيادة فى القرآن بلفظ أو معنى على ظن باطل أو تبين بطلانه ، فقد قال فى القرآن بغير علم ، وتوجه الوعيد إليه .

ومما يدل على أنه حرام الإجماع على أنه لا يزاد فى القرآن لفظ غير المجمع على إثباته ، وزيادة المعنى كزيادة اللفظ ، بل هى أحرى لأن المعانى هى المقصودة ، والألفاظ دلالات عليها ، ومن أجلها [٧١] .

كذلك ابن سنان الخفاجى نظر فى هذه العلل وقال إنه لا يثبت منها إلا القليل ، « فإن النظر إذا سلط على ما يعلل النحويون به لم يثبت إلا الفذ الفرد بل ولا يثبت شئ ألبتة ، ولذلك كان المصيب منهم المحصل من يقول : هكذا قالت العرب من غير زيادة على ذلك ، وربما اعتذر المعتذر لهم بأن عللهم إنما ذكروها ، وأوردوها لتصير صناعة ، ورياضة يتدرب بها المتعلم ، ويقوى بتأملها المبتدئ ، فأما أن يكون ذلك

---

(٦٩) ابن مضاء : الرد على النحاة من المقدمة للدكتور شوقى ضيف ص ٣٥ ، وانظر د. محمد عضيمة ، مجلة كلية اللغة العربية بالرياض - العدد السادس ص ١٩ ، ٢٠ .

(٧٠) يعنى من الكتاب أو السنة .

(٧١) ابن مضاء : الرد على النحاة ص ٩٢ ، ٩٣ .

جاريا على قانون التعليل الصحيح والقياس المستقيم فذلك بعيد لا يكاد يذهب إليه محصل »(٧٢) .

كذلك الجاحظ قد برم بعلل النحاة فيقول - في أول كتابه الحيوان - لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه ، وقد نقل هذا القول عن الخليل بن أحمد (٧٣) .

ومعنى ذلك أن هؤلاء الثلاثة يرغبون فى إلغاء العلل النحوية ، وأن يقال فى التعليل : هكذا نطقت العرب .

وقد مال كثير من الباحثين المحدثين إلى هذا الرأى فتابعوا ابن مضاء ، وغيره فى طلب إلغاء هذه العلل .

---

(٧٢) ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة ص ٣٣ .

(٧٣) الجاحظ : الحيوان ١ / ٣٧ ، ٣٨ فى فصل بعنوان (شرح الهزل بالجد) ط ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨م بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، وقد عقد ابن جنى فى الخصائص باباً بعنوان (باب فى الرد على من اعتقد فساد علل النحويين لضعفه هو فى نفسه عن إحكام العلة) ، ذكر فيه بعض أسئلة ، واعتراضات للجاحظ على علل النحاة .
ومن ذلك ما يحكى عن الجاحظ أنه قال :
قال النحويون : (أفعل) الذى مؤنثه (فعلى) لا يجتمع فيه (الألف واللام) و (من) إنما هو بـ« من » أو بـ« الألف واللام » نحو قولك : الأفضل وأفضل منك ، والأحسن ، وأحسن من جعفر ، ثم قال : وقد قال الأعشى :

فلست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر

ورحم الله أبا عثمان ، أما إنه لو علم أن (من) فى هذا البيت ليست التى تصحب (أفعل) للمبالغة نحو : أحسن منك ، وأكرم منك ، لضرب عن هذا القول إلى غيره مما يعلو فيه قوله ، ويعنو لسداده ، وصحته خصمه ، وذلك أن (من) فى بيت الأعشى إنما هى كالتى فى قولنا : أنت من الناس حر ، وهذا الفرس من الخيل كريم ، فكأنه قال : لست من بينهم بالكثير الحصى ، ولست فيهم بالأكثر حصى ، فاعرف ذلك .
وأجاب ابن جنى عن مثل هذه الاعتراضات بأنها شاقة على العلماء « فمثل هذا يعتب مع هذه الطائفة لاسيما إذا كان السائل عنه من يلزم الصبر عليه ، ولو بدأ الأمر بإحكام الأصل لسقط عنه هذا الهوس ، وذا اللغو .. وسقط صراع هذا المضعوف السؤال ، انظر ابن جنى : الخصائص ١ / ١٨٥ .

فالدكتور ضيف يقول - كما سبق ذكره - إن تلك العلل لا تفيد اللسان ولا اللغة أى فائدة [٧٤] .

وإن العلل القياسية ، والجدلية ، أو العلل الثوانى والثوالث تزيد لا جدوى فيه إلا شغل العقل بالتأمل ، والنظر ، ويؤيد ابن مضاء فى دعواه بإلغائها ويقول إنه وجدها لا تفيد الناطقين شيئا فى نطقهم بالعربية الصحيحة ، سوى البعد بهم فى التخيل ، والفرض ، والوهم .

إلا أن الدكتور (ضيف) لا يرى مانعا من أن يدرس المتخصصون فى اللغة هذه العلل ، فيقول : مع أننا نؤمن - فى عصرنا - بأن النحو ينبغى أن ييسر على الناشئة ، وأن تخرج منه هذه العلل المعقدة ، نرى من الواجب أن يعنى المتخصصون فيه بدراسته فى صورته القديمة ، وكل ما داخلها من فلسفة العلة حتى يتبينوا تطوره ، وما شفع به هذا التطور من جهود عقلية خصبة جعلت بعض المستشرقين يشيد بما تم لهذا العلم على أيدى أسلافنا من نضج واكتمال يحق للعرب أن يفخروا به [٧٥] .

كذلك يدعو الأستاذ عباس حسن إلى تنقية النحو من العلل الثوانى والثوالث وما يليها ، فلا نستبقى من العلل إلا الأوائل ، وما يشابهها مما لا يدعو إلى تأويل ، أو تمحل ، أو تعدد فى الوجوه الإعرابية .. مهملين ما عداها من العلل التى أعلت النحو ، والمشتغلين بها ، وأضاعت الجهد والوقت فى عبث لفظى لا غناء فيه ، بل فيه كل العناء ، وكان الواجب توجيهها إلى إصلاح نحوى مفيد ، وعمل مثمر [٧٦] .

ويقول : إن النظرة العجلى الصائبة لتحكم من غير تردد بأن

---

(٧٤) انظر ص ٣٥٣ من هذا الكتاب .

(٧٥) مقدمة الإيضاح ص ٥ .

(٧٦) عباس حسن : رأى فى بعض الأصول اللغوية والنحوية ص ٧٤ .

جميع هذه العلل والتعليلات زائفة ، لا تمت إلى العقل ، والواقع بصلة ما [٧٧] .

وبعض المحدثين يشير إلى ضعف العلل النحوية ويقول : إن القدماء أنفسهم كانوا يشعرون بضعفها ، فابن جنى شعر بضعف العلل النحوية عندما تكلف نقضها « ألا ترى أنه قد يمكنك تحمل المشقة فى تصحيح هذه الواو - واو عصفور - بعد الكسرة إلخ » [٧٨] .

ومعنى ذلك أن المحدثين - بعامة - يميلون إلى إلغاء هذه العلل بل إن الأستاذ العلايلى يصف القدماء بأنهم قد بعدوا عن التماس التعليل الصحيح ، وأنهم قد أصابتهم الحيرة فى فهم مخلفات العربية على الوجه الواقعى [٧٩] .

والباحثون المحدثون ينظرون فى العلل الأولية ، والثانوية ، ولكن على ضوء الدراسة التقارنية ، والتطورية [٨٠] .

وبعد استعراضنا لهذه الآراء حول فلسفة العلة ، والتى اتفق فيها النقاد قدامى ومحدثين على إلغاء العلل الثوانى ، والثوالث ، والإبقاء على العلل الأوائل فحسب ، نرى أنفسنا مدفوعين إلى القول بأن هذه الآراء لا تعدو أن تكون وسيلة لتسهيل الدراسة النحوية على المبتدئين .

واعتقد أن العلل التى طالبوا بإلغائها يعتريها الضعف والتكلف فى كثير من الأحوال ، ولا تطابق مقصود العرب على الرغم مما أشار إليه ابن جنى فى هذا الصدد .

---

(٧٧) عباس حسن : اللغة والنحو ص ١٤٨ .

(٧٨) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٤٧ ، ٤٨ ، وانظر الخصائص ١ / ٨٨ و ص ٣٤٢ من هذا الكتاب .

(٧٩) عبد الله العلايلى : مقدمة لدرس لغة العرب ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٨٠) عبد المجيد عابدين : المدخل ص ٩٢ .

وقد تعلمنا فى دراستنا النحوية أن علل النحو كالوردة تشم ولا تدعك ، وللشيخ الخضرى تعليق يدل لذلك ، فعند تناوله مسألة إعراب الفعل المضارع ، وعلة ذلك وهى مشابهة الاسم إلخ يقول : فالعمدة فى هذه الأحكام السماع ، وهذه حكم تلتمس بعد الوقوع لا تحتمل هذا البحث الدقيق [٨١] .

ولشهرة ضعف علل النحويين قال ابن فارس :

مرت بنا هيفاء مقدودة　　تركية تنمى لتركى

ترنو بطرف فاتر فاتن　　أضعف من حجة نحوى [٨٢]

والذى أميل إليه هو أن تستمر دراسة هذه العلل بأنواعها للمتخصصين ، أما المبتدئون فتعطى لهم العلل الأوائل ، وأزيد على ذلك فأقول : ينبغى - كذلك - أن نقدم لهم من العلل الثوانى والثوالث واضحها ، وجيدها - مع التدرج فى مراحل التعليم - ليدركوا قيمة تلك القواعد اللغوية ، ويتبين لهم مفهومها جليا ، فيساعدهم ذلك على تلقيها بالقبول ، وثباتها فى أذهانهم .

(جـ) نظرية العامل النحوى

اختلف النحاة فى العامل ، وشخصيته ، فرأينا منهم ثلاثة اتجاهات :

١ - أن يكون لفظا فى الجملة ، أو معنى نحويا .

٢ - المتكلم .

٣ - الله سبحانه وتعالى .

---

(٨١) حاشية الخضرى على ابن عقيل ١ / ٣٠ .

(٨٢) الثعالبى : يتيمة الدهر ط دمشق ٣ / ٢١٩ ، وياقوت : معجم الأدباء ٤ / ٨٧ وابن جنى : الخصائص التعليق ٤٨ ، ود. عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض - العدد السادس ص ١٨ .

١ - العامل اللفظى والمعنوى :

يبدو للناظر فى كتب النحو أن قدامى اللغويين يرجعون مواقع الكلمات فى الجمل ، والتراكيب إلى عوامل لفظية ، أو معنوية ، تظهر آثارها على الكلمات .

فإذا كان العمل مسببا عن لفظ يصحبه فالعامل لفظى مثل : ضرب سعيد عمرا ، فالفعل « ضرب » - كما يعرب النحاة - رفع «سعيد» فاعلا ، ونصب « عمرا » مفعولا به .

وتقول : مررت بأحمد ، فالباء حرف جر - وهى عامل لفظى - و « أحمد » مجرور بالباء ، وهو اسم ممنوع من الصرف للعملية ووزن الفعل ، فأشبه الفعل لفظا .

وإذا كان العمل عاريا من مصاحبة لفظ يتعلق به فالعامل معنوى كرفع المبتدأ بالابتداء ، ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم والعوامل اللفظية ترجع إلى العوامل المعنوية .

يقول ابن جنى فى « باب فى مقاييس العربية » : وهى ضربان ، أحدهما معنوى والآخر لفظى .

وهذان الضربان وإن عما وفشوا فى هذه اللغة فإن أقواهما وأوسعهما القياس المعنوى .

ألا ترى أن الأسباب المانعة من الصرف تسعة ، واحدَ منها لفظى ، - وهو شبه الفعل لفظا نحو أحمد ويرمع - والثمانية الباقية كلها معنوية ، كالتعريف ، والوصف ... ، فهذا دليل ، ومثاله : اعتبارك باب الفاعل ، والمفعول به ، بأن تقول : رفعت هذا لأنه فاعل ، ونصبت هذا

لأنه مفعول ، فهذا اعتبار معنوى لا لفظى ، ولأجله ما كانت العوامل اللفظية راجعة فى الحقيقة إلى أنها معنوية ، ألا تراك إذا قلت « ضرب سعيد جعفرا » فإن « ضرب » لم يعمل فى الحقيقة شيئا .

وهل تحصل من قولك « ضرب » إلا على اللفظ بالضاد ، والراء ، والباء ، على صورة « فعل » فهذا هو الصوت ، والصوت مما لا يجوز أن يكون منسوبا إليه الفعل .

وإنما قال النحويون : عامل لفظى ، وعامل معنوى ليروك أن بعض العمل يأتى مسببا عن لفظ يصحبه كمررت بزيد وليت عمرا قائما ، وبعضه يأتى عاريا من مصاحبة لفظ يتعلق به كرفع المبتدأ بالابتداء ، ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم ، هذا ظاهر الأمر ، وعليه صفحة القول (٨٣) .

وقد توسع النحاة فى أمر هذه العوامل ، وتفصيلها إلى حد دخلته الفلسفة والمنطق ، والتعقيد .

٢ - العامل المتكلم :

لم ينس القدامى أن يشيروا إلى أن مسألة العوامل اللفظية والمعنوية ، ليست إلا حيلة لجأ إليها النحاة لتقريب المسائل اللغوية ، والإفادة فى تعلم اللغة ، والوقوف على مناهجها .

فالعامل على الحقيقة هو المتكلم ، أما العوامل اللفظية كقولنا : الفعل هو العامل ، أو الحرف هو العامل ، أو العلامات المانعة من الصرف تسعة - مثلا - فإنما هى آلات ، ووسائل تقرب اللغة للدارسين .

---

(٨٣) ابن جنى : الخصائص ١ / ١٠٩ ، وابن جنى يتحدث عن العوامل اللفظية كما يتحدث عنها النحويون ، د. عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد السابق ص ٢١ ، ٢٢ .

يقول ابن جني : فأما في الحقيقة ومحصول الحديث فالعمل من الرفع ، والنصب ، والجر ، والجزم ، إنما هو للمتكلم نفسه ، لا لشئ غيره ، وإنما قالوا : لفظي ومعنوى لما ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامة اللفظ للفظ أو باشتمال المعنى على اللفظ ، وهذا واضح .

وبذلك صرح الإمام الرضى ، قال في شرح الكافية :

اعلم أن محدث هذه المعانى فى كل اسم هو المتكلم ، وكذلك محدث علاماتها ، لكنه نسب إحداث هذه العلامات إلى اللفظ الذى بواسطته قامت هذه المعانى بالاسم ، فسمي عاملا لكونه كالسبب للعلامة ، كما أنه كالسبب للمعنى المعلم ، فقيل : العامل فى الفاعل هو الفعل لأنه به صار أحد جزءى الكلام (٨٤) .

« فوجوه الإعراب عادة تعودها أصحاب اللغة ، وطبعت عليها ألسنتهم ، وساقتهم إلى الوجوه الإعرابية سليقة فطرية ، وليست هذه العوامل التى أسند إليها الأثر الظاهر إلا عوامل اعتبارية ، وآلات جامدة ينسب إليها الأثر تجوزا » (٨٥) .

٣ - العامل هو الله سبحانه وتعالى :

ثار ابن مضاء ثورة عنيفة على العامل اللفظى والمعنوى ، وتعقيداته، فى كتابه (الرد على النحاة) .

قال : قصدى فى هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه ، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه ، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب ، والخفض ، والجزم ، لا يكون إلا بعامل لفظى ، وأن الرفع

---

(٨٤) ابن جنى : الخصائص ١ / ١١٠ والرضى : شرح الكافية ١ / ١٨ ، وانظر أيضا ١٥ ، ١٩ ، ٢١ ، وانظر نصوصا أخرى فى هذا المعنى للمبرد فى المقتضب ، وابن الأنبارى فى الإنصاف ، وابن يعيش فى المفصل وقد جمعها الشيخ عضيمة فى بحثه بمجلة كلية اللغة العربية ، العدد السابق ص ٢٠ ، ٢١ .

(٨٥) د. المخزومى مدرسة الكوفة ص ٢٦٤ .

منها يكون بعامل لفظى ، وبعامل معنوى ، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم فى قولنا (ضرب زيد عمرا) أن الرفع الذى فى (زيد) والنصب في (عمرو) إنما أحدثه (ضرب) ، وذلك بين الفساد [٨٦] .

وتقدير العامل - بهذه الصورة في نظره - يحط من قدر كلام العرب ، إذ « لو لم يسقهم جعلها عوامل إلى تغير كلام العرب وحطه عن رتبة البلاغة ، إلى هجنة العي ، وادعاء النقصان فيما هو كامل ، وتحريف المعانى عن المقصود بها لسومحوا فى ذلك ، وأما مع إفضاء اعتقاد كون الألفاظ عوامل إلى ما أفضت إليه ، فلا يجوز اتباعهم فى ذلك » [٨٧] .

ثم عاب على النحاة تقدير العوامل المحذوفة ، واستبعد أن تعمل وهى محذوفة ، (فنسبة العمل إلى معدوم على الإطلاق محال) [٨٨] .

وإن إضمار ما الكلام تام دونه لا حاجة إليه ، وإظهاره عى مخالف لغرض القائل، هذا فى كلام الناس ، فأما فى كلام الله تعالى فحرام [٨٩] .

---

(٨٦) ابن مضاء : الرد على النحاة ص ٨٥ ، ٨٦ ، ونقد ابن مضاء للنحويين فى مسألة العوامل نقد غير موضوعى ، لأنه نسب إلى النحويين أنهم يقولون إن العوامل النحوية هى التى تحدث حركات الإعراب وليس المتكلم ، وهذا زعم لم يقل به أحد من النحويين لا القدامى، ولا المتأخرين ، انظر : د. عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض - العدد السابق ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٨٧) المصدر السابق ص ٨٨ ، وابن مضاء لا يعتمد هذا الإجماع الذى لا يوافقهم عليه يقول : وإذا كان النحويون قد أجمعوا على القول بالعوامل عن بكرة أبيهم فإن إجماعهم ليس بحجة على من خالفهم ، وقد قال كبير من حذاقهم ، ومقدم فى الصناعة من مقدميهم ، وهو أبو الفتح ابن جنى فى خصائصه (اعلم أن إجماع أهل البلدين « يعنى البصرة والكوفة » إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده ألا تخالف المنصوص ، والمقيس على المنصوص ، فإذا لم يعط يده فلا يكون إجماعهم حجة عليه) انظر : المصدر السابق ص ٩٣ وابن جنى : الخصائص ١ / ١٨٩ .

(٨٨) المصدر السابق ص ٩١ .

(٨٩) المصدر السابق ص ١٤١ .

وادعاء الزيادة فى كلام المتكلمين من غير دليل يدل عليها خطأ بين لكنه لا يتعلق بذلك عقاب ، وأما طرد ذلك فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وادعاء زيادة معان فيه من غير حجة ، ولا دليل ، ... فالقول بذلك حرام [٩٠] .

وهو يحاول أن يرسم طريقا جديدا لدراسة النحو ، وتيسيره ، دون نظر إلى تأويلات العامل النحوى ، وما وصلت إليه من إفساد النحو ، وصعوباته .

ويذكر كلام ابن جنى فى أن العامل الحقيقى للرفع ، والنصب ، والجر والجزم ، هو المتكلم نفسه [٩١] ويعقب عليه بقوله : وهذا قول المعتزلة ، وأما مذهب أهل الحق فإن هذه الأصوات إنما هى من فعل الله تعالى ، وإنما تنسب إلى الإنسان كما تنسب إليه سائر أفعاله الاختيارية [٩٢] .

فهو بهذا يدعى أن العامل هو الله سبحانه وتعالى .

وهو على وفاق مع ابن جنى من هذا الجانب ، فهو يرى أن الفاعل

---

(٩٠) المصدر السابق ص ٩٢ وهذه النغمة فى الكتاب - وهى نغمة مرددة فيه - تدل على أن ابن مضاء كان ظاهرى النزعة ، فهو ينكر الرأى ما لم يستند إلى دليل على نحو ما ينكره الظاهرية فى الفقه ، ثم هو يتشدد فى التمسك بحرفية النص دون تأويل فيه وهو يريد أن ينفذ من هذا التشدد إلى هدم نظرية العامل ، لأنها تجر إلى الزيادة فى آى الذكر الحكيم ، وأن يقول الإنسان فى القرآن بغير علم ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك ، وتوعد عليه ، (انظر حديث الدكتور شوقى ضيف فى مدخل الكتاب ص ٢٣ ، وانظر ما سبق ذكره فى فلسفة العلة ص ٣٥١ من هذا الكتاب) ، ولكن النحويين لم يقولوا عن محذوفات القرآن الكريم إنها قرآن ، لأن القرآن إنما يكون باللفظ الثابت المتواتر ، د . عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض - العدد السابق ص ٣٢ .

(٩١) سبق إيراد عبارة ابن جنى فى عرض الرأى السابق .

(٩٢) ابن مضاء : الرد على النحاة ص ٨٧ .

الأول هو الله سبحانه ، ثم نقل ذلك إلى المتكلم فيقول : إن المتكلم وإن كان هو العامل فقد استمد قوته على العمل من الله تعالى .

وقد ذكر ذلك في (باب في ورود الوفاق مع وجود الاختلاف) الذى تحدث فيه عن أفعال أتت في اللغة العربية لازمة مرة ، ومتعدية مرة أخرى ، وذلك نحو قولهم : غاض الماء ، وغضته ، وجبرت يده ، وجبرتها ودان الرجل ، ودنته ، من الدين في معنى أدنته ، وعاب الشئ ، وعبته ، وعثمت يده ، وعثمتها - أى جبرتها على غير استواء - سووا فيه بين المتعدى وغير المتعدى .

وبعد أن ذكر طائفة كبيرة من أفعال هذا النوع أوضح ما أشرت إليه من رجوع الفعل إلى الله بقوله : فهذا كله شاذ عن القياس ، وإن كان مطردا في الاستعمال إلا أن له عندى وجها لأجله جاز وهو أن كل فاعل غير القديم سبحانه فإنما الفعل منه شئ أعيره ، وأعطيه وأقدر عليه فهو وإن كان فاعلا فإنه لما كان معانا مقدرا صار كأن فعله لغيره ، ألا ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .

نعم وقد قال بعض الناس : إن الفعل لله ، وإن العبد مكتسبه ، وإن كان هذا خطأ عندنا فإنه قول لقوم .

فلما كان قولهم (غاض الماء) أن غيره أغاضه ، وإن جرى لفظ الفعل له ، تجاوزت العرب ذلك إلى أن أظهرت هناك فعلا بلفظ الأول متعديا لأنه قد كان فاعله في وقت فعله إياه ، إنما هو مشاء إليه ، أو معان عليه فخرج اللفظان - لما ذكرنا - خروجا واحدا فاعرفه [٩٣] .

أما المحدثون فقد وقفوا من هذه الأقوال مواقف النقد ، فقد ثاروا على العوامل اللفظية ، والمعنوية ، وما وصلت إليه من تعقيدات ومشكلات ، وعزوا ذلك التعقيد وتلك المشكلات وتعلق الأقدمين

---

(٩٣) ابن جنى : الخصائص ٢ / ٢١٠ - ٢١٣ وقوله تعالى : وما رميت .. إلخ من الآية ١٧ من سورة الأنفال .

بالعامل - بهذا المعنى - إلى تأثرهم بالمنهج الفلسفي الذى يقول بالعلة والمعلول ، والسبب والمسبب ، ولا يصح - جريا على هذا - أن يكون حدث من غير محدث .

وقد دعا الدكتور شوقي ضيف - بدعوة ابن مضاء - إلى إلغاء العوامل النحوية بالتعقيد الذى وصلت إليه قال :

من هنا تبدو صحة تفكير ابن مضاء فإنه حين ألغى نظرية العامل ، وما يطوى فيه من أقيسة ، وعلل لم يفهم أنه ألغى النحو العربى ، بل كل ما أراد إنما هو تخليصه من عنت هذه النظريات ، التى لم يكسب منها إلا فنونا من العسر ، والمشقة حتى أصبح كثير من مسائله لا يفهم إلا بعد أن يجدد للناس الفهم مرارا وتكرارا (٩٤) .

ثم يقول : ومثله ينبغى أن ينفى من النحو ، حتى تستقيم مسائله على الجادة (٩٥) .

ولكن الدكتور المخزومى يعيب على الدكتور ضيف أن يبنى رأيه فى إصلاح النحو وإحيائه على رأى ابن مضاء ، وأن يرى الانصراف عن نظرية العامل هو الأصل الذى ينبغى أن يتكئ الدارس عليه فى تصنيف النحو ، وأن يرى منع التأويل والتقدير فى الصيغ ، والعبارات ، وهو مذهب ابن مضاء - أيضا - هو الأصل الثانى ، لأن ذلك يريح الدارس من ثلاثة أشياء :

١ - إضمار المعلومات .

٢ - حذف المعلومات .

٣ - بيان محل الجمل والمفردات (٩٦) :

---

(٩٤) من حديث الدكتور شوقى ضيف فى تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء ص ٧٤ .

(٩٥) د. ضيف فى تحقيق الكتاب السابق ص ٧٥ ، وانظر عابدين : المدخل ١٠٩ - ١١٩ ، وعباس حسن : اللغة والنحو ص ٦١ .

(٩٦) د. المخزومى : مدرسة الكوفة ص ٢٤٧ ، ٢٦٨ .

ويعترف الدكتور المخزومي بأن العامل النحوى - بصورته التي وصل إليها - قد قام على أساس فلسفي ، وقد جاءت بعد الطبقة الأولى طبقات لم تتفهم منهج النحاة الأولين ، فتناولت العامل تناولا فلسفيا وهيأ لها ذلك طغيان المنهج العقلي واندفاع الدارسين إلى الاستفادة من الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني فانتهت دراسة العامل إلى أن يضفى عليه صفة العلة الفلسفية (٩٧) .

والدكتور المخزومي لا يطلب إلغاء نظرية العامل ، والتقديرات والتأويلات التي تفرعت عنه بل يطلب الأخذ بالمفيد منها ، فتقدير الدارس وتأويله ، مستأنسا بفهم الأساليب ، أو مدركا للقرائن التي تركها الاستعمال دلائل على الساقط من الجملة لا ينفيه البحث اللغوى ، لأن اللغة ترجمان للفكر ، وأداة من أدواته ، وإن حركة الجملة بترتيب أجزائها ، وقالبها تتبع حركة الفكر بترتيب صوره ، وقوالبها ، فإذا أسقط الاستعمال بعض أجزاء الجملة بقيت الصور الذهنية مفهومة بالقرائن ، فإذا أول الدارس جملة أو عبارة ، فإنما يؤول استئناسا بما يفهم من مدلول الجملة (٩٨) .

ولا جدال - كما يقول الأستاذ العقاد - في دلالة العامل على معنى متصل بما تفيده الكلمة ، في موقعها ، وليست الحركات جزافا بغير دلالة الشيوع والتواتر ، لأن ذلك واضح في الحالات التي يتفق فيها موقع الكلمة ، ويختلف المعنى ، وأظهر ما يكون ذلك في حكم جواب الطلب أو الشرط مع اتفاق أوضاع الجملة في ترتيب أفعالها ، فالجزم لازم في الجواب إذا فهم منه الجزاء ولكنه لا يلزم إذا وضح للعقل معنى آخر غير جزاء الشرط ، أو جزاء الطلب مثل قوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي

---

(٩٧) ص ٢٧٤ و (في النحو العربي) ص ٢٢٩ .

(٩٨) د. المخزومي : مدرسة الكوفة ص ٢٦٨ .

مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي ... ﴿٦﴾ ﴾ إذ إن (يرثنى) صفة الولى وقوله تعالى : ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ : حال ، أى عمهين [٩٩] .

وقد راعى النحاة فى تقدير العامل أن يفيد المعنى الدقيق ومن ذلك ما قالوه فى قول الشاعر :

لـن تراهـا ولـو تأملت إلا ولها فى مفارق الرأس طيبا

فقدر ابن جنى العامل للنصب فى (طيبا) فعلا : هو (تتحقق أو تعلم أو تشم) ومنع أن تقدر (ترى) البصرية قال : إن الرؤية وإن كانت مشتملة عليها ليس لها طريق إلى الطيب فى مفارقها اللهم إلا أن تكون حاسرة الرأس غير مقنعة ، وهذه بذلة وتطرح لا توصف به الخفرات [١٠٠] . وقدر ابن هشام (ترى) قلبية قال : (ترى) المقدرة الناصبة لـ (طيبا) قلبية لئلا يقتضى كون الموصوفة مكشوفة الرأس ، وإنما تمدح النساء بالخفر والتصون لا بالتبذل) [١٠١] .

وعلى هذا فإنكار العامل اللفظى ، والمعنوى مطلقا غير سديد ، والرأى وسط بين الإثبات المطلق ، والإنكار المطلق .

فكلا الفريقين النحاة ، والثائرين عليهم قد تطرف فى التقديرات فلا شك فى وجاهة الاعتراض على إفراط النحاة فى التقديرات التى يوجبها نقل السبب من معنى ملحوظ إلى لفظ محدود لكن هذا الخطأ يلازم المعترضين على النحاة فى تقديراتهم وتأويلاتهم ، بل نرى من الإنصاف أن نقرر هنا أن أخطاء المعترضين أكبر وأكثر من أخطاء المقدرين .

---

(٩٩) العقاد : أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص ١٥٠ وقوله تعالى : فهب لى .. إلخ من الآيتين ٥ ، ٦ من سورة مريم ، وقوله تعالى : ونذرهم .. إلخ من الآية ١١٠ من سورة الأنعام ، وفى الأعراف ويذرهم من الآية ١٨٦ .

(١٠٠) ابن جنى : الخصائص ٢ / ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

(١٠١) ابن هشام : المغنى ٢ / ١٥٧ ، وانظر د. عضيمة مجلة كلية اللغة العربية العدد السابق ص ٢٥ ، ٢٦ .

وقد ناقش الأستاذ العقاد الأستاذ إبراهيم مصطفى فى أمثلة كثيرة من كتابه (إحياء النحو) وغيره [١٠٢] .

أما أن أصل العامل هو المتكلم ، أو الله سبحانه وتعالى ، فقد وقع تحت طائلة النقد أيضا .

فالدكتور تمام حسان نفى أن يكون العامل هو المتكلم وقال : إنه يتنافى مع الطابع الاجتماعى للغة ، إذ تصير اللغة فوضى ، يرفع كل متكلم ، وينصب باختياره .

كذلك هاجم نظرية ابن مضاء فى أن العامل هو الله .

يقول : وأما أن العامل هو الله سبحانه فلست أدرى لم اختلف عمله سبحانه فيما بعد (ما) الحجازية ، عن عمله - جل شأنه - فيما بعدها في ديار تميم ، على ساحل الخليج العربى .

وقد انتهى من نظريته إلى أن لا عامل ، وأن وضع اللغة يجعلها منظمة من الأجهزة ، وكل جهاز منها متكامل ، مع الأجهزة الأخرى ، ويتكون من عدد من الطرق التركيبية العرفية ، المرتبطة بالمعانى اللغوية ، فإذا كان الفاعل مرفوعا فى النحو فلأن العرف ربط بين فكرة الفاعلية ، والرفع ، دون ما سبب منطقى واضح ، والعرف هو الذى ارتضاها وارتضى التفريق بين باب الفاعل والمفعول باختلاف الحركات الإعرابية [١٠٣] .

ويبدو لى أن نسبة الإعراب إلى الله تعالى أمر غير سديد ، إلا إذا قلنا بتوقيفية اللغة منذ نشأتها ، وهذا القول لم يسلم للقائلين به .

---

(١٠٢) العقاد : أشتات مجتمعات ص ٣٠ وما بعدها ، وانظر مقالا للعقاد بعنوان (عوامل الإعراب فى اللغة العربية) بمجلة الأزهر عدد المحرم سنة ١٣٨٢ هـ - يونية سنة ١٩٦٢م .

(١٠٣) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٥٠ ، ٥٢ .

وأما أن العامل هو المتكلم - على الحقيقة - ونسبته إلى الألفاظ ، والمعاني هي على سبيل المجاز باعتبارها آلات ، أو علامات ، فهذا هو الرأى المعقول الذى يناسب المنهج العلمى اللغوى .

فأرباب اللغة الناطقون بها هم الذين طبعوا على تلك السليقة - من رفع ونصب ، وجر للألفاظ حسب مواقعها - وذلك هو طريقهم الذى سلكوه وهم المنشئون لغتهم المبتكرون لها حسب عاداتهم وحالاتهم الاجتماعية فهم قد اختاروا بأنفسهم ذلك (١٠٤) .

وهذا يوافق رأى الدكتور تمام حسان فى أن وضع اللغة وضع عرفى تتعارف عليه الجماعة البشرية المعينة .

ولا أرى رأيه فى إلغاء العامل ، لأن النحويين حين قالوا : إن العامل هو المتكلم لم يقصدوا أنه يجوز لنا الآن أن نغير ، وأن نبدل ، لأننا الفاعلون الناطقون للألفاظ ، بل طلبوا منا أن نحاكى العرب ، وأن نفعل مثل ما فعلوا فلا نتعدى أقيستهم ونظمهم الكلامية ، فلا ننصب الفاعل، ولا نرفع المفعول ، ولا نجر المنصوب .

ومن هنا لا يمكن أن تحل الفوضى فى اللغة على الوضع الذى تصوره الدكتور تمام .

ولذلك ولخوف النحاة من هذا الملحظ - لم يجهروا بأن العامل هو المتكلم ، وتركوا ذلك للباحثين المتخصصين ، أما المبتدئون المتعلمون

---

(١٠٤) وكما يقول الأستاذ العقاد : لا نستطيع اليوم أن نفهم جميع الأسباب فى جميع الحركات وعواملها إلا إذا استعدنا الزمن السحيق الذى كان فيه نطق الكلمة مقرونا بالإيماء من اليدين ، والإشارة من الملامح ، والتعبير فى قوة الصوت ، ونغمة التوقيع ، والتمييز بغير الكتابة بين الخطاب فى الظلام ، والخطاب فى النور ، إذا استعدنا الزمن الذى كانت اللغة فيه تركيبا جامعا لفن التمثيل وفن الموسيقى ، وفن التصوير المنظور ، والمسموع ، انظر العقاد : أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص ١٥٤ .

للغة فقالوا لهم : إن العامل هو اللفظ ، أو المعنى النحوى ، على الحد الذى أوضحوه هناك .

ويؤيدنا فى رأينا الأستاذ عباس حسن يقول : فالأخذ برأى الجمهرة فى أمر العامل إنما هو أخذ بالأيسر عملا ، وتطبيقا ، وإفادة بالرغم من أنه ليس هو الحق فى الواقع المقطوع به ، وذلك أن الواقع اليقينى يقطع بأن الذى يجلب الحركات ، ويغيرها ، ويداور بينها إنما هو المتكلم [١٠٥] .

ويقول فندريس : لولا مقاومة المجتمع للتفكك اللغوى لأصبح العالم أمام حشد من صور التكلم التى لا تزيدها الأيام إلا تفريقا ، ولكن الذين يتكلمون إحدى اللغات يميلون دائما إلى المحافظة عليها كما هى [١٠٦] .

وكل ما يمكن أن يؤخذ على النحاة القدامى أنهم توسعوا فى نظرية العامل ، وفلسفوها ، وجعلوا للمنطق سبيلا إليها ، فتعقدت ، وأصبحت إحدى المشكلات .

فالواجب تخليص النحو مما علق به ، وإبقاء ما يصلح من تقديرات ، وتعليلات .

---

(١٠٥) عباس حسن : اللغة والنحو ص ١٩١ .

(١٠٦) فندريس : اللغة ص ٣٢٦ .

رأى ومنهج :

وبعد :

فقد تناولت بالبحث (علم اللغة) من حيث نشأته والداعى إليه، وتقدم البحث فيه ، وبعض الأصول والقواعد التى ارتكز عليها ، وبها قوام اللغات البشرية ، وأسس بقائها ، وعناصر قوتها ، وجوانب حياتها، وظواهرها ، تناولت كل ذلك من خلال دراسات الشرق والغرب .

وقد نوهت بالجهود الجبارة التى بذلها علماؤنا العرب فى خدمة العربية ووسائل الحفاظ عليها والكشف عن جوهرها الأصيل .

وقارنت هذا الجهد بما وصلت إليه مناهج علم اللغة فى الغرب مبينا الاتجاهات العامة والخاصة هنا ، وهناك .

وقد كشفت المقارنة عن استفادة الحديث من القديم ، والحاجة الملحة إلى المبتكر المستحدث حتى يجلى القديم ، وتتجدد فيه الحياة .

وقد خرجت بنتيجة حاسمة هى أن (علم اللغة) قد استقر بين العلوم المختلفة ، وأصبحت له قوانينه التى يسير وفقها وله نتائجه المهمة وطرائقه الخاصة فى دراسة اللغات وكيفية علاج ظواهرها وبهذا العلم يتضح طريق قوتها ، ونهوضها ، أو انقراضها ، وموتها .

وإذا كانت الدراسة فى بعض صورها تتصل بالجانب اللغوى التاريخى فإن ذلك يبين المسار التطبيقى ، ومدى نجاحه أو إخفاقه .

ولذا اقتضى المقام أن ألجأ إلى مجال التطبيق بعد مجال البحوث النظرية ، فناقشت بعض قضايا (علم اللغة) فى ظلال القواعد والقوانين التى وصل إليها العلماء فى الشرق والغرب .

وكان بحثنا لها قائما على أسس ومبادئ هذا العلم التى أرسيت واستقرت ، ولم نكن مفرطين فى الاتجاه إلى جانب معين دون الاستفادة من الجوانب الأخرى التى يمكن أن يكون لها تأثير على اللغة وخط سيرها .

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن كثيرا من علم العرب فى الحقل اللغوى كان صحيحا ودقيقا فى ضوء ما استحدث من بحوث عند الغربيين .

ودائما ما كانت المقارنة تكشف خط السير المنهجى السليم .

وقد كان عنائى الكبير فى استقراء الظاهرة اللغوية ، والاطلاع على أهم ما قيل فيها ، وما وصل إليه العلماء بشأنها قديما وحديثا ثم الإدلاء بدلوى فى التحليل والحكم والنقد البناء .

ولعل القارئ يقتنع معى بأن أسس هذا العلم ومبادئه هى المقياس الصحيح الذى يجب أن يحتذى ، وأن تقوم عليه كل دراسة لغوية .

ولعله يقتنع معى - أيضا - بأن تعليمنا للعربية فى حاجة إلى النظر فى وسائله على ضوء ما وصل إليه هذا العلم من قوانين وأحكام لغوية سلم بها البحث اللغوى التجريبى .

والحقيقة أن وصل القديم بالحديث مهم لتجديد ما عسى أن يكون قد حال لونه وليكبح التعقل من غلواء الانطلاق دون قيود ، ليقوم التوازن والاعتدال ، والائتلاف فى العناية باللغة والتمكن من السيطرة على توجيهها حتى تستقيم على الجادة ، وتحيا حياة القوة والاكتمال ، وحتى لا يفلت زمامها من أيدينا فتهوى من عليائها وتنحدر إلى قرار سحيق .

وما أحوج لغتنا الآن إلى الاهتمام والعناية لصد التيارات العامية التى تريد أن تحرفها لتفقد شخصيتها وهيبتها .

ولذا فإننى أدعو إلى نظرة جديدة فى الدراسات اللغوية العربية لتنصهر فى بوتقة (علم اللغة) وتقوم على ما أرساه من قواعد وبذلك يمكن إعادة لغتنا إلى أوج مجدها وعنفوانها .

ونرجو لها أن تعود ، لاسيما فى عصر يحتاج فيه إلى توطيد الأواصر ، وتوثيق الروابط بين تراثنا وحضارتنا العربية والإسلامية تالدها وطريفها .

ولعل هذا الكتاب يكون نبراسا للدراسات اللغوية المتخصصة يهتدى به كل باحث يريد للغته أن تأخذ مكانها فى مصاف اللغات الحية .

والله أسأل أن ينفع بما بذل فيه من جهد وإخلاص إنه سميع مجيب .

أهـم المصـادر

- **إبراهيم أنيس (دكتور) :**

- الأصوات اللغوية . ط لجنة البيان العربى ١٩٦١م .
- دلالة الألفاظ . ط الأنجلو المصرية ١٩٥٨م ، ط الثالثة ١٩٧٢م .
- فى اللهجات العربية . ط ٢ لجنة البيان العربى ١٩٥٢م ، ط ٣ المطبعة الفنية الحديثة ١٩٦٥م .
- من أسرار اللغة . الأنجلو المصرية ، ط الأولى ١٩٥١م ، ط ٣ ١٩٦٦م .

- **إبراهيم بيومى مدكور (دكتور) :**

- بحث بعنوان (منطق أرسطو والنحو العربى) بمجلة مجمع اللغة العربية ج ٧ .

- **إبراهيم السامرائى (دكتور) :**

- دراسات فى اللغة . ط بغداد ١٩٦١ .

- **إبراهيم مصطفى :**

- إحياء النحو ، مطبعة لجنة التأليف ، القاهرة ١٩٢٧م .

- **إبراهيم نجا (دكتور) :**

- فقه اللغة العربية ج ٣ ط ١٩٦٥م ، ج ٤ ، ١٩٦١م وطبعة أخرى جديدة .
- اللهجات العربية ط السعادة .
- المعاجم اللغوية ، ط السعادة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢م .

- **أحمد الإسكندرى :**

- بحث بعنوان (الغرض من قرارات المجمع والاحتجاج لها) بمجلة مجمع اللغة العربية ج ١ .

● أحمد بن حمدان الرازى (أبو حاتم) :

- الزينة فى الكلمات الإسلامية والعربية (ط ٢) ١٩٧٠م .

● أحمد بن عبد الرحمن اللخمى القرطبى (ابن مضاء الأندلسى) :

- الرد على النحاة . ط لجنة التأليف ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧م .

● أحمد بن على بن أحمد (القلقشندى) :

- صبح الأعشى . ط الأميرية ١٣٣١ هـ - ١٩١٠م .

● أحمد بن فارس :

- الصاحبى فى فقه اللغة . ط المؤيد بالقاهرة ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠م ، وبيروت ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٤م .

- مقاييس اللغة بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . ط دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٦ هـ .

● أحمد بن محمد شهاب الدين (الخفاجى) :

- شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل . ط ١٢٨٢ هـ .

● أحمد رضا العاملى :

- مولد اللغة ط ١٩٥٦م .

● أحمد كمال أبو المجد (دكتور) :

- دراسات فى المجتمع العربى والوحدة العربية . ط لجنة البيان العربى ١٩٦١م - ١٩٦٢م .

● آدم متـز :

- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبى ريدة . ط لجنة التأليف ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧م .

- **أنستاس مارى الكرملى (الأب) :**

- نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها . المطبعة العصرية ١٩٣٨م .

- **تمام حسان (دكتور) :**

- اللغة بين المعيارية والوصفية . الأنجلو المصرية ١٩٥٨م .

- مناهج البحث فى اللغة . ط الرسالة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥م .

- **جبر ضومط :**

- فلسفة اللغة العربية وتطورها . ط المقتطف ١٩٢٩م .

- **جسبرسن :**

- اللغة بين الفرد والمجتمع ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب . الأنجلو المصرية ١٩٥٤م .

- **جورجى زيدان :**

- الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية . ط دار الهلال ١٩٢٣م .

- **الحسن بن عبد الغفار (أبو على الفارسى) :**

- المسائل البغداديات (ميكرو فيلم) بمعهد إحياء المخطوطات العربية ٥٢ (نحو) .

- **الحسن بن عبد الله بن سهل (أبو هلال العسكرى) :**

- الصناعتين . ط ٢ ، مطبعة محمد على صبيح .

- **حسن ظاظا (دكتور) :**

- اللسان والإنسان . ط دار المعارف ١٩٧١م .

- **حمزة فتح الله :**

- المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية . ج ١ ط الأولى ، المطبعة الأميرية ١٣١٢ هـ ، ج ٢ ط ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨م .

• **خالد زين الدين بن عبد الله (الأزهرى) :**

- شرح التصريح ومعه حاشية الشيخ يس زين الدين . ط دار إحياء الكتب العربية ، المطبعة الأزهرية ١٣٢٥ هـ .

• **الخليل بن أحمد الفراهيدى :**

- العين . ج ١ تحقيق الدكتور عبد الله درويش ، ط بغداد ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٢م .

• **زكى مبارك (دكتور) :**

- النثر الفنى فى القرن الرابع . ط ٢ السعادة .

• **ستيفن أولمان :**

- دور الكلمة فى اللغة ، ترجمة الدكتور كمال بشر ، ط ١٩٦٢م .

• **سعيد الأفغانى :**

- حاضر اللغة العربية فى الشام . لجنة التأليف ١٩٦٢م .

• **صبحى الصالح (دكتور) :**

- دراسات فى فقه اللغة . ط بيروت ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢م .

• **عبد الحميد حسن :**

- الأصول الفنية للأدب . ط العلوم ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩م .

• **عبد الرحمن أيوب (دكتور) :**

- أصوات اللغة . ط دار التأليف ، الطبعة الأولى .

• **عبد الرحمن بن إسحاق (أبو القاسم الزجاجى) :**

- الإيضاح فى علل النحو ، تحقيق مازن المبارك ، مطبعة المدنى ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩م .

- **عبد الرحمن بن جلال الدين أبى بكر (السيوطى) :**

- الاقتراح . ط الأولى .
- بغية الوعاة . ط السعادة ١٣٢٦ هـ ، والحلبى ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م .
- المزهر . ط الأولى ١٢٨٢ هـ ، ط صبيح ، دار إحياء الكتب العربية .
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع . ط ١ السعادة ١٣٢٧ هـ .

- **عبد الرحمن بن محمد الأنبارى :**

- نزهة الألبا فى طبقات الأدبا . ط ١٢٩٤هـ .

- **عبد الرحمن بن محمد (ابن خلدون) :**

- المقدمة ط بولاق ١٢٨٤ هـ ، لجنة البيان العربى ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢م ج ٤ .

- **عبد الغفار هلال (دكتور) :**

- اللغة العربية . خصائصها وسماتها . ط الحضارة العربية ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦م .

- **عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى :**

- أسرار البلاغة . ط المنار ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٥م .
- دلائل الإعجاز . المطبعة العربية ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨م .

- **عبد الله بن مسلم (ابن قتيبة) :**

- الشعر والشعراء . ط دار المعارف ١٩٦٦م .

- **عبد الله بهاء الدين بن عبد الرحمن (ابن عقيل) :**

- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . ط السعادة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٥م ، ومع حاشية الشيخ محمد الخضرى ، المطبعة الأزهرية ١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢م .

- **عبد الله جمال الدين بن يوسف (ابن هشام) :**

- أوضح المسالك ومعه منار السالك للأستاذين : محمد عبد العزيز النجار ، عبد العزيز حسن . ط الفجالة .

- شرح شذور الذهب . ط صبيح ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١م .

- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب . الأزهرية ١٣٤٧ هـ ، المدنى بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ١٩٢٨م ، ط عيسى الحلبى .

- **عبد الله العلايلى :**

- مقدمة لدرس لغة العرب . المطبعة العصرية

- **عبد المجيد عابدين :**

- المدخل إلى دراسة النحو العربى على ضوء اللغات السامية . ط الأولى ١٩٥١م .

- **عبد الملك محمد بن إسماعيل (أبو منصور الثعالبى) :**

- يتيمة الدهر . ط الصاوى ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤م ، حجازى ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧م .

- **عباس حسن :**

- رأى فى بعض الأصول اللغوية والنحوية . مطبعة العالم العربى ١٣٧١ هـ - ١٩٥١م .

- اللغة والنحو بين القديم والحديث . دار المعارف ١٩٦٦م .

- **عباس العقاد :**

- أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب . دار المعارف ، ط ٢ .

- اللغة الشاعرة . مطبعة مخيمر ١٩٦٠م ، مطبعة الاستقلال .

- مقال بعنوان (التعريف والعدد فى اللغة العربية واللغات الأوربية) بمجلة الأزهر عدد شعبان ١٣٨١ هـ - يناير ١٩٦٢م .

- مقال بعنوان (عوامل الإعراب فى اللغة العربية) بمجلة الأزهر عدد المحرم ١٣٨٢ هـ - يونية ١٩٦٢م .

- مراجعات فى الآداب والفنون . نشر إلياس أنطون إلياس صاحب المطبعة العصرية .

• **عثمان أمين (دكتور) :**

- فلسفة اللغة العربية . ط الدار القومية للتأليف والترجمة ١٩٦٥م .

• **عثمان بن جنى (أبو الفتح) :**

- الخصائص . ط دار الكتب ١٣٧١ هـ - ١٣٧٦ هـ (١٩٥٢ - ١٩٥٦م) .

- سر صناعة الإعراب . ج ١ ط ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٤م ، ج ٢ مخطوطة الأزهر ١١٦ لغة ومخطوطة دار الكتب ٨١٦ هـ .

- المحتسب . ط دار التحرير ١٣٨٦ هـ - ١٣٨٩ هـ .

• **على بن إسماعيل (ابن سيدة) :**

- المخصص . ط الأميرية ببولاق ١٣٢٠ هـ ، ط بيروت .

• **على بن الحسن بن على (المسعودى) :**

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨م .

• **على بن الحسين بن محمد (أبو الفرج الأصفهانى) :**

- الأغانى . ط التقدم .

● **علی بن محمد (الأشمونی) :**

- منهج السالك إلى ألفية ابن مالك ومعه حاشية الشيخ محمد بن علی الصبان . ط دار إحياء الكتب العربية .

● **علی بن محمد بن العباس (أبو حيان التوحيدی) :**

- الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين ، مطبعة التأليف ١٩٣٩م .

● **علی عبد الواحد وافی (دكتور) :**

- علم اللغة . ط السلفية ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨م ، ونهضة مصر ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢م .

- فقه اللغة . ط لجنة البيان العربی ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦م ، ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢م .

- اللغة والمجتمع . ط دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥م ونهضة مصر ١٩٧١م .

● **علی النجدی ناصف :**

- سيبويه إمام النحاة . ط لجنة البيان العربی ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣م .

● **عمرو بن بحر بن محبوب (الجاحظ) :**

- الحيوان . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، ط مصطفى الحلبی ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨م .

● **عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه) :**

- الكتاب : ط بولاق ١٩١٦ ، ١٩٧١م وبتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ج ١ ط دار القلم ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م ، ج ٢ ط دار الكاتب العربی ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م .

• **فندريس :**

- اللغة ، تعريب الأستاذين : عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ط لجنة البيان العربي ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠م .

• **القاسم بن علي (الحريري) :**

- درة الغواص في أوهام الخواص ، تحقيق « محمد أبو الفضل إبراهيم » مطبعة نهضة مصر ١٩٧٥م .

• **كرامت حسين الكنتوري الهندي :**

- فقه اللسان في اللغة العربية . ط الهند ١٩٥١م .

• **كمال محمد بشر (دكتور) :**

- دراسات في علم اللغة . القسمان الأول والثاني ، ط دار المعارف ١٩٧١م .

- علم اللغة العام : القسم الثاني (الأصوات) ، ط دار المعارف ١٩٧٠م .

• **كندراتوف :**

- أصوات وإشارات (دراسة في علم اللغة) . نقله عن الإنجليزية إدور يوحنا . مطبعة الجمهورية ، الكويت ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١م .

• **محمد أحمد عرفة :**

- النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة . مطبعة السعادة ١٩٣٧م .

• **محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (أبو عبد الله) :**

- الجامع لأحكام القرآن . ط الشعب .

- **محمد بن الحسن (الرضى الاستراباذى) :**

- شرح الكافية . المطبعة العامرية ١٢٧٥ هـ .

- **محمد بن القاسم الأنبارى :**

- الأضداد الكويت ١٩٦٠م

- **محمد بن يزيد (أبو العباس المبرد) :**

- الكامل فى اللغة والأدب . ج ٢ مطبعة الاستقامة ١٣٦٥ هـ

- **محمد الخضر حسين :**

- دراسات فى العربية وتاريخها . ط دمشق ١٣٨٠ هـ ١٩٦٠م

- **محمد عبد الخالق عضيمة (دكتور) :**

- بحث بعنوان (النحو بين التجديد والتقليد) بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض ، العدد السادس ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦م .

- **محمد عبد الحميد أبو العزم :**

- المسلك اللغوى ومهاراته . ط الأولى ، مطبعة مصر ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣م .

- **محمد المبارك (دكتور) :**

- فقه اللغة . ط جامعة دمشق ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠م .

- **محمد مندور (دكتور) :**

- النقد المنهجي عند العرب . مطبعة نهضة مصر ١٩٦٩م

- **محمود السعران (دكتور) :**

- علم اللغة . ط دار المعارف ١٩٦٢م

- اللغة والمجتمع ط ٢ دار المعارف بالإسكندرية ١٩٦٣م

- **مرمرجى الدومنكى (الأب) :**

- أبحاث ثنائية ألسنية (ثلاث رسائل : الأولى ط ١٩٣٧م ، والثانية ط ١٩٤٧م ، والثالثة ط ١٩٥٠م) .

- المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية . مطبعة الآباء الفرنسيين في القدس ١٩٣٧م .

- **مهدى المخزومى (دكتور) :**

- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو . ط مصطفى الحلبى ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨م .

- **مصطفى صادق الرافعى :**

- تاريخ آداب العرب . مطبعة الأخبار ١٩١١م .

- **موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر (أبو منصور الجواليقى) :**

- المعرب مع مقدمتيه للأستاذ أحمد شاكر ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، ط دار الكتب ١٣٦١ هـ ، والطبعة المعادة عليها بالأوفست في طهران ١٩٦٦م .

- **نصر الله بن محمد بن عبد الكريم (أبو الفتح بن الأثير) :**

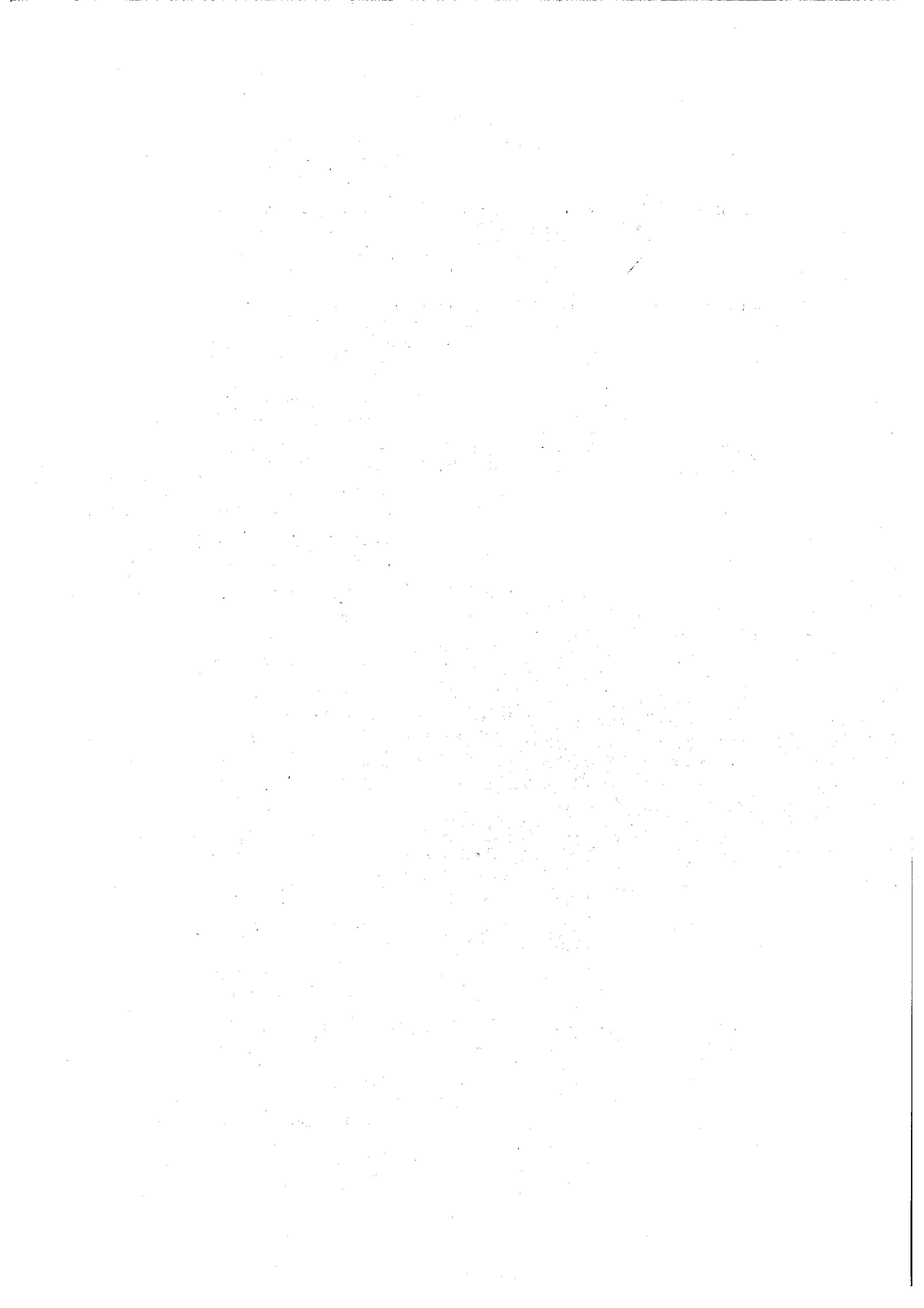
- المثل السائر . ط حجازى ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥م ، ط نهضة مصر بتحقيق الدكتورين : أحمد الحوفى وبدوى طبانة .

- **يوهان فك :**

- العربية ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، ط دار الكتاب العربى ١٣٨٠ هـ ١٩٥١م .

- **ياقوت الحموى :**

معجم الأدباء ط دار المأمون ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦م



محتوى الكتـاب

تابع محتوى الكتاب

تابع محتوى الكتاب

تابع محتوى الكتــاب

تابع محتوى الكتاب

تابع محتوى الكتـاب

تابع محتوى الكتاب

تابع محتوى الكتـاب

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٨٩ / ٢٣٥٧



للكمبيوتر . الطباعة . التصوير

ت : ٥٢٣٧٢٤٩ / ٣٨٠٣٥٥٦ / ٥٩٠٩٠٥٠ القاهرة